رواية

البلدة الأخرى



إبراهيم عبدالمجيد

إبراهيـــم عبد المجيـد

البلدة الأخرى

تصميم الغلاف: هند

الإهـداء

إلى فاطمة ......

(١)

انفتح باب الطائرة فرأيت الصمت.

شىء نادر أن تشعر في ظهرك بهواء المكيف بينمـا صدرك ووجهك يقابلان الشمس وأنت بعد لم تفـارق بـاب الطائرة ، لكن الذى خلفى دفعنى برفق فخطوت أول خطوة.

ما كدت أفارق السلم الصـغير ، وتلامـس قـدماي الأرض ، حتى أحسست أنى والأرض والفضاء شىء واحد، ساخن وفارغ: وكان على أن أمشى المسافة القصيرة حتـى صالة المطار.

المطار صغير ليس فيه غير طائرة واحدة صـغيرة بعيدة لونها أصفر قاتم، على جانبها رأيـت صـورة العلـم الأمريكي، وتحت الصورة قرأت بالإنجليزية (القوات الجوية للولايات المتحدة)..

*****

على باب الصالة رأيت بعض الجنود سمر الوجـوه.
زعق أحدهم:

"الرجال في صف والنساء في صف". وشاهدت خلف زجاج جانب الصالة سيرا عريضا يتحـرك دائريـا فـوق الأرض، فأدركت أن فوقه ستصل حقائبى.

ـ تقدم يا ولد.

زعق فى أحد الجنود. أدركتُ أن الذين أمامى دخلوا إلى الصالة، وأنى نمت واقفًا فى الطابور.

ـ هل نسيتنى ؟

ـ إطلاقًا، كنت أنتظرك.

أجبت بعد أن اضطربت وكدت أعتذر. قال:

ـ إذن لا تغادر المطار دونى.

وبدأت الحقائب تظهر فوق السير، فوجـدت نفسـى أتركه وأقترب منها.

ما الذى يجعلنى أنفر من هذا الشاب ؟


*****

حملت حقيبتى الحمراء الصغيرة، ووضعتها أمام أحد الكشافين الذين بدوا صغارا لا يتجاوز أكبرهم العشرين مـن العمر.

إن زوجته أنجبت بنتًا.. أنجبت واضحة بنت سليمان بن سبيل.

ما كدت أغلقها حتى أمرنى بفتحها من جديد.

ـ ما هذا ؟ كتب ؟

ـ "طبيبك الخاص" مجلة مصرية.

ـ هذه ممنوعة.

تعلقت عيناى بعينيه.. لم أجد ما أقوله.

ـ يا أخى ما للمصريين يحبون القراءة ؟!

تساءل وأنا صامت . هل أقول إن "فـاروق" الـذى أرسل لى عقد العمل، أوصانى بإحضار هذا العدد الخـاص عن الحمل والولادة ؟ هل أقول انى لا أعرف قوانين البلد؟

ـ امض..

قال بلا مبالاة، وأغلق الحقيبة بسرعة تاركًا المجلـة داخلها. انصرفت غير مصدق ، ورأيت فاروق ينظر إلى من خلف زجاج الصالة مبتسما.

*****

ـ ألم أقل إنك تنسانى ؟

أحسست بالحرج الشديد، ها هو "عابد" يفاجئنى المرة الثانية، كنت جلست بالسيارة جوار فاروق، وكان يحدثنى من النافذة المفتوحة يكاد يدخل وجهه الطويل ذا العينين الضيقتين والحاجبين الكثيفين الملتحمين من الوسط.

تخلصت من ارتباكى، وقدمته إلى فاروق الذى قـال وهو يدير السيارة:

ـ أهلا. لقد تقابلنا من قبل.

وتساءل عابد:

ـ هل هذا قريبك حقًا ؟ إنه خجول جدا..

ـ هذه أول مرة يترك مصر. سيحضر إلى العمـل غدا.

كان فاروق يتحدث دون أن يكلف نفسه مجرد النظر ناحية عابد الذى أدخل رأسه بالفعل من الزجـاج المفتـوح، فكدت أتنفس أنفاسه، وصرت لا أعرف إلى من أنظر، لكـن عابد انصرف فسألت فاروق الذى تحرك بالسيارة:

ـ لماذا لم تدعه إلى الركوب معنا ؟

ـ معه سيارة.

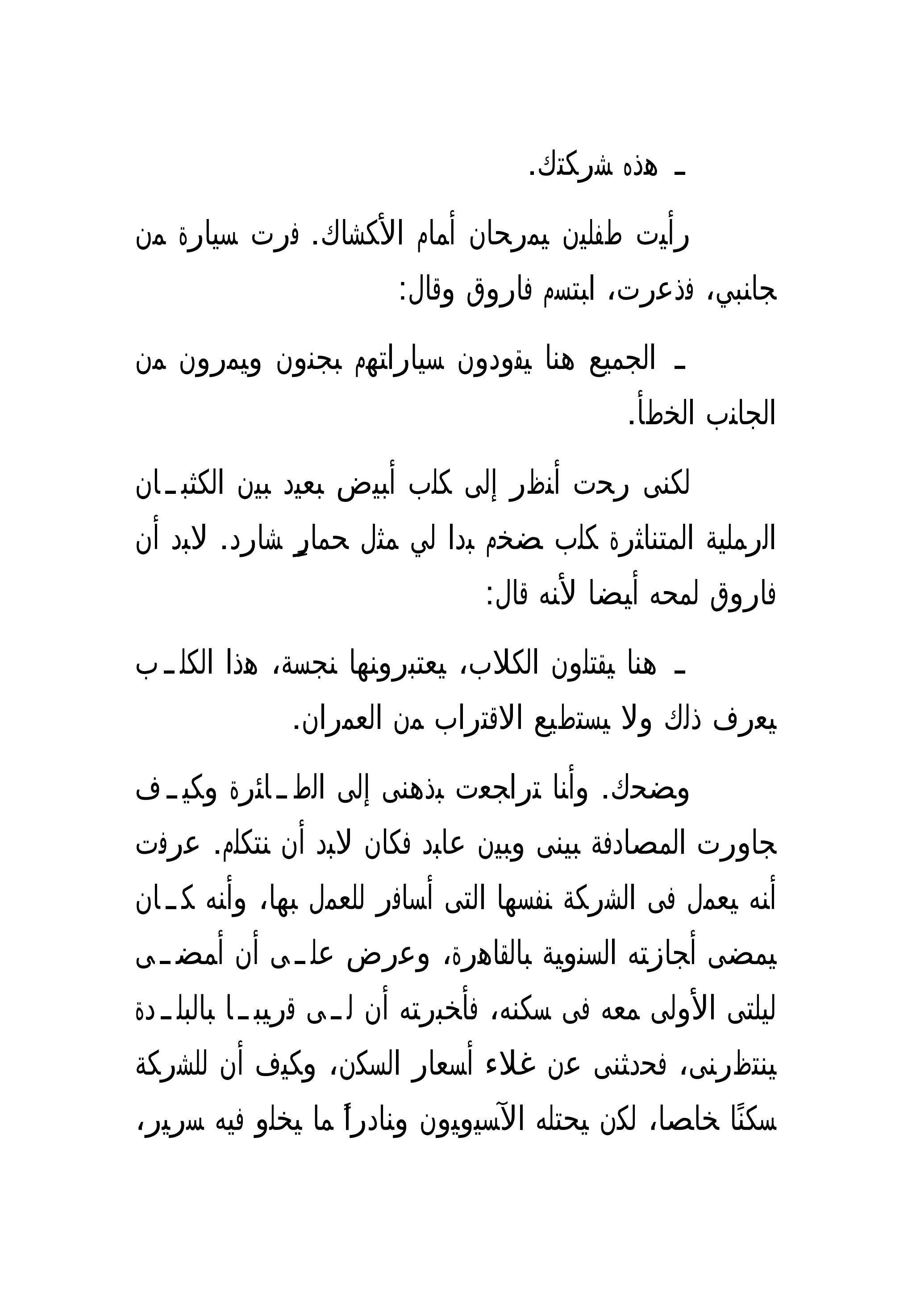
ـ إنه قادم معى من القاهرة.

ـ لا تشغل بالك بأحد.

وبدا لي أنى لـن أفهـم شـيئًا فـآثرت الصـمت ، وأحسست بالجو حارا خانقًا.



انطلقت السيارة الداتسون اليابانيـة علـى الطريـق الضيق الطويل الذى تحيطه الرمال المترامية على الجانبين. فاروق يقود السيارة بسرعة مجنونة. الطريق خال حقا، لكنى لم أركب من قبل سيارة تكاد تطير. انكمشت. فـتح فـاروق الراديو فسمعت صوت محمد عبده "لا تردين الرسايل" ، ولما ظهرت بعض أكشاك خشبية على جانبي الطريق قال فاروق:



ـ هذه شركتك.

رأيت طفلين يمرحان أمام الأكشاك. فرت سيارة من جانبي، فذعرت، ابتسم فاروق وقال:

ـ الجميع هنا يقودون سياراتهم بجنون ويمرون من الجانب الخطأ.

لكنى رحت أنظر إلى كلب أبيض بعيد بين الكثبـان الرملية المتناثرة كلب ضخم بدا لي مثل حمارٍ شارد. لابد أن فاروق لمحه أيضا لأنه قال:

ـ هنا يقتلون الكلاب، يعتبرونها نجسة، هذا الكلـب يعرف ذلك ولا يستطيع الاقتراب من العمران.

وضحك. وأنا تراجعت بذهنى إلى الطـائرة وكيـف جاورت المصادفة بينى وبين عابد فكان لابد أن نتكلم. عرفت أنه يعمل فى الشركة نفسها التى أسافر للعمل بها، وأنه كـان يمضى أجازته السنوية بالقاهرة، وعرض علـى أن أمضـى ليلتى الأولى معه فى سكنه، فأخبرته أن لـى قريبـا بالبلـدة ينتظرنى، فحدثنى عن غلاء أسعار السكن، وكيف أن للشركة سكنًا خاصا، لكن يحتله الآسيويون ونادراً ما يخلو فيه سرير،

ثم سألنى عن عملي السابق وكيف حصـلت علـى العقـد ، وخططي للمستقبل، وما إذا كنت خاطبا أو متزوجـا وغيـر ذلك كثير مما سبب لي بعض الضيق، لكنى فكرت إنه ربمـا يود معاونتى فعلاً، وتساءل فاروق:

ـ لاحظتُ أنك تأخرت قليلاً فى صالة الاستقبال ؟

ـ "طبيبك الخاص" قالوا إنها ممنوعة.

ضحك وقال:

ـ لم تعد بذات فائدة.

ابتسمت ، قلت:

ـ أصبحتَ أبا إذن.

زاد من سرعة السيارة وقال:

ـ أصبحتُ أعزبا . طلقت.

*****

ظهرت البلدة الصغيرة واختفت بسـرعة، ذلـك أن فاروق جنح بسيارته إلى طريق يتجه إلـى اليمـين ويـدور حولها من بعيد، فى آخر الطريق رأيت مجموعة من البيوت

المنخفضة, بينما البلدة حين لاحت لى، ظهرت بعض مبانيها عالية شيئاً ما.

فوق أزقة غير مستوية من الأرض كانـت العربـة تتأرجح، رأيت سيارات كثيرة تقف أمام المنزل ذات الأبواب الحديدية الضيقة.

قال فاروق:

ـ كل شارع هنا معرض للسيارات.

قلت:

ـ لم يمض عام واحد على زواجكما!

قال :

ـ لا تشغل بالك. أرادت أن تشترى أرضا فى قريتها وأردت أن أشترى فى قريتى.

ولم أفهم . لم يبد من المرات القليلة التى التقيت فيها بفاروق أنه عصبى أو أهوج. هو في الحقيقة ابن عم لأمـى ظهر فجأة في حياتنا منذ خمس سنوات. أى عام تخرجى من الجامعة. في ذلك الوقت قال إنه تم تعيينه مهندسا في مصلحة

الطرق بالإسكندرية ففكر فى زيارتنا، وسألته أمى عن أسماء كثيرة لأقارب لها بقريتها سمعت أنا أسـماءهم لأول مـرة، فأخبرها فاروق بموتهم جميعا. انقطع عن زيارتنا بعد ذلـك عاما، ثم ظهر يعاتبنى على عدم زيارتى له، وعدم اصطحاب أمى لزيارة عمها الذى شاخ وهرم ولا يزال يـذكرها، بـل ويذكرنى أنا أيضا منذ كان يـأتى إلـى الإسـكندرية فـى الخمسينيات ، يشترى الكسب والأعلاف من شركة الزيـوت والصابون، ويبيت ليلة في بيتنا، كانت أمى تشارك فـاروق الحديث ، وتصدق على كل كلامه، وأتردد أنا فى القول بأنى لا أذكر شيئا من ذلك ، بل وأشعر أنه من الصعب أن يظهر لك قريب. هكذا فجأة وأنت فى سن الشباب، ثم تنمو بينكمـا علاقة قوية، وأفكر أيضا أنى لا أعرف قريتنـا هـذه التـى انحدرت منها أمى. لم أولد فيها ولم أزرها يوما . لكن فاروق عاد واختفى مرة ثانية، ولا أدرى كيف عرفت أمى أنه سافر إلى السعودية، ولا أعرف الدافع الذى جعله يرسل أكثر مـن خطاب يعرض على فيه مساعدته فى الحصول علـى عقـد للعمل. لم يحدث أنى شكوت أمامه من شىء ولا ألمحت لأى رغبة فى ذلك.

لكن كان لابد أن أسافر. من يـرفض الآن فرصـة سهلة كهذه ؟ إنه شىء يحسدنى الناس عليه. هكذا قالت أمى. إن عملى فى التدريس لـن يتحـرك بـى خطـوة للأمـام، وانتظارى للإعارة وفقا لجدول وزارة التربية والتعليم، يعنى الانتظار حتى يجف النفط.

هكذا قال فاروق فى رسائله.

ـ كان يمكن أن تؤجلا هذا الشراء.

قلت فجأة، فقال جاسما:

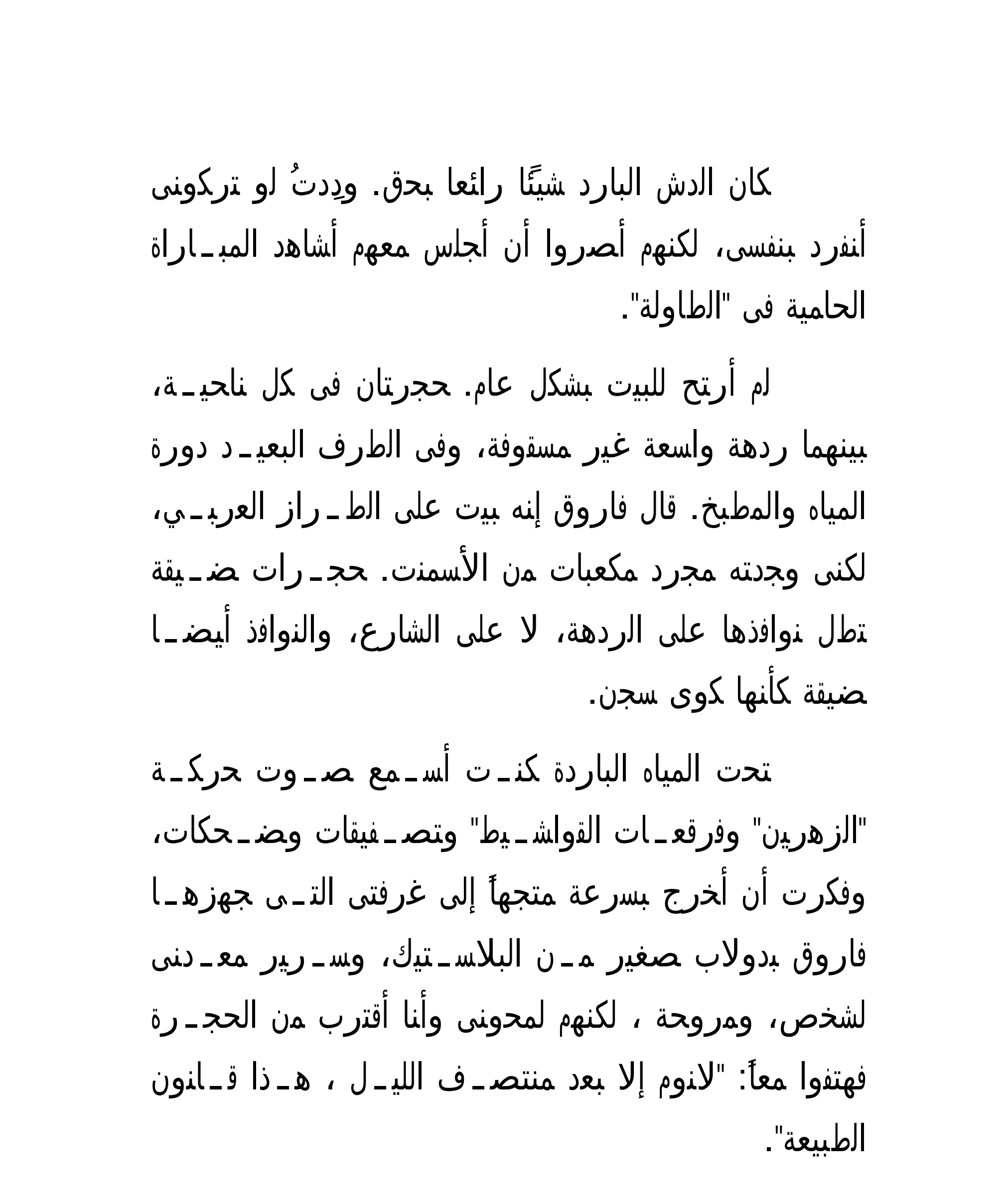
ولماذا لا تطيع الزوجة زوجها ؟

سكت. وسكت هو لحظات ثم قال:

ـ أعطيتها ثلاثة آلاف جنيه. كنت تكلفت مثلها أيضا فى الزواج. سوف أعوض ذلك وأتزوج بأحسن منها. هذا هو البيت يسكن معى طبيب ومدرس.

وتوقف بالسيارة أمام بيت صغير من دور واحد مبنى من الطوب الأسمنتى.



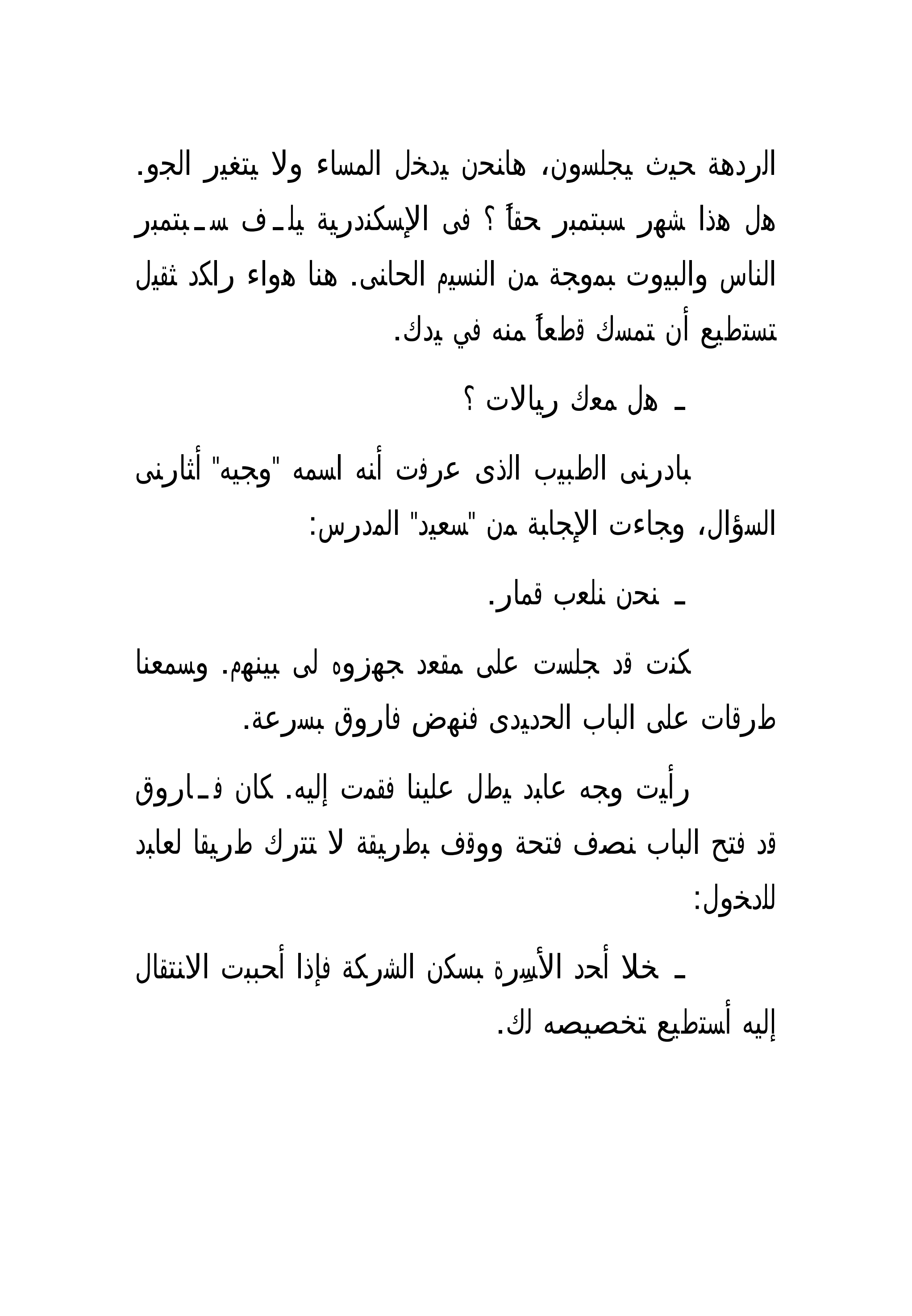


كان الدش البارد شيئًا رائعا بحق. وِددتُ لو تركونى أنفرد بنفسى، لكنهم أصروا أن أجلس معهم أشاهد المبـاراة الحامية فى "الطاولة".

لم أرتح للبيت بشكل عام. حجرتان فى كل ناحيـة، بينهما ردهة واسعة غير مسقوفة، وفى الطرف البعيـد دورة المياه والمطبخ. قال فاروق إنه بيت على الطـراز العربـي، لكنى وجدته مجرد مكعبات من الأسمنت. حجـرات ضـيقة تطل نوافذها على الردهة، لا على الشارع، والنوافذ أيضـا ضيقة كأنها كوى سجن.

تحت المياه الباردة كنـت أسـمع صـوت حركـة "الزهرين" وفرقعـات القواشـيط" وتصـفيقات وضـحكات، وفكرت أن أخرج بسرعة متجهاً إلى غرفتى التـى جهزهـا فاروق بدولاب صغير مـن البلاسـتيك، وسـرير معـدنى لشخص، ومروحة ، لكنهم لمحونى وأنا أقترب من الحجـرة فهتفوا معاً: "لانوم إلا بعد منتصـف الليـل ، هـذا قـانون الطبيعة".

توجهت نحوهم، لاحظت أن عرقًا تفصد على ساقى وصدرى خلال المسافة القصيرة من الحمام إلـى منتصـف



الردهة حيث يجلسون، هانحن يدخل المساء ولا يتغير الجو. هل هذا شهر سبتمبر حقاً ؟ فى الإسكندرية يلـف سـبتمبر الناس والبيوت بموجة من النسيم الحانى. هنا هواء راكد ثقيل تستطيع أن تمسك قطعاً منه في يدك.

ـ هل معك ريالات ؟

بادرنى الطبيب الذى عرفت أنه اسمه "وجيه" أثارنى السؤال، وجاءت الإجابة من "سعيد" المدرس:

ـ نحن نلعب قمار.

كنت قد جلست على مقعد جهزوه لى بينهم. وسمعنا طرقات على الباب الحديدى فنهض فاروق بسرعة.

رأيت وجه عابد يطل علينا فقمت إليه. كان فـاروق قد فتح الباب نصف فتحة ووقف بطريقة لا تترك طريقا لعابد للدخول:

ـ خلا أحد الأسِرة بسكن الشركة فإذا أحببت الانتقال إليه أستطيع تخصيصه اك.

قال عابد.. وددت أن أزحزح فاروقا مـن مكانـه، وأدعو عابدا للدخول، لكن فاروقًا يمسك بالباب ويكاد يسـد الجزء المفتوح بجسده، وسبقنى وقال:

ـ سنرى فى الغد.

ـ لقد تعبت جدا حتى عرفت بيتكم، من حسن الحظ أنى عرفت بخلو السرير بمجرد وصولى إلى الشركة، لابـد أنك رأيت الشركة فى طريقك، لقد أخبرنـى "نبيـل" عامـل البوفيه، أن أحد الباكستانيين توفى أثناء أجازتى، ووجدتها أنا فرصة أن أخبرك، إنها فرصة نادرة لا تجعلها تفلـت مـن يدك.

بدا وهو يتكلم، شديد الإخلاص، وصرت فى غايـة الارتباك من موقف فاروق الذى لا يترك الباب، ولا يتزحزح من مكانه، والذى سبقنى مرة أخرى وقال:

ـ شكراً.

انصرف عابد، بمجرد أن استدار، أغلق فاروق الباب وعاد، وظللت واقفاً للحظات ثم تبعته:

ـ سأقرض إسماعيل خمسين ريالاً.

قال فاروق قبل أن أجلس ولم أعلق . خاطبنى وجيه:

ـ لا تخف. ما تخسره ستأخذه. هذا قانون.

لم أعلق. قال سعيد:

ـ نلعب الدور بعشرة ريـالات، ونـدون الخسـارة والمكسب فى هذه النوتة.

وبقيت صامتًا، فقال وجيه:

ـ أخر الشهر يعيد الكسبان للخسران ما خسره ونبدأ من جديد.

وسكتنا جميعا للحظات، فعاد وجيه يقول :

ـ لابد أنك تتساءل عن جدوى ذلك إذا كـان كـل شخص يضمن استرداده أمواله، الحقيقة نحن لا نعرف..

*****

(٢)

- أول يوم مسموح لك بالتأخير.

قال فاروق وهو يشرب معى شاى الصباح. قلت:

- أفكر أن أظل معك حتى أوصلك إلى المطار.

كنت متعبا من كابوس داهمنى بالليل. رأيت نفسـى أتراجع فى بطء وفزع، ويتقدم نحوى أربعة رجال سود، لهم عيون جاحظة، كل عين فى حجم بيضة تدور أمامى، وفـى أيديهم سياط طويلة رفعوها عاليا، وأنا لا أعرف أين أذهب، فهم يحاصروننى من كل ناحية ويسوقوننى، وأنـا أتراجـع بظهرى، حتى دخلت إلى زقاق مظلم تحده من جانبى وخلفى جدران عالية من حجر بازلتى أسود ضخم، جـدران أشـبه بجدران القلاع القديمة، وراحوا على مهل يضربوننى، وعلى مهل عيونهم تدور، وعلى مهل أصـرخ، ولـم يـأت أحـد لإيقاظى من الحجرات الأخرى. لابد أن صوتى لم يصـلهم. ولعله لم يخرج ، وقمت لاهثًا أنظر حولى، فأدركت أننى فى حجرة صغيرة ضيقة فى بلد بعيد.

لم يعاودنى النوم إلا بعد وقت طويل فكرت فيه فـى الزمن الذى مضى من عمرى لم أر فيه حلماً ولم يهـاجمنى كابوس. قرأت مرة أنه بعد سن العشرين تندر أحلام اليقظة، وبعد الثلاثين تكاد تنعدم أحلام المنام. بعد العشرين يشـرع الإنسان فى تحقيق أحلامه. وبعد الثلاثين يكـون قـد حقـق الكثير. أنا فى الثلاثين ولم أحقق شيئًا ولا أحلـم. زملائـى المدرسون والمدرسات فى مصر كانوا كثيرا ما يتحدثون عن أحلامهم وحيرتهم فى تفسيرها. معظمهم مثلى لم يحقق شيئًا ذا قيمة، ولكنهم يحلمون ويتحدثون عن أحلامهم.

كنت دائما أقول لنفسى: لماذا لا أحلم حقًّـا مـثلهم؟ وأتساءل حتى وصلت إلى أننى شخص راضٍ بما أنـا فيـه. راضٍ شديد الرضا لا أرى للحياة بعدا غيـر رعايـة أمـى وإخوتى بعد موت أبى. كثيرا ما فكرت أنى ربمـا صـرت شخصا غير راغبٍ فى الحياة ما الذى أوصلنى إلـى ذلـك؟ القراءة القديمة التى انقطعت عنها ؟ أم هو غبار فى الفضـاء يفسد صبوات الروح قبل أن تنشأ ؟ ربما كرهى الدفين لحالة الرضا الزائد التى أعيشها، هو الذى جعلنـى أوافـق علـى السفر، لو لم أفز بأى شىء فلابد أنى سـأهز الركـود عـن

روحى ولو مرة لا يمكن أن أعود كما جئت . إن لـم أفـز بشىء سيصيبنى ولو جرح صغير، إن لم أنجح سيكون لدى أسباب للفشل، وها هى روحى أخذت فى الاهتزاز. تـداهمها الكوابيس، مع أنى لم أرتكب خطيئة، ولم أتناول طعاما ثقيلاً فى العشاء.. وقال فاروق:

ـ طائرتى ستقلع فى الواحدة. الساعة الآن الثامنـة. اذهب يحسب لك العمل من اليوم.

فاجأنى أمس خلال السهرة بسفره اليوم إلى القاهرة. قال إنه أخر السفر حتى يستقبلنى، وشعرت بامتنان حقيقـى له، وسألته هل هذا موعد أجازته السنوية، فابتسم وقال إنـه يسافر ليتزوج، ولم أتحدث معه بقية الوقت.

*****

ـ لقد تأخرت.

قال عابد بمجرد دخولى إلى مكتبه ولم أرد. جلسـت على مقعد واسع من الجلد ورحت أتطلع إلى الغرفة الصغيرة وأحس بهواء المكيف البارد. الجو بعد لا يحتاج إلى المكيف فالساعة لم تدخل فى العاشرة. وأزعجنى صـوت الجهـاز.

جدران الغرفة رمادية. جهاز التكييـف رمـادى. الموكيـت المفروش على الأرض رمادى، المكتب الذى يجلـس عابـد خلفه رمادى. الغرفة كلها كابية، وصوت الجرس البيانو يدق مرات متتابعة ملسوعة، فيقفز عابد من خاف المكتب، ويقف لحظة يغمض فيها عينيه، ثم يطفئ سيجارته فى المنفضـة، وبهدوء يتقدم يفتح بابا لم أنتبه إلى وجوده يفضى إلى حجرة داخلية يدخلها وينغلق الباب خلفه، فأسمع صوتًا قويا..

- من عندك ؟

- الزميل المصرى الجديد..

- أدخله.

فى اللحظة نفسها تقريبا، رأيت عابدأ أمـامى يقـول هامسا:

"المدير" ويشير لى أن أتبعه.

واجهتنى غرفة المدير باتساعها، وبرائحة الياسـمين المشعشع فيها، وأحسست بالأرضية عميقة تحت قدمى. كانت مفروشة بالموكيت الأخضر القاتم الغنى. ، لون المقاعد الستة الواسعة المنخفضة نفسه، ذات المساند العريضة المكسوة كلها

بالمخمل الوثير. جدران الغرفة مكسوة بالورق الأبيض المفضض، والمكتب الخشبى واسع بيضاوى أبيض لامع، فوقه أربعة تليفونات. الأحمر مستطيل، والأسود مستدير، والأصفر أسطوانى يرتكز على قاعدة سوداء مربعة، والأبيض فى حجم علبة السجائر، والمدير خلف المكتب لا يظهر منه غير وجهه، الذى حين رفعه إلينا رأيته قمحى اللون، حاد العينين، صغير الأنف، رفيع الشفتين، وغترته فوق رأسه بيضاء لامعة والعقال الأسود حولها زاهٍ. لكن المدير عاد ينظر إلى ورقة فوق المكتب، وتابعت النظر إلى دولاب زجاجى والأحجام، وكان المكيف يعمل، ولكن لا ضجة تصدر منه، وكدت من فرط هدوء المكان وانتعاشته أنام واقفًا. نسيت عابد الذى كان لايزال يقف جوارى، وفكرت هل الصوت القوى الذى سمعته منذ قليل هو صوت هذا الرجل الهش حقًا ؟

ـ يا هلا.

قال المدير الذى تراجع بظهره قلـيلاً.، رددت فـى أدب وابتسام:

ـ أهلا بك.

ـ تعرف الكتابة على الآلة ؟

ـ لا.

بان الامتعاض على وجهه.

ـ تعرف القيادة ؟

ـ لا.

قلت لا هذه المرة بصوت وددت لو لم يخرج. تأملنى قليلاً وخاطب عابد:

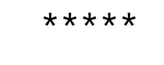
ـ قل لأرشد يعمله القيادة "ويسوى" له رخصة.

ثم سألنى بالإنجليزية:

ـ دويو ريد آندرايت إن جود إنجلش ؟

ـ ييس سير..

أجبت على الفور وخرج صوتى عاليا بشكل لافت.. تذكرت الجنود حين يتلقون الأوامر من قادتهم فـى الأفـلام الحربية الأمريكية وكدت أضحك . رأيته يبتسم ابتسـامة لا يريد لها أن تظهر . ربما يسخر منى، وربما هـو مـدهوش فعلاً من صوتى العالى.


*****

لم يكن هناك شىء هام..

عرفت أنى سأجلس فى الغرفـة المجـاورة لغرفـة عابد.. مبنى الشركة كله عبارة عن صف من ثلاث غـرف خشبية ودورة مياه، يتعامد معه صف آخر من ثلاث غـرف مهجورة، وبوفيه، بين الجميع باحة ترابية واسعة تقف فيهـا سيارات المدير، وسيارة عابد، وسـيارة الـزوار، ويحـيط الجميع سور عالٍ من القرميد الأبيض، له بوابة واسعة، ولا توجد شجرة واحدة.

ما كدنا ندخل إلى الغرفة التى سأعمل بهـا، حتـى انشغل عنى عابد يفتح خازنة معدنية مثبته فى الحائط. وقفت متحيرا للحظات. لم أستطع أن أغض بصرى عن رؤية حزم

النقود الورقية الزرقاء الزاهية داخل الخازنة. عابد لم يـدخل إليها شيئًا ولم يخرج منها شيئًا . فتحها فقـط وأغلقهـا بعـد لحظات.

أشار لى أن أجلس، فجلست خلف مكتب معدنى كبير صدئ الزوايا، وجلس هو خلف المكتب القريب من الخازنة، ليس بالغرفة غير هذين المكتبين، ومقعدين جلديين قـديمين، ودولاب معدنى مفتوح بإهمال به أوراق متربة غير مرتبة.

قال عابد إنه سيكون على ترتيب الأعمال الإداريـة، وقال إن العمل روتينـى ، وإن عـدد العمـال لا يتجـاوز الثمانين. ثم تنهد وقال إنه كان يحلم بيوم يشاركه فيه العمـل شخص مثلى، فهو سكرتير للمدير ومسئول مالى، وكان أيضا يقوم بالأعمال الإدارية للأفراد.

الآن سيرتاح من الأفراد ومشـاكلهم مـع الغيـاب والحضور والمرض والسفر والأجـازات والتعاقـد وإنهـاء الخدمة. سوف أقوم أنا بذلك وأترجم أيضا التقارير الـواردة من القسم الفنى الذى يعمل به الفنيون الأمريكان. للأمريكـان مواقع عمل بعيدة، وسكن متميز، لكنهم يتبعون الشركة. هنا

لا يوجد غير عمال عاديين يعملون فـى النظافـة والبنـاء، وإقامة المبانى، وصيانة منشآت قواعد الدفاع الجوى بالمنطقة الشمالية، وكلهم من الأجانب أيضا ، آسيويون بالأساس. هنا قطاع الخدمات. وللأمريكان قطاع الأعمال الفنيـة الراقيـة الذى سنتلقى منه بعض التقارير نترجمها لعم عبد ا ، ثـم قال: إن أفضل طريقة للتخاطب مع المدير هى مناداته "بعـم عبد ا " عبد ا اسمه، وكلمة "عم" بدلاً من أستاذ عندنا فـى مصر. ثم قال فجأة:

- هل تعرف أن عم عبد ا ، أخفى عنى نبأ التعاقد معك ؟

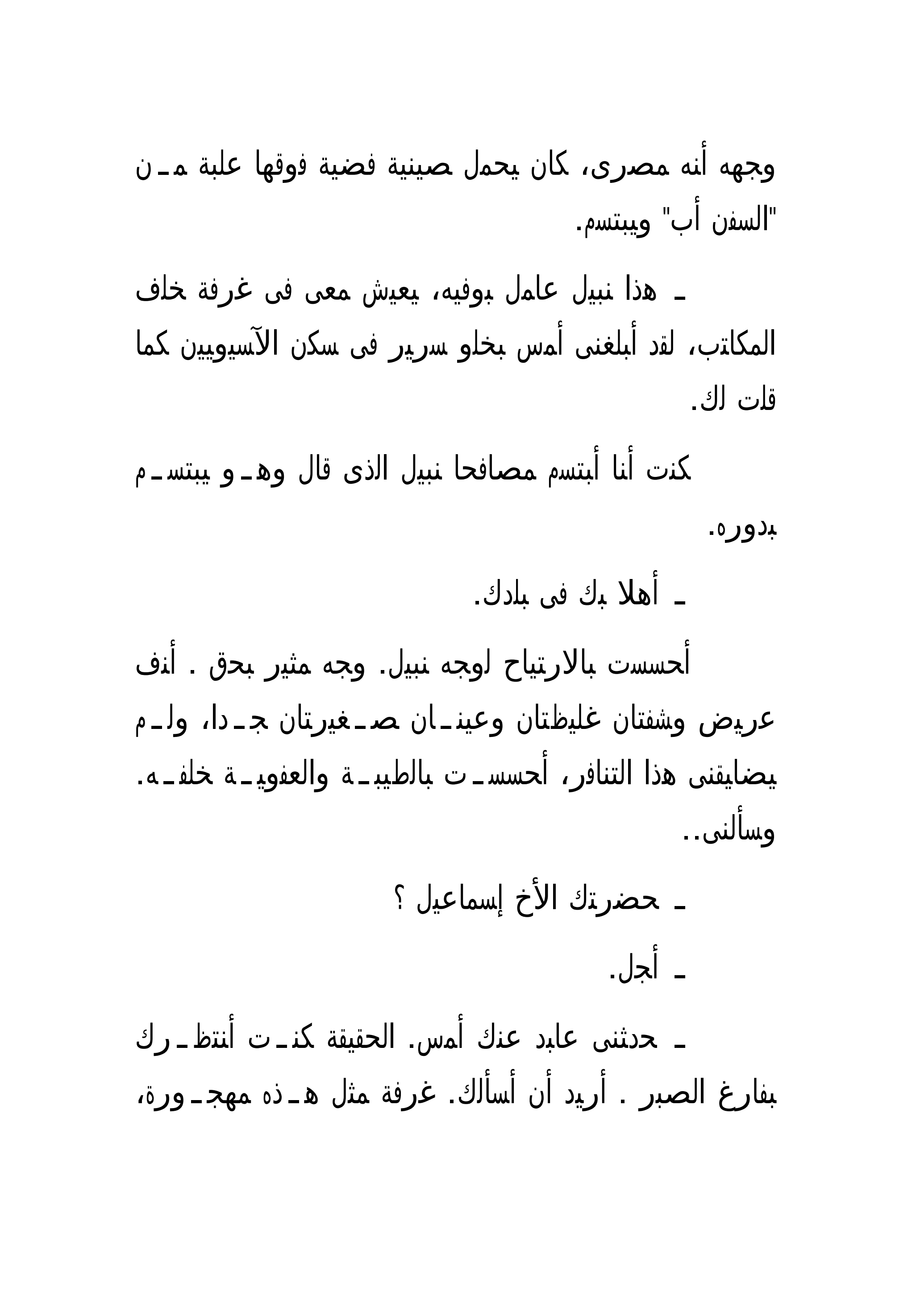
- الحقيقة لا أعرف.

ابتسم وقال:

- له تصرفات غريبة عم عبـد ا ، لكنـه دائمـا شخص طيب.

- يبدو كذلك فعلاً.

قلت غير معنى بمدى صحة قولى. ودخـل الغرفـة شاب متوسط الطول يرتدى جلبابا سمنى اللون، أدركت مـن



وجهه أنه مصرى، كان يحمل صينية فضية فوقها علبة مـن "السفن أب" ويبتسم.

ـ هذا نبيل عامل بوفيه، يعيش معى فى غرفة خلف المكاتب، لقد أبلغنى أمس بخلو سرير فى سكن الآسيويين كما قلت لك.

كنت أنا أبتسم مصافحا نبيل الذى قال وهـو يبتسـم بدوره.

ـ أهلا بك فى بلدك.

أحسست بالارتياح لوجه نبيل. وجه مثير بحق . أنف عريض وشفتان غليظتان وعينـان صـغيرتان جـدا، ولـم يضايقنى هذا التنافر، أحسسـت بالطيبـة والعفويـة خلفـه. وسألنى..

ـ حضرتك الأخ إسماعيل ؟

ـ أجل.

ـ حدثنى عابد عنك أمس. الحقيقة كنـت أنتظـرك بفارغ الصبر . أريد أن أسألك. غرفة مثل هـذه مهجـورة،

وبلاد مثل هذه مهجورة، وخازنة مثل هذه عامرة ماذا تفعل بها ؟ هه. قل لى با   عليك.

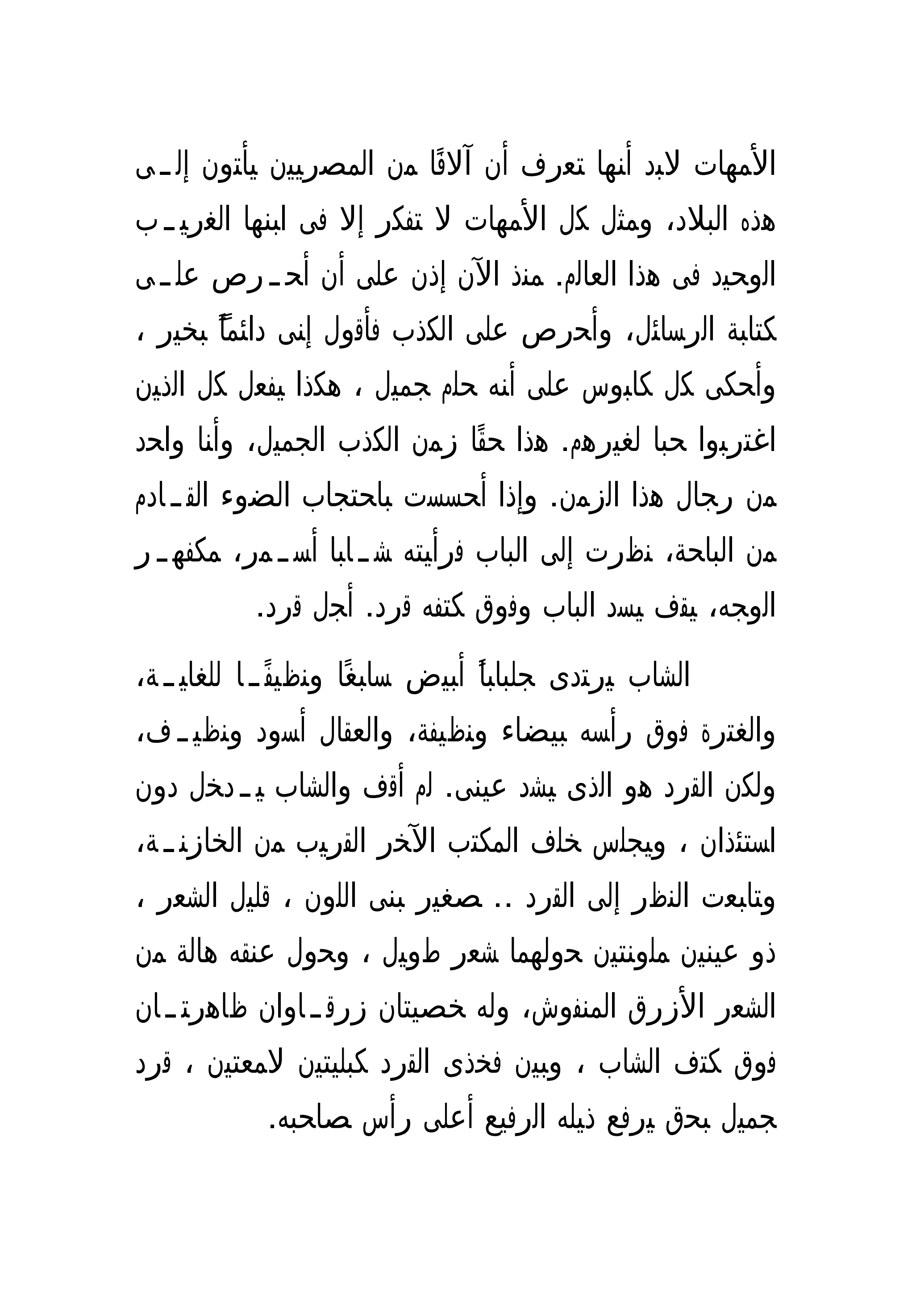
كان يتكلم ويضحك، ولم أجد إجابة غير أن أبتسم.



جلست طويلاً وحيداً فى غرفتى صامتًا، فكرت فى ما يمكن شراؤه من أثاث، فلم أجد حاجة إلا إلى دولاب زجاجى بدلاً من هذا القديم الصدئ، وعدد من الملفات الجديدة. أخبرنى عابد أننا ممكن أن نشترى ما أحتاجه اليوم.

فجأة قفزت أمى إلى ذهنى. لابد أنها تفتقدنى الآن. كانت أكثر المتحمسين لسفرى وأعرف أنها لا تحب أن أفارقها، ليتنى كتبت خطابا أرسلته مع فاروق. لا أستطيع أن أترك العمل من أول يوم لألحق به فى المطار.. سأكتب إليها فى المساء وأرسل الخطاب بالبريد.

أعرف أن كل إنسان يحب أمه. هكذا فى الغالب، وأنا مثل سائر الناس لكنى منذ موت أبى، صار حبى لها ولإخوتى مضاعفًا. حب يخالطه نوع من القلق. حب أبوةٍ غير حقيقة. أنا إذن أختلف عن سائر الناس لكن أمى مثل كل



الأمهات لابد أنها تعرف أن آلافًا من المصريين يأتون إلـى هذه البلاد، ومثل كل الأمهات لا تفكر إلا فى ابنها الغريـب الوحيد فى هذا العالم. منذ الآن إذن على أن أحـرص علـى كتابة الرسائل، وأحرص على الكذب فأقول إنى دائماً بخير ، وأحكى كل كابوس على أنه حلم جميل ، هكذا يفعل كل الذين اغتربوا حبا لغيرهم. هذا حقًا زمن الكذب الجميل، وأنا واحد من رجال هذا الزمن. وإذا أحسست باحتجاب الضوء القـادم من الباحة، نظرت إلى الباب فرأيته شـابا أسـمر، مكفهـر الوجه، يقف يسد الباب وفوق كتفه قرد. أجل قرد.

الشاب يرتدى جلباباً أبيض سابغًا ونظيفًـا للغايـة، والغترة فوق رأسه بيضاء ونظيفة، والعقال أسود ونظيـف، ولكن القرد هو الذى يشد عينى. لم أقف والشاب يـدخل دون استئذان ، ويجلس خلف المكتب الآخر القريب من الخازنـة، وتابعت النظر إلى القرد .. صغير بنى اللون ، قليل الشعر ، ذو عينين ملونتين حولهما شعر طويل ، وحول عنقه هالة من الشعر الأزرق المنفوش، وله خصيتان زرقـاوان ظاهرتـان فوق كتف الشاب ، وبين فخذى القرد كبليتين لامعتين ، قرد جميل بحق يرفع ذيله الرفيع أعلى رأس صاحبه.

ـ أين عابد ؟

ـ في غرفته.

ـ غير موجود.

ـ ربما خرج فى مشوار قريب وسيعود.

كنت لا أزال أنظر إلى القرد الذى وضع يديه فـوق رأس الشاب.

ـ أعرف.

قال بحسم. وضعت رأسى فـوق كفّـى اليسـرى، وارتكزت بمرفقى على المكتب ، ولذت بالصـمت . لكنـه سألنى:

ـ أنت المصرى الجديد ؟

ـ أجل.

ـ شو اسمك ؟

ـ إسماعيل.

وابتسمت علّنى أتخلص من ضيق الصدر ، لكنه تنهد وردد اسمى لنفسه بدهشة، ثم زفر بغيظ غير مفهوم، وظهر نبيل واقفًا بالباب يضحك.

ـ ها. منصور !

ودخل مسرعا يصافحه، لكن منصورا لم يعطه يده، ولمحته يبتسم ابتسامة صغيرة. مد نبيل يده إلى رأس القـرد، فتراجع منصور قليلاً ضحك نبيل وخاطبنى:

ـ هذا منصور. هاها. وعلى كتفه منصور الصغير. هاها هاها.

وراح يضحك بشدة ، فنهض منصـور مضـطرب الوجه، وغادر الغرفة بلا كلمة كان القرد يلتفت مضـطربا ، وأدهشنى أن منصورا صوب لى نظرة حادة غاضبة.

*****

فى العربة التوياتا الهايلوكس نصف النقل. قال عابد:

ـ ألم تفكر حقًا فى السكن مع الآسيويين ؟

كنت أفكر فى منصور وقرده. يبدأنى بالعـداوة دون سابق معرفة . كيف يتعامل معه نبيل بهذه البسـاطة ؟ لقـد حدثنى عنه بعد خروجه، وقال إنه طيب ومسكين ويجـب أن لا أخشاه.

- هل أنت مرتاح للسكن بالبلدة ؟

- أجل.

وصمتنا، وتابعت النظر إلى الطريق الأسفلتى الـذى بدا لامعاً للغاية على عكس ما كان فى الصباح. الشمس الآن فى وسط السماء ولأن الأضـواء تـنعكس علـى الطريـق متماوجة، أدركت عدم استوائه.

وفى اللحظة التى رأيت فيها الكلب الأبيض يجـرى بعيدا بين الكثبان، الكلب نفسه الذى له منظر الحمار الشارد، هبت زوبعة ترابية صفراء جعلت عابد يبطئ السير بالسيارة. حاصرنا الغبار من كل ناحية فأغلقنا النافذتين. أضاء عابـد كشافات النور، فرأيت ذرات التراب تطير أمامنا فى عمودين من الضوء ، وتمور فى الفضاء.

ـ هذا هو "العج" ريح متربة تهب على البلـدة بـلا موعد. ربما كل يوم. ربما أكثر من مرة فى اليوم الواحـد. وكثيرا ما تخفى لأيام طويلة.

وبدا أن العاصة لن تهدأ، وكدنا نختنـق. أدار عابـد مساحات الزجاج التى راحت تزيل التراب المنهمر كما تزيل ماء المطر، وسمعنا صوت ارتطـام ذرات الغبـار بجسـم السيارة، وبدأت أخاف.

قلت:

ـ لابد أن نقف.

كان عابد يهدئ من السرعة كثيراً ، ويأخـذ جانـب الطريق ليقف، لكن العاصفة راحت تنقشع شيئًا فشيئًا، ويعود الفضاء أبيض، والأسفلت أسود، والسماء فوقنا عادت زرقاء. رأيت البلادة تقترب ممتدة على الجانبين بمبانيها المنخفضـة البيضاء ودخلناها.

*****

ـ هذا هو الشارع العام . الشارع الرئيسى بالبلدة.

قال عابد، ثم أضاف.

- البلدة صغيرة. وأحياؤها قليلة. السليمانية. الفيصلية. العزيزية. أم درمان. البلدة كلها فى حجم ميدان التحرير بالقاهرة، لابد أنك رأيته. خانق. أليس كذلك؟ وبنوا فيه "كوبرى" علويا للمشاة. تصور !

كنت منجذبا إلى الزحام، ومشهد السيارات الزاحفة فى نهرى الشارع، والمحلات المفتوحة على الجانبين . الشارع العام هو السوق الذى سنشترى منه ما أريده لغرفتى وعملى. وتركت عينى ترتفعان وتنخفضان مع الأقمشة المعلقة فى علاقات عالية أمام المحلات، ورحت أنظر إلى الأدوات والأجهزة الكهربائية المكدسة والمرايا اللامعة خلفها بارفانات وعطور وساعات وكتب وأقلام وثياب فضفاضة زاعقة ألوانها، الأسود صارخ، والأحمر صارخ، والأخضر صارخ، والأصفر والأزرق. والزهور كبيرة تتوسط الألوان ، والأبيض قليل، والكراتين الفارغة على الأرصفة، والأوراق المهملة فى الطريق، وجماعات من الكوريين الشباب تجرى وتضحك، ورجال بجلابيب، ورجال بسراويل، وهنود لهم لحى سوداء وعمائم ضخمة يمشون على مهل، ورجال بلحى حمراء مخضبة بحناء بيض الوجوه ، مسنون

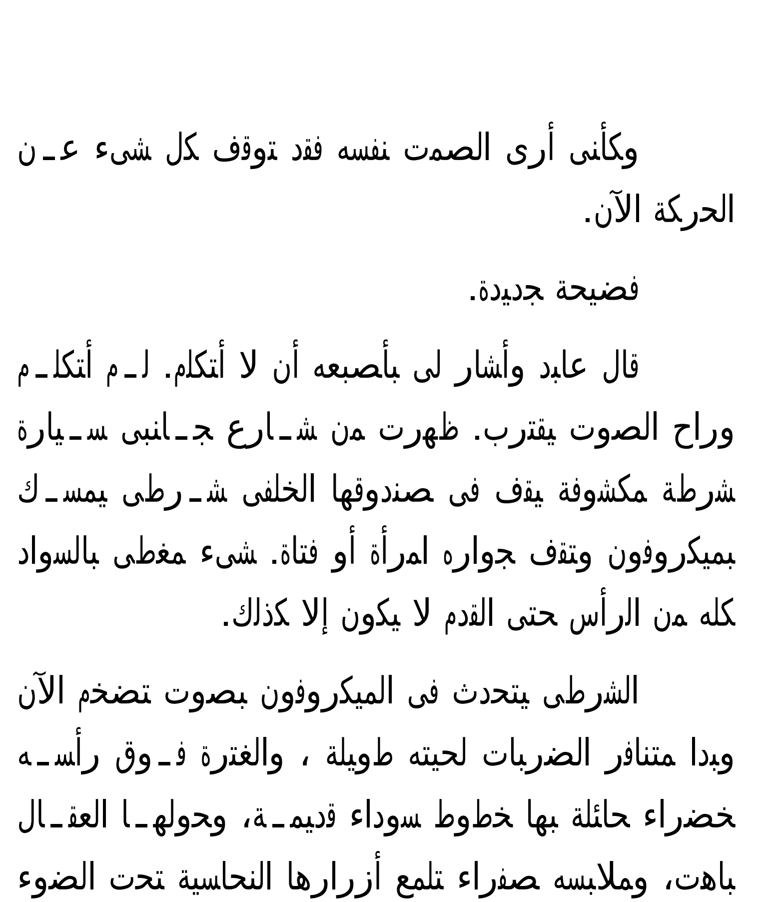
يمشون فى تعب. عرفت أنهم أفغان، وشباب ورجال عيونهم تلمع فى الفضاء وهم يسرعون فى سـراويلهم الفضفاضـة والقمصان الواسعة فوقها، باكستانيون. ورأيت الأمريكان فى الجينز، والمصريين أيضا، والنسـاء لا أرى وجـوههن إلا كشعاع يختفى وأنت تغلق نافذة. شمس عالية، وفضاء أبيض واسع، وسيارات زاحفة إلى الناحيتين ، ورائحة شواء. وأكاد أرى راقصات من ألف ليلة وليلة يوزعن الكئوس على المارة مترعة بشراب ثقيل، وشهريار يمر فى موكب من الغلمـان والقيان خلفه أعلام وصنوج، وأصوات نفير السيارات تختلط بأصوات المسجلات. وقال عابد:

- "تبوك تنسيك أمك وأبوك" مثَلٌ يتداوله المصريون هنا.

وحط على الدنيا صمت.

- ما هذا ؟ اسمع.

وأبطأ من سرعة السيارة البطيئة أصـلاً. أرهفـت السمع. رأيته يفتح عينيه بأقصى اتساع، ويمد رأسـه إلـى الأمام يكاد يخرج بها من الزجاج. وسمعنا "المتوسطة".



وكأنى أرى الصمت نفسه فقد توقف كل شىء عن الحركة الآن.

فضيحة جديدة.

قال عابد وأشار لى بأصبعه أن لا أتكلم. لم أتكلم وراح الصوت يقترب. ظهرت من شارع جانبى سيارة شرطة مكشوفة يقف فى صندوقها الخلفى شرطى يمسك بميكروفون وتقف جواره امرأة أو فتاة. شىء مغطى بالسواد كله من الرأس حتى القدم لا يكون إلا كذلك.

الشرطى يتحدث فى الميكروفون بصوت تضخم الآن وبدا متنافر الضربات لحيته طويلة ، والغترة فوق رأسه خضراء حائلة بها خطوط سوداء قديمة، وحولها العقال باهت، وملابسه صفراء تلمع أزرارها النحاسية تحت الضوء ويقول:

" .. واضحة بنت سليمان بن سبيل التلميذة بالمدرسة المتوسطة بالعزيزية كانت تخرج كل يوم بعد الدراسة مع اليمنى اليامى بن عبد ا   اليامى..".

ويزداد الناس على الأرصفة وفى أفـواه المحـلات، ويزداد الضوء فوق الدنيا ، وأرى الفتاة هشة ضئيلة، إلا أن العباءة السوداء تلمع وتحدد لنفسها موضـعا فـى الفضـاء الأبيض الواسع، وتشد كل العيون.

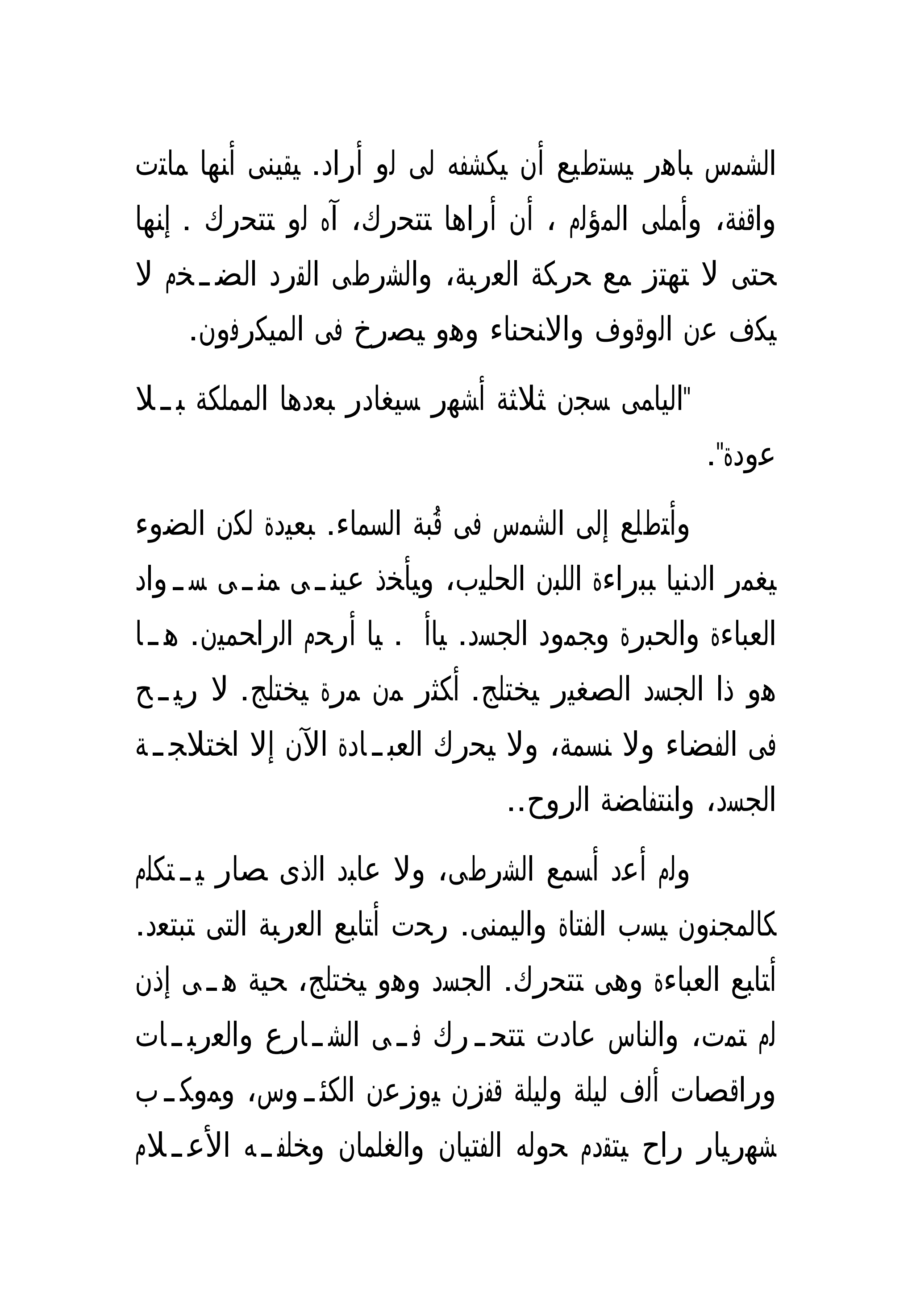
".. كانت تخرج معه كل يوم إلـى طريـق تيمـاء المهجور".

ولا أعرف كيف استطاع عابد أن يـوازى سـيارة الشرطة. صار الصوت كأنه كُتَلٌ من الحجارة تسقط فـوق رأسى.

"اليامى لم يعتد عليها، لكنها لفعلتها الشنعاء فصـلت من المدرسة".

ـ فاجرة.

هتف عابد وهو يعض على أسنانه، وأنا الـذى لـم يخطر ببالى شىء كهذا تصلبت عيناى على الجسد الصـغير ضائع القسمات تحت العباءة السوداء الواسعة. أريد، ياربى، ساعدنى، أن أرى وجهها. صار ذلك حـاجتى التـى تتمـدد بالحزن فى صدرى . الحبرة فوق الوجه ثقيلة، لكن ضـوء



الشمس باهر يستطيع أن يكشفه لى لو أراد. يقينى أنها ماتت واقفة، وأملى المؤلم ، أن أراها تتحرك، آه لو تتحرك . إنها حتى لا تهتز مع حركة العربة، والشرطى القرد الضـخم لا يكف عن الوقوف والانحناء وهو يصرخ فى الميكرفون.

"اليامى سجن ثلاثة أشهر سيغادر بعدها المملكة بـلا عودة".

وأتطلع إلى الشمس فى قُبة السماء. بعيدة لكن الضوء يغمر الدنيا ببراءة اللبن الحليب، ويأخذ عينـى منـى سـواد العباءة والحبرة وجمود الجسد. ياأ . يا أرحم الراحمين. هـا هو ذا الجسد الصغير يختلج. أكثر من مرة يختلج. لا ريـح فى الفضاء ولا نسمة، ولا يحرك العبـادة الآن إلا اختلاجـة الجسد، وانتفاضة الروح..

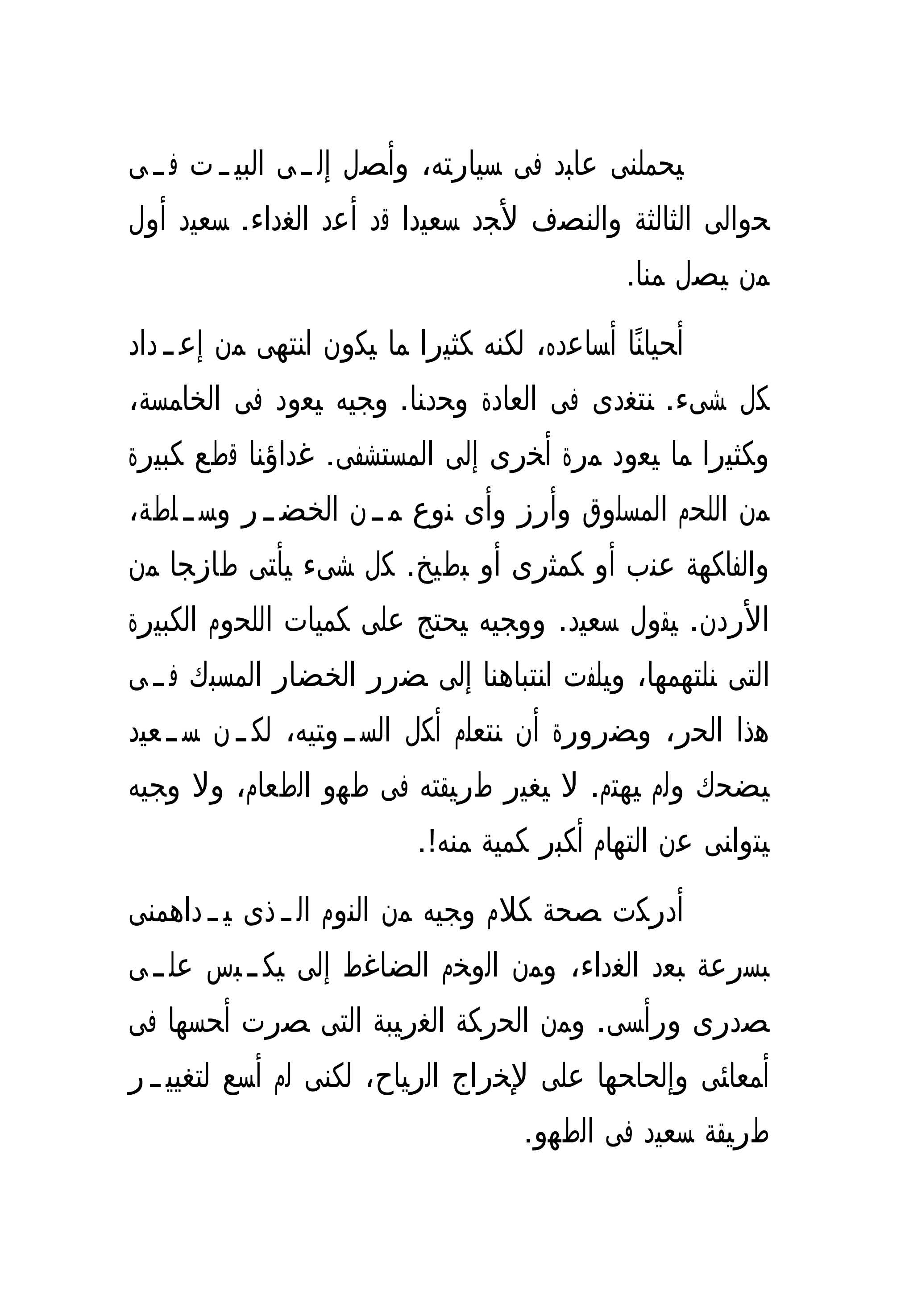
ولم أعد أسمع الشرطى، ولا عابد الذى صار يـتكلم كالمجنون يسب الفتاة واليمنى. رحت أتابع العربة التى تبتعد. أتابع العباءة وهى تتحرك. الجسد وهو يختلج، حية هـى إذن لم تمت، والناس عادت تتحـرك فـى الشـارع والعربـات وراقصات ألف ليلة وليلة قفزن يوزعن الكئـوس، وموكـب شهريار راح يتقدم حوله الفتيان والغلمان وخلفـه الأعـلام

والصنوج، وعاد الكوريون يجـرون ضـاحكين، والهنـود يمشون على مهل ممشوقى القوام، والباكستانيون يبتسـمون ويعكسون أشعة الشمس فى عيونهم، والأفغان المسنون فتحوا أفواههم للفضاء فى ذهـول، والمصـريون يتلكئـون أمـام الفتارين، والأمريكان يشربون "البارد" وأيديهم اليسرى فـى خصورهم وعلى أنوفهم العالية نظارات قاتمة، وحاصـرتنى البضائع وأصوات المسجلات المختلطة الناشزة وعدت أشـم رائحة الشواء، ولم أعد أرى فى الشارع نساء. أى نساء.

(٣)

صرت أحب البيت ووقت العودة. تأتى الساعة الثالثة فيتسع الفضاء بى. لم أتعلم القيادة بعد. "أرشد" كـل صـباح يسألنى وهو يوقّع فى دفتر الحضور : متـى سـتأتى إلـى الورشة مستر إسماعيل ؟

وأجيب : فى أقرب فرصة، ولـلآن لـم أذهـب لا أعرف لماذا.



يحملنى عابد فى سيارته، وأصل إلى البيت فى حوالى الثالثة والنصف لأجد سعيدا قد أعد الغداء. سعيد أول من يصل منا.

أحيانًا أساعده، لكنه كثيرا ما يكون انتهى من إعداد كل شىء. نتغدى فى العادة وحدنا. وجيه يعود فى الخامسة، وكثيرا ما يعود مرة أخرى إلى المستشفى. غداؤنا قطع كبيرة من اللحم المسلوق وأرز وأى نوع من الخضر وسلطة، والفاكهة عنب أو كمثرى أو بطيخ. كل شىء يأتى طازجا من الأردن. يقول سعيد. ووجيه يحتج على كميات اللحوم الكبيرة التى نلتهمها، ويلفت انتباهنا إلى ضرر الخضار المسبك فى هذا الحر، وضرورة أن نتعلم أكل السوتيه، لكن سعيد يضحك ولم يهتم. لا يغير طريقته فى طهو الطعام، ولا وجيه يتوانى عن التهام أكبر كمية منه!.

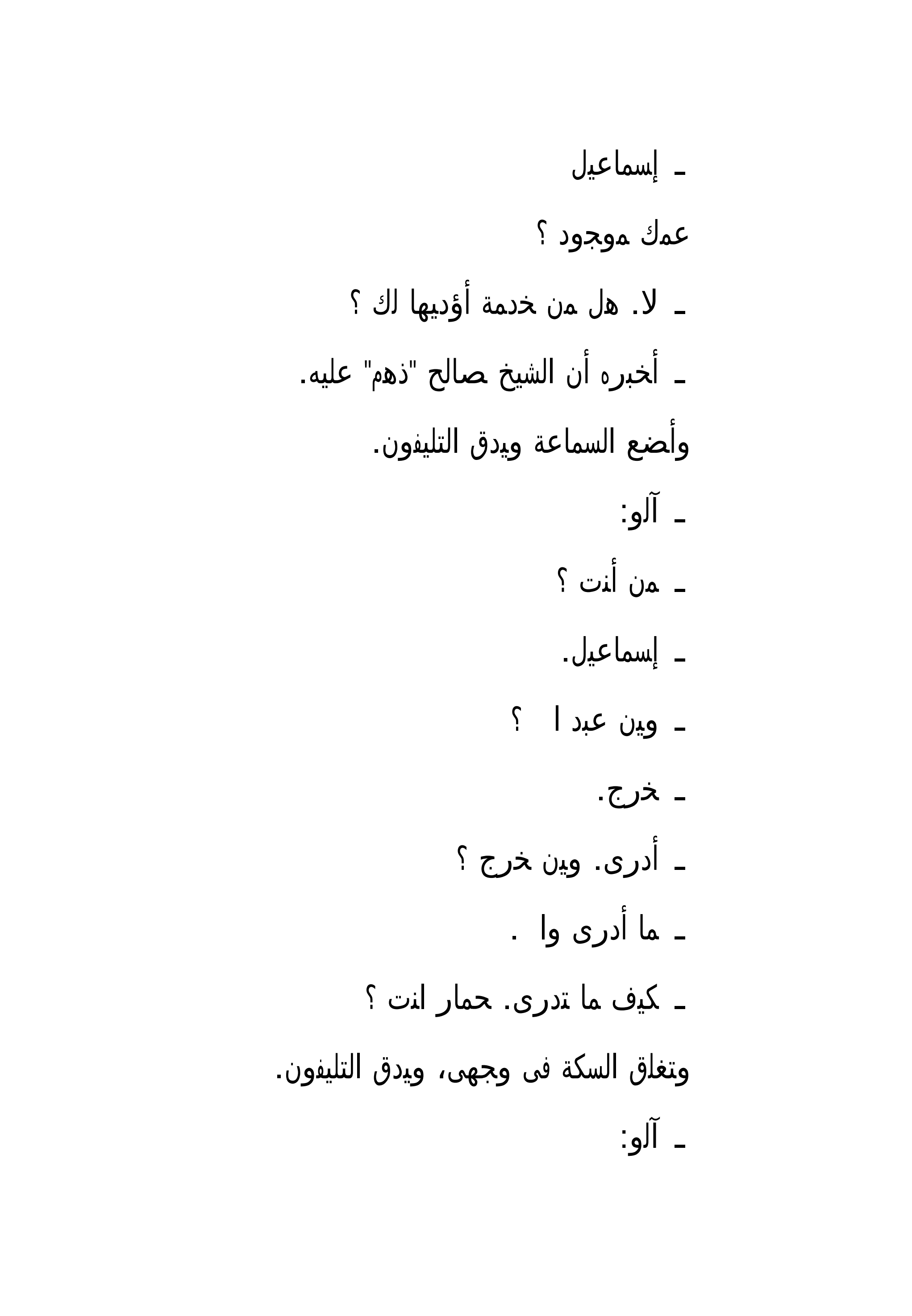
أدركت صحة كلام وجيه من النوم الذى يداهمنى بسرعة بعد الغداء، ومن الوخم الضاغط إلى يكبس على صدرى ورأسى. ومن الحركة الغريبة التى صرت أحسها فى أمعائى وإلحاحها على لإخراج الرياح، لكننى لم أسع لتغيير طريقة سعيد فى الطهو.

صرت أحب البيت، وتهفو نفسى إلى العودة إليه، منذ يقف عقربا الساعة على الثانية عشرة، لماذا اشـتريت يـوم نزلت إلى السوق ساعة الحائط هذه للمكتب ؟ لمـاذا وافقـت عايدا علّى ذلك ؟ لقد ثبتها أمامى، وكأنى أعذب نفسى أرفـع بين وقت وآخر عينى إليها. حين ينضم العقربان إلى الثانيـة عشرة، أبدأ فى متابعة حركة عقرب الدقائق دقيقـة بدقيقـة. أراه يقفز أو أسمع صوت قفزاته. فى الثانية عشـرة أكـون انتهيت تقريبا من معظم الشغل، وتصبح السـاعات الـثلاث الباقية دهرا، فأفكر فى البيت.

هنا لا أستطيع أن أترك العمل، الغرفة ، لأكثر مـن دقائق، ونبيل لا يستطيع أن يمضى وقتًا طويلاً معى، وعايد فى غرفته أو خارج المكان كله، عايد فـى العـادة يمضـى معظم وقته فى أعمال عم عبد ا   الخاصة، وهى أعمال غير أعمال الشركة. يقول لى أن أجلس فى غرفته حتى يعود، ولا يعود إلا بعد وقت طويل يكون على فيه أن أقـوم بأعمـال السكرتارية التى لاتزيد على استقبال الرسائل التليفونية.

ـ آلو.

ـ من أنت ؟



ـ إسماعيل

عمك موجود ؟

ـ لا. هل من خدمة أؤديها لك ؟

ـ أخبره أن الشيخ صالح "ذهم" عليه.

وأضع السماعة ويدق التليفون.

ـ آلو:

ـ من أنت ؟

ـ إسماعيل.

ـ وين عبد ا ؟

ـ خرج.

ـ أدرى. وين خرج ؟

ـ ما أدرى وا .

ـ كيف ما تدرى. حمار انت ؟

وتغلق السكة فى وجهى، ويدق التليفون.

ـ آلو:

ـ يا عابد جهزت الريالات ؟

ـ أنا إسماعيل.

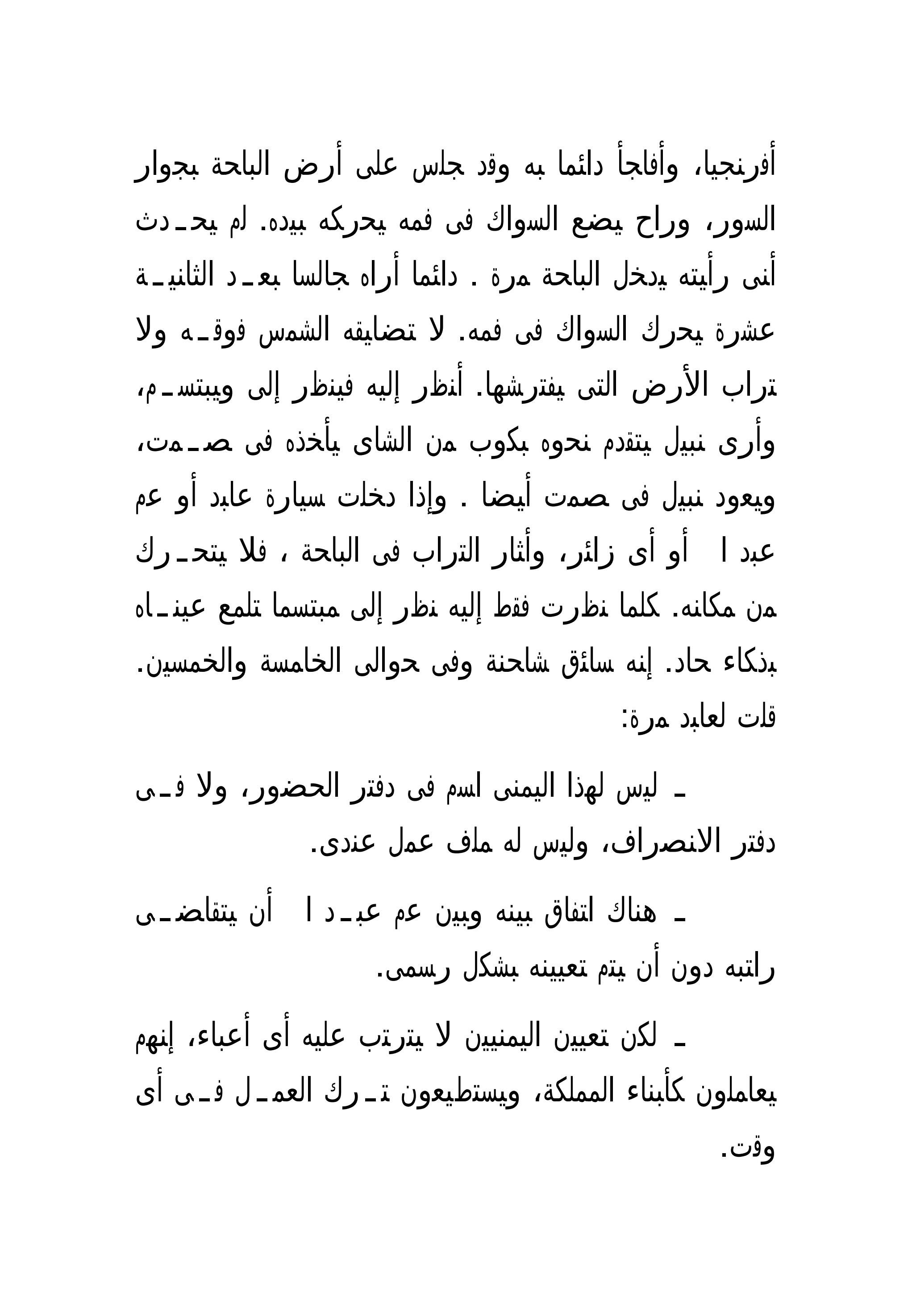
ـ من هو إسماعيل ؟

ـ موظف جديد.

وتغلق السـكة ، ويـدق التليفـون ولـيس لـى أن أشكو.على فقط أن أدون الأسماء حتى إذا جاء عابد أو عـم عبد ا أقدمها له.

الآن وقد مضى على أسبوعان لم يعد يزعجنى ذلك، تعودته وتعود المتحدثون وجودى واسـمى، وخفـتْ حِـدة كلامهم، وبعضهم صار يداعبنى ، ويسـألنى عـن مصـر، وأحوال مصر ،وأنا لا أعرفه، ولم يسبق أن التقيت به، لكنى لم أعد قادرا على نسيان النظر إلى الساعة حين تصل إلـى الثانية عشرة. حتى لو كنت فى غرفة عابد، أنظر إلى الساعة المماثلة تماما التى اشتراها هو أيضا لغرفته.

بعد الثانية عشرة يبدو الكون هنـا واسـعا فارغًـا، فالشمس تضيئه حتى كأنها ستشعله، ويصبح ظهور شـخص أو سيارة أمرا نادرا إلا اليمنى العجوز الـذى يرتـدى زيـا


أفرنجيا، وأفاجأ دائما به وقد جلس على أرض الباحة بجوار السور، وراح يضع السواك فى فمه يحركه بيده. لم يحدث أنى رأيته يدخل الباحة مرة . دائما أراه جالسا بعد الثانية عشرة يحرك السواك فى فمه. لا تضايقه الشمس فوقه ولا تراب الأرض التى يفترشها. أنظر إليه فينظر إلى ويبتسم، وأرى نبيل يتقدم نحوه بكوب من الشاى يأخذه فى صمت، ويعود نبيل فى صمت أيضا . وإذا دخلت سيارة عابد أو عم عبد ا أو أى زائر، وأثار التراب فى الباحة ، فلا يتحرك من مكانه. كلما نظرت فقط إليه نظر إلى مبتسما تلمع عيناه بذكاء حاد. إنه سائق شاحنة وفى حوالى الخامسة والخمسين.
قلت لعابد مرة:

ـ ليس لهذا اليمنى اسم فى دفتر الحضور، ولا فى دفتر الانصراف، وليس له ملف عمل عندى.

ـ هناك اتفاق بينه وبين عم عبد ا أن يتقاضى راتبه دون أن يتم تعيينه بشكل رسمى.

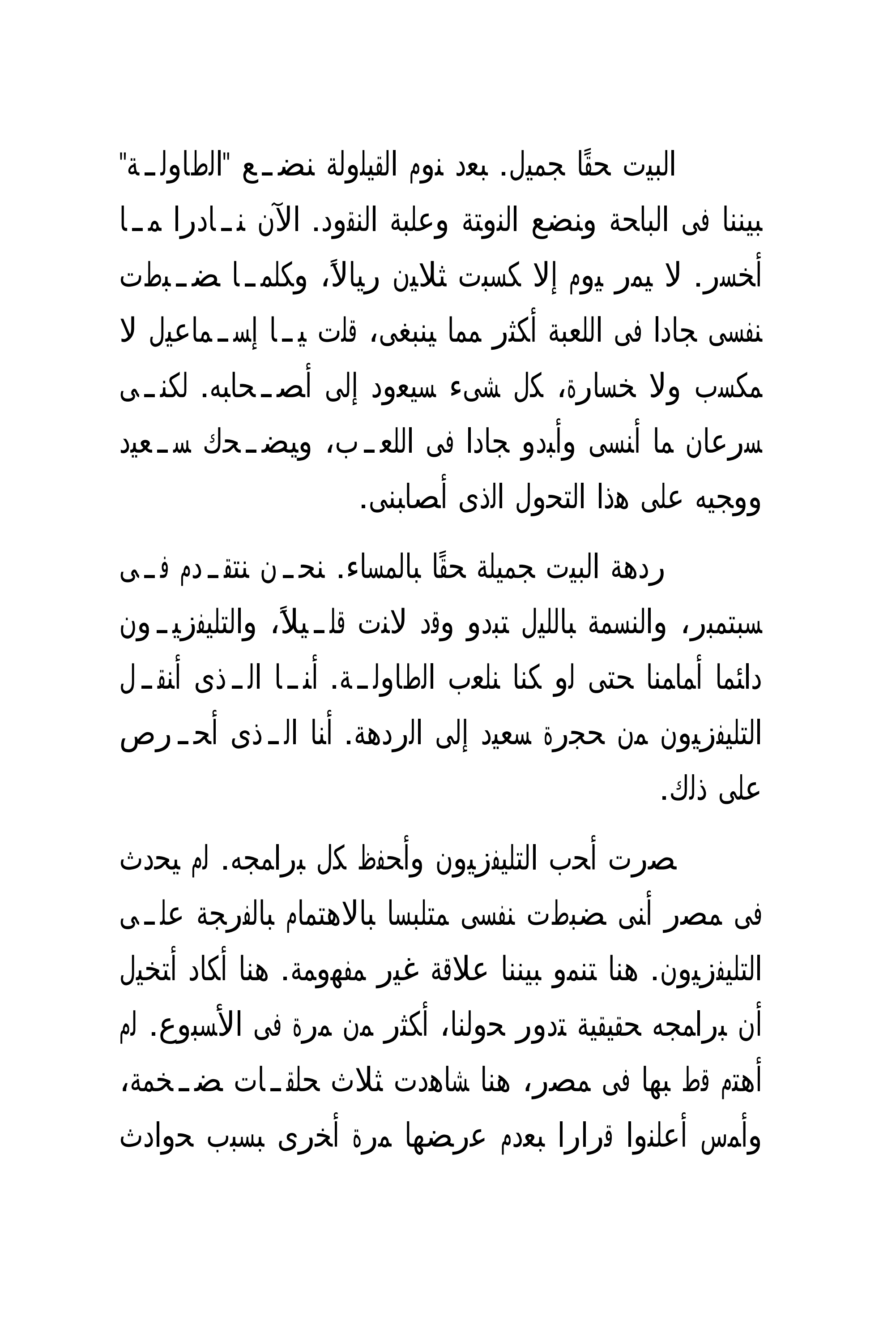
ـ لكن تعيين اليمنيين لا يترتب عليه أى أعباء، إنهم يعاملون كأبناء المملكة، ويستطيعون ترك العمل فى أى وقت.

ـ صحيح، وهو يعرف ذلك، لكنه يقول من يضـمن ثبات الأحوال. عم عبد ا يحبه ويوافق على شروطه.

قلت لنفسى: إذن لن يدخل هذا الرجل مكتبى أبدا.

لا أعرف بحق لماذا فكرت فى ذلـك، ولا أعـرف لماذا أحببت أن يدخل هذا الرجل مكتبى. أشرت له بيدى مرة أن يتقدم إلى المكتب، فلم يفعل أكثر من أنه ابتسم، وعاد إلى السواك يديره فى فمه. وفجأة فكرت كيف لا أراه إلا وهـو جالس فى موضعه بعد الثانية عشرة. شغلنى ذلك، وراقبـت الباحة ليومين حتى أراه فى قدومه، ودائما كنت أنشغل فـى أمر ما. كانت لحظة من الانشغال كافية لأن أجـده جالسـا ينظر إلى مبتسما وتلمع عيناه بالذكاء المشتعل كأنه يعـرف بالضبط ما أريد، ولا يريد أن ينيلنى إياه.

صرت أحب البيت، ومنذ الثانية عشرة كل يـوم لا أكد استقر جالسا ما الذى يقلقنى كل هذا القلق ؟ أستطيع لـو أغمضت عينى أن أفسح الطريق لمرور الوقت والسـاعات الثلاث الباقية لا تمر بطيئة إلا لأنى أنتظر مرورها.



البيت حقًا جميل. بعد نوم القيلولة نضع "الطاولة" بيننا فى الباحة ونضع النوتة وعلبة النقود. الآن نادرا ما أخسر. لا يمر يوم إلا كسبت ثلاثين ريالاً، وكلما ضبطت نفسى جادا فى اللعبة أكثر مما ينبغى، قلت يا إسماعيل لا مكسب ولا خسارة، كل شىء سيعود إلى أصحابه. لكنى سرعان ما أنسى وأبدو جادا فى اللعب، ويضحك سعيد ووجيه على هذا التحول الذى أصابنى.

ردهة البيت جميلة حقًا بالمساء. نحن نتقدم فى سبتمبر، والنسمة بالليل تبدو وقد كانت قليلاً، والتليفزيون دائما أمامنا حتى لو كنا نلعب الطاولة. أنا الذى أنقل التليفزيون من حجرة سعيد إلى الردهة. أنا الذى أحرص على ذلك.

صرت أحب التليفزيون وأحفظ كل برامجه. لم يحدث فى مصر أنى ضبطت نفسى متلبسا بالاهتمام بالفرجة على التليفزيون. هنا تنمو بيننا علاقة غير مفهومة. هنا أكاد أتخيل أن برامجه حقيقية تدور حولنا، أكثر من مرة فى الأسبوع. لم أهتم قط بها فى مصر، هنا شاهدت ثلاث حلقات ضخمة، وأمس أعلنوا قرارا بعدم عرضها مرة أخرى بسبب حوادث

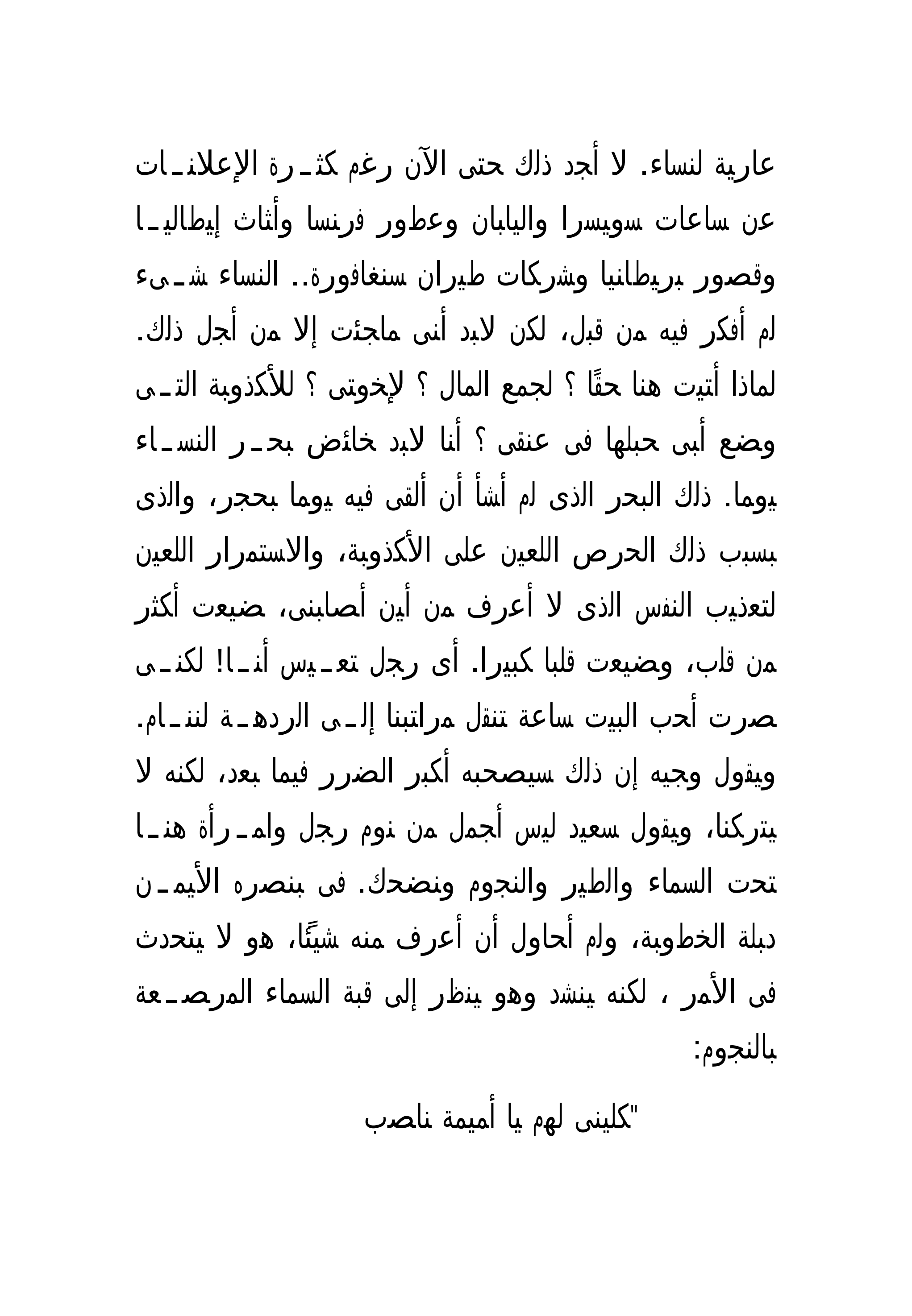
فى الرياض والدمام. ألقى بعض الأطفال أنفسهم من الأدوار العليا تقليدا لستيف أوستين. أعلنوا عـرض حلقـات جديـدة بعنوان "الرجل الأخضر" ستبدأ الأسـبوع القـادم، وأنتظـر بشغف شديد هذه الحلقات. كل شىء تافه فى التليفزيون هنـا صار يأسرنى. بثوا فيلم فارس بنى حمـدان مـرتين، وفـى المرتين رأيته كأنى أراه لأول مرة، وفى المرتين أحببت فريد شوقى وكرهت غريمه محمود مرسى، رغم إدراكى لسذاجة الفيلم كله.

فى الردهة، وتحت السماء العالية، وفى نسمة لينـة، تبدو أصوات المغنين شيئًا ساحرا. وفـى الردهـة، وتحـت السماء العالية، يأخذنى صوت المؤذن لصلاة المغـرب ثـم صلاة العشاء، إلى آفاق عالية من الشجن. صـوت المـؤذن كأنه نداء طائر ذبيح من فوق جبل شاهق.

بعد المؤذن أسمع صوت المذيع الشجى وهو يرجـع أحد الأحاديث النبوية. يا إلهى ما سر هذا التوقيـع العميـق، وتلك النبرة شديدة الأسى، التى تحملنى إلى أوديـة الوداعـة والسكينة؟ فضاء يفتح بوابات الراحة فى روحى، ويكاد الدمع يترقرق فى عينى أنا العاصى الذى لا يعرف ذنبا ارتكبه.

صرت أحب البيت، وأرفض كل دعوة للخروج منه، حتى لو كانت دعوة عشاء عربى مما يتكرر كثيرا . يـذهب سعيد أحيانًا أو وجيه لحضور مثل هذه الدعوات عند بعـض أصدقائهما أو أصداقاء لأصدقائهما من أهل البلدة، ويـأتون يتحدثون عن "الكبسة" الأكلة الشعبية العربيـة، حيـث تقـدم الخراف الصغيرة المشوية فوق صوانٍ كبيـرة فوقهـا الأرز المحشو بالصنوبر واللوز والجوز، وكيـف يصـير الأكـل بالأيدى مباشرة، والشاطر هـو مـن يضـبط شـهيته، لأن الإسهال كثيرا ما يصيب الذى يقبل على الأكل بهمة. ويقول سعيد : "ليس مهما أن تأكل . المهم أن تتفرج" ، لكنى أحـب إذا دخلت البيت أن لا أغادره.

ينتهى الإرسال التليفزيونى، وأدخل حجرتى أقلب فى الصحف والمجلات التى يشتريها وجيه وسعيد، ويتركانها في المطبخ بعد قراءتها. كل الصحف تتحـدث عـن السـادات وتلعنه،وحملت المجلات عنوانًا يقول (ألا من رصاصة تزف إلى رأس الخائن) ؟. وفوق العنوان صورة للسادات فى البدلة العسكرية الألمانية وفى فمه البايب الشهير. لا أقف كثيرا عند السياسة. أتجاوزها وأبحث فى الإعلانات عن نساء. صـور



عارية لنساء. لا أجد ذلك حتى الآن رغم كثـرة الإعلانـات عن ساعات سويسرا واليابان وعطور فرنسا وأثاث إيطاليـا وقصور بريطانيا وشركات طيران سنغافورة.. النساء شـىء لم أفكر فيه من قبل، لكن لابد أنى ماجئت إلا من أجل ذلك. لماذا أتيت هنا حقًا ؟ لجمع المال ؟ لإخوتى ؟ للأكذوبة التـى وضع أبى حبلها فى عنقى ؟ أنا لابد خائض بحـر النسـاء يوما. ذلك البحر الذى لم أشأ أن ألقى فيه يوما بحجر، والذى بسبب ذلك الحرص اللعين على الأكذوبة، والاستمرار اللعين لتعذيب النفس الذى لا أعرف من أين أصابنى، ضيعت أكثر من قلب، وضيعت قلبا كبيرا. أى رجل تعـيس أنـا! لكنـى صرت أحب البيت ساعة تنقل مراتبنا إلـى الردهـة لننـام. ويقول وجيه إن ذلك سيصحبه أكبر الضرر فيما بعد، لكنه لا يتركنا، ويقول سعيد ليس أجمل من نوم رجل وامـرأة هنـا تحت السماء والطير والنجوم ونضحك. فى بنصره الأيمـن دبلة الخطوبة، ولم أحاول أن أعرف منه شيئًا، هو لا يتحدث فى الأمر ، لكنه ينشد وهو ينظر إلى قبة السماء المرصـعة بالنجوم:

"كلينى لهم يا أميمة ناصب

وليل أقاسيه بطىء الكواكبِ"

"تقاعس حتى قلت ليس بمنجل

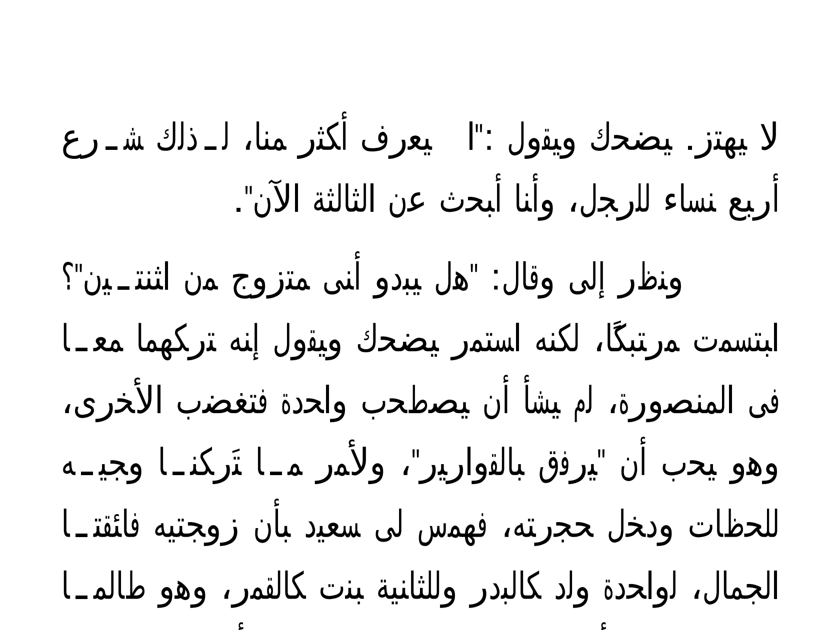
وليس الذى يرعى النجـوم

بآيبٍ"

وتضحك، ويقول وجيه: لكن صاحبتك اسـمها "وداد" وليس "أميمة"، فيغمز لى سعيد بطرف عينه ويقول: "جاهل"، وأعجب من معرفة سعيد بالشـعر وهـو مـدرس التربيـة الرياضية .

أود أن أقول إنى أيضا أعـرف الكثيـر وإن عـلا التراب الذاكرة ، وإنى قضيت صباى ومطلـع شـبابى مـع الأغانى وعيون الأخبار وإنى وإنى.... ولا أقول ، بل أقول لنفسى : كان الوقت متسعا فلا تأس.

وأفكر كيف أن سعيدا أبدا لا يخوض فى حديثه عـن خطيبته التى عرفت اسمها فقط، كذلك لم أعرف عن وجيـه حتى الآن أكثر من أنه متزوج ذلك واضح من الدبلة التى فى بنصره الأيسر، لكن سعيد قال له: "لا يقاسى الحب من يتسع قلبه لامرأتين يادكتور". وسكت أنا مرتبكا، وفوجئت بوجيـه



لا يهتز. يضحك ويقول :"ا يعرف أكثر منا، لـذلك شـرع أربع نساء للرجل، وأنا أبحث عن الثالثة الآن".

ونظر إلى وقال: "هل يبدو أنى متزوج من اثنتـين"؟ ابتسمت مرتبكًا، لكنه استمر يضحك ويقول إنه تركهما معـا فى المنصورة، لم يشأ أن يصطحب واحدة فتغضب الأخرى، وهو يحب أن "يرفق بالقوارير"، ولأمر مـا تَركنـا وحيـه للحظات ودخل حجرته، فهمس لى سعيد بأن زوجتيه فائقتـا الجمال، لواحدة ولد كالبدر وللثانية بنت كالقمر، وهو طالمـا تحدث عن امرأة ثالثة فلابد سيفعلها، لكنى لم أجد من الواجب أن أخوض فى شئون أى منهما طالما أنه لا يفـتح البـاب. عودت نفسى ذلك، وآثرت أن أعرف عنهما ما يلقيان به إلى، ولم أشعر بأى ضيق. أنا ما جئت هنا إلا لوقت عابر، فلأكن مرآة لامعة تنزلق عليها الوقائع، ولا أفسد إحساسى بالراحـة فى البيت، ولا أحاول أن أغتنم فرصة غياب واحـد منهمـا لأعرف منه شيئًا عن الآخر. أمامى وقت طويل معهما لابـد ينكشف لى فيه كثير من الأسرار.

*****

ـ مالك اليوم تلعب شاردا ؟

قال سعيد ونحن نلعب الطاولة فى الردهة. كان وجيه نوبتجياً الليلة بالمستشفى.

ـ فاروق. لم يصلنى منه خطاب. ضحك وقال:

ـ هل تنتظر خطابا من شخص سـافر ليتـزوج ؟ العب.

وقذف بالزهرين بقوة، وسمعنا صوت طرقات خفيفة على الباب.

ـ ترى من الذى يأتى الآن.؟ ربما وجيه ترك العمل وعاد يلعب الطاولة. قال سعيد وهو قائم يضحك ليفتح الباب. فتح وسمعته يصيح:

ـ أهلا يا دكتور رأفت. تعال. لدينا زبون جديد.

ودخل الردهة شخص ذو قامة طويلة، تقدم يصافحنى بحرارة، فبادلته اللعب بالفلوس ورد الخسارة لصاحبها آخـر الشهر. لابد أنك ستلعب معنا يادكتور مضى وقت طويل لـم نرك.

ابتسم رأفت بهدوء، وقال:

- الحقيقة أنا لم آت لأسهر. جئت فقط لأودعكم. أين وجيه ؟

تساءل سعيد بدهشة:

- تودعنا ؟ خيرا يادكتور.

- إننى عائد إلى مصر عودة نهائية.

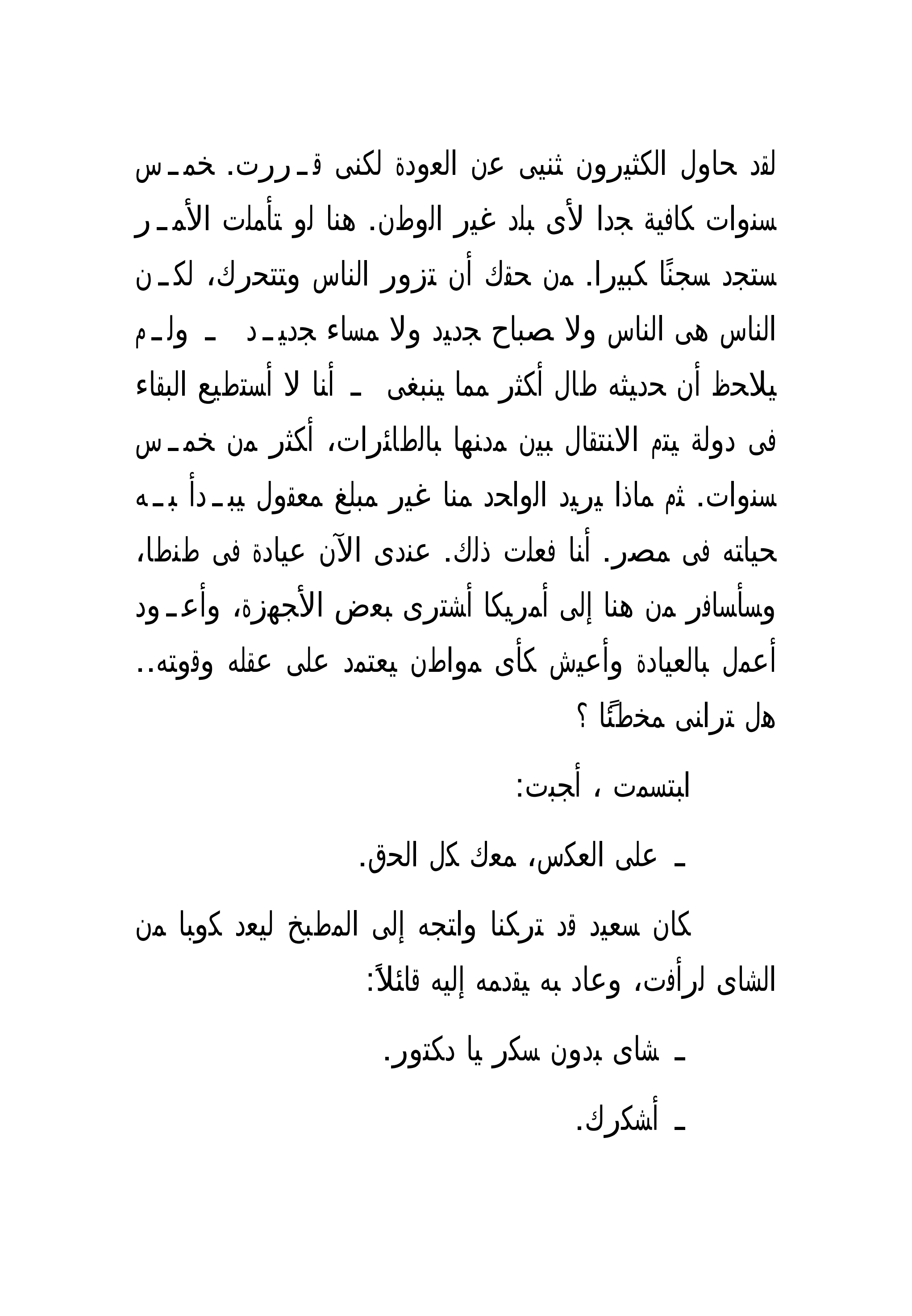
- معقول !

- لماذا لا يكون معقولاً ؟ سأسافر فى الصباح. ألـم يخبرك وجيه ؟

- إطلاقًا. وجيه اليوم نوبتجى فى المستشفى.

هز رأفت كتفه وابتسم وخاطبنى.

- القرار الصعب هنا أن تحدد متى تعود. الوقت هنا ممِل. يبدو كذلك حقًا، لكنك تكتشف فجأة أنه مـر بسـرعة وأخذ معه خمس سنوات من عمرك. بعضنا هنا أمضى عشر سنوات. كم خمس سنوات وكم عشر سنوات فى عمر الواحد منا ؟ لا أحد يفكر فى ذلك. قوة الشباب وكثرة المال تنسـينا.



لقد حاول الكثيرون ثنيى عن العودة لكنى قررت. خمس سنوات كافية جدا لأى بلد غير الوطن. هنا لو تأملت الأمر ستجد سجنًا كبيرا. من حقك أن تزور الناس وتتحرك، لكن الناس هى الناس ولا صباح جديد ولا مساء جديد - ولم يلاحظ أن حديثه طال أكثر مما ينبغى - أنا لا أستطيع البقاء فى دولة يتم الانتقال بين مدنها بالطائرات، أكثر من خمس سنوات. ثم ماذا يريد الواحد منا غير مبلغ معقول يبدأ به حياته فى مصر. أنا فعلت ذلك. عندى الآن عيادة فى طنطا، وسأسافر من هنا إلى أمريكا أشترى بعض الأجهزة، وأعود أعمل بالعيادة وأعيش كأى مواطن يعتمد على عقله وقوته.. هل ترانى مخطئًا ؟

ابتسمت ، أجبت:

- على العكس، معك كل الحق.

كان سعيد قد تركنا واتجه إلى المطبخ ليعد كوبا من الشاى لرأفت، وعاد به يقدمه إليه قائلاً:

- شاى بدون سكر يا دكتور.

- أشكرك.

وأخذ كوب الشاى، وقال لى:

ـ السكر عندى مرتفع. لاتنزعج. يحدث ذلك للكثيرين الآن.

قال سعيد:

ـ لا أظن أن وجيه سيتأخر. إنه نوبتجى بالمساء فقط، لن يبقى للصباح.

ـ غريب أنه لم يخبرك، يعرف أنى سأسافر غدا ولا يفكر أن يمر بى.

ـ قد يفعلها فى عودته. ربما رتب نفسه على ذلك.. ستوحشنا كثيرا يادكتور. إسماعيل سيىء الحظ لأنه لم يتعرف عليك من قبل. أنت لم تزرنا.

وخاطبنى الدكتور رأفت.

ـ أنا سعيد بمعرفتك ياأخ إسماعيل. هل تحب أن أحمل لك أى رسالة لمصر ؟

ـ احمل لى السلام يا دكتور.

ـ تصور يا أستاذ إسماعيل، إننـى أكثـر النـاس احتياجا للبقاء هنا. سعيد يعرف ووجيه. ابنى المصاب بشلل الأطفال يلتهم علاجه معظم ما أكسبه. ابنى هناك فى مصر، لكنى قررت أن لا أبتعد عنه أكثر من ذلك.

ارتبكت كثيرا قلت:

ـ ربما كان وجودك معه أفضل علاج يا دكتور.

ـ هل تظن ذلك حقًا ؟

ـ بالتأكيد.

وصمتنا، ولاحظت أن دمعا بدأ يترقرق في عينيـه. وفى اللحظة التى هم فيها بالقيام، سمعنا المفتاح يدور بالباب، وهتف سعيد:

ـ هذا هو وجيه.

ودخل بالفعل وهو يقول:

ـ مساء الخير على المصريين.

صافحنا وقال لرأفت:

ـ أنا قادم من عندك. لم أجدك بالطبع. لا تلمنى . ما حدث الليلة فظيع.

ـ ماذا حدث ؟

تساءل رأفت بهدوء. فقال وجيه بعد أن جلس علـى مقعد رابع:

ـ تبوك لن تنام الليلة. ثلاثة من الصـعايدة قتلـوا صاحب العمل. قطعوه قطعا صغيرة منذ شهر، ووضعوه فى ماكينة خلاطة الخرسانة، وضاعت الجثة فى البناء. اكتشـفت الجريمة اليوم فقط. تم القبض عليهم واعترفوا، ونُقِل أحـدهم إلى المستشفى بين الحياة والموت من أثر التعذيب.

*****

(٤)

أى يوم جميل هذا ؟!

وقفت أحدث نفسى أمام باب غرفة مكتبي متطلعا إلى السماء الزرقاء العالية، والفضاء السابح فى نـور الشـمس الباهر. الصمت بعد لم تفسده قوة الحر، فالساعة لم تتجـاوز الثامنة. جاء العمال وانصرفوا بعـد أن وقعـوا فـى دفتـر

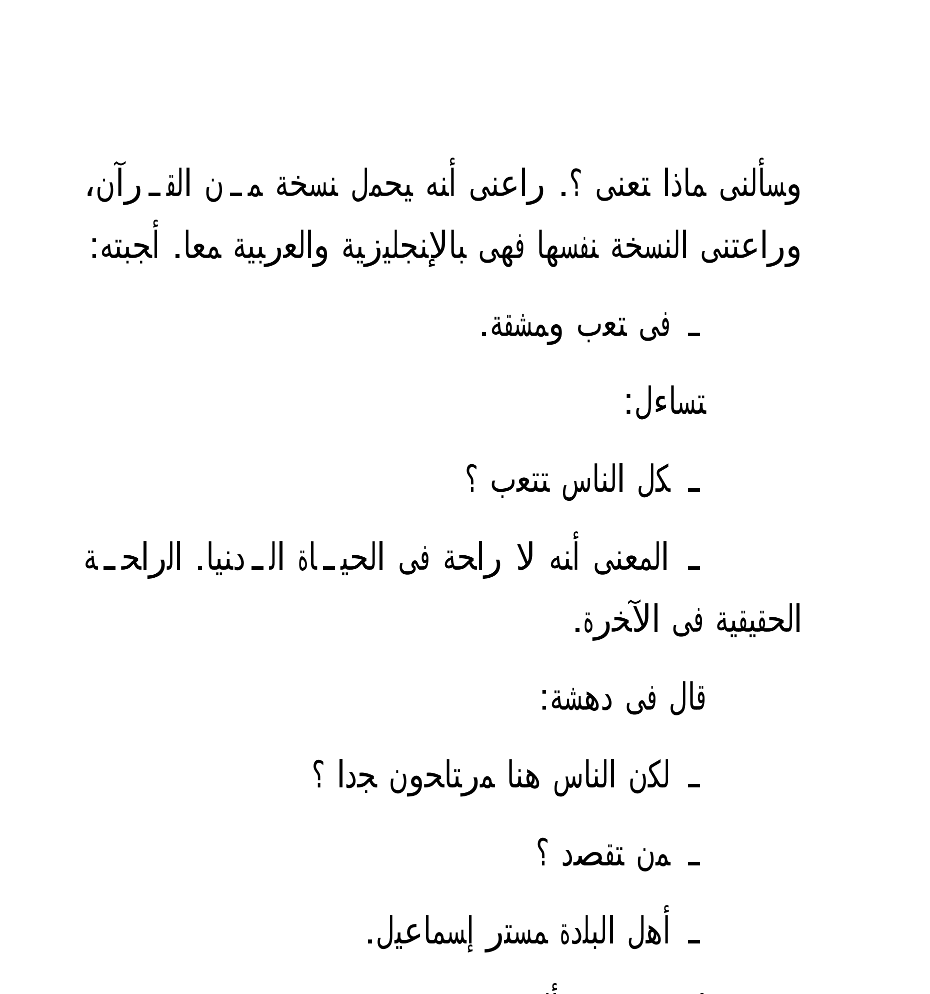
الحضور، ولم أفعل شيئًا بعد ذلـك غيـر شـرب القهـوة، والجلوس قليلاً أتذكر دخولهم فى السابعة مسرعين.

"صباح الخير".

"جود مورننج".

"السلام عليكم".

جمل ثلاث أسمعها كل صباح، وفى الظهيرة حـين يعودون للتوقيع فى دفتر الانصراف يقولون فقـط "السـلام عليكم". يتحدثون بسرعة كما تأكل الأرانـب، وأبتسـم فـى وجوههم لأنهم دائما يبتسمون. لكنهم دائما علـى عجـل. لا فرصة لقيام علاقة مع أحد . يحدث أن يتردد الـبعض إلـى المكتب أثناء النهار، لكن لوقت قصير أيضا ، لمقابلة عم عبد ا أو للتحويل إلى طبيب، أو لطلب إذن بالانصراف سـاعة لقضاء عمل يتعلق بالبنك أو استقدام الزوجة والأبناء. فيليب سوساى بيليا، الكهربائى السيلانى العجوز هو الـذى يقـف أحيانًا يتحدث معى. أخرج مرة نسخة صغيرة من القرآن من جيب سترته وفتحها وأشار إلى آية "وخلقنا الإنسان فى كبد"،



وسألنى ماذا تعنى ؟. راعنى أنه يحمل نسخة من القرآن، وراعتنى النسخة نفسها فهى بالإنجليزية والعربية معا. أجبته:

ـ فى تعب ومشقة.

تساءل:

ـ كل الناس تتعب ؟

ـ المعنى أنه لا راحة فى الحياة الدنيا. الراحة الحقيقية فى الآخرة.

قال فى دهشة:

ـ لكن الناس هنا مرتاحون جدا ؟

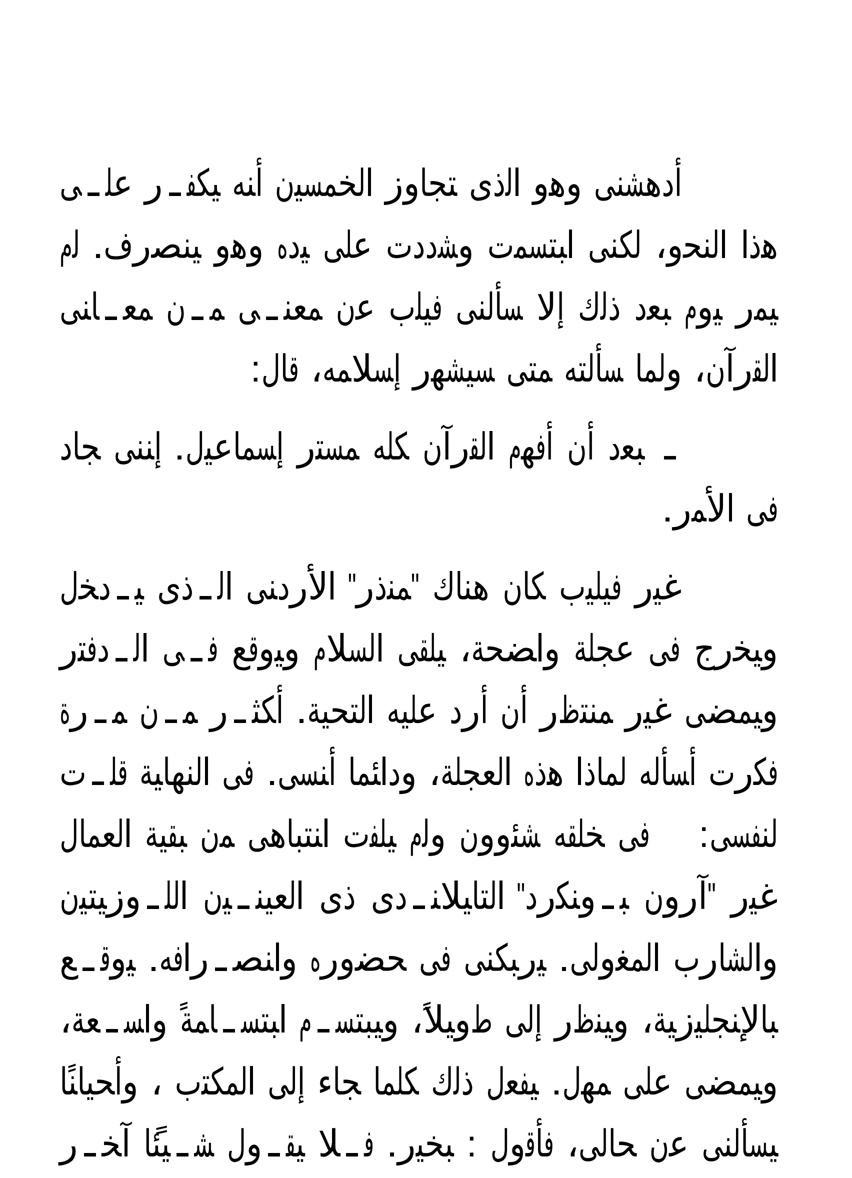
ـ من تقصد ؟

ـ أهل البلدة مستر إسماعيل.

ابتسمت و سألته:

ـ هل أنت مسلم فيليب ؟

ـ بوذى لكنى سأشهر إسلامى. أنا لا أريد العودة إلى سيلان.



أدهشنى وهو الذى تجاوز الخمسين أنه يكفر على هذا النحو، لكنى ابتسمت وشددت على يده وهو ينصرف. لم يمر يوم بعد ذلك إلا سألنى فيلب عن معنى من معانى القرآن، ولما سألته متى سيشهر إسلامه، قال:

- بعد أن أفهم القرآن كله مستر إسماعيل. إننى جاد فى الأمر.

غير فيليب كان هناك "منذر" الأردنى الذى يدخل ويخرج فى عجلة واضحة، يلقى السلام ويوقع فى الدفتر ويمضى غير منتظر أن أرد عليه التحية. أكثر من مرة فكرت أسأله لماذا هذه العجلة، ودائما أنسى. فى النهاية قلت لنفسى: فى خلقه شئوون ولم يلفت انتباهى من بقية العمال غير "آرون بونكرد" التايلاندى ذى العينين اللوزيتين والشارب المغولى. يربكنى فى حضوره وانصرافه. يوقع بالإنجليزية، وينظر إلى طويلاً، ويبتسم ابتسامةً واسعة، ويمضى على مهل. يفعل ذلك كلما جاء إلى المكتب ، وأحيانًا يسألنى عن حالى، فأقول : بخير. فلا يقول شيئًا آخر ويمضى. بدا لى مثل شخص يعرفنى منذ زمن بعيد، ويريد أن يذكرنى بنفسه.

- ورأيت عابدا يقف فجأة بباب غرفة. نظـر إلـى وقال:

- يوم جميل أليس كذلك ؟

ابتسمت و قلت:

- كنت أقول لنفسى ذلك منذ لحظات.

- عم عبد ا لديه اجتماع فى الإمارة اليوم. أنا لن أترك المكتب. تستطيع الذهاب إلى أرشد لتعلم القيادة. يجـب أن تتعلم القيادة حتى لا تحتاج لأحد لتوصيلك للبيت.

فى اللحظة نفسها لمحت نبيل يقتـرب مـن ناحيـة البوفيه يحمل صينية عليها فنجانان من القهوة. نبيل يفعل ذلك مرتين فى الصباح. بعدها لا يقدم لنا شيئًا إلا إذا طلبنا. وفجأة صاح:

- يافتاح يا عليم. جمعة وصل.

كان يحدث عابدا. ونظرت إلى البوابة حيث أشـار، فوجدت شابا مصريا ضخم البنيان يتقدم فى الباحة مبتسما:

- صباح الخير على المصريين.

قال وهو يقترب منا. أخذه عابد مـن يـده ودخـل غرفتى فدخلت معهم. صافحنى الشاب بقوة، ووقـف نبيـل يحمل القهوة ونظر إلى الشاب فى دهشة، ثم خاطبنى:

ـ استعد يا عم ستدفع خمسين ريالاً من أول راتب.

كنا تسلمنا رواتبنا أمس. ما كدت أشرع فى الكـلام حتى قال الضيف:

ـ ليس لى وا . للميت..

ولابد أن الارتباك الشديد بان علـى وجهـى وأنـا أجلس. ورأيت عابدا يتجه إلى الخازنة يفتحها ويخرج منهـا خمسين ريالاً، وظل جمعة واقفًا، بينما وضع نبيـل القهـوة، وقال لعابد:

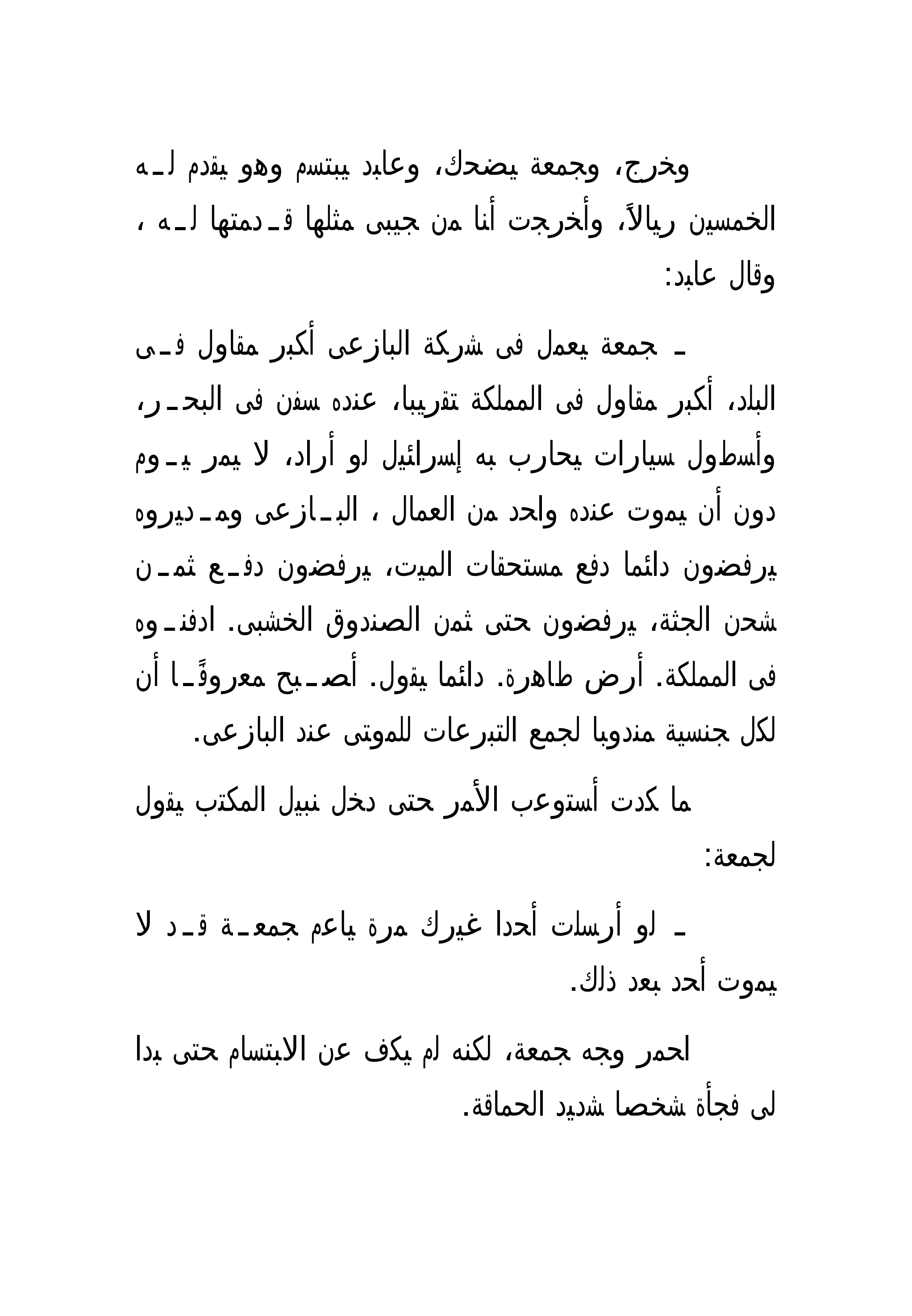
ـ سأضع فنجانك فى غرفتك.

وساتدار يمشى فقال جمعة ضاحكًا:

ـ ألن تدفع يا نبيل ؟

ضحك نبيل وقال:

ـ الميت القادم.



وخرج، وجمعة يضحك، وعابد يبتسم وهو يقدم لـه الخمسين ريالاً، وأخرجت أنا من جيبى مثلها قـدمتها لـه ، وقال عابد:

ـ جمعة يعمل فى شركة البازعى أكبر مقاول فـى البلد، أكبر مقاول فى المملكة تقريبا، عنده سفن فى البحـر، وأسطول سيارات يحارب به إسرائيل لو أراد، لا يمر يـوم دون أن يموت عنده واحد من العمال ، البـازعى ومـديروه يرفضون دائما دفع مستحقات الميت، يرفضون دفـع ثمـن شحن الجثة، يرفضون حتى ثمن الصندوق الخشبى. ادفنـوه فى المملكة. أرض طاهرة. دائما يقول. أصـبح معروفًـا أن لكل جنسية مندوبا لجمع التبرعات للموتى عند البازعى.

ما كدت أستوعب الأمر حتى دخل نبيل المكتب يقول لجمعة:

ـ لو أرسلت أحدا غيرك مرة ياعم جمعـة قـد لا يموت أحد بعد ذلك.

احمر وجه جمعة، لكنه لم يكف عن الابتسام حتى بدا لى فجأة شخصا شديد الحماقة.

*****

شربت قهوتى وحدى، انصرف جمعة، وعاد عابد إلى غرفته، وانشغل نبيل فى تنظيف السيارة الكاديلاك الواقفة فى الباحة، سيارة بيضاء جميلة تقف مثل أوزة ضخمة تسبح فى بحر من النور. لدى عم عبد ا أكثر من سيارة، ويركب فى اليوم الواحد أكثر من واحدة، وكل منها مجهزة بتليفون لاسلكى.. لم أستطع أن أطرد وجه جمعة من الغرفة. قال عنه نبيل بعد انصرافه: إنه يعرفه ويتشاءم من مجيئه، وإنه فى الأصل يعيش فى القاهرة بمقابر الإمام وإن أباه "تُربى" وضحك وقال: "الدم يحن".

لكنى لم أضحك كنت مأخوذًا بما يقول.

نهضت أذهب إلى "أرشد". لا يجب أن أفسد بهاء هذا اليوم. قطعت الباحة الباهرة بضوء النهار، وترك نبيل عمله فى السيارة الكاديلاك، ولحق بى بعد البوابة.

- إلى أين ؟

- إلى "أرشد" أتعلم القيادة.

- إذن خذنى معك.

ومشينا، لابد أن نبيل يعرف بانشغال عـم عبـد ا بالإمارة اليوم فهو يخشاه حتى الموت:

ـ أتمنى يا أخى أن أتعلم القيادة مثلك.

قال نبيل ونحن نتقدم صامتين. لم أرد. تطلعت إلـى الجراج القريب المجاور للكامب الذى يسكنه الآسيويون. هذا مكان لم أحضر إليه من قبل. الأرض بين مكاتـب الشـركة وبينه ليست ممهدة، لكنها ليست صعبة. أرض مـن الحجـر الجيرى عليها طبقة رقيقة من الرمال. واستمر نبيل يتكلم.

ـ المشكلة يا أخى أنى لا أجد الوقت بالنهـار، لأن عم عبد ا يمكن أن يعود فى أى وقت ويحتاج إلى القهوة.

ـ لماذا لا تتعلم فى السماء؟

ـ أرشد يخاف استخدام السيارات بعد العمل. وعابد لا يسمح لى بالتعلم على سيارته.

أربكنى بحق. فكرت لماذا إذن يـأتى وقـد لا يجـد فرصة أخرى. قال كأنه يقرأ أفكاري:

ـ أحببت اليوم أن أراك وأنت تتعلم. سوف أتعلم مما تفعله أمامى. "شفهي" يعنى.

ابتسمت. كدت أضحك. قال:

- أى وا .

اندفعت أضحك، وأحسست أن الفضاء يجاوبنى فـى ضحكاتى رغم أنه لا جبال حولنا. وقال فجأة:

- لماذا لا تصدقني ؟ لماذ تسخر مني ؟

وكأنما الفضاء الواسع ازداد اتساعا فجأة. أحسسـت أنه لا يوجد فى الدنيا كلها غيرنا. أنا ونبيل فقـط فـى هـذا العالم. وأحسست، ويالغرابة هذا الإحساس الذى لـن أنسـاه أبدا، برغبة فى أن أقتله. لو أن سكينًا كانت فى يدى لطعنته، ووقفت أراقب الدم يمشى فوق الأرض لامعا تحت الضوء.

- هل تصدق أنى أحببتك جدا يا أستاذ إسماعيل ؟

قال، فأدهشنى. وأدهشنى أنه لا يرفع الكلفـة بيننـا اليوم، لا يحدثنى باسمى مباشرة كما تعود. واستمر يتحدث:

- أعتقد أنك طيب يا أستاذ إسـماعيل. عابـد هـذا ثعبان. كوبرا. ينام معى فى غرفة واحدة وأعرفـه. تصـور أننى أحيانًا أقوم من النوم فزعا خوفًا من أن يقتلنـى. لمـاذا يحدث ذلك يا أستاذ إسماعيل ؟ هل سأجن هنا ؟

وتوقفت عن المشى. مزيج طاغٍ من المشاعر أوقفنى. لا أعرف هل أردت أن أهون عليه أم ألعنه أم آمره بالعودة. قلت وأنا أمسك بذارعه:

ـ لا تصد نفسى عن الناس يا نبيل.

وبالنظرة عينيه وهو يكاد يبكى فجأة. قال:

ـ أنا لم أقصد ذلك. أردت أن أذكرك أن لا تتمادى فى صداقة أحد أنت هنا مثل كل الناس لجمع المال فقط.

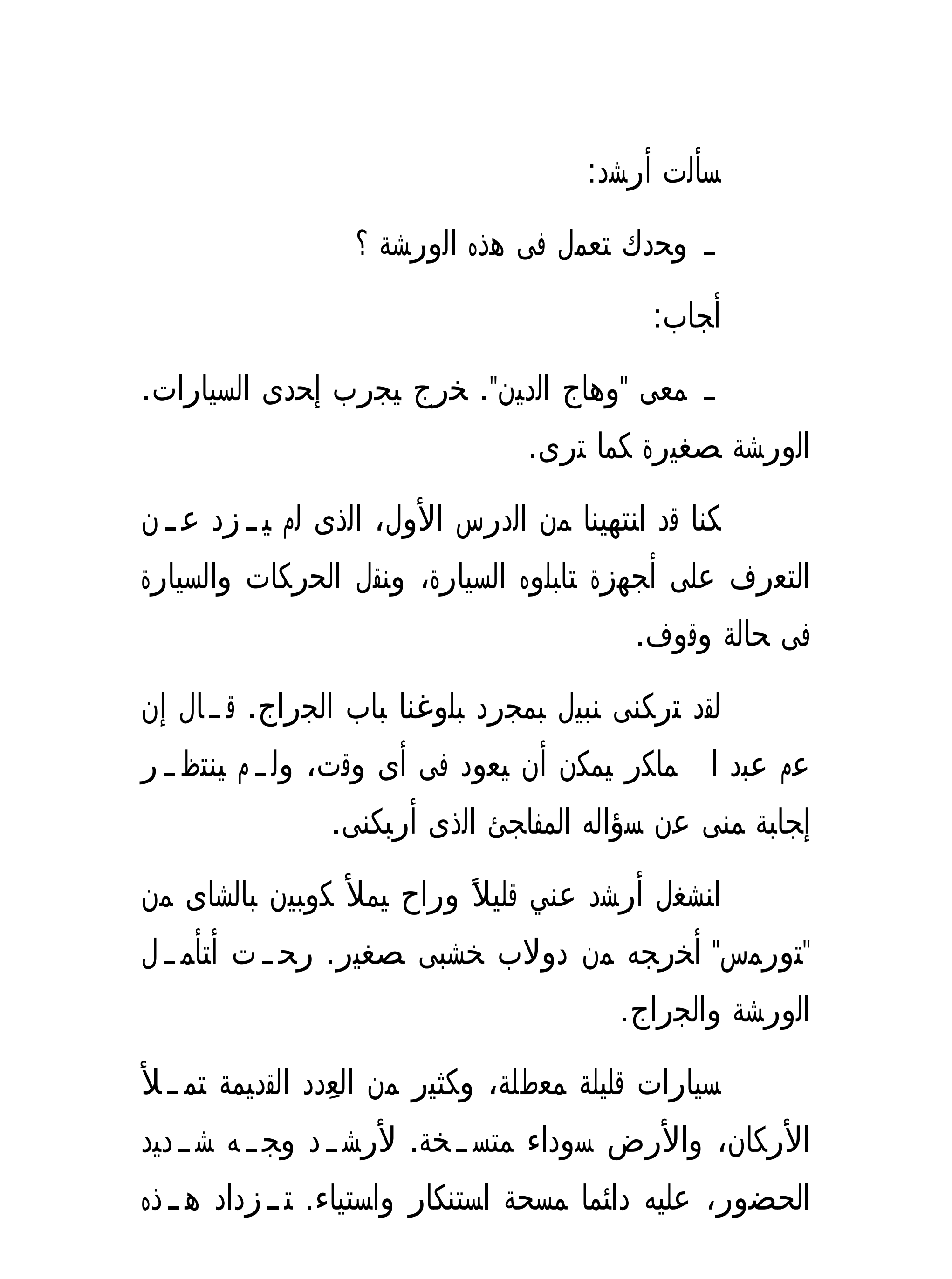
تركت ذراعه، ومشيت صامتًا، لاحظت أننا نبتعد عن بعضنا قليلاً ثم نعود ونقترب. لم يطل مشينا فالمسافة قصيرة. وقبل باب الجراج بقليل سألته:

ـ هل جئت لتعلم القيادة حقًا؟ أستطيع لو أحببت أن أقنع أرشد يعلمك فى المساء.

قال:

ـ لو حدث أنى سرقت الخازنة هل يقتلوننى ؟

*****



سألت أرشد:

ـ وحدك تعمل فى هذه الورشة ؟

أجاب:

ـ معى "وهاج الدين". خرج يجرب إحدى السيارات. الورشة صغيرة كما ترى.

كنا قد انتهينا من الدرس الأول، الذى لم يـزد عـن التعرف على أجهزة تابلوه السيارة، ونقل الحركات والسيارة فى حالة وقوف.

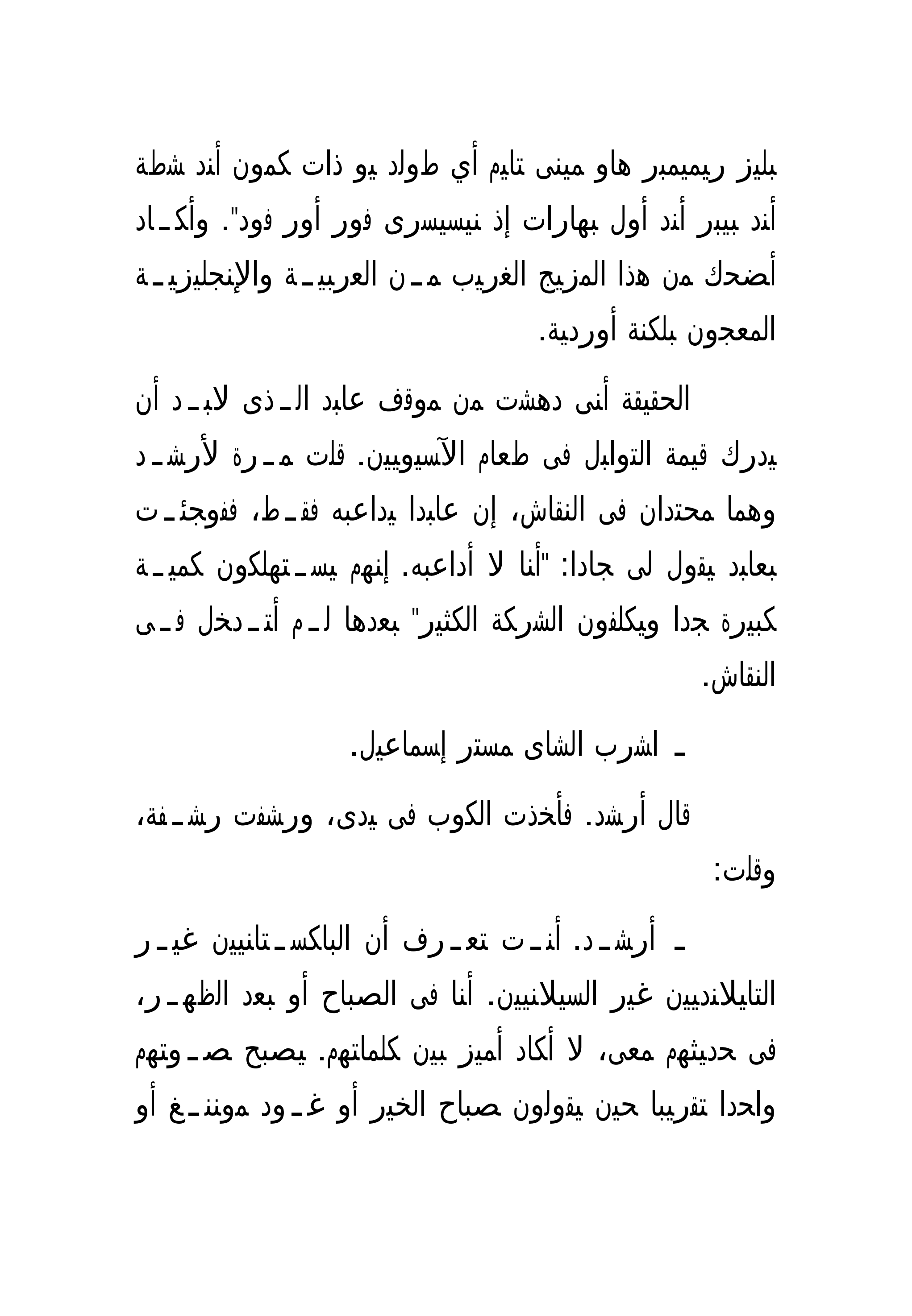
لقد تركنى نبيل بمجرد بلوغنا باب الجراج. قـال إن عم عبد ا   ماكر يمكن أن يعود فى أى وقت، ولـم ينتظـر إجابة منى عن سؤاله المفاجئ الذى أربكنى.

انشغل أرشد عني قليلاً وراح يملأ كوبين بالشاى من "تورمس" أخرجه من دولاب خشبى صغير. رحـت أتأمـل الورشة والجراج.

سيارات قليلة معطلة، وكثير من العِدد القديمة تمـلأ الأركان، والأرض سوداء متسـخة. لأرشـد وجـه شـديد الحضور، عليه دائما مسحة استنكار واستياء. تـزداد هـذه

المسحة حين يأتى إلى المكتب ويدخل فى نقاش مـع عابـد حول مشتروات الكامب من الأغذية. أرشد مسؤول أيضا عن شائعة الآسيويين.

لأرشد عينان عسليتان، حادتا الذكاء، وبياض بشرته يميزه عن كثير من الباكستانيين، رغم أن له الشارب نفسـه المحفوف بعناية واتساق مع الشفة العليا، وله الشـعر نفسـه الأسود الناعم. لكن ملامح أرشد كلها تضيع وهـو ينـاقش عابدا فيما هو مطلوب من غذاء. يبدو أرشد فى البداية لطيفًا، وهو يتكلم بإنجليزية يختار كلماتها بعناية، لتكـون واضـحة وسهلة لعابد الذى لا يعرف الكثير منها، ودائما يطعم حديثـه بكلمات عربية، لكن سرعان ما تختلط ملامح وجهه، وترتفع فيه حمرة الدهشة والاستنكار. أرشد يبدو جادا دائما وعابـد يحدثه بغير اهتمام، بالضبط كما يلقى الواحد بورقة فى سـلة مهملات. يقول عابد: "ماتش كمون!" ويهـز كتفـه، فيقـول أرشد: "ييس ماتش كمون مستر عابد، كمون إذ نيسيسـرى". ويطول الجدال دائما حول كمية التوابل التى يطلبها أرشـد. التوابل من أرخص الأشياء بالمملكة، إلا أن عابدا يحلو له أن يتوقف عندها ويتعنت. يقول أرشد نافذًا الصبر: مستر عابـد



بليز ريميمبر هاو مينى تايم أي طولد يو ذات كمون أند شطة أند بيبر أند أول بهارات إز نيسيسرى فور أور فود". وأكـاد أضحك من هذا المزيج الغريب مـن العربيـة والإنجليزيـة المعجون بلكنة أوردية.

الحقيقة أنى دهشت من موقف عابد الـذى لابـد أن يدرك قيمة التوابل فى طعام الآسيويين. قلت مـرة لأرشـد وهما محتدان فى النقاش، إن عابدا يداعبه فقـط، ففوجئـت بعابد يقول لى جادا: "أنا لا أداعبه. إنهم يسـتهلكون كميـة كبيرة جدا ويكلفون الشركة الكثير" بعدها لـم أتـدخل فـى النقاش.

ـ اشرب الشاى مستر إسماعيل.

قال أرشد. فأخذت الكوب فى يدى، ورشفت رشـفة، وقلت:

ـ أرشـد. أنـت تعـرف أن الباكسـتانيين غيـر التايلانديين غير السيلانيين. أنا فى الصباح أو بعد الظهـر، فى حديثهم معى، لا أكاد أميز بين كلماتهم. يصبح صـوتهم واحدا تقريبا حين يقولون صباح الخير أو غـود موننـغ أو

السلام عليكم، أنت الآن تحدثنى بالإنجليزية، لكن صـوتك لا يختلف عن صوت أحد.. إننى أسمعك فأتذكر الجميع. شـىء غريب. أليس كذلك؟

ابتسم أرشد، وراح ينظر إلى بألق شديد فى عينيه. ابتهج أرشد فجأة لا أدرى لماذا. أنا قلـت ذلـك كلـه دون ترتيب، ولا أعرف بالضبط متى فكرت فيه. قال:

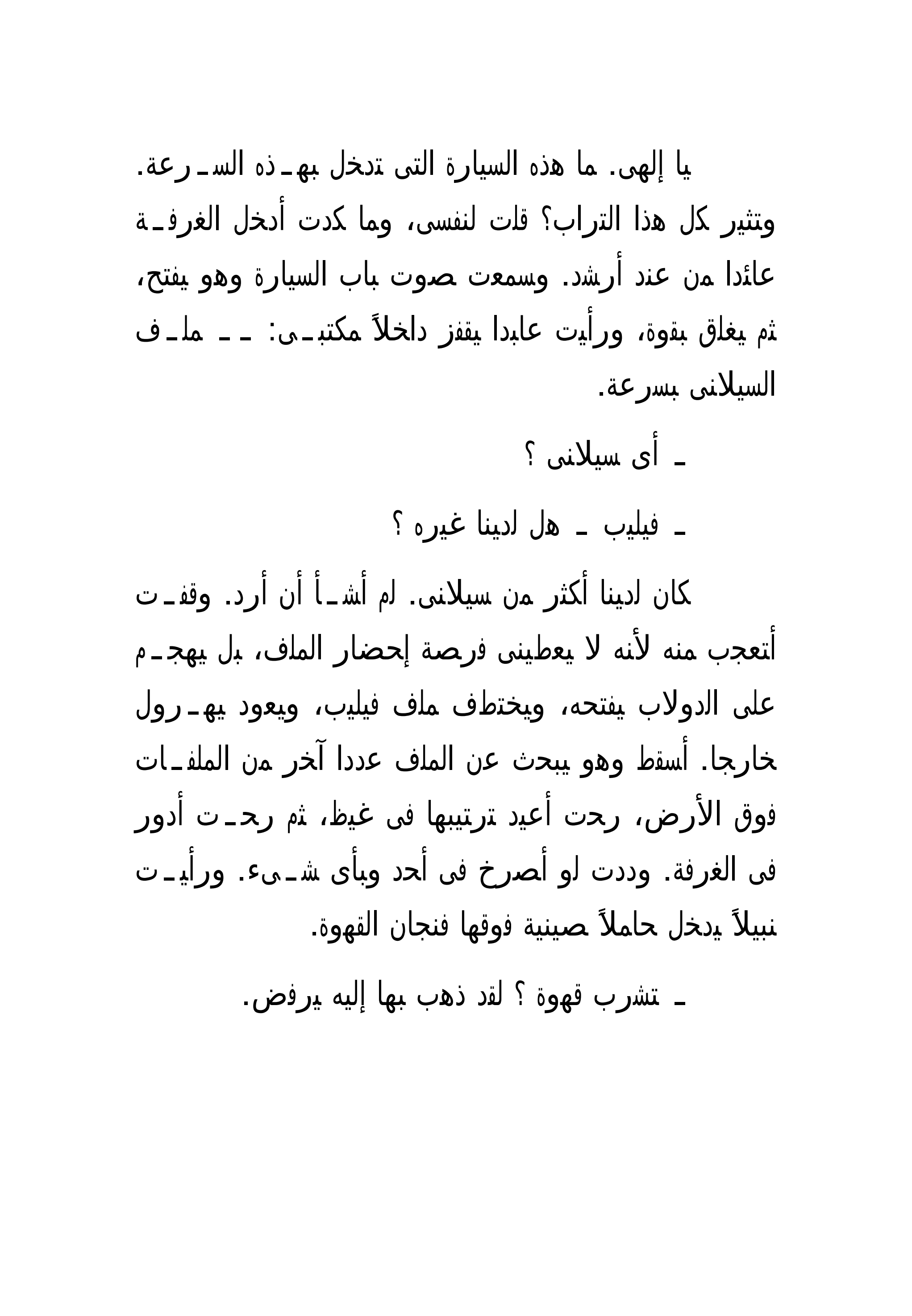
- أنت أيضا سيتشابه صوتك معنا مستر إسماعيل.

سكتنا، ورحنا نشرب الشاى، ووقعت عينـى علـى كتاب فوق مقعد قريب، فقام وأخذ الكتـاب ووضـعه فـى الدولاب الخشبى وعاد يقول:

- أنا آسف مستر إسماعيل. لقد أحضرت هذا الكتاب معى عفوا. أنا لا أجد وقتًا هنا للقراءة.

تأملت وجهه قليلاً، فأغمض عينيه. لماذا يخشانى إلى هذا الحد؟ رشفت ما بقى من الشاى دفعـة واحـدة، وقمـت أصافحه على أن نلتقى فى الغد.


*****



يا إلهى. ما هذه السيارة التى تدخل بهـذه السـرعة. وتثير كل هذا التراب؟ قلت لنفسى، وما كدت أدخل الغرفـة عائدا من عند أرشد. وسمعت صوت باب السيارة وهو يفتح، ثم يغلق بقوة، ورأيت عابدا يقفز داخلاً مكتبـى: ـ ـ ملـف السيلانى بسرعة.

ـ أى سيلانى ؟

ـ فيليب ـ هل لدينا غيره ؟

كان لدينا أكثر من سيلانى. لم أشـأ أن أرد. وقفـت أتعجب منه لأنه لا يعطينى فرصة إحضار الملف، بل يهجـم على الدولاب يفتحه، ويختطف ملف فيليب، ويعود يهـرول خارجا. أسقط وهو يبحث عن الملف عددا آخر من الملفـات فوق الأرض، رحت أعيد ترتيبها فى غيظ، ثم رحـت أدور فى الغرفة. وددت لو أصرخ فى أحد وبأى شـىء. ورأيـت نبيلاً يدخل حاملاً صينية فوقها فنجان القهوة.

ـ تشرب قهوة ؟ لقد ذهب بها إليه يرفض.

كيف أعد القهوة بهذه السرعة وذهب بها أيضا. لابد أن عم عبد ا هو الذى دخل الباحة مثيرا لكل هذا التـراب. كدت أنفجر بالضحك.

رفض القهوة وصرخ فى وجهى أن أنصـرف. ســتطردنى أنت أيضا ؟

ـ ضع القهورة على مكتى واجلس. هـل عرفـت شيئًا..؟

ـ كارثة. فيليب سرق راديو من السوق قُبض عليه.

ـ كيف عرفت ؟

ـ سمعت عم عبد ا يقول ذلك لعابد وأنا أدخل.

وراح يهتز بالضحك، وبمحاولة أن لا يصدر صوتًا، وسمعنا صوت عم عبد ا وهو خارج من المكتـب يقـول لعابد:

ـ اجلس هنا لا تتحرك. وقل لهذا يقصدنى بالتأكيـد ـ أن لا يترك مكانه.

وسمعت صوت باب السيارة يفتح ويغلق بعنف مـرة ثانية، وسمعتها تدور، ورأيت عم عبد ا يعـود بهـا إلـى الخلف فى سرعة. لم ينس أن ينظر إلى بحدة، ثم اندفع إلـى الأمام بقوة، فملأ الفضاء مرة أخرى بغبار أكثر مم هو فوق الأرض.

*****

نظرت إلى الساعة فوجدتها الثانية عشـرة. نظـرت إلى الباحة فوجدت اليمنى العجوز يدير السواك بيده فى فمه. دخل فى غبار السيارة. كانت هناك فرصـة أن أراه يـدخل اليوم لولا غبار عم عبد ا . ابتسم وبرقت عيناه وهـز لـى كتفه حين رآنى أنظر إليه.

ابتسمت وجلست إلى مكتبى أتعجب مـن خلـق ا . ماالذى حقًا يجعل فليب يسرق ؟ رجل مثله تجاوز الخمسين مهيب الوجه وملاحظ كبير لأعمال الكهرباء ويريـد قضـاء أكبر وقت بالمملكة ويستعد ليشهر إسـلامه. مـاذا سـيقول لزوجته "روزالينا" وأبنائه العشرة. خمسة هنا وخمسة تركهم فى سيلان. العاشر من أبنائه أنجبه هنا وأسـماه "فيرلانـدو" ويقول إنه ليس أسود مثله ولكنه بنى مثل "روزالينا". قطعـة

شيكولاته صغيرة. وعمره عامان الآن، ويصحو فى الصباح مع فيليب يتعلق بساقه لا يريده أن يخرج دونه، فيحمله فيليب من فوق الأرض، ويضعه فوق الدولاب، فيضحك "فيرلاندو" ويخرج فيليب ويعود آخر النهار فيجد "فيرلاندو" كما هو فوق الدولاب لكن يبكى. لا تفكر أبدا "روزالينا" صغيرة الجسم أن تصعد على كرسى وتنزله. "فيرلاندو" معجزة إلهية فيمن كان يصدق أن روزالينـا تنجـب بعـد أن تجـاوزت الخامسـة والأربعين، لكنها الأرض الطاهرة مستر إسـماعيل. هكـذا يقول لى.

فيليب يفسد كل شىء ويسرق راديـو. لـن يشـهر إسلامة ولن يبقى بالمملكة.

أحسست بالضيق فقمت عازما على تـرك الغرفـة والجلوس فى البوفيه قليلاً مع نبيـل لكنـى رأيتـه يـدخل ويتساءل:

- وين رايح ؟

وقفت مندهشًا من عودته بعد انقطاعـه كـل هـذا الوقت. كان يتجه إلى المكتب الآخر القريب مـن الخازنـة

ويجلس خلفه والقرد فوق كتفه. يسألنى كأنه كان معى منـذ دقائق، مع أنه اختفى لأكثر من عشرين يوما الآن ، ولم يفكر حتى بإلقاء السلام.

ودق التليفون.

ـ آلو.

ـ أنزل السماعة.

صوت عم عبد ا . أعرفه ولا أخطئه. هـو أيضـا يعرف صوتى. لابد، وإلا ما قال ذلك. يريد عابد. ما ذنبـى إذا كان التليفونان على خط واحد؟ جلست مـن جديـد إلـى مكتبى ممتلئًا بالغيظ.

ـ ياهلا يا إسماعيل.

ذكرنى منصور بوجوده قررت إذا أساء إلى أن أرد الإساءة بأعظم منها.

تسمح لى بالجلوس ؟

ـ لقد جلست بالفعل.

وسكتنا قليلاً. قال:

ـ لقد سافرت إلى عمان. ذهبت بالسيارة. عمان جميلة جدا..

لم أرد. وظهر نبيل بالباب حاملاً طبقًا به قليل من الفول السودانى والفستق.

قال منصور:

ـ ضعه على الأرض.

وضع نبيل الطبق، وتألقت عين القرد، وهز منصور كتفه هزة بسيطة، فقفز القرد إلى المكتب ثم إلى الأرض وراح يلتقط الفول السودانى والفستق فى سرعة مضحكة. راح نبيل يضحك ويقول:

ـ سيرك. سيرك المعلم منصور.

أحمر وجه منصور، ورأيته يحاول إخفاء ابتسامة صغيرة، وفجأة وجدت نفسى أضحك بشراسة. قال نبيل بعد أن توقفت عن الضحك:

ـ منصور زارنا بالليل. أحضر لنا فستقًا من عمان.

لم أهتم. قال منصور لنبيل:

ـ فستق عمان طازج ليس كالذى يباع هنا. لكـن لا تنس أنه ليس كله لك. لا تنس الكيس الخاص بـالقرد ـ ثـم خاطبنى ـ هل يضايقك أن يأكل القرد هناك ؟

ـ بالتأكيد.

أجبت بحسم.

ـ لو أحببت أن أخرج لخرجت.

لم أرد. وانسحب نبيل الذى لابـد أنـه أدرك نُـذُر الصدام.

وتساءل منصور:

ـ مصرى أنت يا أخ إسماعيل ؟

ـ ماذا تقصد بالضبط ؟

ـ أقصد هل أنت من القاهرة. يقولون عن القـاهرة مصر أليس كذلك ؟

ـ أنا من الإسكندرية.

ـ جميلة الإسكندرية بها شاطئ وبحر.

ـ بها أجمل شاطئ فى الدنيا.

ـ رأيت القاهرة ولم أرها. هل تعرف السباحة يا أخ إسماعيل ؟

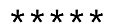
ـ أنا سباح ماهر فزت فى بطولات كثيرة.

كنت أكذب. لم يحدث أنى سبحت عشرة أمتار.

ـ تسبح وسط النساء فى البحر ؟

ـ وسط نساء يرتدين المايوهـات البكينـى. والآن ينزلن بمايوهات قطعة واحدة فقط صدورهن تسبح أمامك. ما رأيك ؟

رأيته ينظر إلى ثم يطرق، وينظـر إلـى المكتـب، ويضربه بأنامله ضربات سريعة منتظمة. لاحظـت اتسـاخ أظافره رغم ما يبدو من نظافة مظهره العام، ورأيت وجهـه يكفهر فجأة ويتلبد بالغيوم، ثم وقف ودار حول المكتب وكأنما أحس به القرد فتوقف عن التهام الحبات القليلة الباقية، ومد له منصور ذراعه فصعد عليها. ثم استوى فوق كتفه، واندفع منصور خارجا بلا كلمة واحدة.



*****

كان "منـذر" أول الواصـلين للتوقيـع فـى دفتـر الانصراف. ولأن عم عبد ا استدعى عابدا ليلحق به فـى الإمارة، طلبت من منذر أن يحملنى فـي سـيارته. ولأنـى أعرف أنه فى عجلة من أمره دائما، قلت:

ـ لن يستغرق توقيع العمال وقتًا طويلاً. لا تقلق.

قال:

ـ خذ راحتك يا رجل.

وجلس على المقعد الجلدى الواسع ونام. أجـل. مـد ساقيه، وأرخى قبعته على وجهه، ونام، وسمعت شخيره فـى لحظات. إلى هذا الحد يتعب منذر فى العمل ...؟

سألت نفسى "وآرون بونكرد" يقف أمـامى مبتسـما ابتسامته المحيرة. لاحظت، لأول مرة، أن أسنانه موضـوعة فى فمه كيفما اتفق.

قال وهو يصوب نحوى عينيه المغوليتين:

ـ أنا محتاج إلى قرض ثلاثة اشهر مستر إسماعيل.

كدت أضحك من لكنته وهو يتحـدث بالإنجليزيـة. يقول "ترى" بدلاً من "ثرى" ويقول "مـن" بـالميم المفخمـة والنون فقط ويعنى شهرا.

قلت: هذا عمل عابد.

قال فى يأس:

ـ أوه مستر إسماعيل. عابد هذا صعب جدا.

وربت على ذراعى، وقال إنه مضـطر إلـى هـذا القرض ليرسله لزوجته لتشترى بيتًـا فـى بـانكوك. بيـت صغير. ثم قال:

ـ ما فائدة عملى فى المملكة إذا لم أشتر بيتًـا فـى العاصمة مستر إسماعيل ؟

تأملت قصره وامتلاء جسمه، صفرة بشرته، وصلعة رأسه ،عظام وجهه الناتئة، واستمر يتحدث:

ـ ألا تود شراء بيت فى القاهرة ؟

ـ أنا أعيش فى الإسكندرية آرون.

ـ أنا أيضا لا أعيش فى بانكوك.

ـ الإسكندرية أجمل من القاهرة.

ـ حقًا مستر إسماعيل. إنها مدينة جميلة جدا.

حسبت أنه يحاربنى ويتملقنى، لكنه قال:

ـ لقد رأيتها مستر إسماعيل فى السينما. فـى فـيلم أمريكى جميل كان اسمه "واحد بيرة مثلج فى الإسكندرية".

ربت على كتفه وقلت:

ـ سأساعدك آرون. سأتحدث مع عابد فى الأمر.

قال ببؤس.

ـ أشكرك مستر إسماعيل. أنت شخص طيب جدا.

ثم شب على قدميه ليهمس فى أذنى:

ـ دو يو لايك فاين ؟

للوهلة الأولى لم أفهم. دهشت وأنا أستوعب السؤال. ارتبكت.

عاد يهمس:

ـ لا تخف مستر إسماعيل. أنا أجهزها بنفسـى. إن خمرة آرون شىء رائع.. كانت عيناه تتسعان بألق غريـب كأنما يشعرنى بالبهجة كلها.

قلت:

ـ لا أحبها.

وكاد صوتى لا يخرج. أحسست بـالخوف حقيقـة، حتى أنه انصرف من أمامى من دون أن أشعر.

*****

فى الطريق ضربتنا ريح العجاج بدوامات صـفراء ثقيلة. أضاء منذر الكشافات، لكنها لم تفلح فى إشـعال هـذا الظلام الأصفر، يلفنا من كل ناحية ،يكـاد يخنقنـا، صـرخ منذر:

ـ لا حيلة فى فى تراب هذا البلد، أنا منذر الـذى لا يقف شىء أمامه كهرباء يعمل، ميكانيكا يعمل، نجارة يعمل، حدادة يعمل، مراقبة يراقب، موت يموت، أنا منذر أعجز عن مقاومة هذا التراب الأصفر....؟!

ـ نقف بالسيارة أفضل.

نختنق يارجل، قد يطول الوقت. الكل يقف الآن بعيدا عن نهر الطريق. الكل يخاف، الطريق مفتوح من الوسـط. ننطلق بسرعتنا نفسها.

وصرت أسمع صوت ارتطام ذرات الرمال بالعربة، وأحس كأنما شخص يحملنى فى صندوق مغلق ويطير بـى، المشكلة أنى أعرف أنى فى سيارة، ماذا أفعل؟ هل أتوسـل إليه أن يقف. صرخت:

ـ منذر. قف بالسيارة.

ـ تصرخ فى يارجل، تصرخ فى منـذر. تريـد أن تموت. ألا تعرف أنها بلدة ملعونة ؟

ولم يهدئ من سـرعة السـيارة، صـار يضـحك بهيستيرية، يهذي، من منذر أفضل من شاذام. منذر يتحـدى السوبر مان. هاهاها. لا تخف يارجل.

ـ لا تخف يازلمة، يا أستاذ ، يا مصرى، هل تحب السادات ؟ أنا أكرهه. أكرهه جدا. هاهاها. وصوت الرمـال صار كصوت مطر من حصى. ماذا أفعل مع هذا المجنون ؟

ـ لا تخف. سأقف. أهدئ من السرعة كما ترى. لا تخف أخى إسماعيل.

وأحسست بالسرعة تقلّ فعلاً، وبالسيارة تأخذ جانب الطريق لتقف، لكن العاصفة راحت تنقشع، وظهرت بيوت البلدة قريبة.

انظر، لقد قطعنا مسافة طويلة ولم يحدث شىء. نظرية منذر صائبة، الكل يقف على الجانبين. منذر لا يقف ويجرى فى المنتصف.

ـ لا أظن أنى سأركب معك مرة أخرى يامنذر.

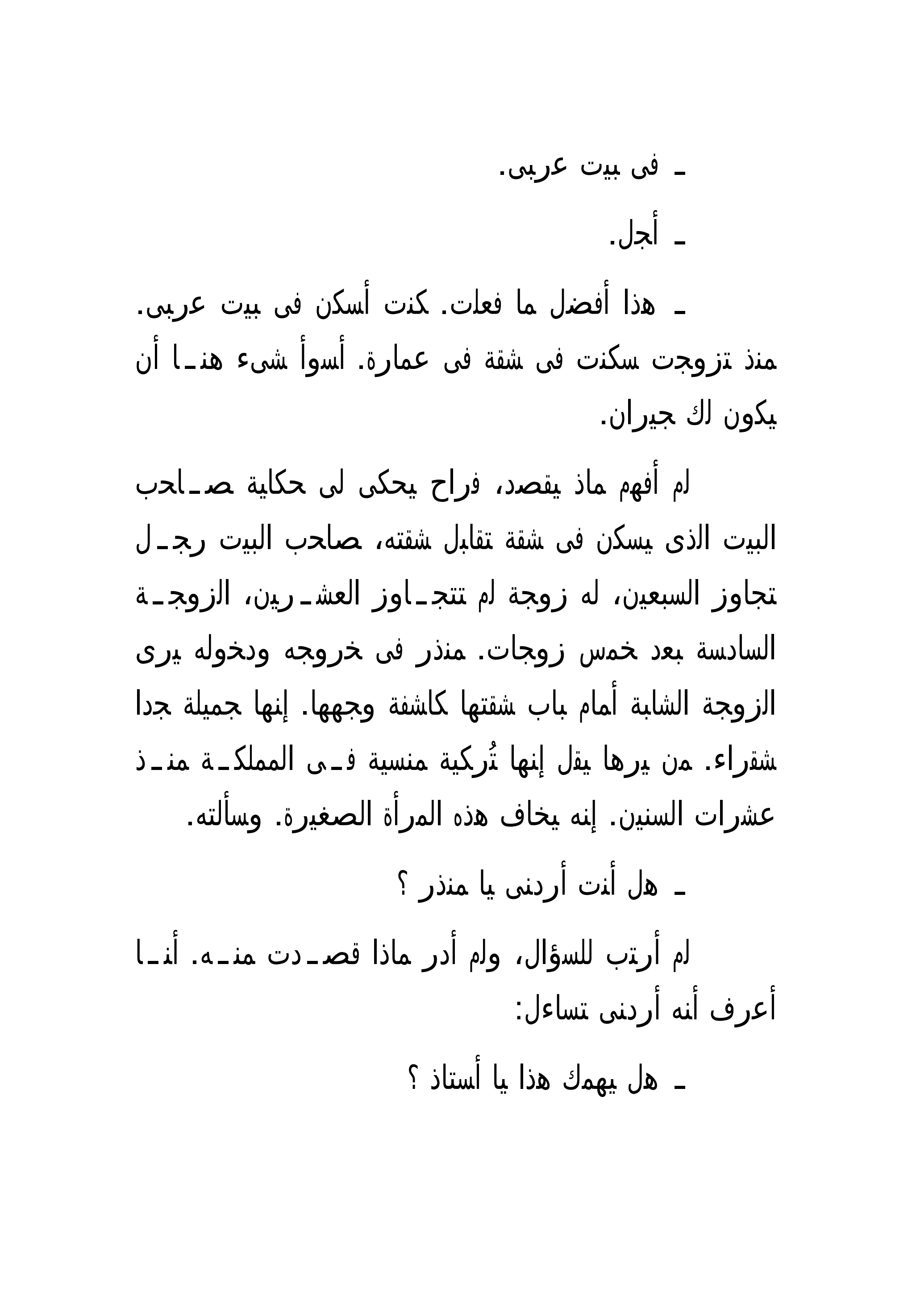
ـ ستركب معى كثيرا يا أستاذ .

وراح يقود السيارة على مهل رغم انكشاف الفضاء.

ـ سأترك السيارات التى تخلفت تسبقنا. لن أضايق أحدا.. قل لى يا أستاذ، هل تسكن وحدك ؟

رحت أتأمل وجهه المستدير الملىء بآثار بثور قديمة. بشرته بيضاء وعيناه خضراوان:

ـ أسكن مع أصدقاء.



ـ فى بيت عربى.

ـ أجل.

ـ هذا أفضل ما فعلت. كنت أسكن فى بيت عربى. منذ تزوجت سكنت فى شقة فى عمارة. أسوأ شىء هنـا أن يكون لك جيران.

لم أفهم ماذ يقصد، فراح يحكى لى حكاية صـاحب البيت الذى يسكن فى شقة تقابل شقته، صاحب البيت رجـل تجاوز السبعين، له زوجة لم تتجـاوز العشـرين، الزوجـة السادسة بعد خمس زوجات. منذر فى خروجه ودخوله يرى الزوجة الشابة أمام باب شقتها كاشفة وجهها. إنها جميلة جدا شقراء. من يرها يقل إنها تُركية منسية فـى المملكـة منـذ عشرات السنين. إنه يخاف هذه المرأة الصغيرة. وسألته.

ـ هل أنت أردنى يا منذر ؟

لم أرتب للسؤال، ولم أدر ماذا قصـدت منـه. أنـا أعرف أنه أردنى تساءل:

ـ هل يهمك هذا يا أستاذ ؟

ـ أبدا. أريد فقط أن أسـألك عـن الأردن، يقـول منصور إنها جميلة.

ضحك وقال:

ـ منصور! هذا مخبل يا أستاذ، هذا له قصة عجيبة سأحكيها لك فيما بعد، أظن أن بيتك قريب الآن.

كنت قبل أن أركب وصفت له البيت. وكنا وصـلنا فعلاً. ما كدت أفتح باب السيارة لأنزل حتى هتف:

ـ أستاذ. أنا لست أردنيا. أنا فلسطينى.

وكان ينظر إلى بتحدٍ غريب.

*****

(٥)

لماذا لا تحب النزول معى إلى السوق ؟

سألنى سعيد فجأة وهو يغلق الطاولة. كنا نجلس فـى الردهة وكان الوقت يدخل فى المساء. واستطرد.

ـ أنت تلعب شاردا اليوم. لقد خسرنا كثيرا.

لم أشأ أن أحدثه بشىء. ماذا يفيد القول بأنى أفكر فى الصمت الذى يحاصرنى فى العمل منذ أيام ؟ لا أعـرف أى خطأ ارتكبته مع "أرشد" الذى إذا جاء ليطلب من عابد شـيئًا وتصادف وجود عابد فى حجرتى، تجاهلنى ولم ينظر حتـى إلى. ينهى حديثه مع عابد بسرعة، وينصرف مطيعا لكل ما يقول. لا يحتج ولا يغضب. وحين أذهب إليه لأتابع التمرين على القيادة يتعامل معى بجدية شديدة.

يبدو دائما يغلق كل طريق لحديث آخـر. منـذر لا يزال يدخل ويخرج بسرعة، لكنه صار ينظر إلى فى خروجه ودخوله بتحد غير مفهوم، يبدو لى متحفزا للـرد علـى أى شىء أقوله أو أفعله. حتى فيليب الذى توسط عم عبد ا لـه لدى السلطات، ومنع ترحيله أو عقابه، لم يعد يحدثنى فيمـا

يصعب عليه من القرآن. يبدو غير مستعد للحوار فى شىء. يعرف أنى إذا تكلمت سأسأله عن الذى دفعه للسرقة، وهو لا يريد أن يخوض فى ذلك لكن هل يدعو الأمر حقًا لقطع كـل كلام .....؟

لقد بدا لى فى الأيام الأخيرة أنى شـخص لا يـأمن الناس جانبه. هكذا بلاسبب اقترفته. وقليلاً ما تذكرت عهدي لنفسي أن لا أكون مشاركًا فى الضيق الذى لا أعرف إلى أى وجهة أدفع به، حتى منصور الذى يبدو ضعيفاً أسـتطيع أن أزيح عليه بعضا من غيظى، عاد واختفى. لم يعد أمامى فى العمل غير عابد الذى لا يمضى من الوقت إلا القليـل فـى المكتب، ودائما فى أعمال عم عبد ا الخاصة، ونبيل الـذى قال لى منذ أيام: "لا تصدق ما حدثتك فيه بشأن الخازنة"، ثم انقطع عن كل كلام معي. يقدم القهوة فى صمت ويمضي. أنا واليمنى العجوز فقط نتبادل الابتسام من بعيد.

قلت لسعيد:

ـ إننى فعلاً بحاجة للنزول معك إلى السوق.

وقمنا نرتدى ثياب الخروج، كل فى غرفتـه. اليـوم جمعة. يوم يكون معظم العمل فيه علـى، فسـعيد يصـحو متأخرا ويخرج إلى الجامع، ويظل فيه حتى الصلاة، ووجيه عادةً ما يمضى الليلة فى المستشفى، ويأتى إلى البيت صباح الجمعة لينام. يكون على أنا الذى لا يصلى، ولا يعمل لـيلاً، أن يعد طعام الغداء. طعامنا يوم الجمعة يكون مصريا. سمك مقلى وسمك فى الصلصة وباذنجان مقلى وبطاطس مقليـة و فول وفلفل أخضر مقلى أيضا وأرز بالخلطة وطبق كبير من السلاطة وعصير ليمون أو برتقال. لقد تعلمت عمل ذلك كله من سعيد.

يقوم وجيه بعد الصلاة ليتغدى معنا، ويخـرج إلـى المستشفى ولا يعود قبل العاشرة. نجلس أنا وسـعيد نتفـرج على التليفزيون، أو نلعب الطاولة. نحرص دائمـا أن نـرى حديث الشيخ على طنطاوى. شيخ تجاوز الخمسين له وجـه أليف. مشرق البشرة، تحوطه لحية قصيرة بيضاء، يتحـدث كأنه يجلس معك ويخاطبك أنت وحدك بألفة قديمة. يتحـدث فى أعمق المسائل الفقهية ببساطة نادرة تصل إلى كل عقل،

لذلك فيما يبدو تقاسمه الناس. قالوا إنه فى الأصل مصـرى، وقالوا إنه سورى، وقالوا إنه مغربى، وأردنى وفلسطينى.

على أني لم أكن بحاجة إلى النزول إلى السوق بسبب ما يحاصرني فى العمل من صمت مفاجئ. هنا أيضا نـوع آخر من الصمت فى البيت الذى أجببته وأحببت العودة إليـه والبقاء فيه أطول وقت. بان لي أن حياتنا تمشى على إيقـاع ثابت و أنه لا شىء يربط بيننا غير أننا غرباء. نضحك كثيرا لكن على حكايات نحكيها عن غيرنا. لم يحدث أن خـاض واحد منا فى أمر خاص أمام زميليه.

أنا أيضا لا أفعل ، ليس عن قصد. ولا يبدو أنهمـا أيضا يقصدان ذلك. لابد أن كلاً منّا لايـزال مشـدودا إلـى الطرف الآخر البعيد.. الوطن والأهل، حقيقة أننـا سـنعود يوما، لابد أن تفعل الدنيا فعلها وتسد بيننا وبين مـا حولنـا، ولأن كلاً منا مطمئن إلى عودة ظافرة، لا يبدو أن للقلـق أو للخوف منفذًا يتسرب منه إليها. أى حياة هذه التى تبدو نظيمة مثل درس فى قواعد اللغة. كل شـىء حـولى بـارد إذن وخروجى اليوم إلى السوق لا يزيد على ابتسامة باهتة.

*****

ركبنا سيارة سعيد الداتسون. جسنا قليلاً فـى أزقـة جانبية حتى دخلنا إلى الشارع العام. هل يصدق أحد أن هذه ثانى مرة أرى الشارع العام رغم مرور أكثر من شهر على وصولى. لا يزال الشارع مزدحما كـأنى أراه لأول مـرة. كأنى تركته منذ قليل وعدت إليه. لكننا ندخل فـى المسـاء. أضيئت المصابيح على الجانبين ورأيت القمـر عاليـا فـى السماء هلالاً صغيرا.

- المشى أفضل.

قال سعيد بعد أن جنح بسيارته إلى زقاق جانبى، كنا قطعنا نصف الشارع العام تقريبا. توقف وتركنـا السـيارة وعدنا نمشى.

رصيف الشارع العام ضـيق بالمـارة والبضـائع. صمت بشرى غريب ورطوبة عالية مفاجئة فى الجـو منـذ أمس. يبدو أن الصيف يلفظ آخر أنفاسه. نحن فـى أكتـوبر الآن، فى منتصفه، وفى النصف الثانى من ذى القعدة، أسابيع قليلة ويهل علينا العيد الكبير والحج. لقد بدأ التليفزيون يبـث برنامجا خاصا عن الحج وشعائره. لافتات "النوفوتيه" هـى الأكثر شيوعا فى الشارع. فكرت أن أشـترى شـيئًا لأمـى

وإخوتى وتراجعت.. لا أعرف أحدا مسافرا إلى الإسـكندرية لأرسلها معه، ولا أعرف أحدا يسافر فى الوقت القريب.

الآن أرى السوق أفضل مما رأيته أول مرة. أمشـى على مهل وسعيد لا يتعجلنى فى شىء، لكنى لا أشعر بـأى غرابة. هل كان مشهد السوق غريبا أول مرة حقًا، أم مشهد عربة الشرطة والفتاة المسكينة فوقها؟ الآن لا أدرى ما حولى يختلف كثيرا عن سوق المنشية بالإسكندرية، فقـط لا أحـد ينادى على بضائعه، وأشكال الناس هى التى تختلف.

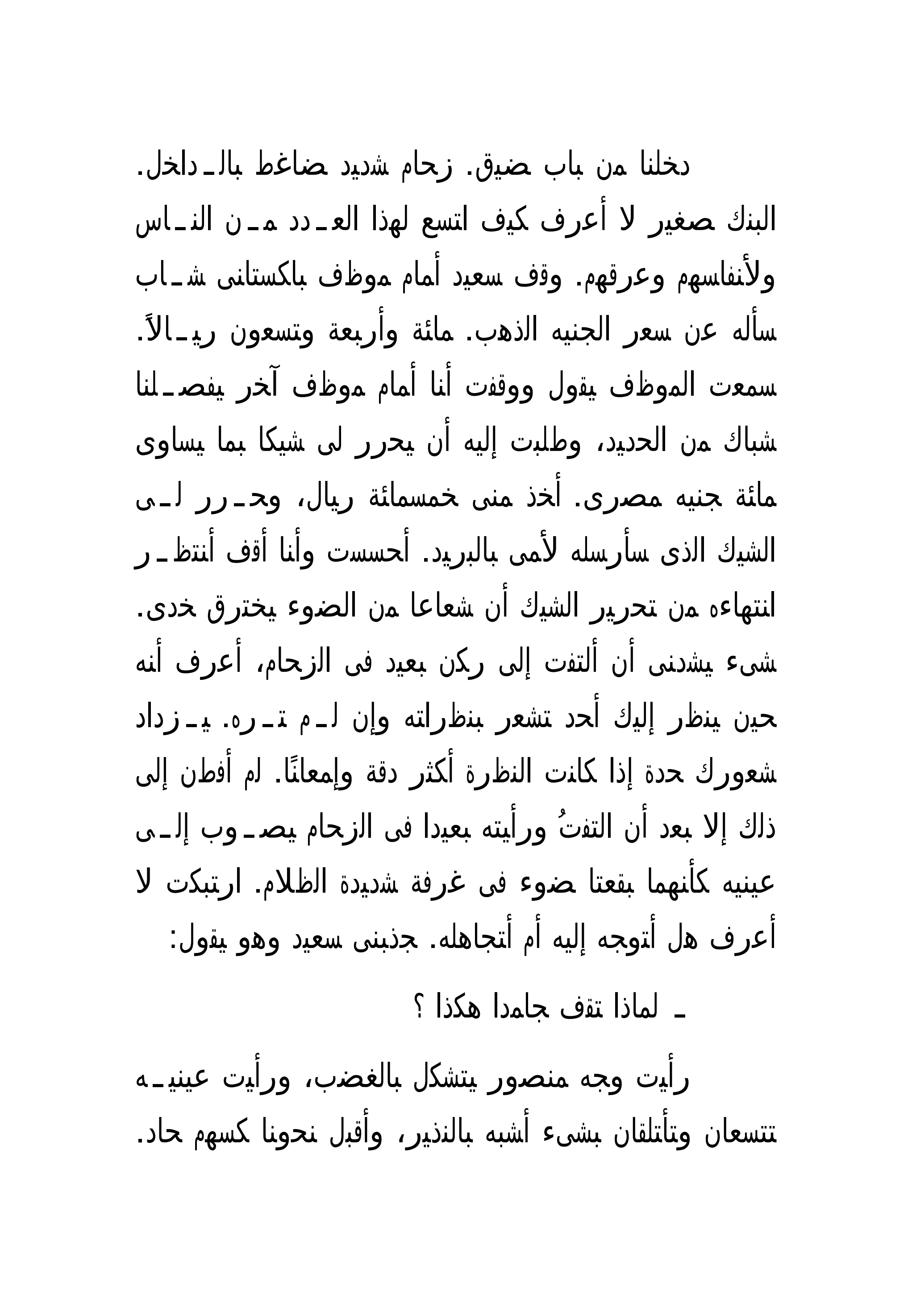
ـ تستطيع أن تحول نقودك إلى مصر عن طريـق بنك الراجحى. إنه أشهر بنك هنا. قال سعيد حين رآنى أتطلع إلى لافتة البنك. قلت:

ـ أنا فعلاً فى حاجة لإرسال مائة جنيه لأمى.

ـ وأنا أريد أن أسأل عن سعر الجنيه الذهب.

وجذبنى من يدى لندخل ، وأضاف:

ـ وجيه سيسألنى بالليل عن ذلـك. إنـه يحـب أن يشترى بفلوسه ذهبا، يقول إن الذهب أفضل من الدولارات.



دخلنا من باب ضيق. زحام شديد ضاغط بالداخل. البنك صغير لا أعرف كيف اتسع لهذا العدد من الناس ولأنفاسهم وعرقهم. وقف سعيد أمام موظف باكستانى شاب سأله عن سعر الجنيه الذهب. مائة وأربعة وتسعون ريالاً. سمعت الموظف يقول ووقفت أنا أمام موظف آخر يفصلنا شباك من الحديد، وطلبت إليه أن يحرر لى شيكا بما يساوى مائة جنيه مصرى. أخذ منى خمسمائة ريال، وحرر لى الشيك الذى سأرسله لأمى بالبريد. أحسست وأنا أقف أنتظر انتهاءه من تحرير الشيك أن شعاعا من الضوء يخترق خدى. شىء يشدنى أن ألتفت إلى ركن بعيد فى الزحام، أعرف أنه حين ينظر إليك أحد تشعر بنظراته وإن لم تره. يزداد شعورك حدة إذا كانت النظرة أكثر دقة وإمعانًا. لم أفطن إلى ذلك إلا بعد أن التفتُ ورأيته بعيدا فى الزحام يصوب إلى عينيه كأنهما بقعتا ضوء فى غرفة شديدة الظلام. ارتبكت لا أعرف هل أتوجه إليه أم أتجاهله. جذبنى سعيد وهو يقول:

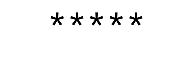
- لماذا تقف جامدا هكذا ؟

رأيت وجه منصور يتشكل بالغضب، ورأيت عينيه تتسعان وتأتلقان بشىء أشبه بالنذير، وأقبل نحونا كسهم حاد.

توقعت أن يسىء إلى لا أعرف لماذا أتوقع منه الإساءة دائما، لكنه تجاوزنا بسرعة وخرج يشُق له طريقًا بكتفيه.

لماذا تقف، ألا تسمعنى ؟

هتف سعيد وهو يهزنى. كان عرقٌ غزيز قد تفصـد على عنقي ووجهى. أخذت الشيك الـذى أعـده الموظـف الباكستانى، وتركت سعيدا يشدنى من ذراعى للخروج.



ـ مالك ؟

لم أرد. مشينا نقابل أعدادا من الباكستانيين السـمر، والأفغان البيض حمر اللحى، باللحى فقـط تميـز الأفغـان، وربما أيضا بنظرة الذهول فى عيونهم. ملابسهم لا تختلـف عن ملابس الباكستانيين.

القميص نفسه الطويل والسروال الفضفاض الذى قال عنه نبيل مرة وهو يضحك إنه صنع خصيصا للطفـو فـوق مياه الفيضانات التى تتحدث عنها نشرات الأخبار كل يوم.

قابلتنا أيضا جماعات من الكوريين يمشون مسرعين. وكلما قابلتنا امرأتان معا يقول سعيد: "مصريات" يشرح لـى

كيف يمشين اثنتين اثنتين. نادرا ما تمشى امـرأة وحـدها. المرأة مع زوجها أو صديقتها. ورأيت أمام أحـد المحـلات عددا من الأوروبيين، وربما الأمريكان، يشربون السفن آب، وتضحك بجرأة. لم أر غيرها فى طول الشارع.

أمام محل بقالة ضخم وقفنا ..... أقبل علينا العامل تاركًا بقية زبائنه ،

لاحظت أنه فى نهاية المحل من الداخل يجلس رجل فوق الأرض مستندا إلى حشايا صغيرة جوار الحائط، وقد مد ساقيه وراح يدخن النرجيلة، أعطى سعيد ورقة للعامل الذى صافحه مبتسما.

ـ سنعود بعد ساعة.

قال سعيد، فرد العامل وهو يزداد ابتساما:

ـ فى أمان ا .

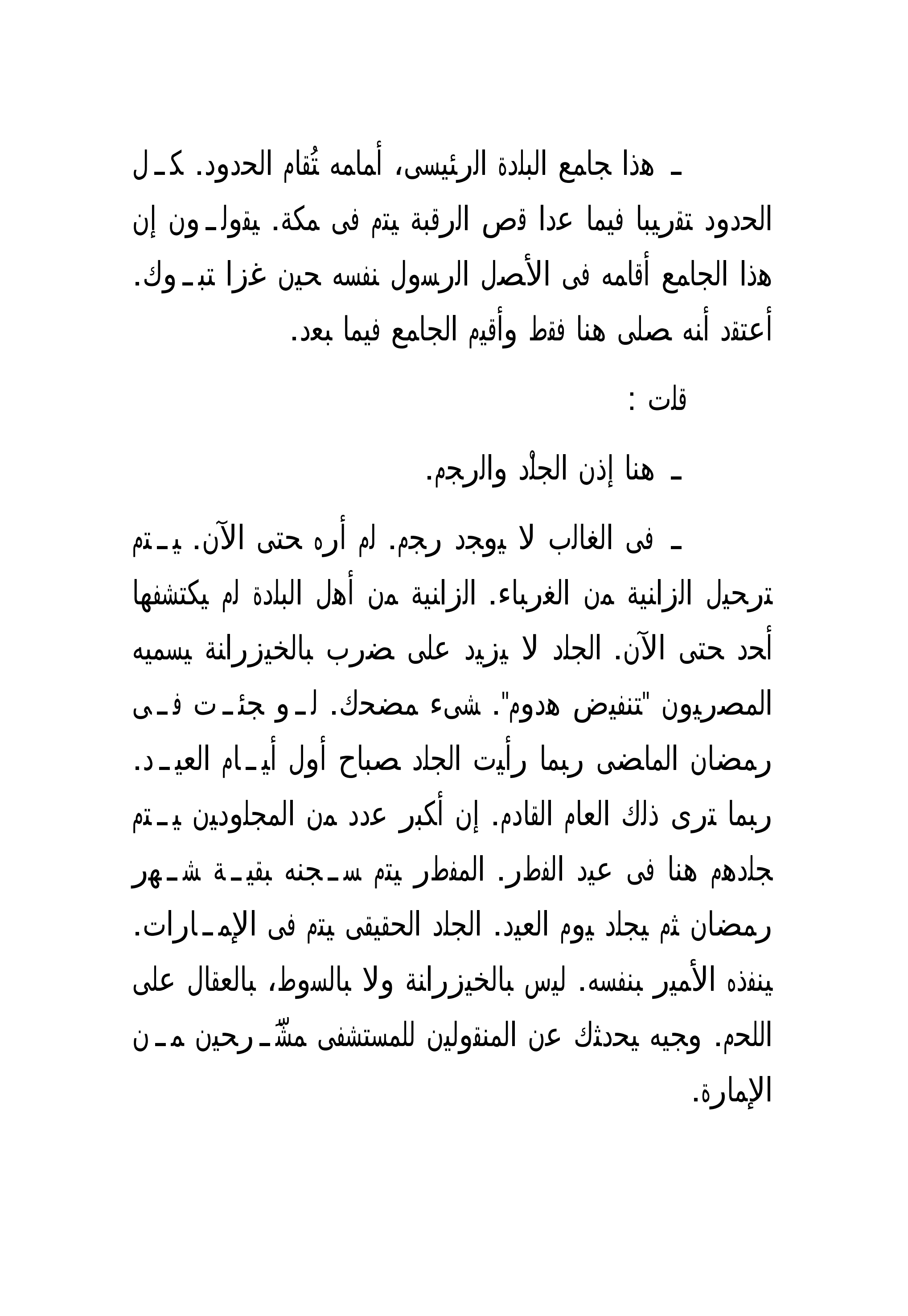
ومشينا. قال سعيد:

ـ الرجل الذى يدخن النرجيلة هو صاحب المحـل. العامل يمنى اسمه محمد، يحـب المصـريين جـدا ويحبـه

المصريون. ذكى ولماح. كل اليمنيين أذكياء. سنعود بعد ساعة، يكون جهز لنا كل شىء.

وتابعنا المشى، رأيت إضاءة الشارع تقل، والزحام يخف، والمحلات تتباعد، وتظهر بعض المبانى القديمة والخرابات، حتى وصلنا إلى مكان مظلم تماما، ووقفنا نشم رائحة المخللات.

محل صغير به مصباح واهن، ورجل مسن محنى الظهر، تقدم سعيد نحوه وتقدمت معه. طلب سعيد من الرجل أن يجهز لنا كيسا بخمسة ريالات، بينما رحت أتطلع إلى البراميل المصفوفة حتى سقف المحل، وإلى البراميل الصغيرة المكشوفة التى فى بعضها بصل أصفر وأبيض يسبح فى مياه حمراء، وفى الأخرى خيار متراكم فى تراخٍ، تطفو بذوره فوق الماء، وفى غيرها قطع اللفت الحمراء والبيضاء وقرون الفلفل الأخضر، لم يكن هناك غيرنا والظلام، والهلال البعيد لا يضىء شيئًا. وتخيلت البراميل مليئة بالديناميت الذى سينفجر فى الحال. رحت أنظر فى الظلام إلى الجامع واضح المعالم أمامى. جامع كبير لكنه مغلق، ومنازل كثيرة بيضاء منخفضة خلفه.

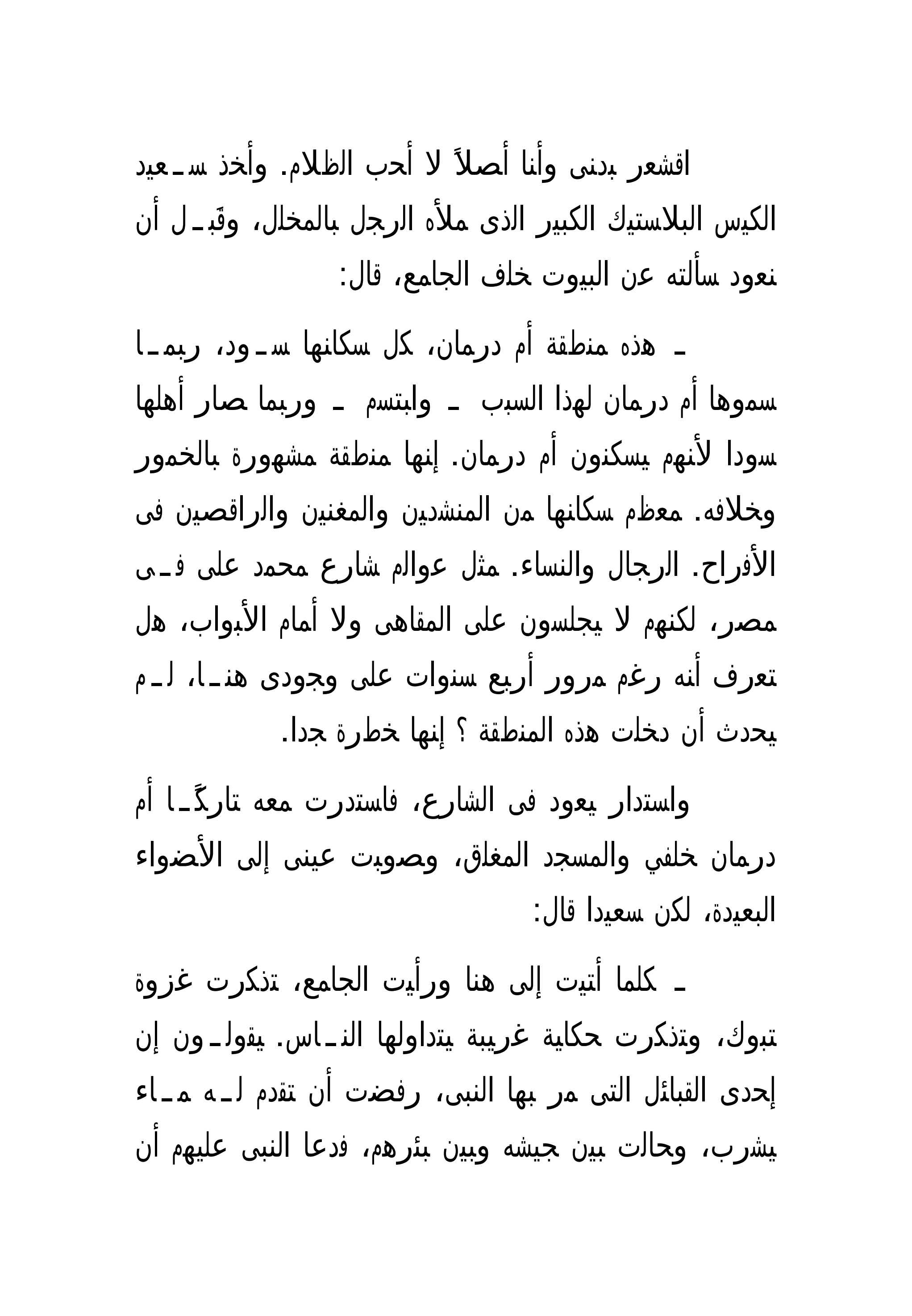


ـ هذا جامع البلدة الرئيسى، أمامه تُقام الحدود. كـل الحدود تقريبا فيما عدا قص الرقبة يتم فى مكة. يقولـون إن هذا الجامع أقامه فى الأصل الرسول نفسه حين غزا تبـوك. أعتقد أنه صلى هنا فقط وأقيم الجامع فيما بعد.

قلت :

ـ هنا إذن الجلْد والرجم.

ـ فى الغالب لا يوجد رجم. لم أره حتى الآن. يـتم ترحيل الزانية من الغرباء. الزانية من أهل البلدة لم يكتشفها أحد حتى الآن. الجلد لا يزيد على ضرب بالخيزرانة يسميه المصريون "تنفيض هدوم". شىء مضحك. لـو جئـت فـى رمضان الماضى ربما رأيت الجلد صباح أول أيـام العيـد. ربما ترى ذلك العام القادم. إن أكبر عدد من المجلودين يـتم جلدهم هنا فى عيد الفطر. المفطر يتم سـجنه بقيـة شـهر رمضان ثم يجلد يوم العيد. الجلد الحقيقى يتم فى الإمـارات. ينفذه الأمير بنفسه. ليس بالخيزرانة ولا بالسوط، بالعقال على اللحم. وجيه يحدثك عن المنقولين للمستشفى مشّـرحين مـن الإمارة.



اقشعر بدنى وأنا أصلاً لا أحب الظلام. وأخذ ســعيد الكيس البلاستيك الكبير الذى ملأه الرجل بالمخال، وقبــل أن نعود سألته عن البيوت خلف الجامع، قال:

ـ هذه منطقة أم درمان، كل سكانها ســود، ربمــا سموها أم درمان لهذا السبب ـ وابتسم ـ وربما صار أهلها سودا لأنهم يسكنون أم درمان. إنها منطقة مشهورة بالخمور وخلافه. معظم سكانها من المنشدين والمغنين والراقصين فى الأفراح. الرجال والنساء. مثل عوالم شارع محمد على فــى مصر، لكنهم لا يجلسون على المقاهى ولا أمام الأبواب، هل تعرف أنه رغم مرور أربع سنوات على وجودى هنــا، لــم يحدث أن دخلت هذه المنطقة ؟ إنها خطرة جدا.

واستدار يعود فى الشارع، فاستدرت معه تاركًــا أم درمان خلفي والمسجد المغلق، وصوبت عينى إلى الأضواء البعيدة، لكن سعيدا قال:

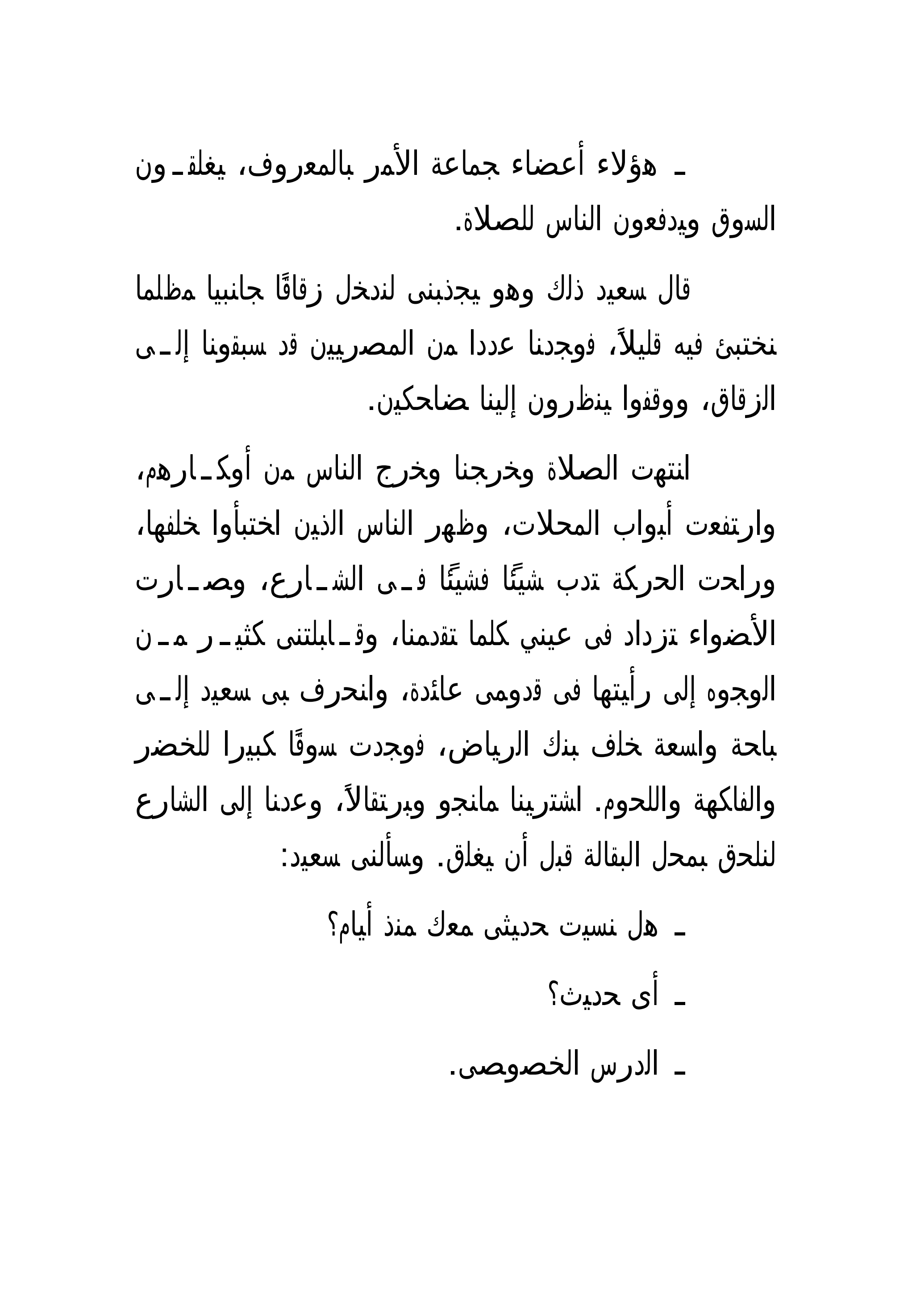
ـ كلما أتيت إلى هنا ورأيت الجامع، تذكرت غزوة تبوك، وتذكرت حكاية غريبة يتداولها النــاس. يقولــون إن إحدى القبائل التى مر بها النبى، رفضت أن تقدم لــه مــاء يشرب، وحالت بين جيشه وبين بئرهم، فدعا النبى عليهم أن

ينقرض أفراد هذه القبيلة، وتظل حتى يوم القيامـة لا يزيـد عددها على عشرين، عشرين امرأة ورجلاً وطفلاً فقط، كلما ولد مولود مات أحد أفراد القبيلة إنها اللعنة التى يتحدث عنها الناس هنا. هل تظن أن ذلك صحيح ؟

وقبل أن أجيب أضاف:

- لا تتكلم.. إنها حكاية مرعبة لا أحب تذكرها.

ومشينا صامتين، لكنى تذكرت منذرا حين قال عـن البلدة إنها ملعونة يوم حاصرنا "العج" لابد أن منـذرا كـان يقصد ذلك. أمر بشع بحق إلا أظن أن الرسول لا يفعل ذلـك بأحد. لا أظن أن أحدا رأى أحدا من هذه القبيلة. هى قصـة مرعبة اخترعها مجنون. إلا أنى أحسست بخوف حقيقى لـم ينقذنى منه إلا سماعى صوت أذان العشاء عاليا يصدر مـن جامع بعيد لا أراه. ورأيت المحلات تغلق أبوابها، والمـارة يدخلون فى الأزقة، ورجلين مسنين ذوى لحيتين بيضـاوين طويلتين، يمشيان على الرصيف يحمل كل منهما فى يده درة يضرب بها من يقابله ضربة خفيفة بصوت عـالٍ: "صـلّوا صلّوا".



ـ هؤلاء أعضاء جماعة الأمر بالمعروف، يغلقون السوق ويدفعون الناس للصلاة.

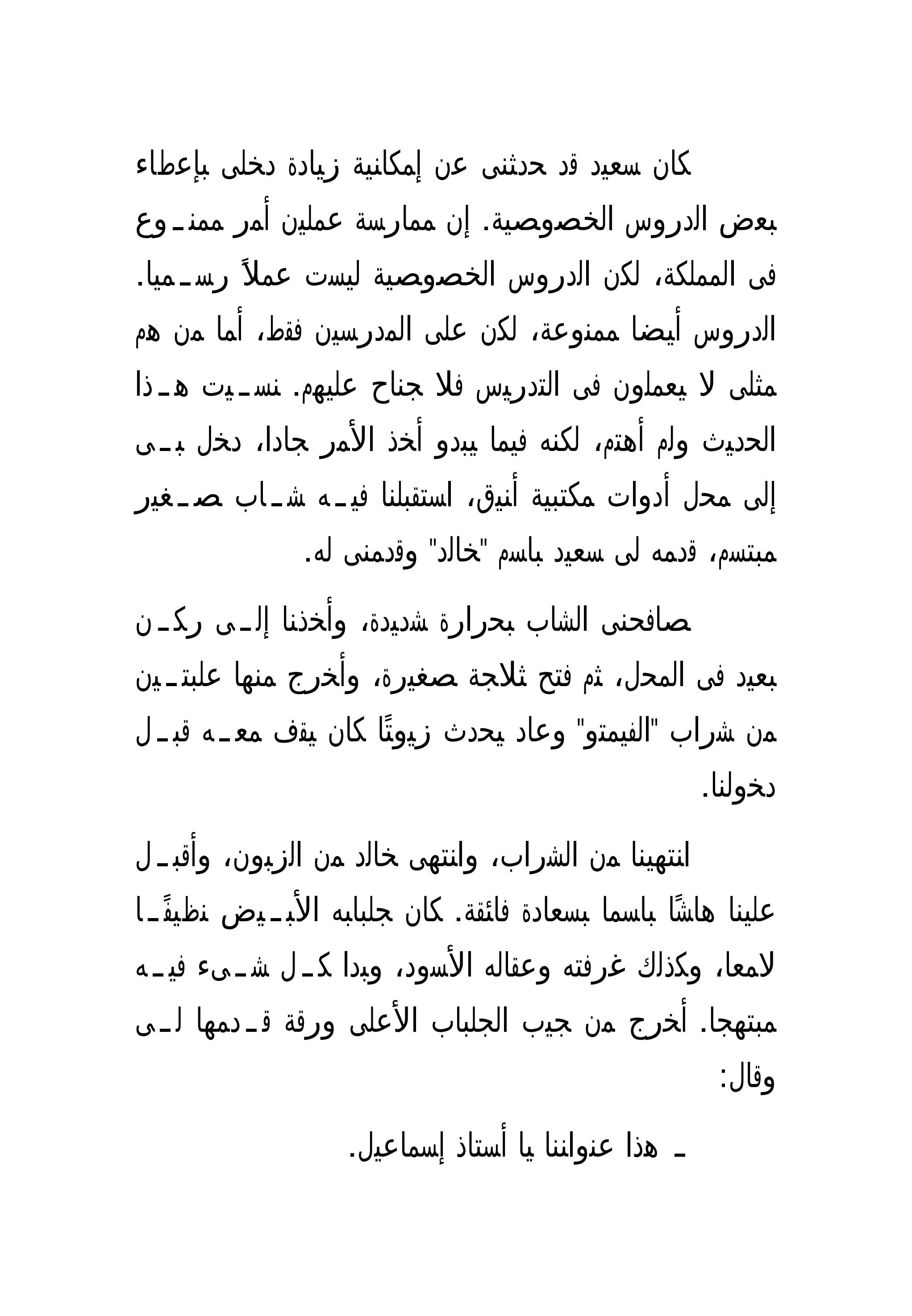
قال سعيد ذلك وهو يجذبنى لندخل زقاقًا جانبيا مظلما نختبئ فيه قليلاً، فوجدنا عددا من المصريين قد سبقونا إلى الزقاق، ووقفوا ينظرون إلينا ضاحكين.

انتهت الصلاة وخرجنا وخرج الناس من أوكارهم، وارتفعت أبواب المحلات، وظهر الناس الذين اختبأوا خلفها، وراحت الحركة تدب شيئًا فشيئًا فى الشارع، وصارت الأضواء تزداد فى عيني كلما تقدمنا، وقابلتنى كثير من الوجوه إلى رأيتها فى قدومى عائدة، وانحرف بى سعيد إلى باحة واسعة خلف بنك الرياض، فوجدت سوقًا كبيرا للخضر والفاكهة واللحوم. اشترينا مانجو وبرتقالاً، وعدنا إلى الشارع لنلحق بمحل البقالة قبل أن يغلق. وسألنى سعيد:

ـ هل نسيت حديثى معك منذ أيام؟

ـ أى حديث؟

ـ الدرس الخصوصى.



كان سعيد قد حدثنى عن إمكانية زيادة دخلى بإعطاء بعض الدروس الخصوصية. إن ممارسة عملين أمر ممنوع فى المملكة، لكن الدروس الخصوصية ليست عملاً رسميا. الدروس أيضا ممنوعة، لكن على المدرسين فقط، أما من هم مثلى لا يعملون فى التدريس فلا جناح عليهم. نسيت هذا الحديث ولم أهتم، لكنه فيما يبدو أخذ الأمر جادا، دخل بى إلى محل أدوات مكتبية أنيق، استقبلنا فيه شاب صغير مبتسم، قدمه لى سعيد باسم "خالد" وقدمنى له.

صافحنى الشاب بحرارة شديدة، وأخذنا إلى ركن بعيد فى المحل، ثم فتح ثلاجة صغيرة، وأخرج منها علبتين من شراب "الفيمتو" وعاد يحدث زبونًا كان يقف معه قبل دخولنا.

انتهينا من الشراب، وانتهى خالد من الزبون، وأقبل علينا هاشًا باسما بسعادة فائقة. كان جلبابه الأبيض نظيفًا لامعا، وكذلك غرفته وعقاله الأسود، وبدا كل شىء فيه مبتهجا. أخرج من جيب الجلباب الأعلى ورقة قدمها لى وقال:

- هذا عنواننا يا أستاذ إسماعيل.

أمسكت بالورقة لا أدرى بالضبط كيف أتصرف ولا ما هو المطلوب منى، وقال خالد:

لا تفكر بالمكافأة يا أستاذ. سنعطيك ما هو طيب. إن أختى تلميذة ذكية لا ينقصها إلا أشـياء قليلـة فـى اللغـة الإنجليزية.

إذن رتب سعيد كل شىء واتفق مع هذا الشاب على أن أعطى دروسا لأختـه. يـاإلهى! دروس لفتـاة.. وهنـا بالمملكة؟ ولابد أن الدم ارتفع إلى وجهى ولم أدر إلا بخالـد وقد انصرف من أمامى ليعود وفى يده علبة بها قلمان شيفر مذهبان، وقدم لى العلبة الأنيقة قائلا:

ـ هذه عربون محبة يا أستاذ. متى تحضر؟

ـ بعد أسبوع.

لا أعرف لماذا قلت ذلك. هذا ما حـدث علـى أى حال. رأيت سحابة داكنة تطفو على وجه خالد، لكنه سرعان ما ابتسم وقال:

ـ إن شاء ا يا أستاذ.

قلت:

ـ فى أمان ا .

ومددت يدى أصافحه، فأخذها بين يديه، وشد عليهـا بقوة. ثم صافح سعيدا. ما كدنا نلتفت لنخرج حتى هتف:

ـ أستاذ:

توقف. اقترب منى. همس:

ـ أرجوك أن تحضر ولا تخذلنى:

لم أدر كيف أرد. كنت أفكر كيف قبلت هديته بهـذه السهولة.

قلت:

ـ لا تقلق. سأحضر فى الموعد.

شد علَى يدى من جديد بقوة الذى يعقد حلفًا، أو يقطع عهدا بالوفاء إلى الأبد.

بعد العشاء رحنا نتفرج على التليفـزن فـى ردهـة البيت.

سألنى سعيد:

ـ ألن تحج؟

أجبت:

ـ نعم.

قال:

ـ إذن ستمضى العيد وحدك.

وسكتنا قليلاً حتى قال.

ـ أنا سأحج للمرة الثانيـة. وجيـه سـيحج للمـرة الرابعة. أليس كذلك يا دكتور؟

أجاب وجيه:

ـ صحيح لكنى هذه المرة سوف أحد لأمى.

ابتسمتُ وتساءلتُ:

ـ هل يمكن ذلك؟

أجاب سعيد:

ـ يمكن. ألم تر حديث الحج أمس فى التليفزيـون؟ المهم أن يحج الإنسان لنفسه. أولاً:

وضحك واستطرد:

ـ وجيه فى الحقيقة سيحج لأمه من بـاب التـوفير. بدلاً من أن يرسل إليها تذكرة. ويستقبلها ويتحمل همها، يحج لها.

فوجئت بوجيه يقول ببرود.

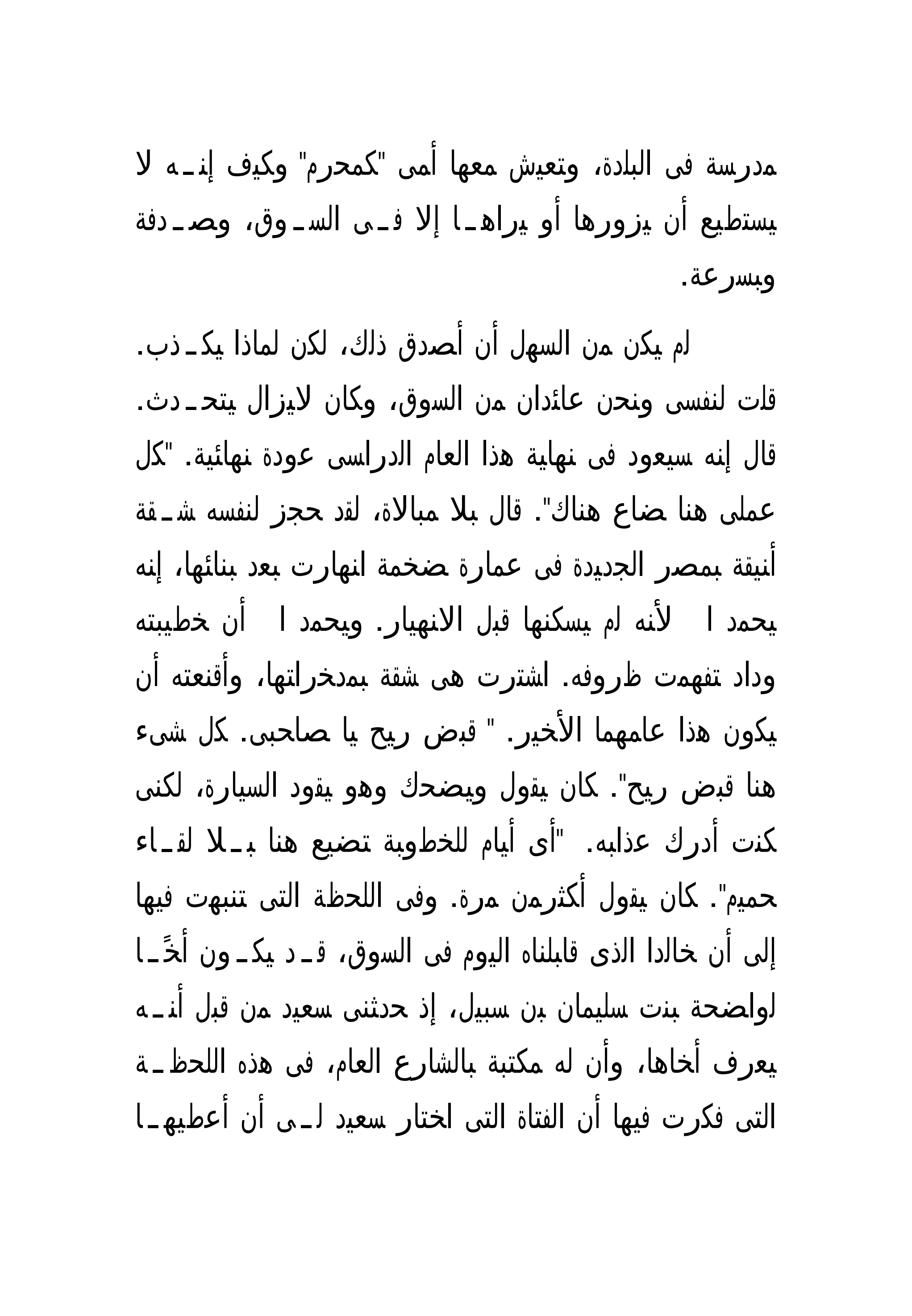
ـ هذا حقيقى، لكن الحج الآن أيضا صار شيئًا شاقًا. أنا أوفر على أمى المشقة هل ترانى مخطئًا يا إسماعيل؟

ـ لا .. مادام الإسلام يرخص ذلك لا غبـار علـى الفكرة.

قلت ذلك غير مقتنع بكلامه، لكن ما فائدة الجدل فى المسألة برمتها، ووجيه من النوع الـذى لا يتزحـزح عـن أفكاره، وقال يخاطب سعيد:

ـ هذا رجل لن يحج لكن يقول الحقيقـة ولا يلجـأ للغمز واللمز.

ضحك سعيد، وانشغل وجيه فجأة بكتابة رسالة على الضوء المنبعث من شاشة التليفزيون. وفكرت أنا فى سـعيد الذى حدثنى اليوم لأول مرة عن خطيبته "وداد" التى تعمـل



مدرسة فى البلدة، وتعيش معها أمى "كمحرم" وكيف إنـه لا يستطيع أن يزورها أو يراهـا إلا فـى السـوق، وصـدفة وبسرعة.

لم يكن من السهل أن أصدق ذلك، لكن لماذا يكـذب. قلت لنفسى ونحن عائدان من السوق، وكان لايزال يتحـدث. قال إنه سيعود فى نهاية هذا العام الدراسى عودة نهائية. "كل عملى هنا ضاع هناك". قال بلا مبالاة، لقد حجز لنفسه شـقة أنيقة بمصر الجديدة فى عمارة ضخمة انهارت بعد بنائها، إنه يحمد ا لأنه لم يسكنها قبل الانهيار. ويحمد ا أن خطيبته وداد تفهمت ظروفه. اشترت هى شقة بمدخراتها، وأقنعته أن يكون هذا عامهما الأخير. " قبض ريح يا صاحبى. كل شىء هنا قبض ريح". كان يقول ويضحك وهو يقود السيارة، لكنى كنت أدرك عذابه. "أى أيام للخطوبة تضيع هنا بـلا لقـاء حميم". كان يقول أكثرمن مرة. وفى اللحظة التى تنبهت فيها إلى أن خالدا الذى قابلناه اليوم فى السوق، قـد يكـون أخًـا لواضحة بنت سليمان بن سبيل، إذ حدثنى سعيد من قبل أنـه يعرف أخاها، وأن له مكتبة بالشارع العام، فى هذه اللحظـة التى فكرت فيها أن الفتاة التى اختار سعيد لـى أن أعطيهـا

درسا قد تكون واضحة نفسها، فى اللحظة التى كـدت فيهـا اندفع أسأله، بدأ المذيع يتلو نشرة الأخبار الأخيرة بصـوت عالٍ نافذ. قال:

"بسم ا الرحمن الرحيم".

ولكم فى القصاص حياةٌ يا أولى الألباب...

"وافق اليوم مفتى مكة، على إقامة الحد بالسيف، على مالك بن عبد ا بن مالك، الذى قام فى رمضـان المعظـم الماضى، بخطف فتاة كانت ترعى الغنم فـى تخـوم مكـة، وهرب بها إلى الطائف، وهناك أقام والشيطان خيمـة بـين الجبال، وأخذ يعاشر الفتاة بالقوة معاشرة الأزواج، لقـد تـم اكتشاف وكر الزنديق هذا الأسـبوع، وهاجمتـه قـوة مـن الشرطة، لكنه كان مسلحا برشاش استطاع به أن يقتل أحـد أفراد القوة المهاجمة التى مكنها ا عز وجل مـن القـبض عليه حيا..".

ـ هل سبق لك أن رأيت تنفيذ الإعدام بالسيف؟

سألنى وجيه ببرود. أجبت:

ـ لا.

وتحسست عنقى..

*****

(٦)

زحام شديد من الأتوبيسـات الكبيـرة والصـغيرة، وسـيارات البيجـو والمرسـيدس والشـيفروليه والتويوتـا والداتسون والهونداى والفيات وماركات أخرى لا أعرفهـا، تشغل الطريق القادم من الشمال، طريق المطار، المتجه إلى الجنوب.

تبوك أول البلاد الكبيرة فى الجزء الشمالى الغربـى من المملكة، هنا يبيت الحجاج ليلة أو ليلتين فى الخلاء جوار السيارات. الوصول إلى تبوك معناه الاطمئنان.

الرحلة بعد ذلك سهلة وفى أرض مقدسة. فى تبـوك يقوم المستشفى بدور الحجر الصحى، فيـتم الكشـف علـى الحجاج القادمين من الشمال، من الشام وتركيا.

فى طريقى إلى العمل كل صباح أرى هذا الزحـام، وأرى النساء والرجال وقليلاً من الأطفال، وقد جلسوا علـى الأرض جوار سياراتهم يتناولون إفطـارهم فـى صـمت، والسيارات والأتوبيسات واقفة تشغل جانبى الطريق.

قوافل الحجاج الأتراك هى التى تفقأ عينى فى ذهابى وعودتى من العمل، فقراء شبه عراة، إنهم بعيدون دائما عن السيارات. لقد جاءوا مشيا على الأقدام.، وسيستمرون كـذلك حتى يصلوا إلى مكة. ينامون فى الخلاء، يساعدهم أن البرد لم يشتد بعد، ومعهم أمتعة قليلة ربما لا تزيد على أغطية من الصوف الخشن.

لم تدهشنى أعداد السيارات والأتوبيسات. أدهشـنى أولئك القادمون على الأقدام وكأننا بعد لم نفـارق العصـور القديمة التى قرأنا فيها عن قوافل الحجاج القادمة مشيا مـن المغرب والأندلس، أو على ظهور الجمال، والخارجـة مـن مصر تحرسها قوات من المماليـك لتصـد عنهـا غـارات الأعراب. كل الحكام المماليك كانت مشكلتهم تأمين طريـق الحج من غارات البدو، حتى جاء محمد على الكبيـر الـذى احتل أرض الحجاز نفسها فَأمن الطريق نهائيا. كل الحكـام القدامى كانت مشكلتهم تأمين طريـق الحـج إلا، يـاإلهى، إسرائيل.

مشت على طريق الحج القديم وهى تطوق سيناء من الجنوب عام ١٩٦٧، بالضبط كما مشت على طريق الساحل

الشمالى حيث مشى سيدنا إبراهيم، ودخلت العريش، حيـث عرش هو لأول مرة بالضبط كما اندفعت من الوسـط فـوق هضبة التيه، حيث شق بنوها يوما عصا الطاعة على موسى الكليم، ولم يضلوا هذه المرة. لقد حفظوا الطريـق. مشـت إسرائيل وداست على كل الطرق المقدسة فى أمان لم يحدث لأحد، وقالت: الأرض أرضنا نعرفها والأنبياء أنبياؤنـا ولا فرعون يستطيع أن يجبر أحدا منا على الكذب ولا الخروج. أبونا إبراهيم كان طيبا كذب لينجو مـن فرعـون بامرأتـه، وأخونا موسى كان طيبا لأنه أقنعنا بالفرار. اليوم عدنا وهـا هن بنات إبراهيم يسبحن أمامكم فى المياه فمن منكم بقـادر على منعهن؟ لقد جاء فرعون أخيرا إلينـا يطلـب الغفـران وسنعطيه ما أخذنا منكم بشرط أن تتنزه بنات إبـراهيم فـى أسواقكم، ولن يكذب رجالنا بعد اليوم.

ستترك إسرائيل طريق الحج فى سيناء، لكن لا أحـد يمشى عليه الآن. الحج بالسفن والطائرات. لا أحد يأتى مشيا إلا هؤلاء الأتراك المتعبون. لكن الحج هنا صامت صـامت. لا صوت ليلى مراد ينشد "يارايحين للنبى الغالى" ولا محمـد الكحلاوى يملأ الفضاء بـ "لأجل النبى" ولا أعـلام بيضـاء

مرفوعة فوق السيارات، ولا زغاريد تنطلـق، ولا أظـن أن الناس هنا تعرف شيئًا على الحركة الوهابية والتقاليـد التـى أرستها. الحجاج القادمون بالسيارات وعلى الأقدام متعبـون، مشغولون باستكمال الطريق والتزود بالطعام، ينزلـون إلـى السوق ويجوسون فى البلدة، لكن لا تسـتطيع أن تميـزهم. غرباء فى بلد مليئة بالغرباء. لا أحد يحرم من هنا، فلا ترى أحدا بملابس الإحرام. لا تسـتطيع أن تعـرف الحجـاج إلا خارج البلدة، حيث يدور حولها الطريق الشمالى، ويعبرهـا بسرعة إلى الجنوب مارا بالمستشفى، ثم داخلاً فى الرمـال، لكن حديث الحج هو حديث الناس هذه الأيام.

*****

دخل أرشد إلى غرفتى، وقال إن الباكستانيين نظموا أنفسهم للذهاب إلى الحج، ويريدون أن أتدخل لدى عم عبـد ا ليعطيهم عربة نقل كبيرة.

ابتسمت. هاهو أرشد يكلمنى. لقد انتهى تدريبى على القيادة، وتسملت أمس سيارة صغيرة نصف نقل قديمة لأتنقل بها، ولم يحد أرشد عن جديته فى التدريب. اليوم يتحدث فى شىء آخر. سألته:

ـ ستسافرون بسيارة نقل؟

ـ أجل. سيركب الزملاء فـى صـندوقها ونتبـادل قيادتها أنا ووهاج.

ـ لكن هذا صعب. لماذا لا تستأجرون أوتوبيسا؟

ـ يكلف كثيرا مستر إسماعيل.

كنت أعرف أنه بتقسيم سعر إيجـار الأوتـوبيس لا تكون التكلفة كبيرة، لكن الباكستانيين لدينا عمـال نظافـة أو فنيون بسطاء، ولابد أنهم يحرصون على كل قرش.

ـ هل ستتحدث مع مستر عبد ا مستر إسماعيل؟

عاد أرشد يسألنى والقلق باد على وجهه. طلبت منه أن يجلس فجلس. طلبت له قهوة فشربها. كنـت أريـده أن يتحدث كثيرا وتحدث. قال إنه متخرج من معهد عالٍ للفنون، وإنه فنان تشكيلى لديه لوحات صغيرة يسرمها فى غرفته فى الكامب، لكن لا يطلع أحدا عليها. وقال لىألا أنـدهش. لقـد علمه أبوه قيادة السيارات وعلمه الميكانيكا منذ صغره . أبوه كان سائقًا. ولما كان فى احتياج إلى السـفر، اضـطر إلـى استخراج جواز سفر بمهنة ميكانيكى حتى يحصل بسـهولة

على عقد عمل. "لا مجال هنا للفنانين مستر إسماعيل". قال وهو يبتسم ثم سألنى:

- ألا يحدث ذلك فى مصر؟

قلت:

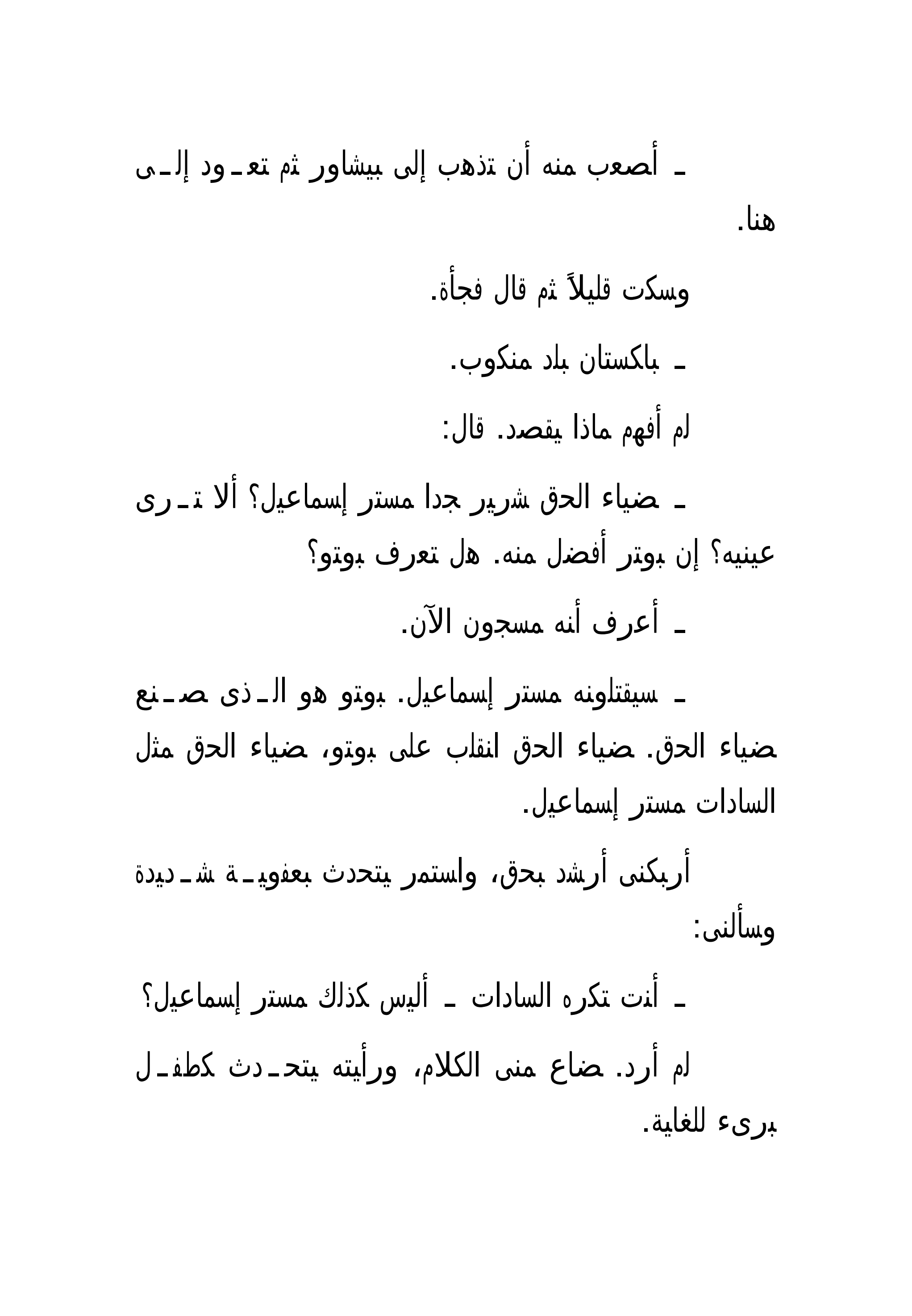
- يحدث.

لكن دهشتى لم تنته، لم أصدق القصة ولم أشأ الاستفسار عما أراه غامضا فيها. وقال أرشد أنه متزوج، ولديه طفلة اسمها زينب، يرسمها دائما فى غرفته، وقال إنه من "بيشاور".

وماذا تعنى بيشاور يا أرشد؟ أليست بلدة مثل سائر البلدان؟ لا مستر إسماعيل. بيشاور أكثر البلدان فقرا. كل العاملين هنا من عمال النظافة تقريبا من بيشاور. إنهم لا يقومون بأجازاتهم السنوية. يعملون فيها لتحسب لهم أجرا مضاعفًا. لا يعودون إلى بيشاور إلا بعد أربع أو خمس سنوات. مع نهاية التعاقد. قلت:

- لكن هذا صعب جدا.

قال:



ـ أصعب منه أن تذهب إلى بيشاور ثم تعـود إلـى هنا.

وسكت قليلاً ثم قال فجأة.

ـ باكستان بلد منكوب.

لم أفهم ماذا يقصد. قال:

ـ ضياء الحق شرير جدا مستر إسماعيل؟ ألا تـرى عينيه؟ إن بوتو أفضل منه. هل تعرف بوتو؟

ـ أعرف أنه مسجون الآن.

ـ سيقتلونه مستر إسماعيل. بوتو هو الـذى صـنع ضياء الحق. ضياء الحق انقلب على بوتو، ضياء الحق مثل السادات مستر إسماعيل.

أربكنى أرشد بحق، واستمر يتحدث بعفويـة شـديدة وسألنى:

ـ أنت تكره السادات ـ أليس كذلك مستر إسماعيل؟

لم أرد. ضاع منى الكلام، ورأيته يتحـدث كطفـل برىء للغاية.

قال:

ـ ذلك واجب مستر إسماعيل، واجب أن نكرههم جميعا. إننى أعرف الكثير عن مصر. عن مظاهرات يناير العام الماضى. مظاهرات الفقراء. فى باكستان نحتاج مثلها لكن العسكريين أغبياء يطلقون الرصاص على الناس. إنهم جميعا ضدنا مستر إسماعيل. كل هؤلاء الرؤساء ضدنا. إننا بحق تعساء جدا.

وسكتنا طويلاً. هاهو أرشد الصامت ينفتح كشلال كيف فتح لى قلبه، هذا الذى كان يبدو شديد الخوف منى؟ لقد نهض واقفًا يسألنى:

ـ هو ستتوسط لدى مستر عبد ا ؟

ـ اطمئن أرشد، وسيوافق.

ـ أشكرك مستر إسماعيل.. ألن تحج معنا؟

ـ لن أحج هذا العام.

ـ إذن ستمضى العيد وحدك مستر إسماعيل.

وتركنى وخرج.

*****

ـ ألن تحج مستر إسماعيل؟

ـ نعم.

ـ إذن ستمضى العيد وحدك.

أدهشنى فيليب سوساى بيليا وهو يقول لى ذلك أيضا. حدثنى اليوم. وجد نفسه وجها لوجه أمامى، وكان عليـه أن ينتظر معى بعض الوقت. لقد انصرف عابد لأمر من أمـور عم عبد ا   الخاصة، وانتقلت أجلس فى غرفته. لم تكن ساعة مضت على حديث أرشد معى، وكنت لاأزال أفكر كيف فتح لى قلبه بهذه السهولة، أى سر وراء اندفاعه فى الحديث على ذلك النحو! أتراه كان معذبا به أم شاء أن يعـذبنى؟ كلمنـى على كل حال، وأشاع كلامه فى نفسى نوعـا مـن البهجـة الغامضة، أرشد لا يخشانى، ولا أنا شخص يثير خوف أحد. سألنى فيليب عن عابد قلت إنه فى البلدة، نظر إلـى سـاعته متضايقًا، وقال:

ـ لقد طلب منى الحضور فى الثانية عشرة.

نظرت إلى ساعة الحائط فوجدتها الثانيـة عشـرة. وجدت نفسى أتركه واقفًا بالغرفة، وأخرج أطل عى الباحـة علنى أرى اليمنى وهو داخل إليها. وجدته جالسا فى مكانـه يدير السواك فى فمه. رآنى فابتسم. ابتسـمت وعـدت إلـى الحجرة. جلست خاف المكتب وجلـس فيليـب علـى أحـد المقاعد. وشملنا الصمت للحظات. فسألته:

ـ هل يحتاجك عابد لأمر هام؟

أجاب فى ضيق:

ـ هو قال ذلك.

تأملت وجهه البارز، عظام الوجنتين. وجه قوى رغم ما بلغه فيليب من عمر. صار يضع نظارة طبية الآن. لم أره يضعها من قبل. قلت دون ترتيب:

ـ هل كنت تعرف أن مستر عبد ا سيخلصك مـن الشرطة؟

وأحسست بالأسف. مضى وقت على حادث السرقة. وماكان على أن أذكّره به. يبدو أن رغبتى فى معرفة دوافعه كانت أقوى من قدرتى على الصمت. قال:

ـ لا.

وابتسم فابتسمت وتشجعت. سألته:

ـ ألا تعرف قانون هذه البلاد فيليب؟

ـ أعرف مستر إسماعيل.

ـ إذن كيف فعلت ذلك؟

ـ إنه راديو غريب مستر إسماعيل. راديـو بسـبع موجات.

ـ لكنه كان سيكلفك الكثير.. كان يمكن أن تشتريه.

ـ ثمنه ألف وخمسمائة ريال. راديـو فخـم جـدا. أحببت أن أستمع إلى إذاعة كولومبو. هل رأيت مـن قبـل راديو بسبع موجات؟

ـ لا.

ـ خلاص.

قال ذلك باللغة العربية فجأة، لكنى لا أعرف كيـف ركبنى الشيطان، فقلت:

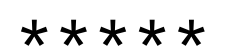
ـ أنت تستعد لإشهار إسلامك مستر فيليب والسرقة حرام فى الإسلام.

أعرف. لكن ليس فى القرآن نص على عدم سـرقة راديو بسبع موجات.

انطلقت أضحك، وابتسم هو ابتسامة واسعة مشـوبة بالخجل الذى لا بد أن سببه له ضـحكى حتـى أن وجهـه الأسمر أحمر قلت:

ـ عليك الآن أن تعجل بإشهار الإسلام حتى ينسـى الناس ما حدث.

ـ سأفعل ذلك قريبا مستر إسماعيل.. لكن قل لـى، ألن تحج هذا العام؟ فاجأنى فيليب، وتوقفت سيارة عابد أمامنا فى الباحة، لم ينزل منها، لكنه أشار إلى فيليب فتوجه نحوه، وركب السيارة معه، وانطلق عابد به دون أن يكلمنى. صار على أن أظل فى غرفته وقتًا آخر.



توقعت حين دخل نبيل الغرفة، ووقف ينظر إلى ولا يتكلم للحظة، أنه سيسألنى بدوره ما إذا كنت سأحج هذا العام

أم لا. بدأت أشعر بالضيق من تكرار السؤال كيـف أشـرح المسألة، لم يمض شهران على عملى هنا، وفوجئـت بعيـد الأضحى يقفز أمامى. الواحد حيث يـأتى هنـا لا يفكـر إلا بالعمل. لايدرك إلا متأخرا أنه فى أى مكان من بلاد الدنيا لا يختلف الزمان، فلعيد الأضحى وقت معلوم حتى لو كنت فى الصين أو اليابان، لكنى حقيقـة فوجئـت بعيـد الأضـحى، وفوجئت أيضا بمسألة الحج. الحج مرتبط فى ذهنـى بكبـار السن من الرجال والنساء، أنا لم أر حجاجا غير هؤلاء فـى مصر. والحج فى ذهنى تسبقه طقوس كثيرة أراها تتكرر كل عام فى الحى الذى أسكن فيه بالإسكندرية. زينات وذبـائح، وأطفال يغمسون أكفهم فى الدم، ثم يطبعونها علـى الحـائط (خمسة وخميسة) فى عين الحسود، وشباب يرسمون جمـلاً يركبه شيخ ويسحبه صبى، وجامع بعيد ونخل فى الطريـق، ورجال تأتى تصافح الحاج قبل سفره، وسيارات تجرى فـى الطرقات مزينة بالأعلام والورود، وشيوخ تقرأ القرآن فـى سرادقات صغيرة. وولائم للفقراء.. لم أفكر أبدا أن شابا مثلى يمكن أن يحج فى هذه السن المبكرة. أدهشنى أنه هنا يمكـن أن تركب سيارة قبل موسم الحج بيوم واحد وتهـب لـتحج

وتعود. هذه هى المسألة التى لن يفهمها أحد، ولم أحدث بهـا أحدا حتى الآن. لكن نبيلاً لم يتحدث فى الحج. جلس وقال أن أستمع إليه جيدا. قلت:

خيرا.

قال.

ـ ليس بخير.

ابتسمت. لقد بتّ أحفظ طريقته فى الكلام، . قلت:

ـ ليكن. نعم.

قال:

ـ أنت تعرف أنى خاطب.

ـ أرى فى إصبعك دبلة.

ـ أنا فى حيرة شديدة. هل أستمر فى الخطوبـة أم أفسخها؟

لم ينتظر ردا. ولم يكن لـدى رد بـالطبع. اسـتمر يتحدث:

- أنا أتقاضى راتبًا ألفا ومائتى ريال. يعنى ما يساوى مائتين وأربعين جنيها مصريا. أرسل لخطيبتى مائة ولأمى خمسين وأعيش بالباقى فلا أوفر شيئًا، لقد فتحت خطيبتى لنفسها حسابا ببنك مصر. لا . فى سيتى بنك. بنك أجنبى. أخبرتنى بذلك منذ أسبوع، وطلبت أن أحول لها ما أرسله على حسابها، ولا أرسل إليها شيكات أو حوالات لأن ذلك يستغرق وقتًا فى صرفه. زحام شديد، وكثيرا ما لا تجد دولارات بالبنك فيعطونها نقودا مصرية. يحولون الدولار بالسعر الرسمى فتخسر كثيرا. هى تقول ذلك فى الخطاب. يصرفون لها الدولار بثمانية وستين قرشًا، مع أنه فى السوق السوداء بثمانين، فضلاً طبعاً عن ما فى إرسال الشيكات من مخاطر. موظفو البريد يفتحون الخطابات ويقرأون الخطابات ويأخذون الشيكات لأنفسهم. موظفو البريد فى مصر فقراء جدا كما تعرف، ولابد أنك تذكر أشكالهم.

ضحكت وتساءلت:

- حتى لو كان الشيك للمستفيد الأول فقط ؟!

قال:

ـ لا شىء يستعصى على موظفى البريد فى مصر.

ضحكت بشدة واستمر هو يتحدث:

ـ أمى أرسلت لى أمس خطابا تنصح لى أن أكف عن إرسال نقود لخطيبتى لأنها تمشى مع سائق من الحى. من الكيت كات. لا. ليس الكيت كات. من سوق الجمال فى إمبابة.

قلت ضاحكًا:

ـ ليس مهما أن أعرف المكان. أنا من الإسكندرية نسيت ولا أعرف القاهرة جيدا.

سكت قليلاً وقال بهدوء شديد:

ـ لكن ما أكلمك عنه ليس بالقاهرة، إنه بالجيزة.

انطلقت أضحك من جديد وابتسم هو وقال:

ـ ما رأيك؟

ـ فى أى شىء؟

ـ أفسخ الخطوبة أم لا؟

فكرت قليلاً. قررت أن آخذ الأمر جادا حتى لو كان هو يهزل.

قلت:

ـ امتنع عن إرسال نقود لخطيبتك وانتظر، ستعرف ما إذا كانت تحبك أم لا.

سكت قليلاً ثم قال:

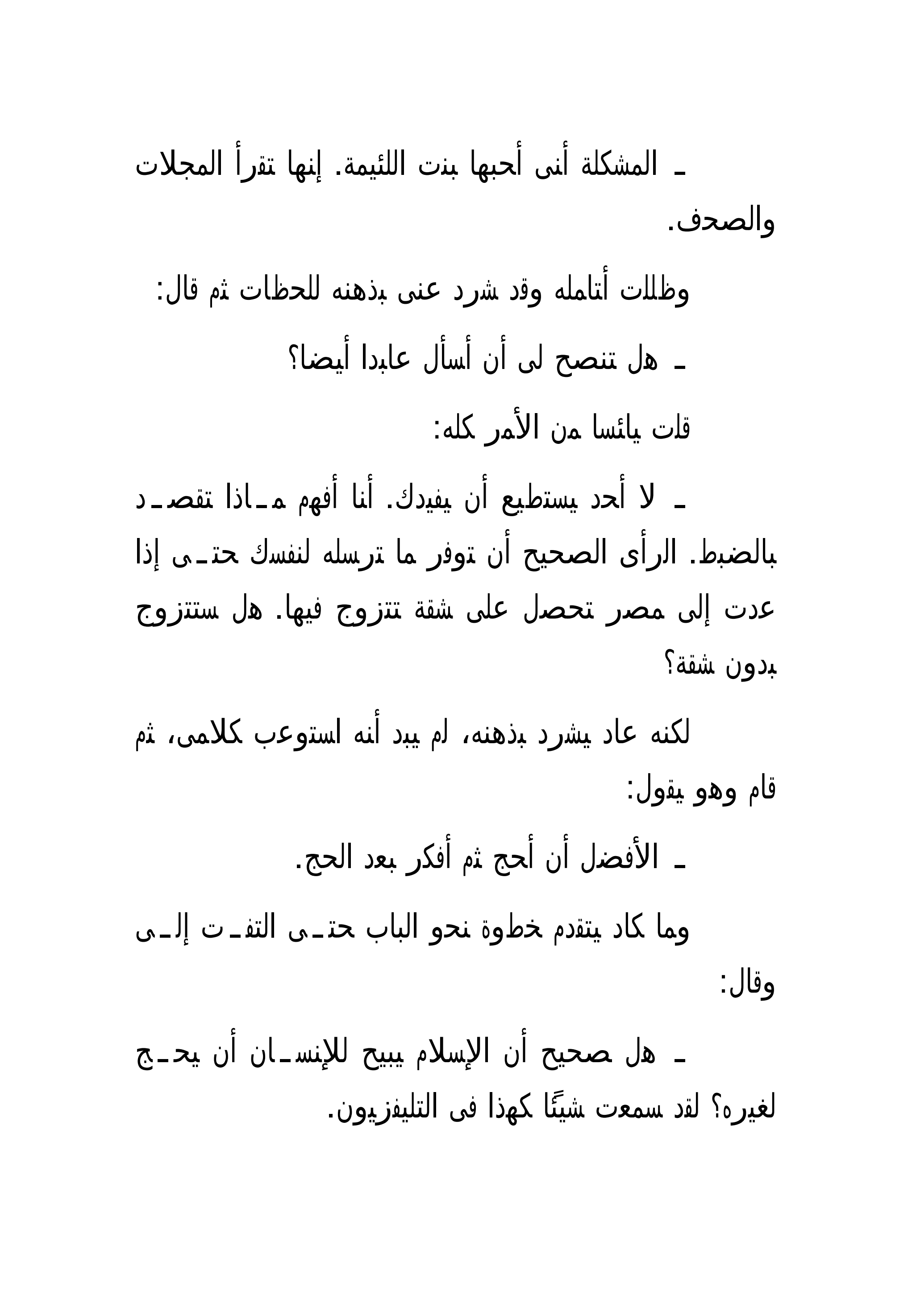
ـ إذا كانت تحبنى سأحزن جدا على قطعى للنقـود، وإذا كانت تحب غيرى ستتركنى هى، وليس من المعقول أن ينتظر الرجل حتى تتركه امرأة.

وجدت الموقف محيرا حقًا: قلت:

ـ إذن سافر وتحر الأمر بنفسك:

ـ أنت تعقد المسألة: أنا لا أستطيع السفر. سـأفعل كالباكستانيين وأقضى أجازتى السنوية فى العمل. أنا محتـاج لكل مليم.

سكتنا وفكرت فى هذا المحتاج لكل مليم وكيف يرسل كل مرتبه تقريبا. وقال كأنه يحدث نفسه:



ـ المشكلة أنى أحبها بنت اللئيمة. إنها تقرأ المجلات والصحف.

وظللت أتامله وقد شرد عنى بذهنه للحظات ثم قال:

ـ هل تنصح لى أن أسأل عابدا أيضا؟

قلت يائسا من الأمر كله:

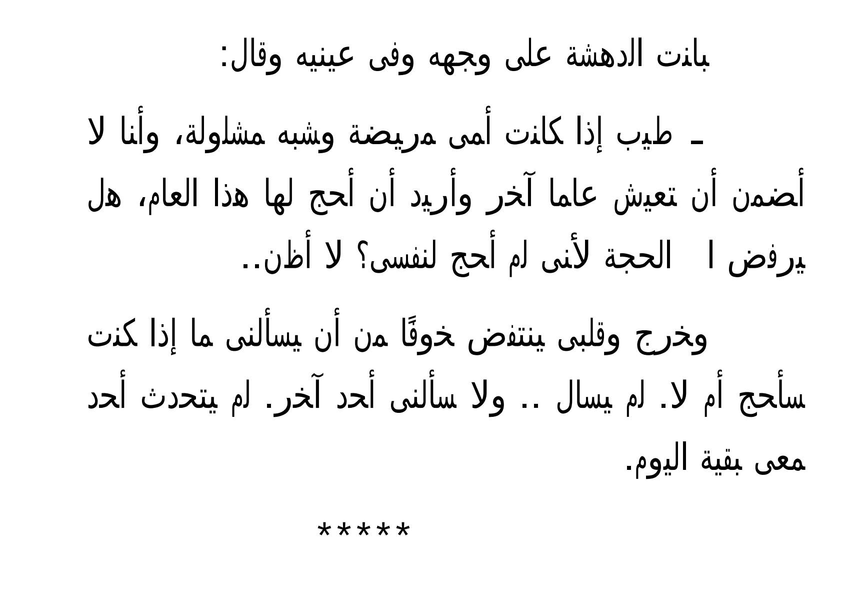
ـ لا أحد يستطيع أن يفيدك. أنا أفهم مـاذا تقصـد بالضبط. الرأى الصحيح أن توفر ما ترسله لنفسك حتـى إذا عدت إلى مصر تحصل على شقة تتزوج فيها. هل ستتزوج بدون شقة؟

لكنه عاد يشرد بذهنه، لم يبد أنه استوعب كلامى، ثم قام وهو يقول:

ـ الأفضل أن أحج ثم أفكر بعد الحج.

وما كاد يتقدم خطوة نحو الباب حتـى التفـت إلـى وقال:

ـ هل صحيح أن الإسلام يبيح للإنسـان أن يحـج لغيره؟ لقد سمعت شيئًا كهذا فى التليفزيون.



تذكرت حديث وجيه وأجبت:

ـ الإسلام يبيح ذلك بشرط أن يحج الشخص لنفسـه أولاً.

بانت الدهشة على وجهه وفى عينيه وقال:

ـ طيب إذا كانت أمى مريضة وشبه مشلولة، وأنا لا أضمن أن تعيش عاما آخر وأريد أن أحج لها هذا العام، هل يرفض ا الحجة لأنى لم أحج لنفسى؟ لا أظن..

وخرج وقلبى ينتفض خوفًا من أن يسألنى ما إذا كنت سأحج أم لا. لم يسال .. ولا سألنى أحد آخر. لم يتحدث أحد معى بقية اليوم.

*****

(٧)

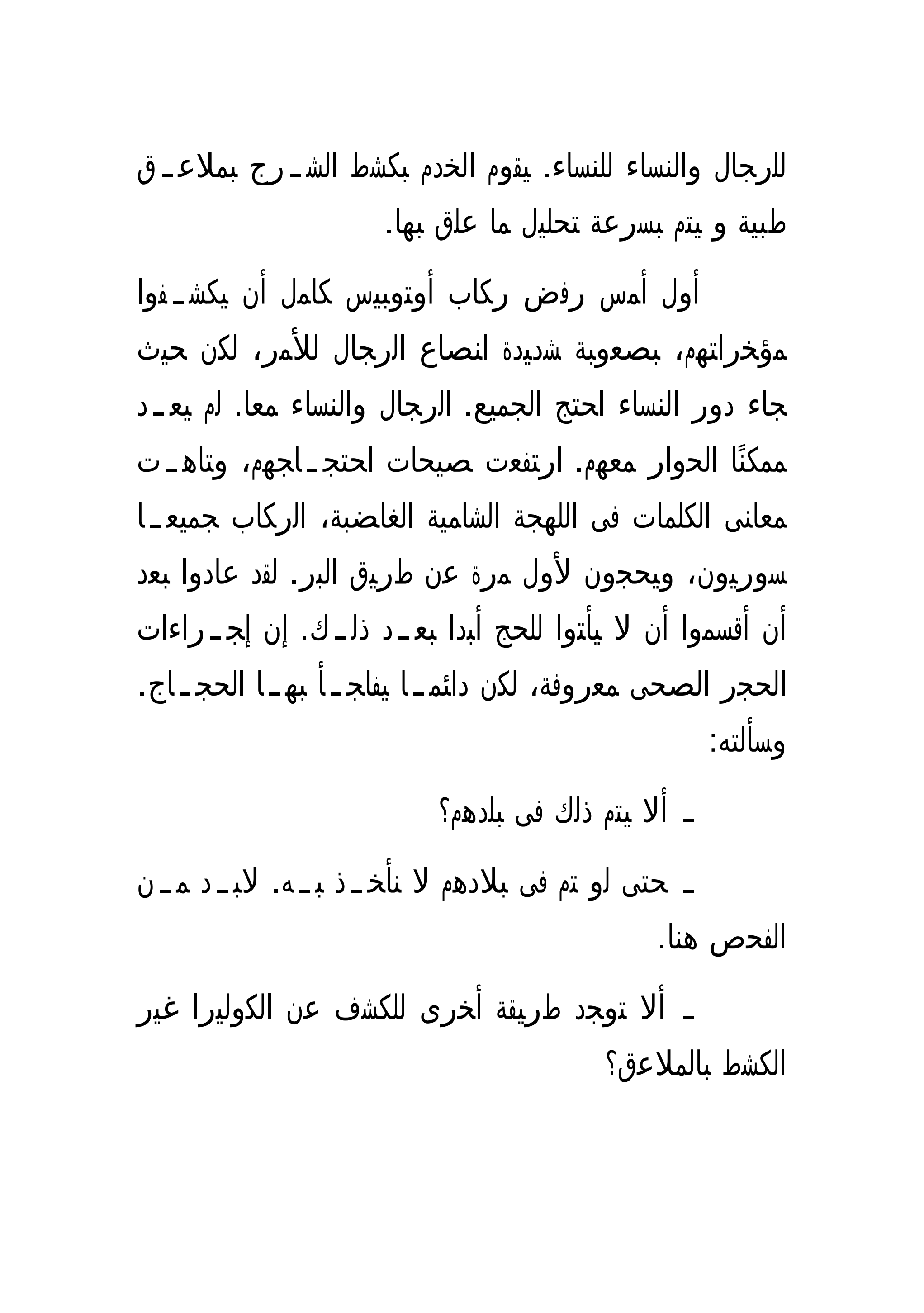
ـ لماذا تسرع هكذا؟

ـ ولماذا أبطئ؟

تساءلت وأجاب الدكتور وجيه. دعانى لقضاء سهرة معه فى المستشفى. قال: "غدا الجمعة وتسـتطيع أن تسـهر معى حتى الصباح".

لم أتردد. قلت: هذه فرصة أخرى للخروج من رتابة الإيقاع الثابت لحياتنا، خرجت مرة فى صحبة سـعيد إلـى السوق، والليلة سأقضيها فى صحبة وجيه فى المستشفى.

وجيه يتحدث كثيرا عن مشقة العمـل هـذه الأيـام، الزحام الشديد فى المستشفى بسبب موسم الحـج، مفاجـآت الحجاج وحوادث الطريق، أول أمـس حـدثنا عـن دهشـة الحجاج الذين يجدون أنه من اللازم فحصهم للتأكد من خلوهم من الأمراض المعدية. من الكوليرا هى "بعبع" الموسم. يكون على الحجاج أن يكشفوا مؤخراتهم لخدم المستشفى. الرجـال



للرجال والنساء للنساء. يقوم الخدم بكشط الشـرج بملاعـق طبية و يتم بسرعة تحليل ما علق بها.

أول أمس رفض ركاب أوتوبيس كامل أن يكشـفوا مؤخراتهم، بصعوبة شديدة انصاع الرجال للأمر، لكن حيث جاء دور النساء احتج الجميع. الرجال والنساء معا. لم يعـد ممكنًا الحوار معهم. ارتفعت صيحات احتجـاجهم، وتاهـت معانى الكلمات فى اللهجة الشامية الغاضبة، الركاب جميعـا سوريون، ويحجون لأول مرة عن طريق البر. لقد عادوا بعد أن أقسموا أن لا يأتوا للحج أبدا بعـد ذلـك. إن إجـراءات الحجر الصحى معروفة، لكن دائمـا يفاجـأ بهـا الحجـاج. وسألته:

ـ ألا يتم ذلك فى بلادهم؟

ـ حتى لو تم فى بلادهم لا نأخـذ بـه. لابـد مـن الفحص هنا.

ـ ألا توجد طريقة أخرى للكشف عن الكوليرا غير الكشط بالملاعق؟

ـ توجد طبعا. تحليل البراز. لكن أين الوقت الكافى ليحضر لك كل هؤلاء الحجاج عينات من بـرازهم؟ لـيس أمامنا إلا وضعهم فى صفوف ثم ينحنون كاشفين مؤخراتهم، ويمر الخدم بالملاعق لكشطها.

ـ إنها مسألة مربكة حقًا!

قلت وضحكت. وربما بسبب هذه الطرائـف ذهبـت معه اليوم.

*****

فى الطريق نبهنى وجيه إلى أن المستشفى صـغير. مجرد مبنى من دورين به أربعة أقسام صـغيرة. الجراحـة والباطنة والولادة والأطفال، ولا يزيد القسم على غرفتين بكل غرفة أربعة أسرة. قال إنهم يبنون الآن مستشفى ضخما، لكن العمل لن ينتهى فيه قبل ثـلاث سـنوات، وقـال إن هنـاك مستشفى عسكريا كبيرا بالقاعدة العسكرية اسـمه "ويتكـر" مستشفى أمريكى لا يعمل فيه أحد من العرب، وفيـه يصـل راتب الممرضة الأجنبية أضعاف راتب الطبيب المصرى فى أى مستشفى آخر. وصلنا إلى المستشفى، ولاحظ حركـة لا

تنقطع فى الردهة الواسعة التى تشغل مساحة كبيرة من الدور الأرضى. رجال ونساء داخلـون خـارجون فـى صـمت وسرعة. لم يكن الجو حارا. بدأ الصيف يفسح الطريق بطيئًا للشتاء. دخلنا فى نوفمبر. انتهينا من ذى القعدة ولم يبق على الحج غير أيام ثلاثة. صعدنا إلى الدور الثانى، وإلى حجـرة ليست نظيفة كما ينبغى، أخذنى وجيه، جلس هو خلف مكتب خشبى صغير وقديم، وجلست أنا إلى جانب المكتب، بالغرفة مقعد آخر ودولاب زجاجى به بعض معدات طبيـة بيضـاء منطفئة اللمعان. لاحظت أن دهان الجدران متساقط فى أكثر من موضع، ورأيت خلف البارافان البلاستيك طرف منضدة الكشف فوقه ملاءة حائلٌ بياضها.

دخلتْ بعد جلوسنا ممرضة قدمها إلى باسم عايـدة. ابتسمت ابتسامة خافتة لم تُخف مظاهر الجدية على وجههـا. بدت متحفزة لا أدرى لماذا. فى الحقيقة راعنى اتساع عينيها السوداوين وألق بياضهما فى غبشة ضـوء الحجـرة. قلـت لنفسى: هذا أول وجه نسائى أراه هنا. وقالت هى لوجيـه إن جميع الحالات على ما يرام. تساءل:

ـ والحجاج؟

ـ لم تصلنا وفود جديدة الليلة. يقولون إن النهار كان مليئًا بالعمل.

ـ هذا من حسن حظنا، مع أننى كنت أريد للأستاذ إسماعيل أن يتفرج ، نظرت إلى مبتسمة وقالت:

ـ وماذا سيرى أكثر مما هو فى مصر. ألم تدخل مستشفى فى مصر؟ سألتنى، وأجبت على الفور:

دخلت مرة لإجراء عملية فتق.

لا أعرف لماذا أجبت بهذه السرعة. لقد رأيتها تكتم ضحكتها.

وتساءل وجيه:

ـ مالك ياسيستر، هل قال الرجل شيئًا مضحكًا؟

ـ أبدا. لكن يبدو صغيرا على الفتق.

وبدت مرتبكة جدا، واحمر وجهها، وأطرقت أنا خجلاً، وسمعتها تقول:

ـ آسفة.. آسفة جدا.

وانصرفت بسرعة. نظر وجيه إلى، ومط شفتيه، وقال:

- الواحدة فى مصر لا قيمة لها، هنا أحيانًا يتجاوز راتبها راتب الطبيب المبتدئ.

قلت لنفسى: ها هو يعود ويتحدث عن القيمة المادية للأشياء. ودخل من الباب رجل متوسط العمر، ووقف صامتًا وخلفه شرطى صغير الحجم. وقف وجيه بسرعة ودار حول المكتب ليصافح الرجل بحفاوة.

- أهلا يا دكتور. أهلا. تفضل.

وقدم له المقعد الخالى، لكن الشرطى قال فى غضب:

- لا تجلس.. هيا انتبه.

وقف وجيه صامتًا، وتأملت أنا الرجل الذى منعه الشرطى من الجلوس. له لحية طليقة لا يعتنى بها، وفى عينيه انكسار، وملابسه متسخة غير مهندمة. عاد وجيه إلى المكتب بسرعة، وأخرج من أحد أدراجه مظروفًا مغلقًا قدمه له. أخذه الرجل بيد مرتعشة ولم يتكلم. استدار ينصرف، ولم يتردد الشرطى فى إمساكه من ذراعه والإسراع به. رأيتهما

فى الطرقة الطويلة الممتدة أمام البـاب. الشـرطى يسـرع والرجل يسرع جواره يكاد يتعثر. بان لى الرجل من بعيـد أقصر مما رأيته داخل الغرفة. وجلس وجيه محزونًا، وضع رأسه بين كفيه، وأطرق ناظرا إلى المكتب. ظهـر بالبـاب رجل آخر، أسود، يرتدى جلبابا وغُترة وعقالاً ممزقًا، وقال:

ـ أرسلتنى الست عايدة يا دكتور.

قال وجيه دون أن يرفع رأسه:

ـ سوّ لنا شايا يانعمان. معنا ضيف عزيز.

قلت لنفسى: هذا إذن الخادم أرسلته عايدة لتخفف من أثر ما حدث منها، ولم أنس الرجل الأول الذى دخـل مـع الشرطى، المصرى الذى يرتدى بدلة قديمة وخاطبه وجيـه بالدكتور.

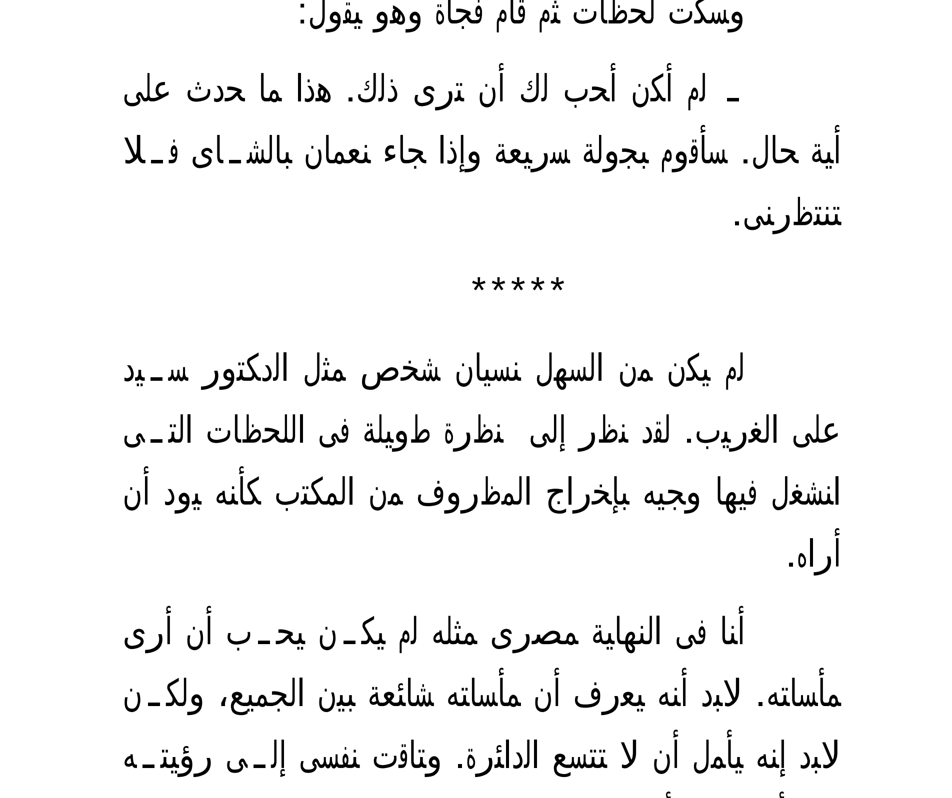
قلت:

ـ ما الحكاية بالضبط ؟ من الذى دخل مع الشرطى ؟

تنهد وجيه وقال:

- إنها قصة غريبة. هذا طبيب مصرى له هنا خمس سنوات، منذ عام ارتكب خطأ فظيعا. حضر إليه شاب سعودى ومعه فتاة قال إنها زوجته، وطلب إليه أن يقوم بإجراء عملية إجهاض لها. لا تعرف كيف أخطأ الدكتور الغريب.. اسمه هكذا "سيد على الغريب" كان عليه أن يحتاط. الإجهاض ممنوع أصلاً إلا لدواع طبية. إن أى طبيب يمكن أن يخالف ضميره ويختلق الأسباب الطبية للإجهاض لكن هذا لا يحدث. دكتور سيد الغريب فعلها. كتب تقريرا بضرورة الإجهاض. لماذا فعل ذلك؟ لا أحد يعرف. لا أظن أن الشاب السعودى أغراه بالمال،. دكتور سيد قديم هنا ولابد أنه كسب كثيرا. كان يمكن للمسألة أن تمر، لكن الفتاة ماتت أثناء العملية، والأبشع أن الشاب اختفى، وظهر أنه ليس زوجها ولا يمت لها بصلة. منذ هذا اليوم تم تحديد إقامة الدكتور سيد الغريب. منع عنه راتبه حتى تفصل المحكمة فى أمره. المحكمة لم تفصل حتى الآن. صادروا ما معه من نقود وضعوه فى بيت جميل جدا. تصور! البيت الوحيد الذى له حديقة بها نخيل وأشجار ليمون. عام كامل وهو على هذا الوضع. كل شهر يسمحون له بالخروج مرة مع الشرطى

ليأتى إلى المستشفى يأخذ ما نساعده به، إننا نجمع لـه كـل شهر بعض النقـود. نشـترك نحـن الأطبـاء المصـريين والممرضات فى ذلك. أهله فى مصر لا يرسلون له أى شىء منذ وقت الحادثة، ولو لم نساعده سيموت من الجوع.



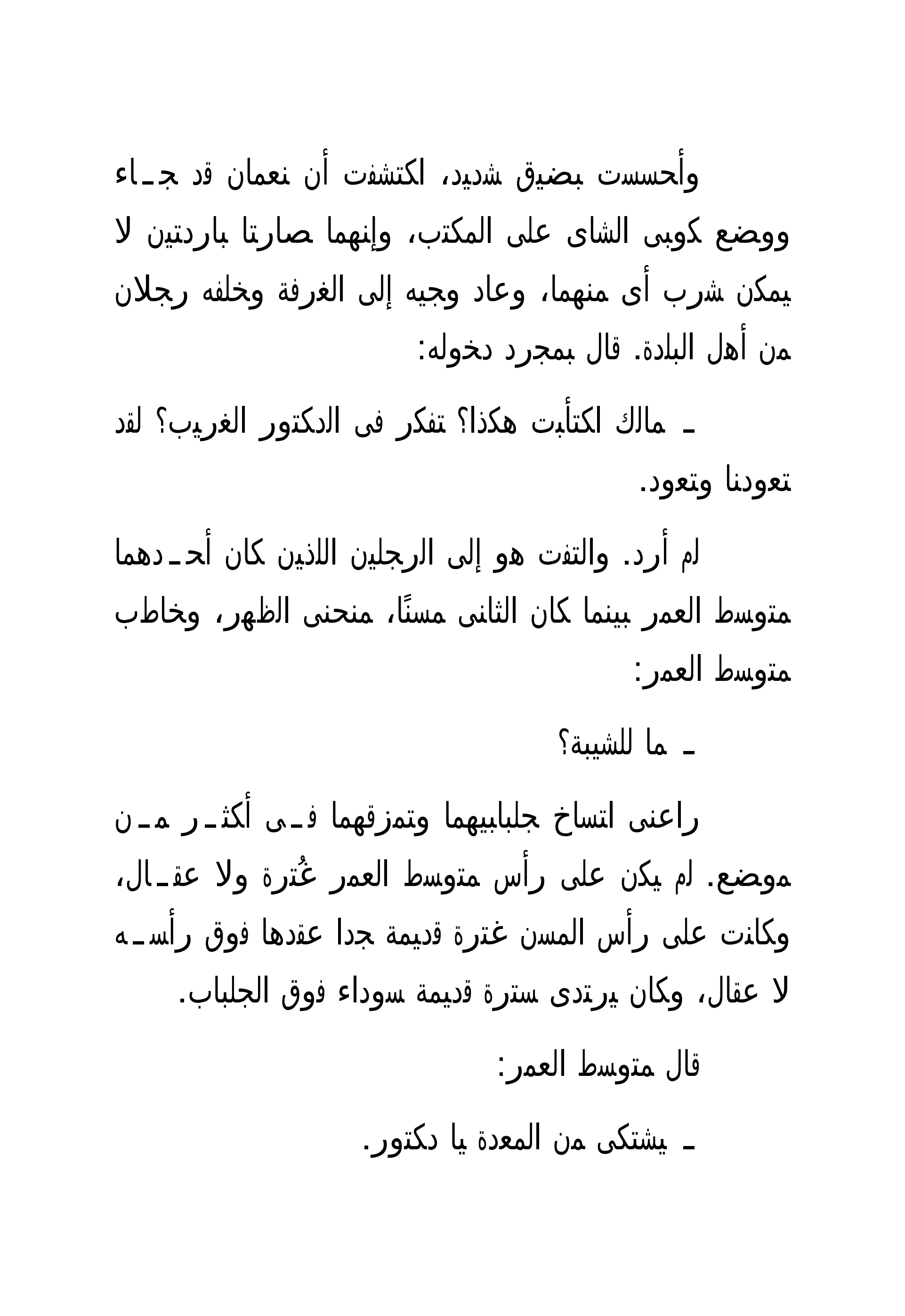
وسكت لحظات ثم قام فجأة وهو يقول:

ـ لم أكن أحب لك أن ترى ذلك. هذا ما حدث على أية حال. سأقوم بجولة سريعة وإذا جاء نعمان بالشـاى فـلا تنتظرنى.

*****

لم يكن من السهل نسيان شخص مثل الدكتور سـيد على الغريب. لقد نظر إلى نظرة طويلة فى اللحظات التـى انشغل فيها وجيه بإخراج المظروف من المكتب كأنه يود أن أراه.

أنا فى النهاية مصرى مثله لم يكـن يحـب أن أرى مأساته. لابد أنه يعرف أن مأساته شائعة بين الجميع، ولكـن لابد إنه يأمل أن لا تتسع الدائرة. وتاقت نفسى إلـى رؤيتـه مرة أخرى لا أعرف لماذا.



وأحسست بضيق شديد، اكتشفت أن نعمان قد جـاء ووضع كوبى الشاى على المكتب، وإنهما صارتا باردتين لا يمكن شرب أى منهما، وعاد وجيه إلى الغرفة وخلفه رجلان من أهل البلدة. قال بمجرد دخوله:

- مالك اكتأبت هكذا؟ تفكر فى الدكتور الغريب؟ لقد تعودنا وتعود.

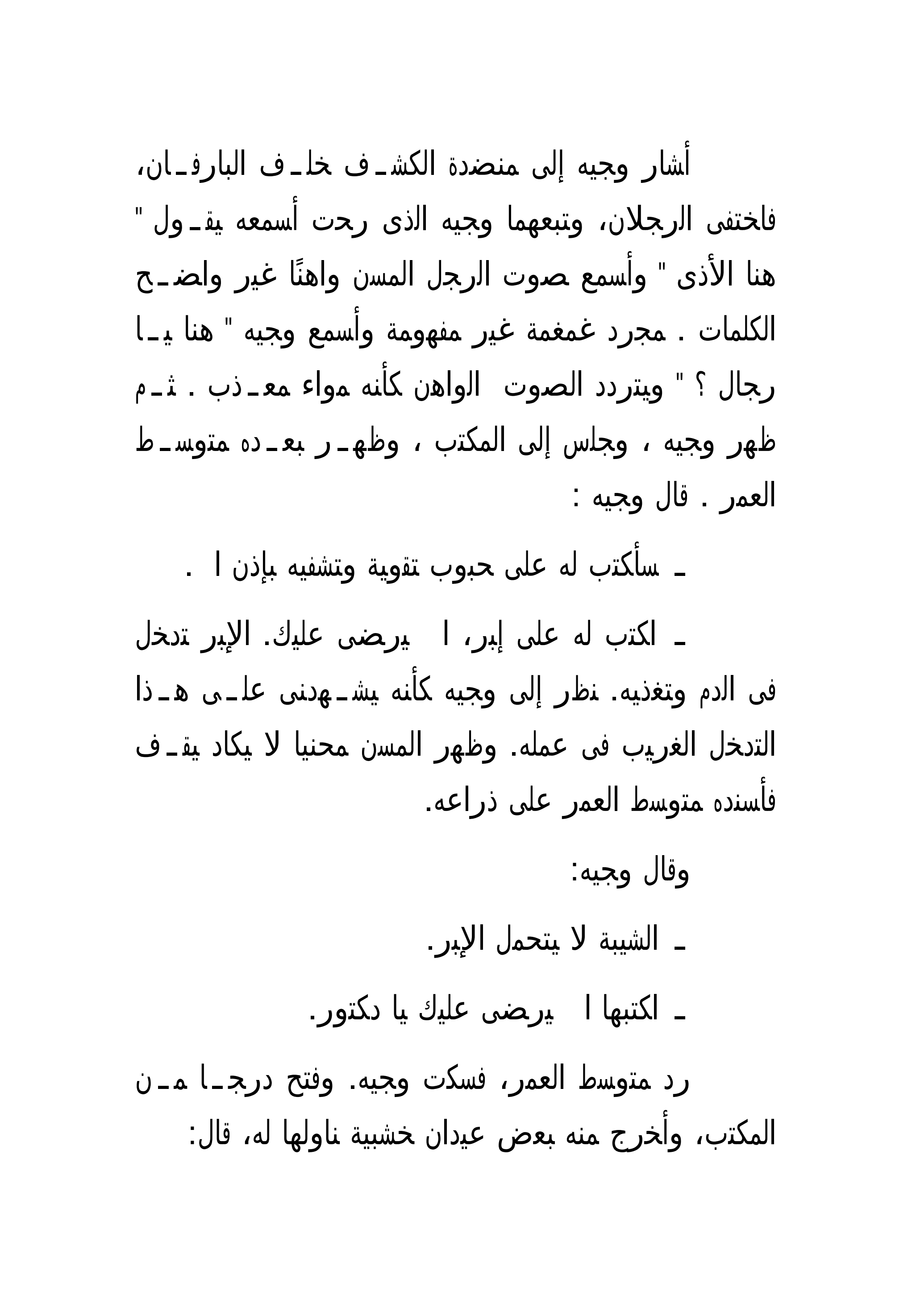
لم أرد. والتفت هو إلى الرجلين اللذين كان أحـدهما متوسط العمر بينما كان الثانى مسنًا، منحنى الظهر، وخاطب متوسط العمر:

- ما للشيبة؟

راعنى اتساخ جلبابيهما وتمزقهما فـى أكثـر مـن موضع. لم يكن على رأس متوسط العمر غُترة ولا عقـال، وكانت على رأس المسن غترة قديمة جدا عقدها فوق رأسـه لا عقال، وكان يرتدى سترة قديمة سوداء فوق الجلباب.

قال متوسط العمر:

- يشتكى من المعدة يا دكتور.



أشار وجيه إلى منضدة الكشـف خلـف البارفـان، فاختفى الرجلان، وتبعهما وجيه الذى رحت أسمعه يقـول " هنا الأذى " وأسمع صوت الرجل المسن واهنًا غير واضـح الكلمات . مجرد غمغمة غير مفهومة وأسمع وجيه " هنا يـا رجال ؟ " ويتردد الصوت الواهن كأنه مواء معـذب . ثـم ظهر وجيه ، وجلس إلى المكتب ، وظهـر بعـده متوسـط العمر . قال وجيه :

- سأكتب له على حبوب تقوية وتشفيه بإذن ا .

- اكتب له على إبر، ا يرضى عليك. الإبر تدخل فى الدم وتغذيه. نظر إلى وجيه كأنه يشـهدنى علـى هـذا التدخل الغريب فى عمله. وظهر المسن محنيا لا يكاد يقـف فأسنده متوسط العمر على ذراعه.

وقال وجيه:

- الشيبة لا يتحمل الإبر.

- اكتبها ا يرضى عليك يا دكتور.

رد متوسط العمر، فسكت وجيه. وفتح درجـا مـن المكتب، وأخرج منه بعض عيدان خشبية ناولها له، قال:

ـ لا إبر ولا حبوب. خذ هذه.. يغليها ويشرب ماءها فى الصباح كل يوم. اختطفها متوسط العمر وهو يقول: "هذه أفضل. ا يرضى عليك يا مصـرى" واسـتدار بالمسـن، وانصرفا على مهل. قلت:

ـ يبدو أنه لاتزال للطب العربى سطوته.

سكت وجيه قليلاً وقال:

ـ هذه حالات ميئوس منها.

تساءلت:

ـ هل مسموح باستخدام الأعشاب هنا؟

أجاب:

ـ هذه مجرد عيدان قديمة وجدتها فى الطريق. هـم يقتنعون بطريقتى وأنا أوفر مال الدولة.

عاد نعمان فطلب إليه وجيه أن يعد لنا كوبين جديدين من الشاى. وأنا رحت أنظر إلى ساعتى، فوجدتها تزحف إلى منتصف الليل، وراودتنى رغبة فى الانصراف. أكتشف اليوم فى وجيه جانبا لم أكن أحب أن أعرفه. ثم إننى لم أر شـيئًا

طريفًا، رأيت سجينًا مصريا ورجلين من أهل البلدة أشد فقرا من فقراء بلادنا. فى هذه البلاد ألغاز لا أفهمها. ولم يكن من السهل الانصراف، فوجيه يتحدث ولا يكف عن الكلام.

قال إن ما يحيره هنا ليس كثرة الحوادث، هذا شىء وارد فى كل البلاد العربية، حيث يقودون السيارات برعونة فائقة، لكن يحيره الحوادث التى لا تنقطع عند بلدة " قليبـة " الواقعة على الطريق المؤدى إلى المدينة المنورة.

فى كل ليلة يعمل فيها نوبتجا للصباح، يتوقع حادثـة أو أكثر عن قليبة، ويظل طول الليل يرهف أذنيـه ليسـمع صوت سيارة الإسعاف وهى قادمة إلى المستشـفى. الليلـة يرجو أن لا ترد من قليبة أية حادثة، وجودى معه يقلل مـن حجم القلق الذى يشعر به دائما حين يمضى الليل وحده هنا.. سألته:

ـ ألا يوجد مستشفى فى قليبة؟

أجاب:

ـ إنها قريبة صغيرة. لاحظ اسمها الذى لابد أخذته من انقلاب السيارات. بها مستوصف صغير يعمـل بالنهـار

ولا يتحمل حالات الحوادث ـ وابتسم ـ لاشك أنـك تـذكر الدكتور رأفت الذى زارنا منذ أسابيع ليودعنا قبل عودته.

ـ أذكره بالطبع.

ـ حيث جاء هنا لأول مـرة تـم توزيعـه علـى مستوصف قليبة. هناك لايوجد مخبز ولا محل يبيع الخبـز. استمر رأفت يعمل هناك سنة، وتعود كل أسبوع أن يأخذ ما يكفيه من خبز من هنا. لا تعرف كيف نفـذ الخبـز دون أن يدرى، كان الجو شتاء باردا زمهريرا، وهو مسكين مصاب بسكر لا يستطيع أن يتحمل الجوع. كان معه خمسون ألـف ريال. ظل طول الليل ينظر إليها ويتلوى. كـان مسـتعدا أن يدفع الخمسين ألف ريال لمن يعطيه رغيفًا واحدا. ومن سوء حظه انقطعت سيارة الإسعاف عن الذهاب ثلاثة أيـام بعـد ذلك. كاد يأكل نفسه. لقد اكتشفت أنه يعض ذراعه بالفعـل. وحين وصلت سيارة الإسعاف كان هو على مشارف الهلاك. ركبها وجاء إلى هنا، ووقف أمام صاحب المخبـز اللبنـانى يطلب أن يبيع له خبزا بألف ريال. لقد صعق الرجل وظنـه مجنونًا. لا أحد يشترى بألف ريال خبزا. باع له الرجل كـل الخبز الموجود عنده، ووضعه رأفت فى الإسعاف، لكنه فـى

اليوم نفسه لم يعد إلى قليبة. صدر قرار بنقله إلى هنا. لقـد وزع الخبز علينا وصرنا نضحك.

لكنى لم أضحك. مازلت أشعر بالضيق والرغبة فـى الانصراف. ودخلت عايدة على الحجرة، فأحسسـت براحـة خفية، كان خلفها رجل من أهل البلدة، قالت لوجيـه وهـى تبتسم:

ـ عنده خُرّاج.

كنا تجاوزنا منتصف الليل، وقال وجيه مستنكرا:

ـ وهل هذا وقت مناسب؟

قالت باسمةً:

ـ لقد جاء. نحجزه حتى الصباح؟

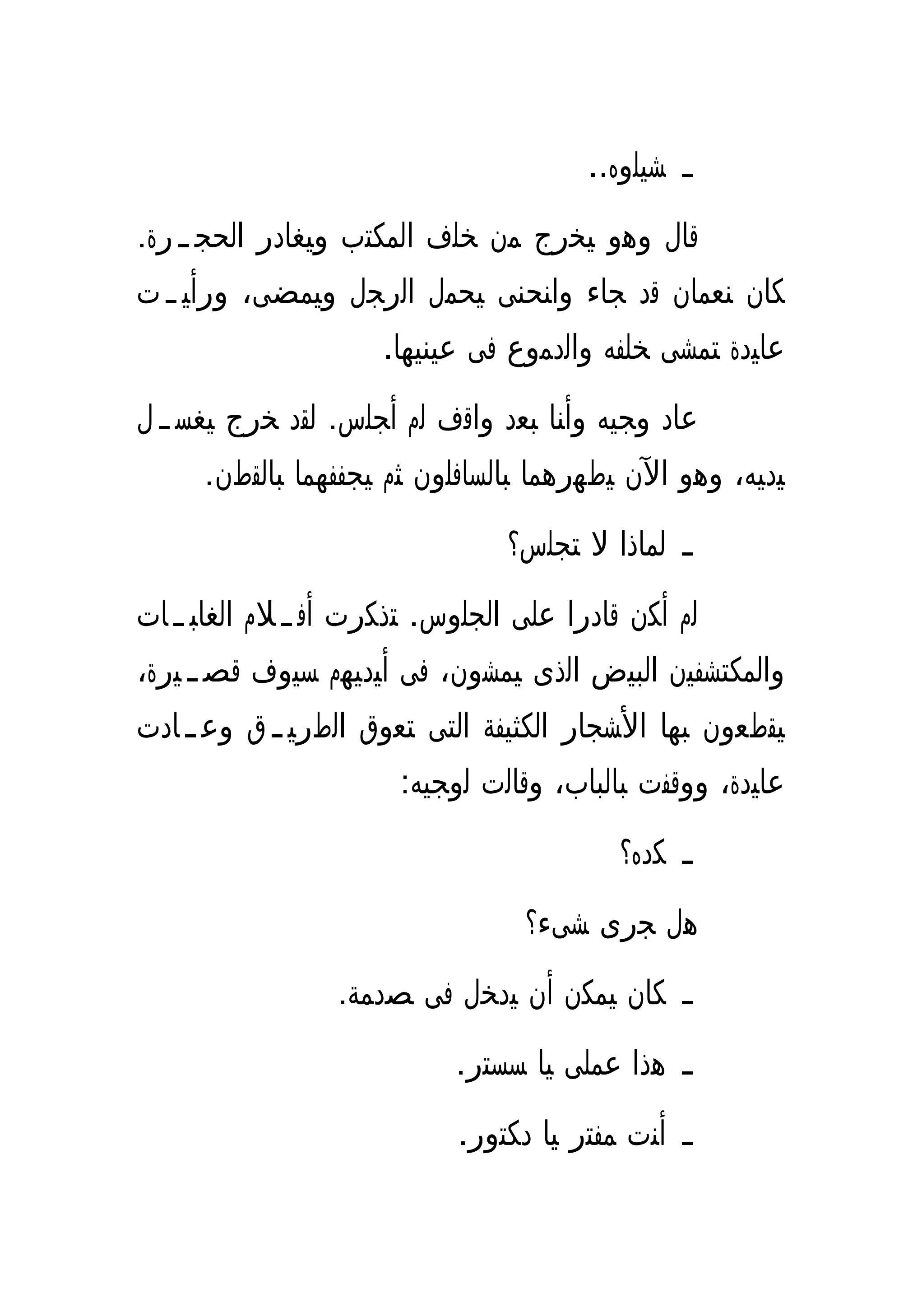
لكن وجيه خاطب الرجل الصامت:

ـ وين الأذى؟

مد له الرجل يده اليمنى. خراج عجيب ركب أعلـى أصبعه السبابة قبل الظفر مباشرة.نظر وجيه إلى والاستنكار لا يزال على وجهه وقال للرجل:

ـ ضع يديك فوق " الماصة ".

وضعها الرجل على المكتب، ورأيت وجـه عايـدة يمتقع وعيناها تكادان تقفزان. تريد أن تتكلم ولا تستطيع كان وجيه يقترب بوجهه من الرجل، ويده تعبث فى أحـد أدراج المكتب تخرج شيئًا، ووقف وجيه فجأة وأمسك بذراع الرجل من عند الرسغ بيده اليسرى، وبيده اليمنى التى كانت تعبـث فى الدرج طعن الرجل بمشرط فى الخراج مباشرة فصـرخ الرجل، وانفجر الدم والصديد فوق يده وصرخ وجيه: (قطن ياسِستر). وجرت عايدة إلى الدولاب تحضر قطنًا، وأنا وقفت كمن لدغه عقرب، وتباعدت إلى الحائط. خُيل إلى أن الـدم والصديد سيندفعان إلى وجهى، ورأيت الرجل يغيض الدم من وجهه، ويكاد يتهاوى، حتى أن عايدة ألقـت بـالقطن علـى المكتب، ووضعت بسرعة مقعدا خلفه تهاوى بالفعـل فوقـه غائبا عن الوعى، ووجيه الذى ترك المشرط راح بيده اليمنى يضغط على الخراج بالقطن ولا يترك رسغ الرجـل الـذى أحكم القبض عليه، وعايدة تنظر إلى وجيه باستنكار شـديد، وطلب إليها شاشًا ودهانًا للجرح، ثم راح يضمده. ترك يـد الرجل فسقط من فوق الكرسى على الأرض.



ـ شيلوه..

قال وهو يخرج من خلف المكتب ويغادر الحجـرة. كان نعمان قد جاء وانحنى يحمل الرجل ويمضى، ورأيـت عايدة تمشى خلفه والدموع فى عينيها.

عاد وجيه وأنا بعد واقف لم أجلس. لقد خرج يغسـل يديه، وهو الآن يطهرهما بالسافلون ثم يجففهما بالقطن.

ـ لماذا لا تجلس؟

لم أكن قادرا على الجلوس. تذكرت أفـلام الغابـات والمكتشفين البيض الذى يمشون، فى أيديهم سيوف قصـيرة، يقطعون بها الأشجار الكثيفة التى تعوق الطريـق وعـادت عايدة، ووقفت بالباب، وقالت لوجيه:

ـ كده؟

هل جرى شىء؟

ـ كان يمكن أن يدخل فى صدمة.

ـ هذا عملى يا سستر.

ـ أنت مفتر يا دكتور.

- سستر، الزمى حدودك.

كانت عيناها لا تزالان نديتين بالدمع، وبـان علـى وجهها غضب شديد وانصرفت. تقدمت أنا أجلس من جديـد مدهوشًا من تخاذل وجيه أمام عايدة، وخيم علينـا الصـمت للحظات ثم قال:

- لا يمكن أن أفتح الخراج بالبنج. يخافون العمليات. سوف يفيق ويشكرنى وسترى.

ولم أكن مستعدا أن أرى. أسعدنى الحـظ وسـمعنا صوت سيارة الإسعاف قادمة من الخارج. ودخَلَت عايدة بعد لحظات فزعة تقول:

- حادث فظيع. ستة جرحى انقلبت سـيارتهم فـى قليبة.

وجرت من أمامنا وأسرع وجيه خلفها. قمت بهـدوء ونزلت إلى الدور الأول.. وجدت حركة كبيـرة مـن خـدم المستشفى حول الإسعاف. حملوا الجرحى، وأسـرع خلفهـم وجيه وعايدة وعدد آخر من الأطباء الشباب ومن الممرضات

لم أرهم من قبل. وقفت وحدى فى ردهة المستشفى، أنظـر إلى سائق الإسعاف الذى لم يغادر مكانه وتقدمت منه:

- أنا صديق الدكتور وجيه كنت معه هنـا وأريـد العودة إلى البيت.. ابتسم لى، فرأيت سِنّاً ذهبية تلمـع فـى مقدمة فمه. قال:

- اصعد.

صعدت إلى جواره، وأدار محرك الإسعاف. شـاب صغير من أهل البلدة، نظيف الثياب، لم يتكلم إلا فى منتصف الطريق. قال:

- الدوران الذى تقع عنده الحوادث فى قليبة يستطيع أى سائق أن يقطعه بسهولة. لماذا إذن تحدث الحوادث؟ سحر هذا وا   العظيم..

لم أرد ولم يعد إلى الكلام. أرشدته فقط إلى بيتى.

*****

(٨)

لماذا أنا هنا؟

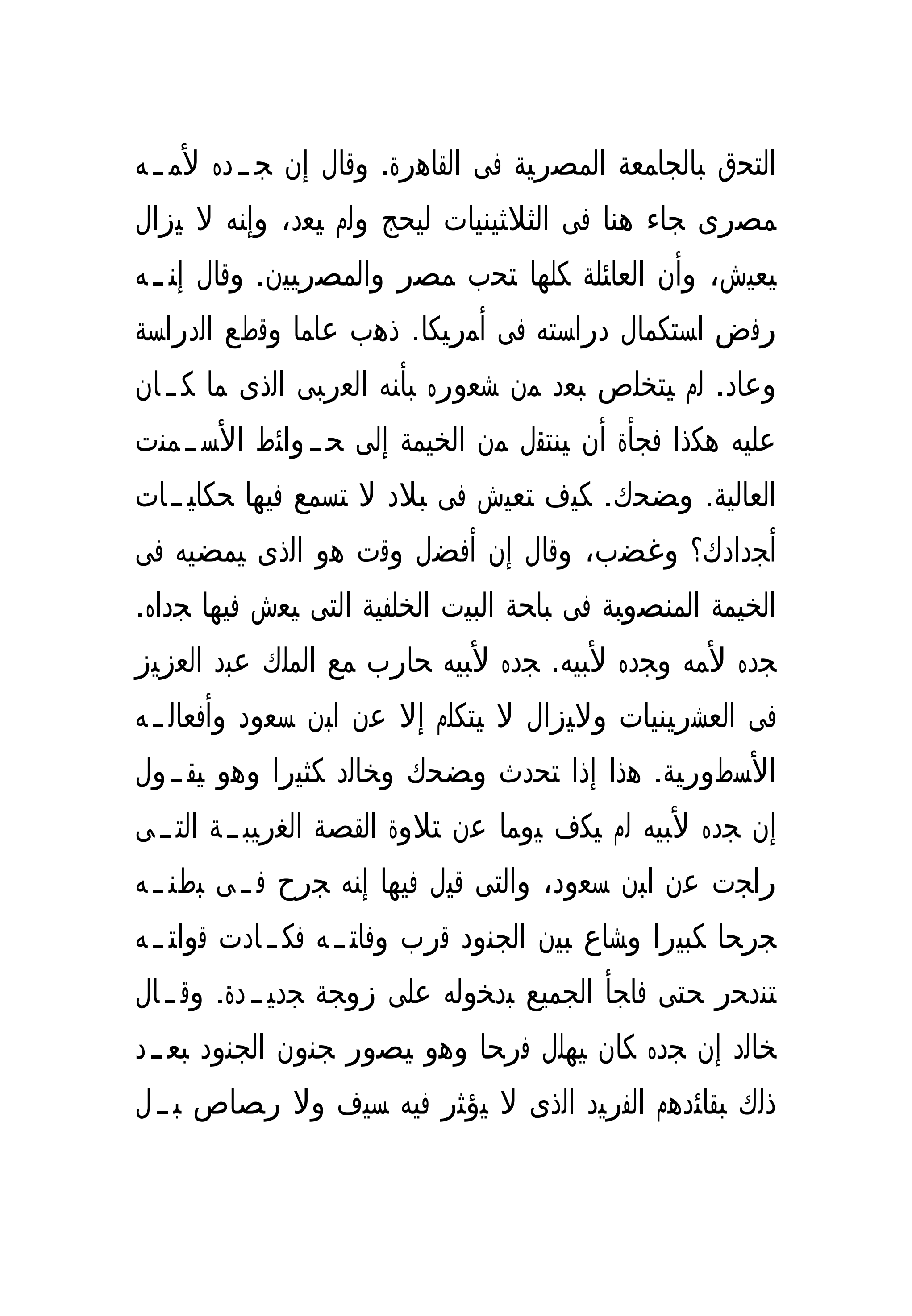
سؤال صعب ياواضحة. أصعب منه أن أراك وجهـا لوجه.. وكأنى كنت أعرف. من يوم رأيتك تحـت الشـمس ووسط الضوء الأبيض وتاقت نفسى أن أرى جسدك يخـتلج وأنا أعرف أنى سأقابلك.. سحر كالذى يقلب السيارات فـى قليبة كما قال السائق ذو السنّة الذهبية.. لكن هل أنـا ميسـر لك؟ لا أظن أن أحدا منا ميسر للآخر. لمـاذا إذن تضـعك الأقدار فى طريقى؟ ألأنها بلدة صغيرة؟ لو كانت القاهرة مـا تغير شىء. أنت الثانية التى رأيت وجهها.. التـى كلمتهـا. بالأمس فقط رأيت أول وجه نسائى رأيـت عايـدة. اليـوم رأيتك. مالذى جعلنى أذهب لأعطيك الدرس؟ كنـت نسـيت موعدى، ومضى على الأسبوع أسبوع آخر. ليتنى ما أخذت طاقم أقلام الشيفرز! رأيته فتذكرت أننى نسـيت. لـم أكـن

نسيت. سعيد ذكرنى أكثر من مرة. إنك لا تعرفينه. أخـوك يعرفه، وفى كل مرة قلت له إنى أذكر الموعد، ويرانـى لا أذهب، وأقول سوف يفهم أنى لا أريد ويكف عنى، ولم يكف ولم آت. رأيت هدية أخيك فأحاطتنى بشعور الذنب وجئتـك خائفًا.

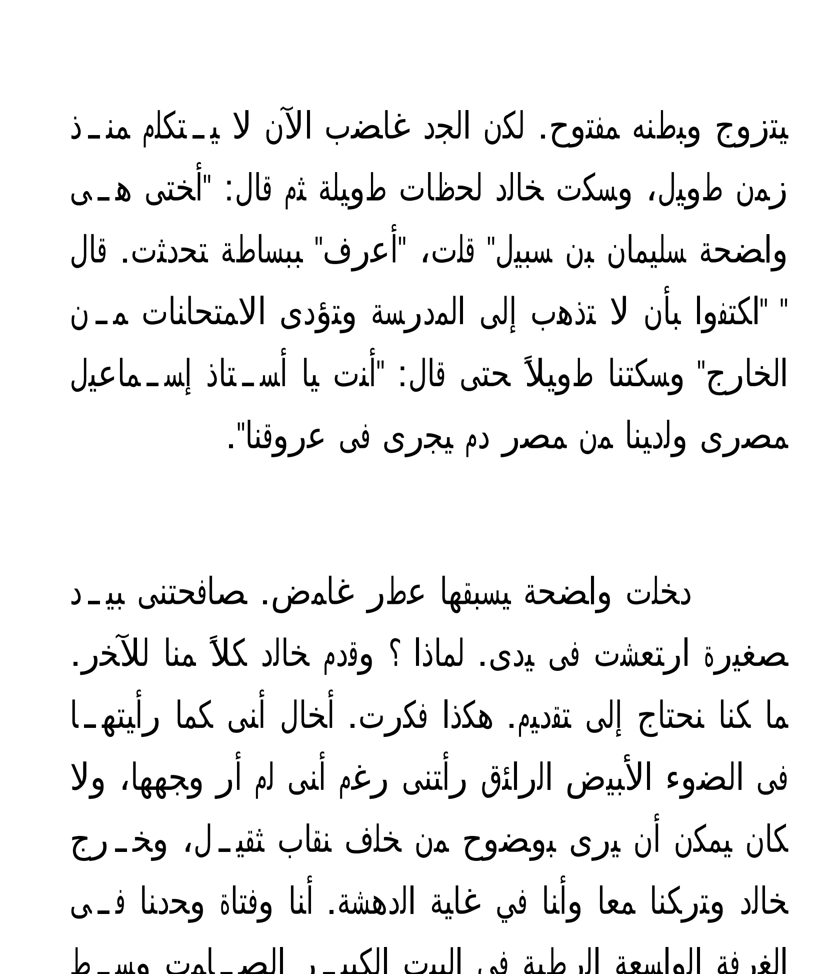
أعرف أنه لا أحد رأى جسدك يختلج غيـرى. أنـا والشمس. لابد أن الشمس رأته. هى التى كانت تسكب أشعتها على الكون ببراءة اللبن الحليب. سأرى جسدك الآن أمـامى. هل يختلج أم يختلج جسدى أنا هذه المرة ؟

*****

استقبلنى خالد بفرح طفولى غامر. قادنى إلى غرفـة واسعة مفروشة بالبسط الحمراء الـوثيرة، وعلـى جوانبهـا حشايا صغيرة خضراء، رأيت مكتبا فى ركن بعيـد وحولـه مقعدان. مكتبا صغيرا يبدو نشازا فى غرفة عربية التصميم، فقلت لابد أنه أعد للدرس على عجل. لم يسألنى خالـد عـن سبب تأخرى عن الموعد الذى ضربته له.. خالد يبدو شخصا شديد النبل حقًا. شغل الوقت بأن راح يحدثنى عن نفسه. قال إنه متخرج من كلية التجارة فى جدة، وأنه كان يتمنـى لـو



التحق بالجامعة المصرية فى القاهرة. وقال إن جده لأمه مصرى جاء هنا فى الثلاثينيات ليحج ولم يعد، وإنه لا يزال يعيش، وأن العائلة كلها تحب مصر والمصريين. وقال إنه رفض استكمال دراسته فى أمريكا. ذهب عاما وقطع الدراسة وعاد. لم يتخلص بعد من شعوره بأنه العربى الذى ما كان عليه هكذا فجأة أن ينتقل من الخيمة إلى حوائط الأسمنت العالية. وضحك. كيف تعيش فى بلاد لا تسمع فيها حكايات أجدادك؟ وغضب، وقال إن أفضل وقت هو الذى يمضيه فى الخيمة المنصوبة فى باحة البيت الخلفية التى يعش فيها جداه. جده لأمه وجده لأبيه. جده لأبيه حارب مع الملك عبد العزيز فى العشرينيات ولايزال لا يتكلم إلا عن ابن سعود وأفعاله الأسطورية. هذا إذا تحدث وضحك وخالد كثيرا وهو يقول إن جده لأبيه لم يكف يوما عن تلاوة القصة الغريبة التى راجت عن ابن سعود، والتى قيل فيها إنه جرح فى بطنه جرحا كبيرا وشاع بين الجنود قرب وفاته فكادت قواته تندحر حتى فاجأ الجميع بدخوله على زوجة جديدة. وقال خالد إن جده كان يهلل فرحا وهو يصور جنون الجنود بعد ذلك بقائدهم الفريد الذى لا يؤثر فيه سيف ولا رصاص بل



يتزوج وبطنه مفتوح. لكن الجد غاضب الآن لا يتكلم منذ زمن طويل، وسكت خالد لحظات طويلة ثم قال: "أختى هى واضحة سليمان بن سبيل" قلت، "أعرف" ببساطة تحدثت. قال " "اكتفوا بأن لا تذهب إلى المدرسة وتؤدى الامتحانات من الخارج" وسكتنا طويلاً حتى قال: "أنت يا أستاذ إسماعيل مصرى ولدينا من مصر دم يجرى فى عروقنا".

دخلت واضحة يسبقها عطر غامض. صافحتنى بيد صغيرة ارتعشت فى يدى. لماذا ؟ وقدم خالد كلاً منا للآخر. ما كنا نحتاج إلى تقديم. هكذا فكرت. أخال أنى كما رأيتها فى الضوء الأبيض الرائق رأتنى رغم أنى لم أر وجهها، ولا كان يمكن أن يرى بوضوح من خلاف نقاب ثقيل، وخرج خالد وتركنا معا وأنا في غاية الدهشة. أنا وفتاة وحدنا فى الغرفة الواسعة الرطبة فى البيت الكبير الصامت وسط الصحراء المترامية فى البلاد شاسعة الأرجاء.

ولم أعد مهيأ للدرس. وأحسست أن واضحة أدركت ذلك. لم أعد منتظم الذهن. وددت الانتهاء بسرعة، ووددت

الفرار. اكتفيت بسماعها تتحدث عن الصعوبات التى تقابلهـا فى اللغة الإنجليزية، ووعدتها بتيسير كل شىء.

قالت فجأة:

ـ اكشفى وجهك.

كانت لحظة أحسست فيها بضرورة أن أرى عينيهـا تستقبلان كلامى ما دمت لا أرى وجهها جيدا فلا يمكـن أن ترى وجهى، فكيف إذن يعرف أحدنا الأخر وكيف يتـذكره؟ وكدت أعتذر لولا أنها تعجلت فى تلبية الطلب.

فم صغير وأسنان ندية وعينان عسـليتان ناعسـتان وأهداب طويلة وبشرة خمرية مفاجئة، وقوس الشعر الأسـود فوق الجبين وتحت رباط الرأس الأخضر ينبئ بشعر غزيـر خلفه.

ـ ما الذى يضايقك فى اللغة غير القواعد؟

ـ القصة طويلة.

ـ لكنها ممتعة.

ـ اقرأها معى.

ـ سنقرأها ونعيد ترتيب كل شىء ونضحك كثيـرا مما سيفعله الخادم "باسبارتوت" وهو يطوف العالم مع سـيده المغامر.

وصرت فجأة أشم أنفاسها الزكية، وعطرها الغامض كَثفَ وانتشر، وطال الدرس أكثر من ساعتين، ولما نظـرت إليها أرخت أهدابها، وكلما ناولتنى الكتاب تلامسـت أناملنـا فارتشعت أصابعها. لابد أنها لم تكـن تنصـت لـى طـول الدرس. لقد أبعدت الكتاب جانبا وسألتنى؟

ـ مصر جميلة يا أستاذ؟

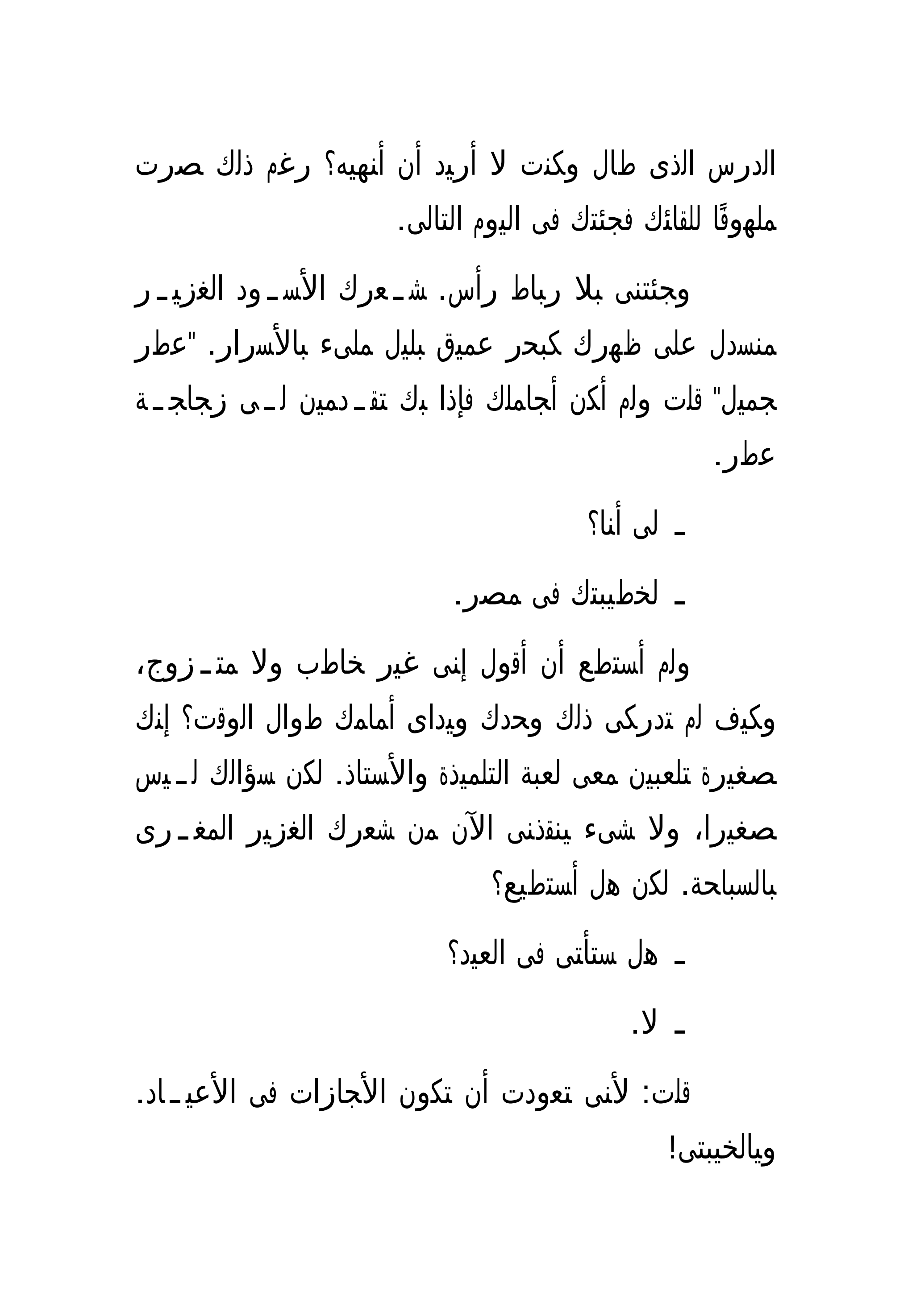
ـ جدا.

ونظرت إليها وطالت نظرتها إلى.

ـ إذن لماذا أنت هنا؟

*****

أربكتنى يا واضحة ولم أجد كلاما أقوله. أنا هنا لأن هناك من يسعدهم ذلك. هراء. أنا هنا لأن المصريين جميعـا هنا. هراء. لست أنا آخرهم ولا جدك المصرى أولهم. هراء. أنا لم أكن أحس إلا بعطرك الغامض فلماذا جعلتنـى أنهـى



الدرس الذى طال وكنت لا أريد أن أنهيه؟ رغم ذلك صرت ملهوقًا للقائك فجئتك فى اليوم التالى.

وجئتنى بلا رباط رأس. شـعرك الأسـود الغزيـر منسدل على ظهرك كبحر عميق بليل ملىء بالأسرار. "عطر جميل" قلت ولم أكن أجاملك فإذا بك تقـدمين لـى زجاجـة عطر.

- لى أنا؟

- لخطيبتك فى مصر.

ولم أستطع أن أقول إننى غير خاطب ولا متـزوج، وكيف لم تدركى ذلك وحدك ويداى أمامك طوال الوقت؟ إنك صغيرة تلعبين معى لعبة التلميذة والأستاذ. لكن سؤالك لـيس صغيرا، ولا شىء ينقذنى الآن من شعرك الغزير المغـرى بالسباحة. لكن هل أستطيع؟

- هل ستأتى فى العيد؟

- لا.

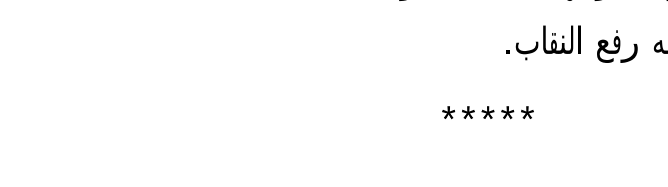
قلت: لأنى تعودت أن تكون الأجازات فى الأعيـاد. ويالخيبتى!

ـ هل ستحج ؟

ـ لا.

إذن ستمضى العيد وحدك.

ولم أستطع التراجع. وحاصرنى الضيق.. نسيت أننى



رأيت فى يومين وجهين جميلين. وجه تنـدت فيـه العينـان بالدمع، ووجه رفع النقاب.

*****

(٩)

لم توقظنى أمى على صوت الراديو والتهليل والتكبير وأصوات الأولاد فى الشارع ولا أغنيات الصباح المبتهجـة بالعيد.

ليس على اليوم استقبال أختى المتزوجـة وزوجهـا وولديها، ولا أختى المطلقة وبنتيهـا، ولـن تطلـب أختـى المشاكِسة الطالبة فى الجامعة أن يفسحو لها مكانًـا لـتجلس جوارى، ولن يبدو على أخى الطالب بالجامعة أيضا شـىء من القلق لكبر حجمه ومد يده لى يأخذ ما أعطيه له من نقود.

أى شخص مكانى الآن قد يبكى من بيت كبير واسع عليه أن يتناول فيه إفطاره وحيدا فى يوم عيد، لكنى رفعـت صوت الراديو إلى آخره وابتسمت.

قمت مبكرا حقًا، ولكنى شغلت بإعداد الإفطار. لحـم مسلوق وشوربة بالهيل وفتة ولا أحد يجلس حولى.

شجار مفاجئ لا نعرف كيف بدأ. لقد عاد أبى فـى الحال من الصلاة وأوشكت أمى أن تفرغ من إعداد الفطـور الساخن ولا نعرف سبب الشجار.

ارتفعت الأصوات أيضا فى الشقق المجاورة، والتى فوقنا، والتى تحتنا، واختلطت أصـوات الرجـال بأصـوات النساء بنحيب الأطفال بخوفنا، ولكن أبى يتراجع "حقك على يا أم إسماعيل.. كل سنة وأنت طيبة". وسكت الجميع. حـط على الدنيا صمت وارتفعت الضحكات فى كل الشقق وفتحت الأبواب للمرح. لماذا كان يحدث ذلك حقًا، لا أعرف حتـى الآن. لماذا انتهى؟ ربما لأن الأطفال فى كل الشـقق كبـروا مثلى، وربما لأن الآباء ماتوا مثل أبى، والأمهـات مرضـن مثل أمى، أو متن.. يا ا ! هل يمكن أن تموت أمى وأنا هنا؟ ورحت آكل بشهية عظيمة غير مبال بما يقفز إلى ذهنى من ذكريات، أو أفكار خبيئة.

*****

خرجت إلى الشارع. لا حاجة بى للسيارة. سأمشـى وأرى هل البلد خالية حقًا؟ لا أستطيع أن أمضى العيد وحدى فى البيت.

كل الإغنياء يسافرون فى العيد إلى الشام وأوروبا.

كل الفقراء يسافرون إلى مصر.

النساء والأطفال لا يتركون التليفزيون والفيديو.

الغرباء يحجون.

الغرباء من غير المسلمين لا يغادرون بيوتهم.

يا إلهى! هل يكون هذا حقيقيا ؟!

ومشيت..

أرض متربة بين بيوت منخفضة أقطعها لأصل إلـى الشارع العام. لا أرى غير بعض عنزات صغيرة تتقافز فوق السيارت المركونة أمام أبواب مغلقة لبيوت مغلقـة النوافـذ أيضا. وأمشى.

باب ينفتح فجأة، يخرج منه رجل وامـرأة مغطـاة بالسواد، وأطفال يركبون سيارة فارهة وأسمع ضجة كلامهم، لا أفهم منها شيئًا، وتتحرك السيارة علـى مهـل وتختفـى وأمشى.

أدخل الشارع العام. لا سوق اليوم. أبواب المحـلات كلها موصدة تـذكرنى بـأبوب محـلات شـارع المكـس بالإسكندرية بالليل.

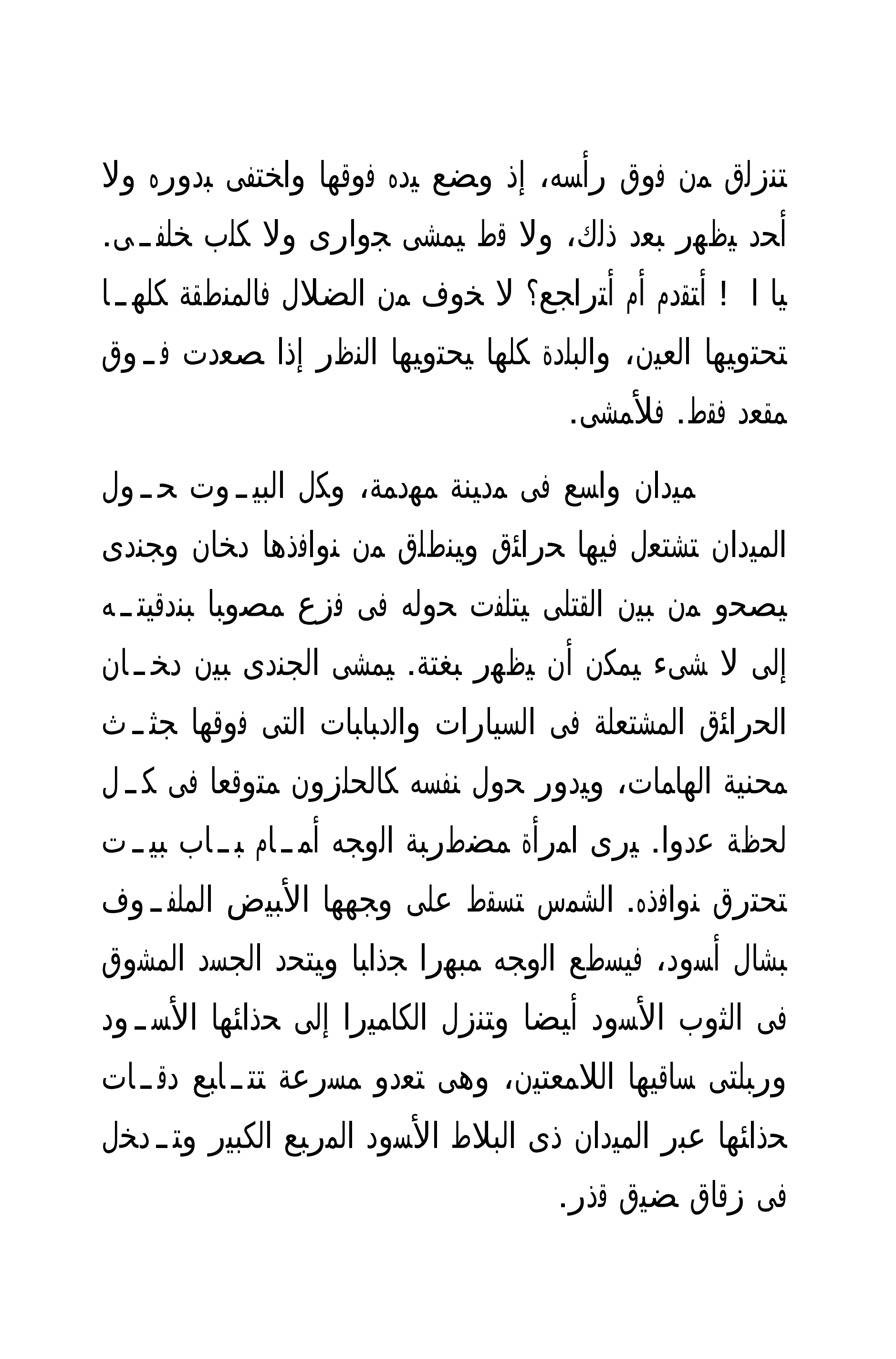
أرض الشارع مليئة بالأوراق المهملة والكراتين الفارغة تشغل الرصيفين، وعلب "البارد" الفارغة فى كل مكان، والجو صحو، والفضاء بديع، وأقرأ اللافتات. هنا محل ساعات، وهنا عطور،وهنا بقالة، وهنا جوهرجى، وهنا شرائط كاسيت وهنا أدوات كهربائية، وهنا بنك الراجحى الذى رأيت فيه منصور غاضبا وأمامه بنك الرياض وخلفه سوق الخضار المغلق اليوم أيضا.

الشارع ليس طويلاً كما رأيته من قبل. وها أنذا أحصى عواميد النور، فأجدها حوالى مائة على ناحية واحدة. إذن هى مائتان على الناحيتين ولا داعى لإحصاء الجانب الآخر. أكاد أنتهى من الشارع، وتقابلنى خرابات ومساحات غير مبنية، وبيوت مهدمة جدرانها، وبيوت يعاد بناؤها، وأرى قططًا ضخمة كأنها نمور أو شياه تتجمع فى الخرابات حول أشياء لا أراها، لابد أنها بقايا طعام. الشمس تعلو فى السماء والفضاء يتسع. ما أجمل الفضاء حين تكتشف وجوده وأنت بين الزحام! ما أتعسه حين لا يكون معك إلا وهو فى بلد بعيد فى يوم عيد ما أتعسنى وفضائى! هنا لا يقتلون القطط. لقد باركها النبى. هكذا يقولون. لكن هيهات للكلاب

أن تنجو من أحد. يا إلهى! ما هذا الكلب الأبيض السارح فى الشارع ضخما مثل حمار شارد؟ إنه حتى لا يتلفت حوله، فى حجم الكلب الذى رأيته من قبل فى الصحراء. هذا كلب آخر وينظر إلى أداعبه بيدى من بعيد. أشير إلـى القطـط حتـى يهاجمها لكنه يلتفت ويبتعد على مهل وأمشى حتى أصل إلى الجامع مع آخر الشارع فأجده مفتوحا وخاليا وأمامـه محـل المخللات مغلق.

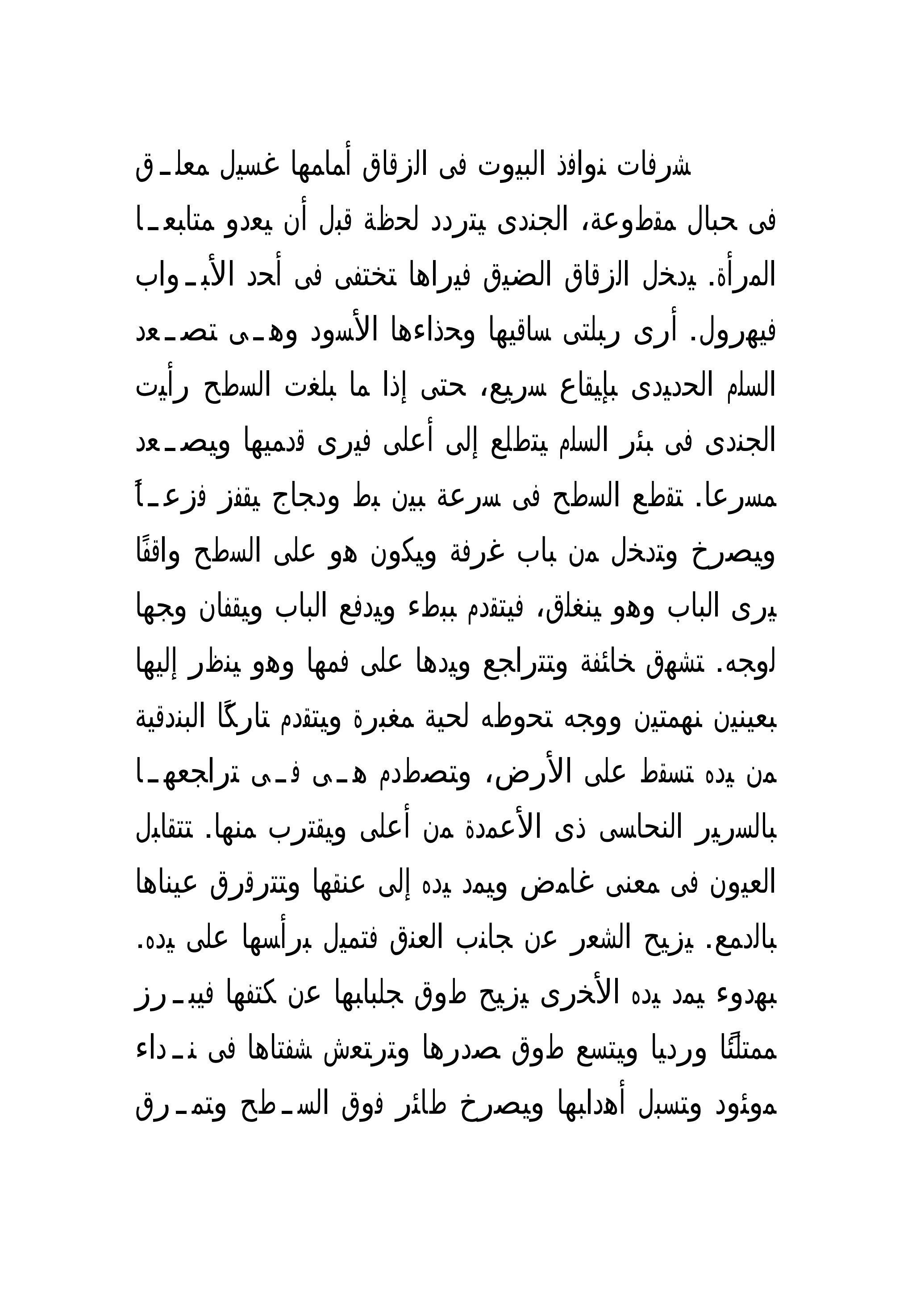
*****

هل أجوس فى طرقات أم درمان؟ لا نافذة مفتوحـة ولا أبواب. منازل واطئة من قرميد أبيض ضخم وسـيارات قليلة مبعثرة على أرض متربة لشوارع ضيقة وأكوام قمامـة لا قطط حولها ولا كلاب ورائحـة مكتومـة فـى الفضـاء والشمس تمشى معى. أين ذهب أهل المغنى والطرب والحظ ، ولا أفراح اليوم ولا زينات، هيك هيك هيك. ضحكة داعرة ممتدة كسكين بارقة تعكس أشعة الشـمس وضـحكة رجـل عريضة قوية بعدها. حقيقة أم خيال؟ لا أدرى. لكنى سمعت ورأيت رجلاً يمرق جاريا عبر الشارع الـذى أمشـى فيـه الهوينا ويختفى فى زقاق، ويمرق بعده رجل آخر تكاد غترته



تنزلق من فوق رأسه، إذ وضع يده فوقها واختفى بدوره ولا أحد يظهر بعد ذلك، ولا قط يمشى جوارى ولا كلب خلفى. يا ا ! أتقدم أم أتراجع؟ لا خوف من الضلال فالمنطقة كلها تحتويها العين، والبلدة كلها يحتويها النظر إذا صعدت فوق مقعد فقط. فلأمشى.

ميدان واسع فى مدينة مهدمة، وكل البيوت حول الميدان تشتعل فيها حرائق وينطلق من نوافذها دخان وجندى يصحو من بين القتلى يتلفت حوله فى فزع مصوبا بندقيته إلى لا شىء يمكن أن يظهر بغتة. يمشى الجندى بين دخان الحرائق المشتعلة فى السيارات والدبابات التى فوقها جثث محنية الهامات، ويدور حول نفسه كالحلزون متوقعا فى كل لحظة عدوا. يرى امرأة مضطربة الوجه أمام باب بيت تحترق نوافذه. الشمس تسقط على وجهها الأبيض الملفوف بشال أسود، فيسطع الوجه مبهرا جذابا ويتحد الجسد المشوق فى الثوب الأسود أيضا وتنزل الكاميرا إلى حذائها الأسود وربلتى ساقيها اللامعتين، وهى تعدو مسرعة تتابع دقات حذائها عبر الميدان ذى البلاط الأسود المربع الكبير وتدخل فى زقاق ضيق قذر.



شرفات نوافذ البيوت فى الزقاق أمامها غسيل معلق فى حبال مقطوعة، الجندى يتردد لحظة قبل أن يعدو متابعا المرأة. يدخل الزقاق الضيق فيراها تختفى فى أحد الأبواب فيهرول. أرى ربلتى ساقيها وحذاءها الأسود وهى تصعد السلم الحديدى بإيقاع سريع، حتى إذا ما بلغت السطح رأيت الجندى فى بئر السلم يتطلع إلى أعلى فيرى قدميها ويصعد مسرعا. تقطع السطح فى سرعة بين بط ودجاج يقفز فزعاً ويصرخ وتدخل من باب غرفة ويكون هو على السطح واقفًا يرى الباب وهو ينغلق، فيتقدم ببطء ويدفع الباب ويقفان وجها لوجه. تشهق خائفة وتتراجع ويدها على فمها وهو ينظر إليها بعينين نهمتين ووجه تحوطه لحية مغبرة ويتقدم تاركًا البندقية من يده تسقط على الأرض، وتصطدم هى فى تراجعها بالسرير النحاسى ذى الأعمدة من أعلى ويقترب منها. تتقابل العيون فى معنى غامض ويمد يده إلى عنقها وتترقرق عيناها بالدمع. يزيح الشعر عن جانب العنق فتميل برأسها على يده. بهدوء يمد يده الأخرى يزيح طوق جلبابها عن كتفها فيبرز ممتلئًا ورديا ويتسع طوق صدرها وترتعش شفتاها فى نداء موئود وتسبل أهدابها ويصرخ طائر فوق السطح وتمرق

طائرة تلقى بقنبلة فوق المدينة فتندفع إلى أحضـان الجنـدى المسكين المتعب، وفى جبهة القتال البعيدة تنطلـق المـدافع متتابعة وأرى الجندى بعد ذلك فوق السرير يدخن سـيجارة عاريا نصفه الأعلى ويغطى نصفه الأسفل ملاءة بيضاء وهى نائمة فوق صدره عار ظهرها فوق الملاءة، وعلـى كتفهـا الأيمن خالٌ صغير وتعبث بأناملها فى شعر صدره. ومازلت أجوس بين المنازل الصامتة لأم درمـان. نوافـذ موصـدة وأبواب مغلقة ولا أحد يجرى أمامى. أى سر فى هذه المنطقة يكاد يميت أهل المغنى والطرب فى يوم عيد؟ لا وجه أسـود أو أبيض يلوح لى فهل أطرق الأبواب؟ ياإلهى! إننى أسـمع صوتًا يغنى. صوتًا كأنه أنين قادم من كهف بعيـد. وأتقـدم ويزداد ارتفاع الصوت وعمقه وتتضح نبرات الأسـى فـى ترجيعه. إنه صوت أنثى أكاد أرى دمعها يصـاحبه عـزف عود باك.

جعلت لعراف اليمامة حكمةً

وعراف نجد إن هما شفيانى

فما تركا لى رقى يعرفانها

ولا سقيةً إلا وقد سيقانى

فقالا شفاك ا وا مالنا

بما ضمنت منك الضلوع يدان

وساد صمت وأنا صرت أقف تحت النافـذة وعـاد الصوت ممزوجا بنحيب يردد الغناء. وساد صمت ثم عـلا النحيب وحده فوجدت نفسى أمشى. ذهلت عن البيوت حولى حتى وجدت نفسى قد خرجت إلى الشارع الـذى يفصـل أم درمان والعزيزية معا عن السليمانية بالمنطقة الغربية للبلـدة حيث أسكن. أسرعت بالعودة إلى البيت وأنا أشعر أن شيئًا لا أدركه كان معى وسقط منى.

*****

استلقيت على السرير وضحكت حتى اهتز جسـمى، منذ جئت إلى هنا نادرا ما جلست فى حجرتى علـى مقعـد. اكتشفت ذلك الآن. صعب أن يكون بالحجرة سرير وتجلـس على مقعد.

قمت وأشعلت التليفزيون. ماذا أفعل؟ صورة للحجاج فى "منى".. زحام هائل من اللون الأبـيض. بشـر وخيـام. ابتسمت من فكرة أنى قد أرى أحدا ممـن أعـرفهم وسـط الزحام. لابد أنه قد أُذّن للظهر لأن الصورة للحجاج يصلون فى الخلاء. سيرك لمدة ساعتين ونصف. الفتاة التـى تلعـب الأكروبات فوق الحصان لها ساقان طويلتـان. كـل فتيـات السيرك لهن سيقان طويلة. ساعة مع الغناء الذى لـم أنتبـه إليه.

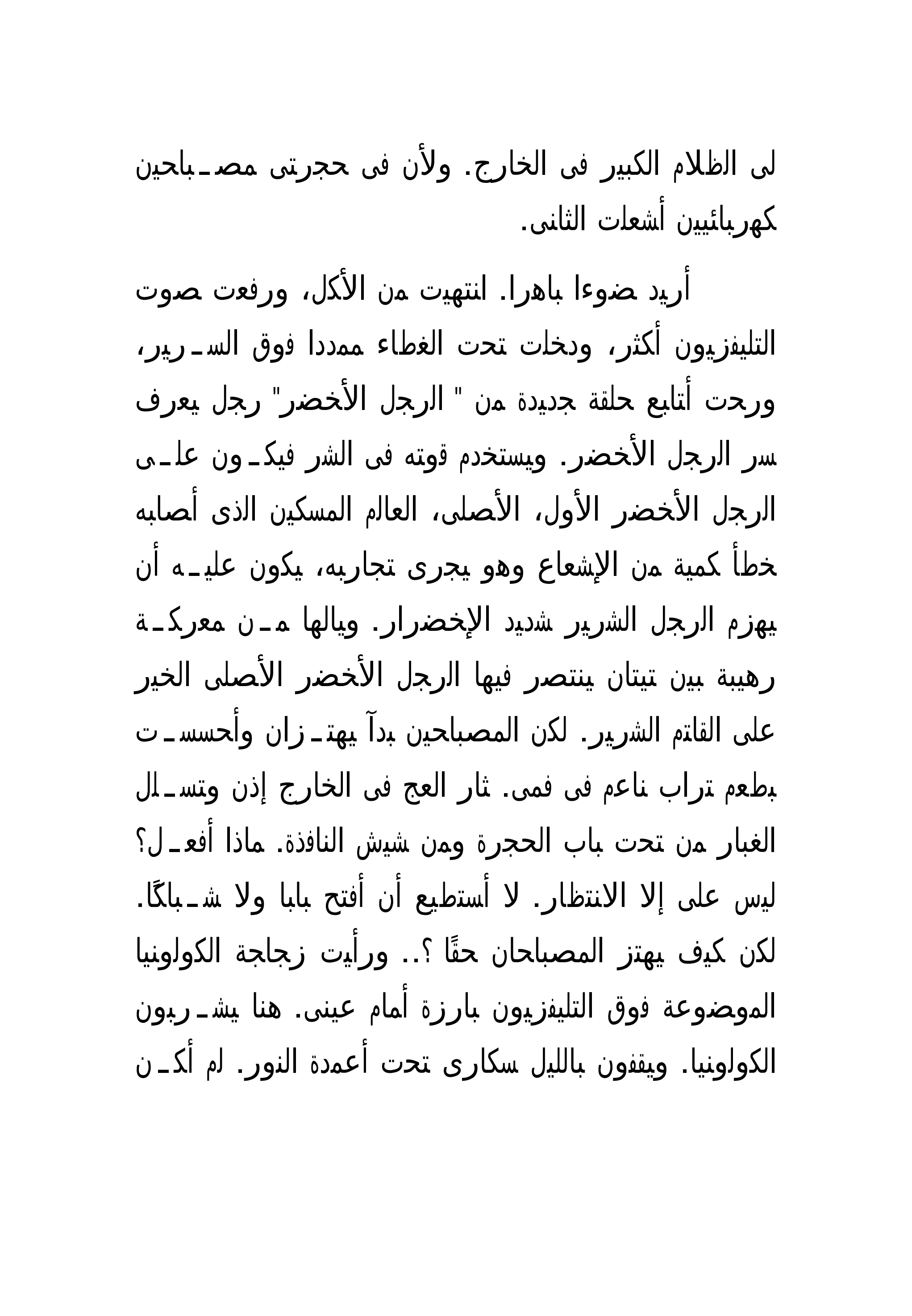
فيلم أمريكى مثير لبيرت لانكستر وصـوفيا لـورين وآفاجردنر عن قطار انتشر فيه الوباء. ضاع منى اسم الفيلم. بدأ ولا أدرى. الممثلون أعرفهم جيدا. فقط ظننت آفاجاردنر اليزابيث تايلور. كبرت آفاجاردنر ولا يزال فى وجها شـىء من توحشه الجميل القديم. أحس الآن بالهواء الراكد القديم فى أزقة حينا "بالمتراس" بالإسكندرية وبرائحة سينمات الدرجـة الثالثة حين كنا نجرى بلا مال خلف "الكونتيسة الحافية" إينما عرض وأرى "كمال الفار" وهو يصرخ بنا. الكونتيسة الحافية فى سينما "كونكورديـا". الكونتيسـة الحافيـة فـى سـينما "كيلوباترا". الكونتيسة الحافية فى سينما "ليلى". فى كل أحياء

الإسكندرية البعيدة كان يتابع آفاجـاردنر ويسـوقنا أمامـه نضحك. لماذا كنا نفعل ذلك حقًا؟ أخذ "السل" كمال من بيننـا فى وقت مبكر ولم يحدث أن شاهدت "الكونتيسة الحافية" بعد ذلك ولا رأيت شفتى آفا غاردينر المكتنـزتين، ولا قوامهـا الذى يدعوك أن تحوطه إلى اليوم. لم يعد يـدعوك لشـىء. مضت عشرون سنة على تلك الأيام..

ورحت أنقلب على بطنى ثم ظهرى. انتهـى الفـيلم وأطفأت التليفزيون وكان النساء. أتغـدى الآن فـى موعـد العشاء. ليس من السهل أن تأكل لحما مرتين فى يوم واحـد لكنه عيد. ما بين الحجرة والمطبخ، فى المسـافة القصـيرة للردهة المكشوفة أحسست بالبرد.

هذه بشائر شتاء قاسٍ. وعدت بصينية كبيرة عليهـا سلطانية شوربة وطبق من اللحم وآخر من الفتة. كل شـىء ساخن وأرفع الصينية ليصل البخار إلى وجهى حتى أدخـل الغرفة. إننى جائع بحق.

وسط الأكل أدركت أن السكون حـولى أكثـر ممـا ينبغى. سكون جاثم كأنه شخص أخرس وأعمى يجلس معك. أشعلت التليفزيون وقمت أغلق باب الحجرة الذى كان يضىء


لى الظلام الكبير فى الخارج. ولأن فى حجرتى مصـباحين كهربائيين أشعلت الثانى.

أريد ضوءا باهرا. انتهيت من الأكل، ورفعت صوت التليفزيون أكثر، ودخلت تحت الغطاء ممددا فوق السـرير، ورحت أتابع حلقة جديدة من " الرجل الأخضر" رجل يعرف سر الرجل الأخضر. ويستخدم قوته فى الشر فيكـون علـى الرجل الأخضر الأول، الأصلى، العالم المسكين الذى أصابه خطأ كمية من الإشعاع وهو يجرى تجاربه، يكون عليـه أن يهزم الرجل الشرير شديد الإخضرار. ويالها مـن معركـة رهيبة بين تيتان ينتصر فيها الرجل الأخضر الأصلى الخير على القاتم الشرير. لكن المصباحين بدآ يهتـزان وأحسسـت بطعم تراب ناعم فى فمى. ثار العج فى الخارج إذن وتسـلل الغبار من تحت باب الحجرة ومن شيش النافذة. ماذا أفعـل؟ ليس على إلا الانتظار. لا أستطيع أن أفتح بابا ولا شـباكًا. لكن كيف يهتز المصباحان حقًا ؟.. ورأيت زجاجة الكولونيا الموضوعة فوق التليفزيون بارزة أمام عينى. هنا يشـربون الكولونيا. ويقفون بالليل سكارى تحت أعمدة النور. لم أكـن

مستعدا للخروج مرة أخرى. ثقل الطعام على جسمى، وشدنى النوم من ساقى.

*****

انتهى اليوم الأول بنهاره وليلة. كان لابد أن ينتهى. أعرف ذلك. وخرجت فى ضحى اليوم التالى أمشى. أريد أن أرى البلدة وهى تعود إلى الحياة شيئًا فشيئًا.

وجدت محلاً للبقالة قريبا من البيت فتح أبوابـه ولا أحد يشترى ولا أحد يقف فيه ليبيع. صاحبه يسكن فى بيـت خلف المحل.، لابد أنه سيخرج من بيته بعد قليـل. أرجـأت شرائى للسجائر حتى عودتى، ومشيت حتى وصـلت إلـى المخبز اللبنانى بأول العزيزية، ونظرت إلى وجـه صـاحبه الأحمر. أرجأت شرائى للخبز حتى عودتى ومشيت. حـدس باليقين بأنى لا أرى فى البلدة أكثر مما رأيت لكنى مشـيت. قلت ألعب مع نفسى. أمس جست فى شوارع العزيزيـة وأم درمان. اليوم أنحرف يسار الشارع العام فى اتجاه الإمـارة. لا فارق هنا بين حى وحى فى شـىء إلا الاسـم. البيـوت متشابهة. قصيرة بيضاء وصـفراء لهـا بوبـات حديديـة، والعمارات منها لا ترتفع عن ثلاثة أدوار، لكن ماذا يمنع أن

أمشى فى مكان لم أمش فيه. ياإلهى! هذه الطريق تصل إلى بيت واضحة القريب من الإمارة. لا يمكن أن أقصد ذلك لأمش كيفما اتفق. لأختلق لنفسى شيئًا أفكر فيه وأشرد عن الطريق. فإذا أخذتنى قدماى لواضحة أطرق الباب وأسأل عن خالد أقابله لأقول له: "مبروك العيد" كما يقولون هنا، ولابد أن واضحة ستأتى لتقول لى ذلك أيضا. إذا لم تأخذنى قدماى إلى واضحة أعود. فكرت فى شىء أشغل فيه ذهنى فلم أجد. ربما لأنى فكرت فى ذلك. لكن الحقيقة أذهلتنى. فأنا أشعر برأسى خاويا يصفر فيه الهواء كأنما نزعوا من تحت عظام الجمجمة كل شىء. ورحت أردد بصوت خفيض، "جعلت لعراف اليمامة حكمة.. " وسمعت صوت المرأة يأتى واهنًا من بعيد يخالطة النشيج.

لماذا تقف؟ فيما تنظر؟

سألنى الشرطى الواقف أمام الباب. ارتبكت. إننى أقف بحق أتطلع إلى البيت. بيت صغير له حديقة نخيل وشجر ليمون، وعلى بابه يقف جندى صغير السن يحمل بندقية، وفى شرفة صغيرة بالدور الأرضى يجلس الدكتور

سيد الغريب بلحيته الطويلة المهوشة ينظر إلى بتركيز شديد كلانا ينظر إلى الآخر منذ لحظات إذن.

ـ آسف. لا أقصد شيئًا.

قلت للجندى ومشيت. وجدت نفسى أسـرع الخطـى عائدا إلى البيت. لم أشتر خبزا ولا سجائر فى عودتى. لدى ما يكفى على أية حال.

*****

فى الغرفة وجدت التليفزيون مشـتعلاً. أنـا الـذى أشعلته، ولما لم أجد الإرسال قد بدأ تركته "يوش" وخرجـت. هاهو ذا يبث برنامجا عن مباريات "تلـى مـاتش". غريـب صوت المذيع الذى يتابع المباريات الألمانية بلغـة عربيـة فصحى. هذا شىء لم أتعوده من قبل. وكان على أن آكل مما أكلت منه أمس. لم أتناول إفطار حتى الآن. لمـاذا خرجـت اليوم حقًا؟ فقط لكى أرى البيت الموقوف فيه سيد الغريب كى أصطدم به فى طريقى وأرى نظرته إلى وكأنها لغيرى كالذى يتكلم ويتذكر فى آن. لماذا حقًا يفعلون بـه ذلـك؟ لمـاذا لا يحاكمونه وينهون المسألة؟ لا يمكـن أن تتـأخر إجـراءات

المحكمة كل هذا الوقت. هنا فى المحكمـة قـاضٍ شـيخ لا يحتاج إلا إلى شهود. لا محـام ولا نيابـة ولا مرافعـة ولا عريضة اتهام. لابد أن مسألة الغريب طواها النسيان. لو أن أحدا ما، أى أحد، تولى لفت انتباه الإمارة لانتهـت مسـألة الغريب على أى نحو لكن لا يفعل ذلك أحد حتى الآن. هـل أفعله أنا؟

وانشغلت بإعداد الطعام. أكلت ونمت وصحوت أسمع صوت طرقات بالباب. سأفتح فأجد امرأة تطلب شربة مـاء وتتهاوى ساقطة فأسندها فوق ذراعى وأحملها إلى غرفتى فلا تفيق من غشيتها إلا بالليل وبالليل لن تخرج وفـى الصـباح تكون قد ألفت البقاء معى.

وهب هواء أرعش الباب الحديدى بالخارج وأخـذت أدعك عينى وأنتبه إلى الطرقات على الباب فقمت وغـادرت الحجرة. لم أندفع. ابتسمت ومشيت على مهل. لا يمكـن أن تطرق الباب امرأة. وأمام الباب توقفت قليلاً. ماذا لـو كـان الطارق امرأة بحق؟ لن أسمح لها بالدخول. فتحـت البـاب فرأيته. رجل عجوز ممزق الثياب وعلى رأسه غترة قديمـة وعقال حائلٌ سوداه ويمد لى يده. ياإلهى! شحاذ!هنـا! فـى

المملكة العربية السعودية! ويدق الأبواب أيضـا بإصـرار! "يسهل الك" قلت. لم يتحرك. إنه حافى القـدمين أيضـا. لـم يتكلم. غمغم بما لا أفهمه. لحيته الطويلة هى التى تحركـت صاعدة هابطة. وظل مادا يده. عدت إلى الحجـرة مسـرعا وأحضرت عشرة ريالات ناولته إياها فأخذها ومشـى. فـى الردهة توقفت. ظلام واسع حولى. كان القمر يقترب فـوقى من الاكتمال ويلقى على الدنيا بقليل من البهاء. لـم أتنـاول غدائى ولست بجائع. وجبة واحدة تكفى اليوم. ورحت أنصت للدعاء الشجى بعد الآذان.

قال رسول ا ـ صلى ا عليه وسلم: من مات فى الطريق جائيا أو ذاهبا، لقيه ا تعالى يوم القيامة ولم يحاسبه وأدخله الجنة. وقال: من حج هذا البيت أو اعتمر فلم يرفـث ولم يفسق كان كما ولدته أمه. وقال: من حج وعليـه ديـن قضى ا دينه. وقال سعيد ابن المسيب: كنت جالسـا عنـد القبر والمنبر فسمعت قائلاً ولم أر شخصا: "اللّهم إنى أسألك عملا بارا، ورزقًا دارا، وعيشًا قارا، اللّهم لا تجعـل بيننـا وبينك أحدا سواك، اللهم إن كان رزقى فى السماء فأنزلـه، وإن كان فى الأرض فيسره، وإن كان قليلاً فثمره، وإن كان

يسيرا فكثره، أعوذ بك من القنوع والخضوع والخنوع. اللهم اجعلنى أفقر خلقك إليك، وأغناهم بك، اللهم اجعل لى رزقًـا واسعا، واجعلنى به قانعا".

*****

اختلف الدعاء الليلة عن كل دعاء. ليس لوحدتى ولا لأنى لم أحج. ذكرنى بأبى. كان كثير الدعاء بعـد الصـلاة. سبع سنوات مضت على موتـه الآن. ولـولا قطعـة أرض صغيرة كان يحتفظ بها، ما أكملت العامين الأخرين لى فـى الجامعة. ترك ما يكفى إلى اليوم الذى أتابع فيـه رسـالته، وهو.. كأنه قدر رسم لى كل شىء.. كيف لم أحتفظ بصورة واحدة لأبى، وكيف أنى نسيت وجهه. قمت فجأة وتناولت من الدولاب كراسة أستخدمها فى كتابه الرسائل وكتبت:

السيد/ ناظر مدرسة طاهر بك الإعدادية بالورديـان بالإسكندرية.

بعد التحية:

أنا إسماعيل خضر موسى مدرس اللغة الإنجليزيـة فى مدرستكم الغراء. سافرت إلى السعودية بجواز سفر تـم

استخراجه على أساس بطاقة شخصية مزورة لم أثبت فيهـا وظيفتى كمدرس حتى لا تمنعنى الوزارة من السفر وعلـيكم أن تحتسبوا أيام انقطاعى أجازة بدون مرتب حتى أعود بعد عام.

ومزقت الورقة، وكتبت:

السيد/ ناظر مدرسة طاهر بك الإعدادية.

رجاء حفظ مكانى فى العمل. سـأعود بأسـرع مـا يمكن.

ومزقت الورقة وكتبت:

السيد/ ناظر المدرسة.

لن أعود ولن أبقى هنا. سأنفجر..

ومزقت الورقة أيضا. وقفزت من فوق السرير وسط الغرفة. واحد. اثنان ثلاثة أربعة. واحد. الذراعان للكتفـين.. اثنان.. الذراعان جانبا رفع. ثلاثة. أسفل خفـض، واحـد. اثنان . ثلاثة. هذا الذباب اللعين بات معى فى الغرفة رغـم البرد وانكمش فوق سلك المصباحين. هل أطارده؟ سينتشـر ولا يخرج.. هذه الروزنامة المعلقة بالحائط لابد من تمزيقها.

نوفمبر. بعد شهرين يبدأ عام جديد. وبعد اثنى عشر شـهرا ينتهى. لن أضع روزنامة فى الغرفة فى العام القادم.. هـذه وضعها فاروق. لقد جهز لى الغرفة تجهيـزا كـاملاً. أيـن فاروق الآن؟ لم يعد ولم يرسل رسالة فلأغلـق التليفزيـون وأفتح الراديو. إذاعة صوت مصر العروبة تحييكم من بغداد. بعد أيام تحل الذكرى المشئومة للزيـارة الخيانيـة للـرئيس المصرى أنور السادات إلى القدس. اليوم بدأت دورة الخليج لكرة القدم بالوقوف دقيقة حدادا لقرب هذه الواقعة الخيانيـة. ما أهنأ الرئيس المصلى بالأفكار العربية. واحد اثنان. ثلاثـة وأقفز فى الهواء. وفتحت باب الغرفـة فانسـكب مسـتطيل الضوء المنبعث منها على الردهة وامتد طويلاً على الأرض ورأيت البدر فى السماء يوشك على الاكتمال. لقد رأيته منـذ قليل حين دق الشحاذ الباب لم يتحرك من مكانه كثيرا. الوقت لايمر. من الآن لن يمر بسرعة. لن أصل اليوم الرابع للعيد إلا هالكًا. أهلا بك أيها البدر. أيها الملك. هاأنذا أقـف فـى البرد أحييك. وحدى فى هذا البيت الفارغ فـى هـذا الحـى الساكت فى هذه البلدة النائمة فى وسط الصحراء. هلا نزلت وجلست معى قليلاً أيها الملك العظـيم؟ لا امـرأة تكلمنـى

وأكلمها وأقول إن وجهها كالبدر، أو أنى رأيتك على وجهها. هل تعرف من قال بأنك ملك؟ ابن المعتز، الشاعر الخليفـة. كان ردئ الاستعارة والتشبيه. مازلت أذكـر. ربمـا قتلـه خصومه بعد أن خصوه. ياإلهى! إنه العروة بن حزام صاحب الأبيات التى سمعتها صباح أمس من المرأة الباكية. ذلك الذى شهق شهقة مات فيها. والذى لم يدركه ابن الخطاب فلم يجمع بينه وبين عفراء.. أيها البدر الملك أين ستنام فـى الصـباح ومتى؟ أريد أيضا أن أنام. ودخلت الحجرة وأغلقـت البـاب ألتمس الدفء. واحد. اثنين. ثلاثة. ما هذا الصوت الصـادر من المطبخ؟ خرفشة متتابعة وانقطاع قليل. إنه فـأر . فـأر يمرح. فأر أدرك أن "سعيد" الذى تخصص فى صيده فى مكة الآن. بالضبط كما أدرك الكلب الأبيض الضخم خلـو البلـدة فنزلها وأريته أمس. يا للفأر الـذكى! ويالسـعيد ومصـيدته الجبارة! لا يستخدم مصيدة مألوفة. ابتدع طريقـة وحشـية مقززة. الفئران دائما تذهب إلى المطبخ. وضع لوحـا مـن الخشب تحت حوض المطبخ بحيث يصنع من الجدار زاويـة حادة عند الركن. يطارد سعيد الفأر حتى يدخله فى الزاويـة الحادة ويضغط بقدمه على اللوح الخشبى فينفجر الفأر بـين

اللوح والجدار، ويحمله سعيد فى ورقة يلقى به إلى الشـارع من أعلى الباب. كل يوم يقتل فأرا. منذ أسـبوعين توقـف.. اختفت الفئران وقال إنها أحسست بقدوم الشتاء فلم تعد تخرج من جحورها. هذا الفأر كان يتلكأ فى مكان ما فلم يذهب إلى جحره. سأتركه حتى يرحل وحده ولأغلق الراديـو وأشـعل التليفزيون الآن. طرقات خفيفة فوق الباب الحديدى للبيـت.. إننى أسمعها جيدا لا يمكن أن يكون شحاذًا آخـر. لقـد أُذِّن لصلاة العشاء وها هو المذيع يتلو حديثًا نبويا. من يأتى فـى الوقت؟ من يعرفنى هنا لم يحج؟

- منصور!

هتفت بعد أن فتحت الباب. كان يبتسم وأنا لا أستطيع أن أبعد عينى عن خصيتى القرد الزرقاوين فوق كتفه.

*****

(١٠)

احترقت وجوه الباكستانيين، وصاروا أكثـر حركـة ومرحا بعد عودتهم من الحج. سألت أرشد الذى دخل مكتبى ووقف لا يتكلم:

ـ هل كان الجو حارا إلى هذا الحد؟

ـ كان بردا مستر إسماعيل. نمنا فى العراء وسافرنا فى عربة مكشوفة.

وعاد إلى ذهوله. كانت السـاعة حـوالى السـابعة والنصف. قال فى ضيق:

ـ ما هى حكاية مستر عابد معنا مستر إسماعيل؟

ـ هل حدث شىء جديد؟

ـ أمس مساء بعد عودتنا تحدثنا فى ميزانية الكامب هذا الأسبوع، لقد عاد من الحج أكثر بخلاً.

ـ معذرة أرشد. أنت تعرف أننى لا أستطيع التـدخل بينكما..

ـ أعرف مستر إسماعيل لكن.. لابـد أن يسـاعدنا أحد. هل أتحدث مع مستر عبد ا ؟

ـ لا.

نظر إلى طويلاً ثم انصرف دون تعليق. لقد أدركت فجأة أن عابدا لا يفعل إلا ما يرضى عم عبد ا . لكنى بعـد انصراف أرشد فكرت: هل جاء حقًا ليقول ذلك؟ لابد أنه كان يود الحديث معى فى شىء آخر. عاد أرشد إذن إلى تـردده معى فى الكلام.

حين دخل نبيل يحمل القهوة كـان يبتسـم ابتسـامة كبيرة. وضع الفنجان أمامى وقال:

ـ لم أرك فى العيد.

ـ كيف ترانى وأنت فى الحج؟

ـ أنا لم أحج.

اتسعت عيناى وابتسمت، لابد أنه يمزح. قال:

ـ عدت من منتصف الطريق.. من ثلثـى الطريـق حقيقة. من الأشياء التى ضايقتنى فى العيد أنـى لا أعـرف

بيتك. لو كنت أعرفه كنت زرتك وأمضيت الوقت معك. مر الوقت كئيبا على وحدى هنا. نزلت إلى البلد أكثر من مـرة، ورحت أمشى فى شوارعها علنى أصطدم بك فى طريقـى. خاننى الحظ.. لم أجد إلا كلبا شاردا.

ـ هل صحيح أنك لم تحج؟

ضحك وأقسم أنه لم يحج فعلاً ثم حـاول أن يكـتم ضحكاته وقال:

ـ شف يا سيدى. وصلنا إلى " بيـار علـى " أنـا وعابد. بيار على قرب مكة. ومنها يبدأ الإحرام. إنها ليسـت مدينة ولا قرية. نقطة على الطريق بها ماء وجامع صـغير. هناك التقينا بجماعة من المصريين كانوا يستقلون أوتوبيسـا كبيرا.. كان علينا جميعا أن نبيت الليلة هناك.، وكان بيـنهم شاب مجنون لا تعرف. عاقل لا تعرف. مصـيبة والسـلام. كان هو الإمام الذى يصلى بهم ويخطب فيهم ويحدثهم عـن المناسك. طبعا انضممت أنا وعابد إليهم نستمع إلى صـاحبنا الذى راح يحدثنا عن الواجبات بعد الإحرام. لا تقطع شجرة ولازرعا ولا تحلق ذقنك ولا تقص أظافرك، طبعا لافسق ولا رفث ولا قتل لأى حيوان ولو قملة. حتى لو خرج عليك أسد

لا تقتله إلا إذا هاجمك، هكذا قال. طبعا معه الحق لأنه لو خرج على أسد لن أقتله. سيقتلنى - وضحكنا بشدة وعاد نبيل يتحدث - بالليل رأيت ذئبا.. ذئبا حقيقيا يقف قريبا منا. كانت النساء نائمات فى الأتوبيس والرجال نائمين على الأرض. أنا وحدى كنت سهران. ليتنى كنت نائما. خفت وانتظرت أن ينصرف الذئب فلم ينصرف.

- طبعا هاجمت الذئب؟

قاطعته ساخرا وضاحكًا. سكت قليلاً وقال:

- أنت لن تصدق لكن عابدا يمكن أن يؤكد كلامى.. تبوك كلها تعرف القصة. كيف لم تصل إليك؟

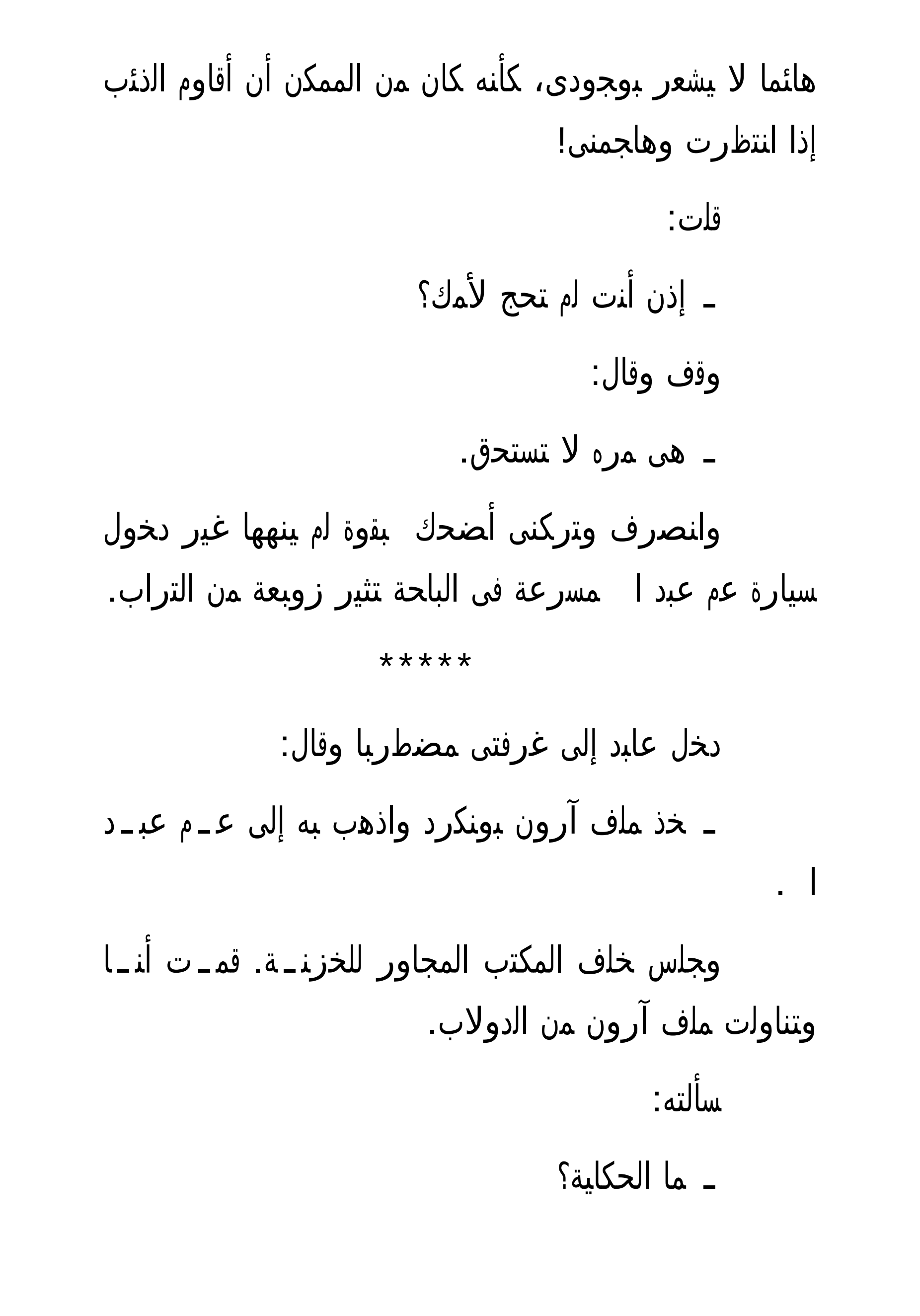
سكت. الحقيقة لم يتحدث أحد أمامى بشىء كهذا، تحدث سعيد ووجيه عن أشياء كثيرة طريفة وشاقة حدثت فى الرحلة إلا حكاية الذئب هذه. واستطرد نبيل:

- أمسكت بحجر وقذفت به الذئب. أنا فى ذراعى "عِرقُ الصبا". كنت فى مصر أقذف الحجر من "الكيت كات" يعبر النيل ويصل الزمالك. ما علينا .. أصاب الحجر رأس الذئب فعوى وجرى. لو لم يعو لما تنبه أحد. استيقظ الرجال

واستيقظت بعض النساء واستيقظ صاحبنا وسألنى هل سمعت صوت الذئب فحكيت له القصة. غبى أنا لأنى فعلـت ذلـك. تقدم صاحبنا إلى قطعة الحجر التى أشرت له علـى مكانهـا فوجد فيها آثار دم فقال لى إن إحرامى فسد وعلى أن أحـرم من جديد. كيف؟ تفك الإحرام وتنوى وتحرم من جديد. هـل هناك أعجب من ذلك؟ أنا محرم وعلى أن أفك الإحرام مـن جديد، قال لى إنها مسألة سهلة. كل الناس قالوا ذلك أيضـا. فى الصباح الباكر أخذوا طريقهم إلى مكـة، وأنـا وجـدت" تريللا" قادمة من جدة تحمل سيارات إلى تبوك فركبتها. هل تصدق أنى وأنا أضع قدمى فيها أحسست بخطئـى وكـدت أعود وأنفذ ما قيل لى، لكنى قلت إن هذه التريللا جاءت فـى الوقت الذى أراده ا . لى. ربما أراد ا أن ينجينى من شىء خطير كان سيحدث لى فى الحج. من يدرى؟!

أطلت النظر إلى عينيه. لم يكف طوال الكلام عـن الابتسام. قال:

ـ أنا أعرف إنك لن تصدقنى أبدا. تماما كمـا لـم يصدقنى صاحبنا حين قلت له إن الذئب كان سيهاجمنى. قال كان على أن أنتظر حتى يفعل ذلك، قبل ذلك ربما كان يمشى



هائما لا يشعر بوجودى، كأنه كان من الممكن أن أقاوم الذئب إذا انتظرت وهاجمنى!

قلت:

ـ إذن أنت لم تحج لأمك؟

وقف وقال:

ـ هى مره لا تستحق.

وانصرف وتركنى أضحك بقوة لم ينهها غير دخول سيارة عم عبد ا مسرعة فى الباحة تثير زوبعة من التراب.

*****

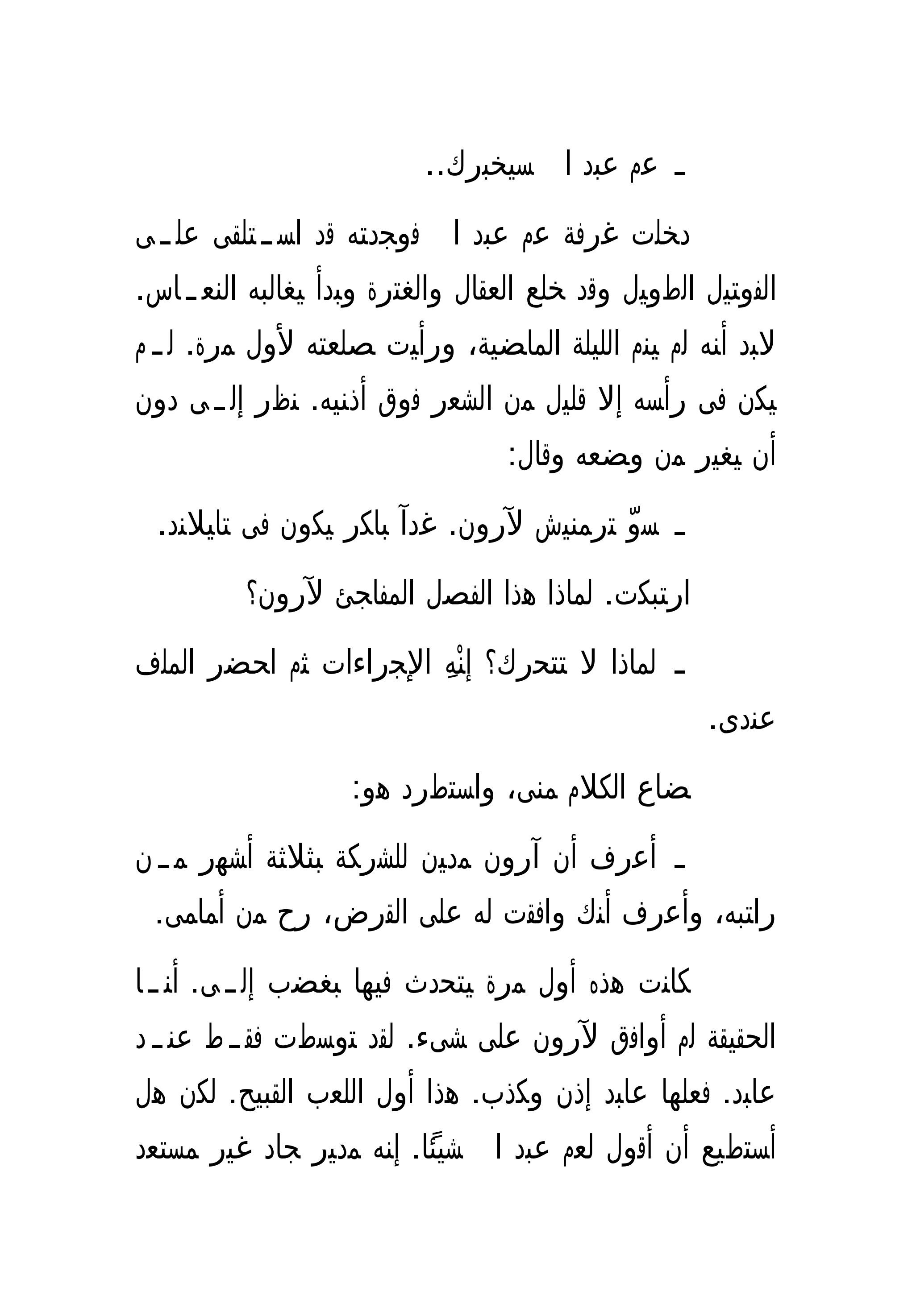
دخل عابد إلى غرفتى مضطربا وقال:

ـ خذ ملف آرون بونكرد واذهب به إلى عـم عبـد ا .

وجلس خلف المكتب المجاور للخزنـة. قمـت أنـا وتناولت ملف آرون من الدولاب.

سألته:

ـ ما الحكاية؟



ـ عم عبد ا سيخبرك..

دخلت غرفة عم عبد ا فوجدته قد استلقى على الفوتيل الطويل وقد خلع العقال والغترة وبدأ يغالبه النعاس. لابد أنه لم ينم الليلة الماضية، ورأيت صلعته لأول مرة. لم يكن فى رأسه إلا قليل من الشعر فوق أذنيه. نظر إلى دون أن يغير من وضعه وقال:

ـ سوّ ترمنيش لآرون. غداً باكر يكون فى تايلاند.

ارتبكت. لماذا هذا الفصل المفاجئ لآرون؟

ـ لماذا لا تتحرك؟ إنْهِ الإجراءات ثم احضر الملف عندى.

ضاع الكلام منى، واستطرد هو:

ـ أعرف أن آرون مدين للشركة بثلاثة أشهر من راتبه، وأعرف أنك وافقت له على القرض، رح من أمامى.

كانت هذه أول مرة يتحدث فيها بغضب إلى. أنا الحقيقة لم أوافق لآرون على شىء. لقد توسطت فقط عند عابد. فعلها عابد إذن وكذب. هذا أول اللعب القبيح. لكن هل أستطيع أن أقول لعم عبد ا شيئًا. إنه مدير جاد غير مستعد

لتضييع وقته فى معرفة الحقائق، وإن أول ما يسـمعه هـو الحقيقة دائما..



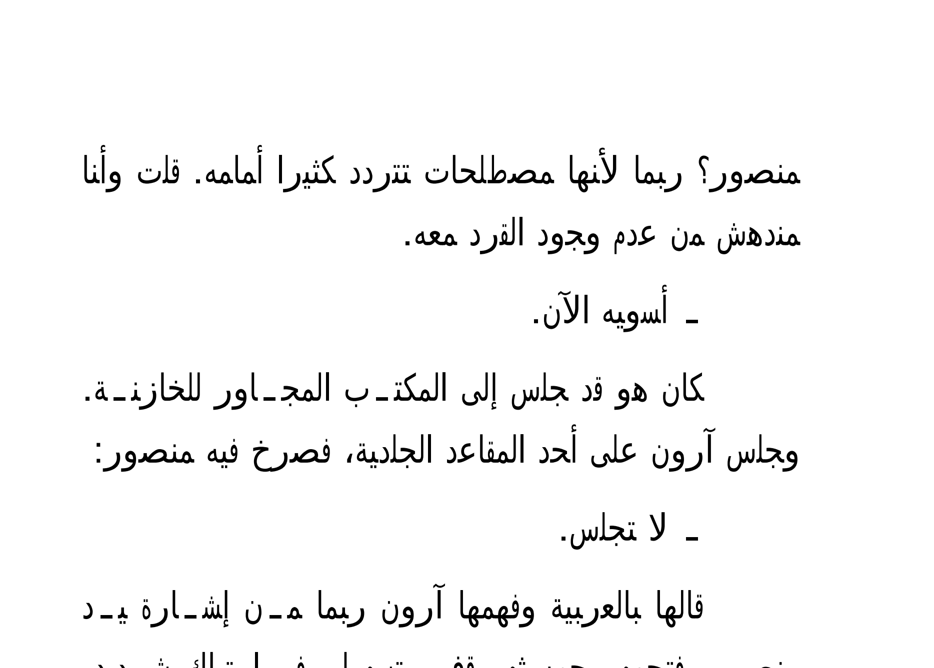
دخلت غرفتى. نظر إلى عابد مبتسما بوجه جامد. بدا مستعدا للرد على أى كلام أقوله فلم أتكلم. خرج إلى غرفتـه وجلست أنهى إجراءات فصل آرون. كانت هنـاك اسـتمارة يجب أن أملأها حتى إذا جاء وقعها، وكان علـى الاتصـال بالجوازات لإرسال "المعقّب" الذى سيأخذ الجواز ويضع عليه تأشيرة الخروج بالعودة.، والذى سيحجز تذكرة السفر.

جلست أفعل ذلك . فجـأة رأيـت منصـور يـدخل بسيارته الكابريس الفارهة وجواره آرون.

*****

ـ سويت له ترمينيشن؟

سألنى منصور وهو يدخل إلى الغرفة وخلفه آرون. كدت أضحك من قوله " ترمينيشن ". عم عبـد ا يعـرف الإنجليزية جيدا من عمله السابق فى الدمام، كيف إذن يعرفها



منصور؟ ربما لأنها مصطلحات تتردد كثيرا أمامه. قلت وأنا مندهش من عدم وجود القرد معه.

ـ أسويه الآن.

كان هو قد جلس إلى المكتب المجاور للخازنة. وجلس آرون على أحد المقاعد الجلدية، فصرخ فيه منصور:

ـ لا تجلس.

قالها بالعربية وفهمها آرون ربما من إشارة يد منصور، فتجهم وجهه ثم وقف يبتسم لى فى ارتباك شديد، وسألنى منصور:

ـ لماذا تأخرت؟

حملقت فيه للحظات ولم أرد.

ـ هيا. بسرعة..

هتف وقام تاركًا المكتب وخرج، فلم يعطنى فرصة لانفجار فيه. أشرت لآرون أن يجلس وسألته:

ـ ماذا حدث؟

ـ ضبطوا عندى خمرا.

هذه ثانى مرة يتحدث فيها عن الخمر.

ـ هل كنت تصنع الخمر بحق؟

ـ أجل مستر إسماعيل.. مستر عبد ا يعرف. إننى أعطيه منها. ارتبكت للحظة، واستمر هو يتحدث:

ـ كان كل شىء يمضى بهدوء. فى أجازة العيد كنت تقريبا وحدى فى الكامب، قمت بتحضير كمية كبيرة. كـان مستر عبد ا فى عمان. لقد حضر أمس فقط، أول أمس عاد الباكستانيون. إنهم جميعا يعرفون، لكن واحدا منهم طلب أن لا أفعل ذلك مرة أخرى. قال إنه بعد الحج لن يسمح بوجـود خمر فى الكامب. لم أهتم. أبلغ الشرطة. إنه غبى.

ـ للأسف يا آرون لن تعود للمملكة مرة أخرى.

ـ أعرف مستر إسماعيل. سأذهب إلى إيران. لقـد عملت هناك منذ سنوات.

ـ لكن فى إيران مظاهرات ضخمة الآن. انفجارات والشاه يضرب الناس بالطائرات.

ابتسم وقال:

ـ أعرف مستر إسماعيل.

لا جدوى من الكلام. سوف يرحل آرون وأنساه كما سينساني. قدمت له نموذج إنهاء الخدمة ليوقع عليه وقلت:

ـ سأرسل لك الجواز والتذكرة في الكامب. سأحجز لك بعد يومين لتدبر نفسك.

ـ أشكرك مستر إسماعيل. إنني لن أنساك أبدا. أنت مصري طيب.

ابتسمت وقلت:

ـ المهم أن تشتري بيتًا في بانكوك.

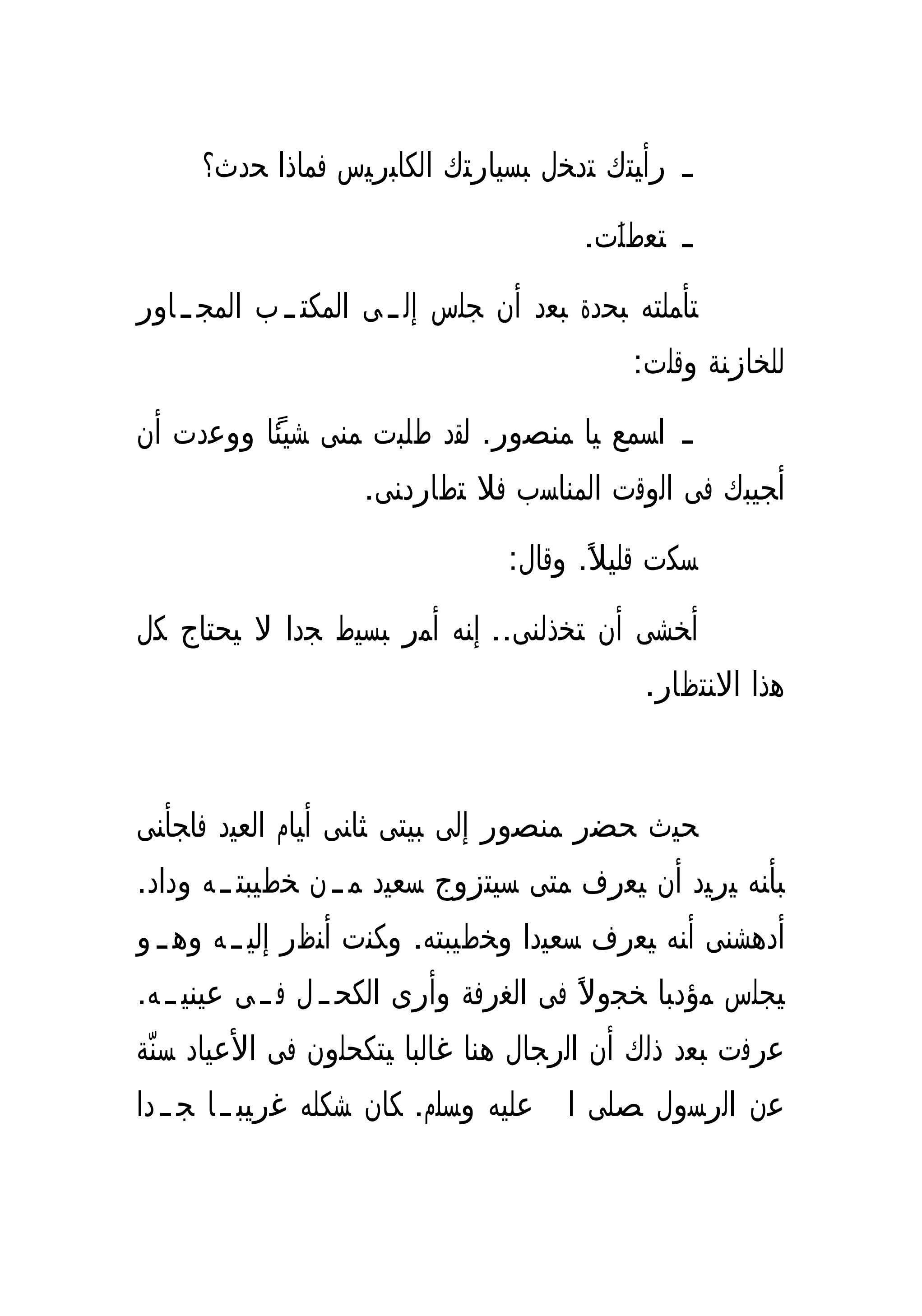
وقف وقال:

ـ سأشتريه مستر إسماعيل.. سأشتريه. لابد.

ووقفت أصافحه فشد على يدي وخرج مسرعا يهرول. بدا لي من قصره كحجر يتدحرج.

ـ سأعود معك اليوم.

فاجأني منصور الذي عاد إلى مكتبي بعد انصراف آرون.



ـ رأيتك تدخل بسيارتك الكابريس فماذا حدث؟

ـ تعطلت.

تأملته بحدة بعد أن جلس إلـى المكتـب المجـاور للخازنة وقلت:

ـ اسمع يا منصور. لقد طلبت منى شيئًا ووعدت أن أجيبك فى الوقت المناسب فلا تطاردنى.

سكت قليلاً. وقال:

أخشى أن تخذلنى.. إنه أمر بسيط جدا لا يحتاج كل هذا الانتظار.

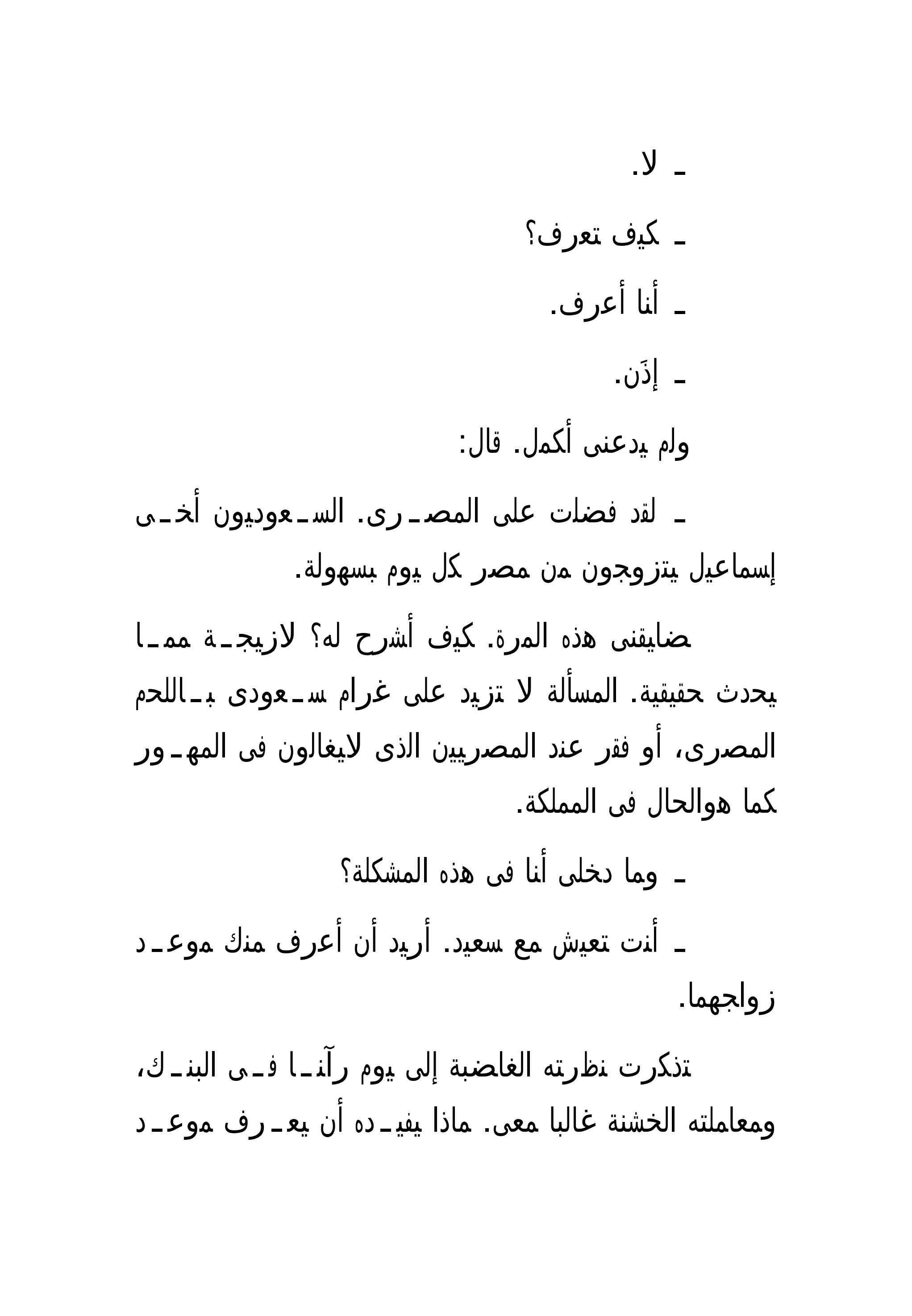
حيث حضر منصور إلى بيتى ثانى أيام العيد فاجأنى بأنه يريد أن يعرف متى سيتزوج سعيد مـن خطيبتـه وداد. أدهشنى أنه يعرف سعيدا وخطيبته. وكنت أنظر إليـه وهـو يجلس مؤدبا خجولاً فى الغرفة وأرى الكحـل فـى عينيـه. عرفت بعد ذلك أن الرجال هنا غالبا يتكحلون فى الأعياد سنّة عن الرسول صلى ا عليه وسلم. كان شكله غريبـا جـدا

وكانت هذه أول مرة أرى رجلاً يتكحل، وقال وأنا لا استطيع إبعاد عينى عن عينيه:

ـ حتى لا ترتبك أخى إسماعيل أقول لك إنى أعرف وداد منذ ثلاثة أعوام، إنها مدرسة فى المدرسـة المتوسـطة وأختى تلميذة عندها. كانت تأتى إلى المحـل ومعهـا أمهـا لتشترى القماش. إننا نملك محلاً كبيرا فى الشارع العام، لقد فكرت أن أتزوجها ذهبت وأبى وأمى كما تفعلون فى مصـر إلى بيتها وخطبناها لكن أمها رفضت. قالت إنها مخطوبـة. ولم تكن مخطوبة أخى إسماعيل. رفضت أمها بشدة ورفضت المائة ألف ريال مهرا. رفضتنى أخى إسماعيل وأنا أعـرف أن السعوديين ينزلون مصر فى كل وقت يتزوجـون. لقـد خُطِبت لسعيد بعد ذلك وصدمتنى صدمة كبيرة..

كان وهو يتكلم، يبدو محزونًا بحق، ولم أعرف كيف أهون عليه، أعددت له شايا ثلاث مرات وفى كل مرة يشربه وبدا أنه لن يترك البيت. كل ذلك والقرد فوق كتفه ينظر إلى. قلت:

ـ ربما كانت علاقتها بسعيد قديمة.



- لا.

- كيف تعرف؟

- أنا أعرف.

- إذَن.

ولم يدعنى أكمل. قال:

- لقد فضلت على المصـرى. السـعوديون أخـى إسماعيل يتزوجون من مصر كل يوم بسهولة.

ضايقنى هذه المرة. كيف أشرح له؟ لازيجـة ممـا يحدث حقيقية. المسألة لا تزيد على غرام سـعودى بـاللحم المصرى، أو فقر عند المصريين الذى لايغالون فى المهـور كما هوالحال فى المملكة.

- وما دخلى أنا فى هذه المشكلة؟

- أنت تعيش مع سعيد. أريد أن أعرف منك موعـد زواجهما.

تذكرت نظرته الغاضبة إلى يوم رآنـا فـى البنـك، ومعاملته الخشنة غالبا معى. ماذا يفيـده أن يعـرف موعـد

زواجهما حقًا، راودنى شىء من الخـوف. شـخص مثـل منصور يبدو شديد التعقيد. قلت:

ـ أنا رغم عيشى مع سعيد لا أتحدث معه فـى أى شأن خاص.

ـ تكلم واعرف.

قال بحسم ووقف لينصرف. لم أنم تلك الليلة إلا عند الصباح. ساعدنى ذلك حقًا أن أنام نهار اليوم الثالث للعيد، أن أقفز يوما من أيام الصمت، إلا أننى حين جاء سعيد فى اليوم الرابع، لم أستطع أن أمنع نفسى عن التطلع إلى وجهه بـين حين وآخر. وخشيت أن يفطن سـعيد إلـى تطلعـى إليـه، ويسألنى عن هذه الحالة المفاجئة، إلا أن سـعيدا لـم يفطـن لشىء ، وأنا استطعت بعد يومين أن أكف عن ذلـك ، الآن يأتى منصور طالبا إجابة سريعة على سؤاله. إذن لابـد أن أكذب. قلت:

ـ لو قلت لك متى يكون زواجهما هل تقول لى ماذ يفيدك؟

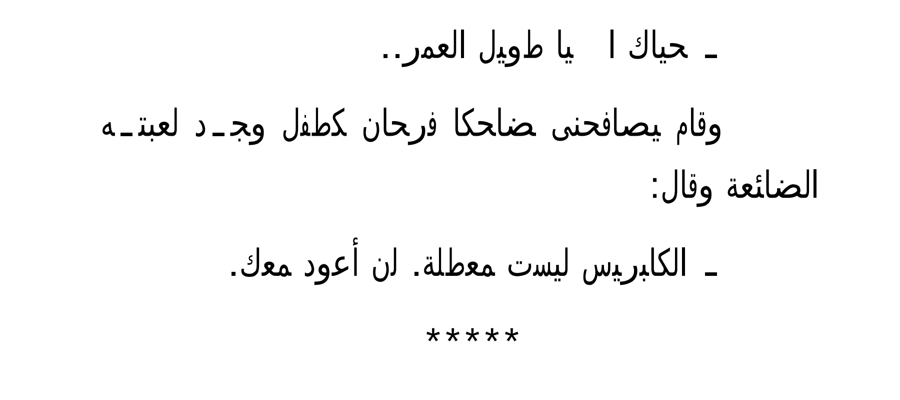
ـ لن يفيدنى شيئًا. أنا فقط أريد أن أعرف. مجـرد معرفة لا أكثر ولا أقل.

ـ بعد عامين يا منصور..

ورأيته ينظر إلى بسعادة مفاجئة.

ـ أصادق أنت أخى إسماعيل؟

ـ صادق جدا..



ـ حياك ا يا طويل العمر..

وقام يصافحنى ضاحكا فرحان كطفل وجـد لعبتـه الضائعة وقال:

ـ الكابريس ليست معطلة. لن أعود معك.

*****

ـ كيف انكسرت سيارتك؟

سألت منذر الذى جاء ليلحق بى قبل أن أغادر الباحة بسيارتى.

ـ سيارة ملعونة موديل ١٩٧١. سقَطَتُ بهـا فـى حفرة. سحبها الونش ورميتها عند أرشد.

قال ذلك وهو يصعد السيارة وبعد أن جلس استطرد:

ـ طول النهار تعالى يا منذر. رح يا منذر. كهرباء يا منذر. ميكانيكا يا منذر. مياه مقطوعة عن الجيش يا منذر. أسمنت ناقص يا منذر. طيب يعطونى سيارة قويـة. بـاكر سأحصل واحدة جديدة، العمل بلا منذر يتوقـف ومنـذر لا يعمل بلا سيارة.

رحت أضحك وأراقب الطريـق وأسـتمتع بـالهواء البارد قليلاً الداخل إلى من نافذة السـيارة المفتوحـة. فجـأة تذكرت أنى لم أر اليمنى العجوز اليوم. هل حقًا لم أره أم لم أنظر ناحيته؟ لابد أنى لم أنظر ناحيتـه. أربكنـى منصـور إرباكًا شديدا.

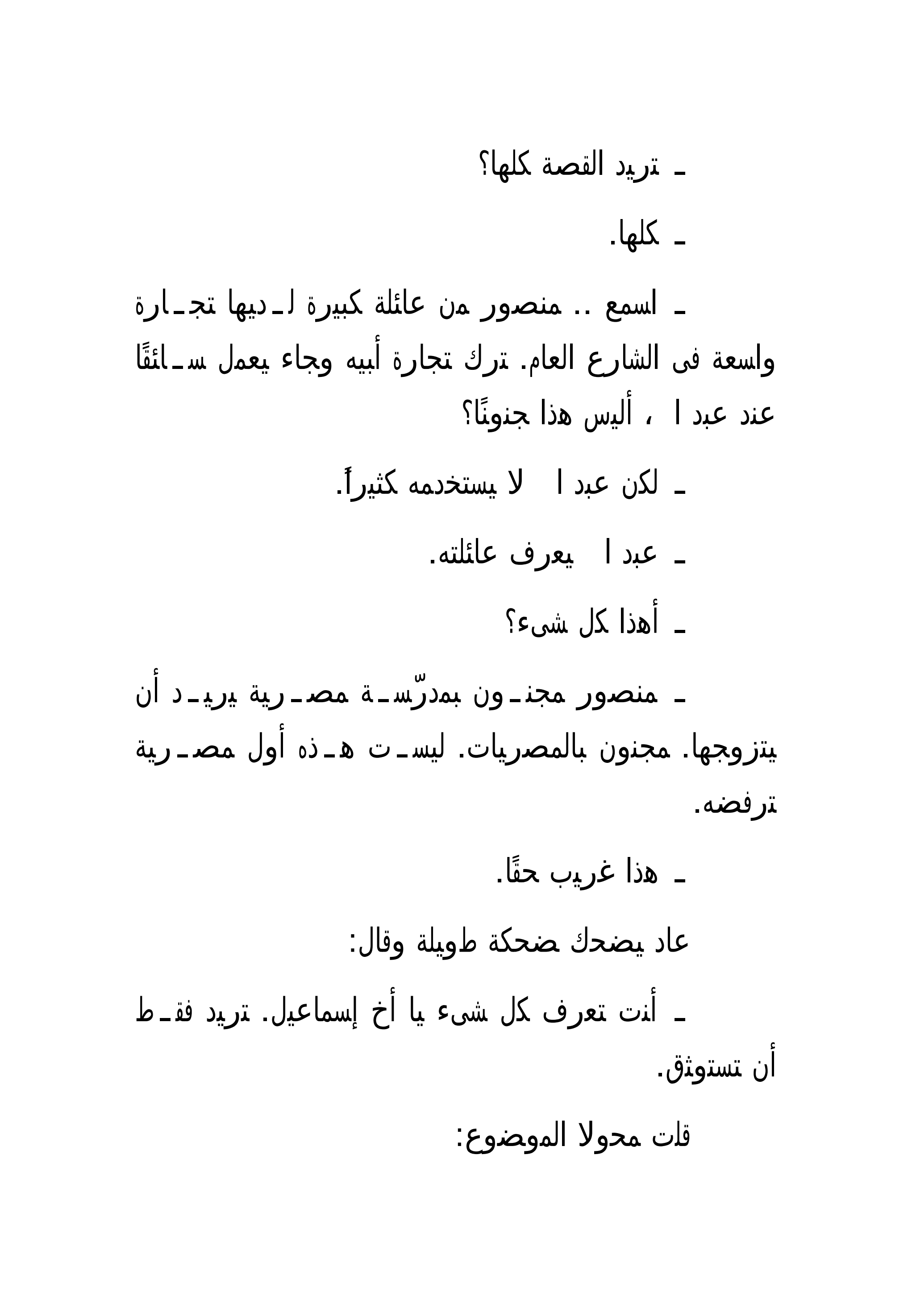
ـ ما رأيك فى منصور يا منذر؟

سألته ولم أرتب للسؤال.

ـ منصور! قلت لك من قبل إنه مخبل. مجنون.

ـ أعرف. لكن ماذا تقصد بالضبط؟

ضحك ضحكة طويلة وقال:



ـ تريد القصة كلها؟

ـ كلها.

ـ اسمع .. منصور من عائلة كبيرة لديها تجارة واسعة فى الشارع العام. ترك تجارة أبيه وجاء يعمل سائقًا عند عبد ا ، أليس هذا جنونًا؟

ـ لكن عبد ا لا يستخدمه كثيراً.

ـ عبد ا يعرف عائلته.

ـ أهذا كل شىء؟

ـ منصور مجنون بمدرّسة مصرية يريد أن يتزوجها. مجنون بالمصريات. ليست هذه أول مصرية ترفضه.

ـ هذا غريب حقًا.

عاد يضحك ضحكة طويلة وقال:

ـ أنت تعرف كل شىء يا أخ إسماعيل. تريد فقط أن تستوثق.

قلت محولا الموضوع:

ـ إلى أين وصلت مع جارتك الحسناء؟

ـ ا   يستر عليك لا تـذكّرنى، صـارت صـديقة لزوجتى. زوجتى صغيرة بلهاء.

ضحكت واستمر هو يتحدث:

ـ أراها يا أستاذ فكأنى رأيت الحرب.

ـ لابد أنها جميلة بحق.

ـ أقول لك حرب يا أستاذ. كمين منصوب لمنذر.

وفجأة كشف لى صدره.

ـ أنظر ضاع ثديى الأيمن من حريق قذيفة مـرت من أمامى، وانظر هذا الهور فى ربلة ساقى.. وهذه ذراعى بها عشر غرز.

واستمر يكشف لى أماكن كثيرة مصابة من جسـده، وأنا لا أستطيع أن أتابع إلا قليلاً فعيناى على الطريق.

ـ أنا من عائلة فداوية يا أخ إسماعيل.

لم أدر بما أعلق. صمتنا قليلاً ثم قال:

ـ اعذرنى إن كنت أزعجتك. أنا لا أعرف بالضبط ما أفعل. المرة السابقة لم أكن طيبا معك، لكنـى وا أحـب المصريين جدا، أنا فقط أكره السادات. هل تلومنى؟

كان صوته يتهدج بما يشبه البكاء وهو يتكلم. وجدت نفسى أقول:

ـ وأنا مثلك أكرهه يا منذر.

ـ ا يستر عليك يا أستاذ.

وأشعل سيجارة لى ولنفسه ثم قال بصوت خفيض:

ـ لا تخبر أحدا بما رأيت من جسمى. يعرفون أنـى كنت فدائيا فيرحلوننى يا أستاذ.

ـ معقول؟!

ـ جدا.

ـ يعيدونك إلى الأردن؟

ـ هل تظن إلى فلسطين؟!!

*****

(١١)

لا تلومينى يا واضحة، لقد تملكنى شعور الناجى من النار.

*****

فى طريقى إلى بيت واضحة فكرت بأن أمضى معها اليوم أطول وقت ممكن لكنى رأيته.. البيت الجميل ذا الحديقة ذات النخيل وشجر الليمون، على بابه جندى شـرس، وفـى شرفته جلس سيد الغريب ملتفًا ببطانية. رأى سيارتى ورآنى فوقف ولم أقف. ضاقت نفسى رغم اتساع الدنيا حـولى. لا أحد يستطيع إبلاغ الأمير بأن " الشيخ " نسى محاكمة الطبيب المصرى. لم يسجنه ولم يطلق سراحه. تركـه ليجـف مـع الوقت المترهل. قلت لوجيه: "لا يمكن أن تنسـى المحكمـة قضية كهذه، الأمر مقصود.." قال: "كل الناس تعـرف إنـه نسيان. هذا ممكن جدا. فكرت أذهب للإمارة وأطلب مقابلـة

الأمير، وفطنت فجأة إلى أنه قـد مضـى عـام والغريـب "موقوف" ولم يفكر فى ذلك أحد، وأصابنى ضجر شديد فلـم أذهب.

رأيت البيت اليوم وقررت أن أهرب مـن الـدرس، وربما أهرب أيضا من الدرس الجديد لابن صـاحب البيـت الذى نسكنه، صالح سنيور الثقيفى الذى حين قابلنى به وجيه لم أصدق أنه تلميذ. قال وجيه إن التدريس لصالح قد يفتح لى الباب للتدريس لغيره، فيعيننى ذلك على كسب أكثر ما يمكن فى زمن قليل، ووافقت، واليوم موعدنا لنبدأ، ولكن بعـد أن أنتهى من الدرس لواضحة التى أمسك بنفسى أكثر من مـرة متلبسا بانتظار موعد الذهاب إليها.

على اليوم أن أشرح لها درسا عن هيلين كيلر.. عن الإرادة الإنسانية. واليوم أشعر بالخوف أكثر من كل وقـت. أفكر كيف كان يخامرنى شعور منذ رأيتهـا فـوق عربـة الشرطة بأنى سألقاها، وكيف أنى سأكون خاتمة القصة أخاف عليها منى وأخاف منها على. أنا رجل أغلقت شطآن البحيرة من زمان، فكيف أسافر كل هذه الأميال لألقى فيها بالحصى؟ واحد فينا مقتول، لا أريد أن أموت ولا أن يكون لى فى كل

بلاد خطيئة.. هل أقول لواضحة ذلك؟ هل تفهمه؟ هل يفيـد؟ لتستمر قصتنا إذن إلى غايتها المرسومة، لكنى رأيت البيـت الجميل والدكتور الغريب فحاصرنى الضـجر وفكـرت أن أعود.



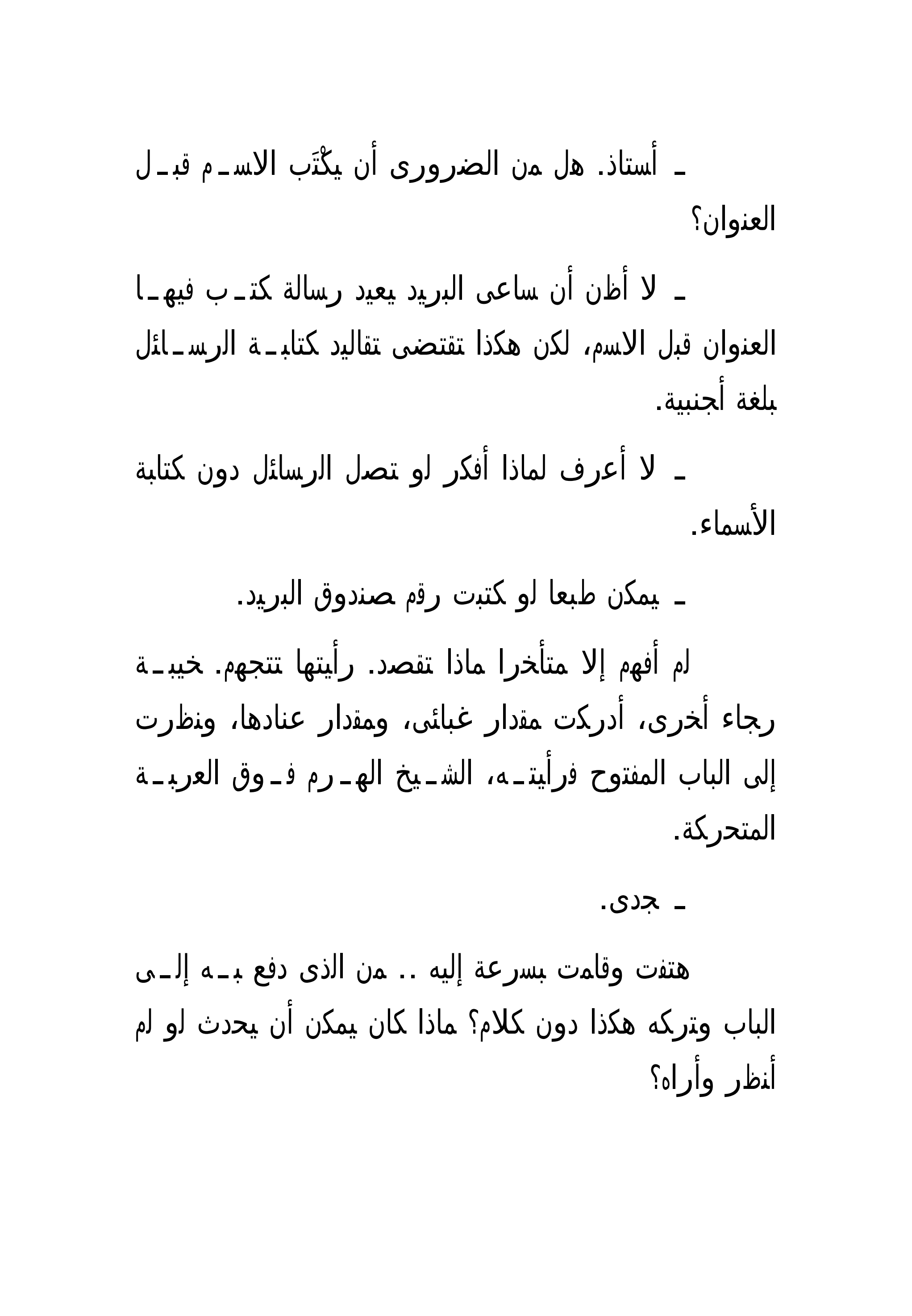
*****

استقبلتنى واضحة، فتحـت لـى البـاب الخـارجى وأفسحت الطريق، فدخلت منكس الرأس إلى الغرفة الواسعة، وقلبى يتدحرج أمام قدمى، خيل لى أنى أزورها بالليـل ولا أحد فى الدنيا غيرنا، لكننى ظللت خافضـا رأسـى لا أرى وجهها السافر، ولا شعرها الذى يدعونى لأخبئ رأسى فيه.

صغيرة واضحة كالعصفور، وتحتل من الفضاء مكاناً كبيرا، ولكن لابد أن أرفع وجهى إليها.

ـ أين الواجب؟

قلت حاسما فقدمت لى الكراسة بيد مرتعشة، لابد أن وجهى تجهم، ولم أشأ النظر إلى وجهها الذى لابد ظلّلته خيبة الرجاء، لم تعرف أنى غضضت البصر حتى لا أتخاذل أمام دعوة شفتيها المرتعشتين.



- أستاذ. هل من الضرورى أن يكْتَب الاسـم قبـل العنوان؟

- لا أظن أن ساعى البريد يعيد رسالة كتـب فيهـا العنوان قبل الاسم، لكن هكذا تقتضى تقاليد كتابـة الرسـائل بلغة أجنبية.

- لا أعرف لماذا أفكر لو تصل الرسائل دون كتابة الأسماء.

- يمكن طبعا لو كتبت رقم صندوق البريد.

لم أفهم إلا متأخرا ماذا تقصد. رأيتها تتجهم. خيبـة رجاء أخرى، أدركت مقدار غبائى، ومقدار عنادها، ونظرت إلى الباب المفتوح فرأيتـه، الشـيخ الهـرم فـوق العربـة المتحركة.

- جدى.

هتفت وقامت بسرعة إليه .. من الذى دفع بـه إلـى الباب وتركه هكذا دون كلام؟ ماذا كان يمكن أن يحدث لو لم أنظر وأراه؟

ودخلت به تدفعه أمامها، وأنا أتأمل كم هو ضئيل لا يزيد حجمه على حجم طفل، لولا أن بشرته سـوداء مليئـة بالغضون، ورأيت يديه مرتخيتين فوق البطانية التى تغطـى ساقيه، وجلد عظامها يشف عن عظـام بيضـاء، وعـروق زرقاء قاتمة منتفخة.

ـ هذا جدى المصرى. خالد حـدثك عنـه، أراد أن يراك.

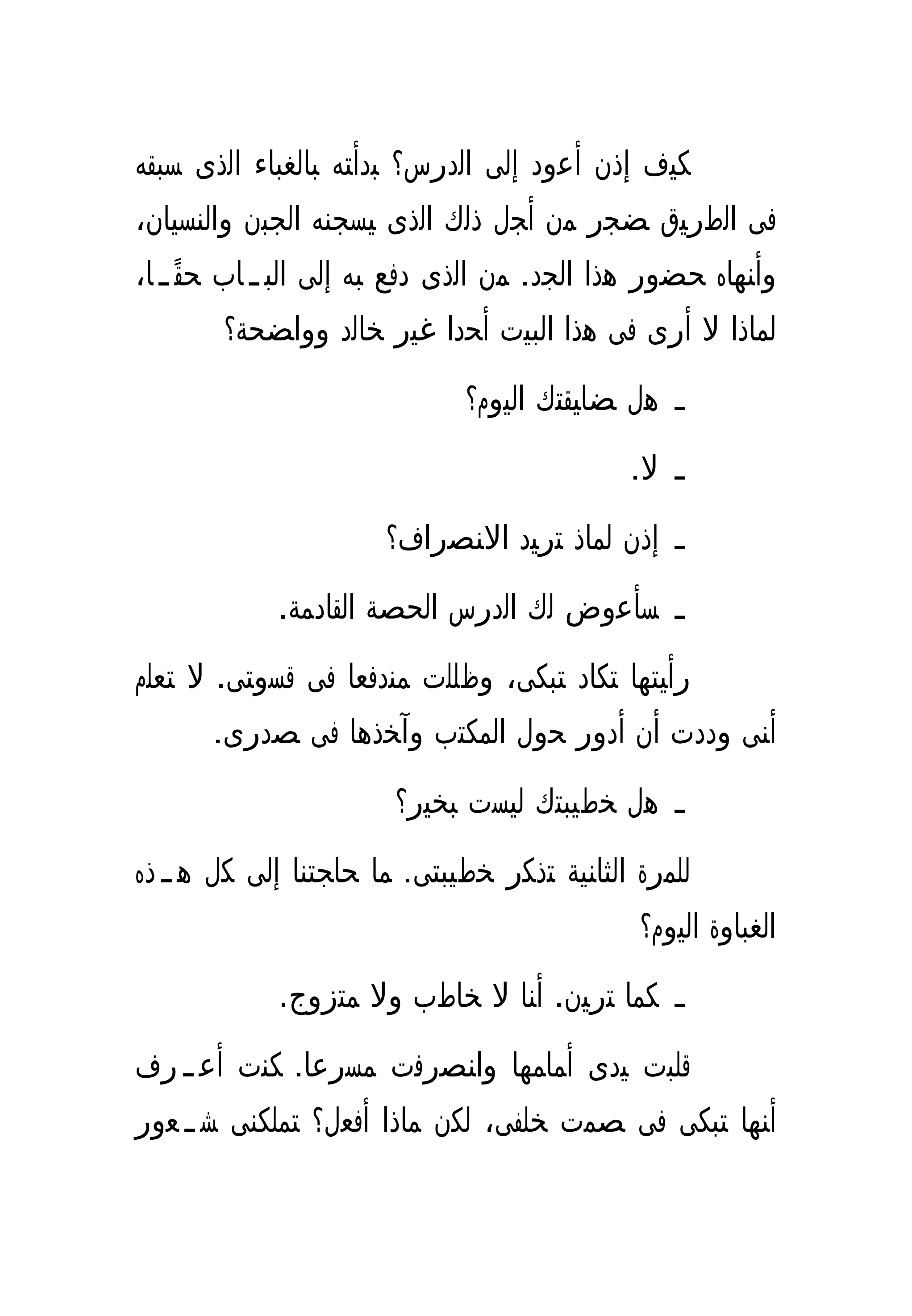
قالت ذلك وهى تتركه بعيدا جوار الحائط، وأنا أجاهد أن أعرف لون عينيه اللتين يطلّ بهما على وأطـل بعينـى عليهما. بيضاوان أم خضراوان اضمحل لونهما؟ لا أسـتطيع التحديد. صغيرتان مدفونتان. هذا ما يبدو مؤكدا.

ـ هذا هو الأستاذ المصرى.

هتفت واضحة لجدها، ورأيته يبتسم. أول مـرة أرى شيخًا هرما يبتسم، مبتهج كطفل وليد. وهمست لى:

ـ تكلم فجدى أعمى.

لم أتكلم. قمت واتجهت إليه. أمسكت بيـده أرفعهـا أصافحها وتركتها فسقطت على حجره.



كيف إذن أعود إلى الدرس؟ بدأته بالغباء الذى سبقه فى الطريق ضجر من أجل ذلك الذى يسجنه الجبن والنسيان، وأنهاه حضور هذا الجد. من الذى دفع به إلى البـاب حقًـا، لماذا لا أرى فى هذا البيت أحدا غير خالد وواضحة؟

ـ هل ضايقتك اليوم؟

ـ لا.

ـ إذن لماذا تريد الانصراف؟

ـ سأعوض لك الدرس الحصة القادمة.

رأيتها تكاد تبكى، وظللت مندفعا فى قسوتى. لا تعلم أنى وددت أن أدور حول المكتب وآخذها فى صدرى.

ـ هل خطيبتك ليست بخير؟

للمرة الثانية تذكر خطيبتى. ما حاجتنا إلى كل هـذه الغباوة اليوم؟

ـ كما ترين. أنا لا خاطب ولا متزوج.

قلبت يدى أمامها وانصرفت مسرعا. كنت أعـرف أنها تبكى فى صمت خلفى، لكن ماذا أفعل؟ تملكنى شـعور

الناجى من النار. لابد أيضا أن أجد طريقًا آخر لا يمر بالبيت الذى يحوطه النخيل والليمون والنسيان.

*****

ـ ياهلا يا أستاذ.

هتف صالح وهو يستبقلنى بحفاوة. بيـت صـالح لا يختلف عن بيت واضحة. بناء من دورين حوله ردهة تـدور معه بلا أشجار.

قادنى إلى قاعة طويلة مفروشة بالموكيت الأخضر، وتتوزع على جوانبها الحشايا بإهمـال، لا مكتـب هنـا ولا مقاعد. جهاز فيديو، وجوارهمـا منضـدة صـغيرة فوقهـا مجموعة من شرائط الفيديو، بالمقابل، فى الناحية الأخـرى من القاعة، يجلس أربعة شبان لم يتجاوزوا العشـرين مثـل صالح، وقفوا بمجرد دخولى، وصافحونى مبتسمين، وجلسوا من جديد ينظرون إلى بعضهم، ويضحكون بلا صوت.

ـ أصحابى. لا داعى لمعرفتهم.

قال صالح مبتسما وأنا بعد لم أجلس. ابتسـمت لهـم فضحكوا وصفقوا فى وقت واحد كأطفال.

ـ لا تندهش يا أستاذ. يأتون هنا يأكلون ويشـربون ويشاهدون الأفلام.

أدركت أن الجو لا يوحى بإمكانية التدريس فجلسـت صامتًا.

فوجئت به يسألنى:

ـ تبغى ترى فيلما يا أستاذ؟

ـ أجل...

صفقوا من جديد. وأنا لا أعرف كيف وافقت هكـذا، لكنى وددت لو شربت خمرا أيضا.

قام واحد منهم وأحضر عددا من الأفـلام، وخـرج صالح ليعد لنا الشاى بنفسه هكذا قال:

ـ فسر لنا عناوين الأفلام يا أستاذ.

قال الذى يحملها وهو يقدمها لى. وقال آخر:

ـ الأستاذ يترجم لنا.

ضحكوا وصفقوا طربا. وضعت الأفلام أمامى فـوق الأرض. والتفوا هم حولى، وتناولتها واحدا فواحدا.

- هذا "راعى بقر منتصف الليل".

- هذا نعرفه.

- هذا "كلاب من قش".

- هذا ممتاز لكن رأيناه كثيرا.

- هذا "موت فى فينسيا".

- ها. هذا فيه الصبى الصغير!

- وهذا "الخادم".

ضحكوا.

- هذا فيه الرجل الذى يتبول..

سكت للحظات. رأوا معظم الأفلام فلماذا يريدون أن أترجمها لهم؟ رأيت أيضا هذه الأفلام فى سينمات الإسكندرية، ورأيت "الخادم" منذ حوالى عشر سنوات ولا أذكر ما إذا كان فيه شخص يتبول أم لا. كنت أحب ديرك بوجارد. أرى فى وجهه دائما مسحه حزن عميق. وكنت قرأت عن هارولد بينتر كأحد كتاب المسرح الطليعيين فى

إنجلترا، ورأيت اسمه فى الأفيش ككاتب للفيلم. ياإلهى! كـان هذا أيام كنت أقرأ. مضى وقت طويل على ذلك حقًا.

قام واحد آخر وأحضر بقية الأفلام ووضعها أمـامى فوق الأرض.

ـ هذا "موبى ديك"..

ـ هذا عن الحوت. لانبغاه..

وأدوا فرحتى بالفيلم الذى لم أشاهده وكنت أحب لـو رأيته. لم أقرأ "موبى ديك" أبدا وإن كنت قرأت عن تعاسـة هرمان ميلفيل.. أحببت دائما الشجن" ما القراءة التى سقطت بين قدمى وخلفتها ورائى فى زحمة الأعباء التى قدرها لـى أبى أحسن تقدير؟ وما الكتابة لو كنت كتبت؟ لا معنـى لأى شىء نسيته. لا يضيع منك حقًا إلا ما ليس لك رغبة فيه.

ـ هذا "قصة حب".

ـ هذا فاشل!!

ـ طيب. هذا "العودة إلى الوطن".

أمسكه أحدهم من يدى، وفتح عينيه بأقصى اتسـاع، وقال:

ـ نبغى هذا. هذا فيه رجل مشلول يلحس.

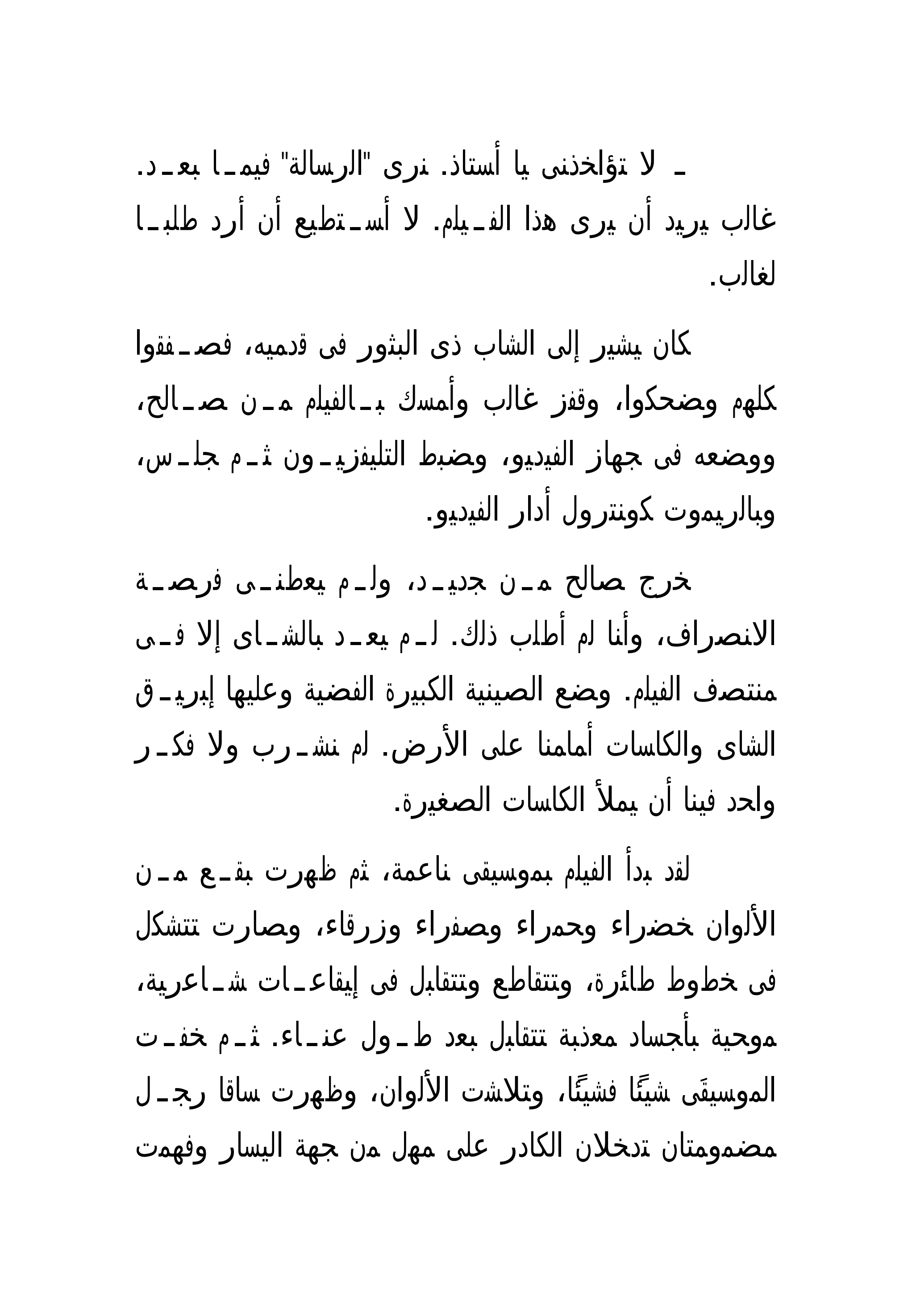
ضحكوا وزجره أحدهم:

ـ إيش نبغى هذا !! انتظر حتى يفسر لنـا الأسـتاذ بقية الأفلام.

فوجئت بالأول ينكمش ويسكت. يعقد ذراعيـه أمـام صدره ويربع قدميه كتلميذ صغير فى كُتّـاب. لاحظـت أن جلبابه متسخ، وقدميه كبيرتان بهما بثور صغيرة دقيقة لهـا رءوس بيضاء. ورأيته يحملق فى بعينين واسعتين يزيد مـن اتساعهما شحوبة وضآلة وجهه. أحسست بسخافة الأمر كله. لو دخل صالح وأنقذنى. ودخل صالح يحمل فيلمين ويقول:

ـ هذا " الرسالة " يا أستاذ تبغى تراه؟ إنه ممنوع فى البلاد العربية.

وفى اللحظة التى كدت فيها أوافق رغم الجهامة التى بدت على وجوههم استطرد صالح:



- لا تؤاخذنى يا أستاذ. نرى "الرسالة" فيما بعد. غالب يريد أن يرى هذا الفيلم. لا أستطيع أن أرد طلبا لغالب.

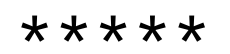
كان يشير إلى الشاب ذى البثور فى قدميه، فصفقوا كلهم وضحكوا، وقفز غالب وأمسك بالفيلم من صالح، ووضعه فى جهاز الفيديو، وضبط التليفزيون ثم جلس، وبالريموت كونترول أدار الفيديو.

خرج صالح من جديد، ولم يعطنى فرصة الانصراف، وأنا لم أطلب ذلك. لم يعد بالشاى إلا فى منتصف الفيلم. وضع الصينية الكبيرة الفضية وعليها إبريق الشاى والكاسات أمامنا على الأرض. لم نشرب ولا فكر واحد فينا أن يملأ الكاسات الصغيرة.

لقد بدأ الفيلم بموسيقى ناعمة، ثم ظهرت بقع من الألوان خضراء وحمراء وصفراء وزرقاء، وصارت تتشكل فى خطوط طائرة، وتتقاطع وتتقابل فى إيقاعات شاعرية، موحية بأجساد معذبة تتقابل بعد طول عناء. ثم خفت الموسيقَى شيئًا فشيئًا، وتلاشت الألوان، وظهرت ساقا رجل مضمومتان تدخلان الكادر على مهل من جهة اليسار وفهمت

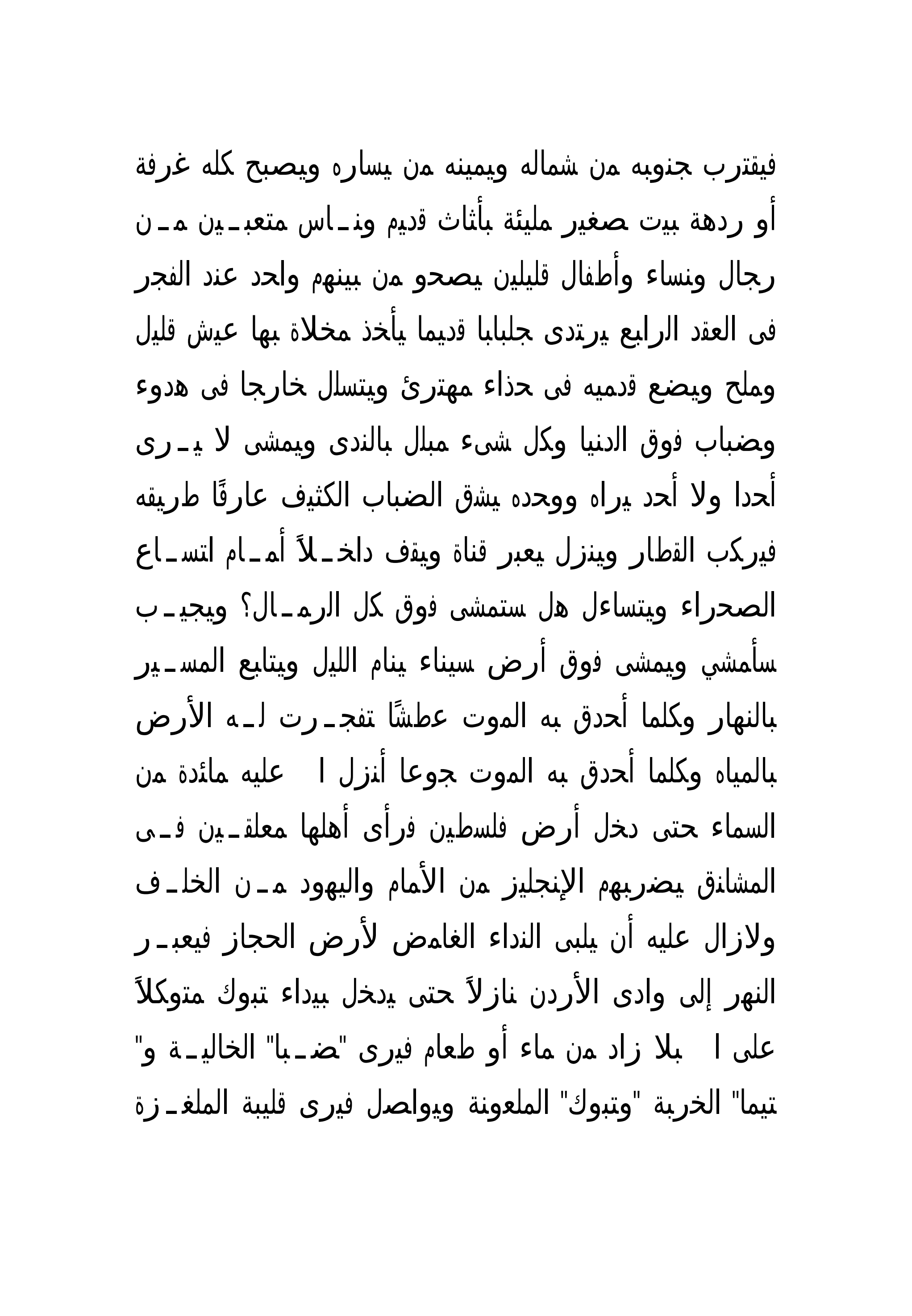
الأمر كله. لا بأس. نسيت إحساسى بسوء المعاملة وغبـاوة الاستقبال. وظهر عمود الرجل منتصبا ضخما ثابتًا لا يهتز، ومن بعيد أقبلت المرأة عارية تتضح ملامحهـا كلمـا ازداد قربا، ووقفت أمام عمود الرجل، ونظرت إلينـا وضـحكت ضحكة فاجرة، وانحنت تضع فمها حول العمود.

هل أكذب فأقول إننى لم أكن بحاجة إلى رؤية ذلـك اليوم على الأقل؟ أنا لم أشعر بأى خطأ أخلاقى. فى النهايـة أنا تارك هذه البلاد. ولا يهمنى ما يقوله صالح عن المدرس الذى لم يطلب تهيئة الجو للتدريس، وراح يتفرج على أفـلام ممنوعة. الذى حيرنى طول الفيلم، أن غالب كان دائما فاتحا فمه فى دهشة، والذى لا ينوى وقف حركة الفيلم بـالريموت الذى رفض أن يتنازل عنه لأحد. كان يوقف الفيلم كلما ظهر عضو امرأة. لا أكذب أيضا إذا قلت إنه سبب لى كثير مـن التقزز، لكننى انتظرت إلى النهاية. لثلاث ساعات كاملة لـم يتفوه أحدنا بكلمة. لم أترجم لهم شيئًا ولا هم طلبوا.



لا أعرف فى أى لحظة من الفيلم انسـلخت ورأيـت وادى النيل من الشلال إلى البحر الأبيض.. ديـوك تـؤذن

وشمس تسطع على الشريط الأخضر الضيق فـى الجنـوب فتتفتح زهور الفول البيضاء بطول النيل وشمس تسطع على الجبال فيصحو رجال ناموا جوار البنـادق ويقفـون كـأنهم رايات، وشمس تسقط على المعابد القديمة فيضـحك وجـه رمسيس فى أقصى الجنوب وتنطلـق الكبـاش مـن معابـد الأقصر تثغو وتجرى تتناطح بعد قيد طويل وشمس تسـطع فوق الدلتا فتخور الأبقار ويصحو الأطفال يسحبونها حفاة إلى المزارع الخضراء ورجال قاموا يغتسلون فى رضا ويصلون ثم يمشون والفئوس على أكتافهم أو يركبون الحمير وشـمس تسطع فوق القاهرة فيخرج الرجال والطلاب على رءوسـهم طرابيش حمراء يصيحون فى الشوارع ويعطلون المصـالح ويطلق البوليس عليهم الرصاص وفى شـرفة عاليـة يقـف المندوب السامى البريطانى يتفرج والبايب لا يفارق شفتيه ثم شمس تسقط فوق الإسكندرية حانية ويصعد هواء البحر إلـى البر محملاً برائحة اليود ورذاذ خفى يبحـث عـن ضـلوع تنتشى فلا يجد إلا صدور الأجانب الـذين احتلـوا شـمالها وتركوا جنوبها الضيق المكتوم لأهلها وللغرباء جـاءوا مـن الريف خلف سراب المدن، ثم رأيـت وادى النيـل يـنكمش



فيقترب جنوبه من شماله ويمينه من يساره ويصبح كله غرفة أو ردهة بيت صغير مليئة بأثاث قديم ونـاس متعبـين مـن رجال ونساء وأطفال قليلين يصحو من بينهم واحد عند الفجر فى العقد الرابع يرتدى جلبابا قديما يأخذ مخلاة بها عيش قليل وملح ويضع قدميه فى حذاء مهترئ ويتسلل خارجا فى هدوء وضباب فوق الدنيا وكل شىء مبلل بالندى ويمشى لا يـرى أحدا ولا أحد يراه ووحده يشق الضباب الكثيف عارقًا طريقه فيركب القطار وينزل يعبر قناة ويقف داخـلاً أمـام اتسـاع الصحراء ويتساءل هل ستمشى فوق كل الرمـال؟ ويجيـب سأمشي ويمشى فوق أرض سيناء ينام الليل ويتابع المسـير بالنهار وكلما أحدق به الموت عطشًا تفجـرت لـه الأرض بالمياه وكلما أحدق به الموت جوعا أنزل ا عليه مائدة من السماء حتى دخل أرض فلسطين فرأى أهلها معلقـين فـى المشانق يضربهم الإنجليز من الأمام واليهود مـن الخلـف ولازال عليه أن يلبى النداء الغامض لأرض الحجاز فيعبـر النهر إلى وادى الأردن نازلاً حتى يدخل بيداء تبوك متوكلاً على ا بلا زاد من ماء أو طعام فيرى "ضـبا" الخاليـة و" تيما" الخربة "وتبوك" الملعونة ويواصل فيرى قليبة الملغـزة

ويواصل حتى يصل إلى المدينة فيجلس على بـاب مسـجد الرسول صلى ا   عليه وسلم يبيع الحبوب للداخلين فتصير له بعد ذلك تجارة ويصير له طواف بالبلاد حتى رأى تبوك مرة أخرى فدخلها وفيها باع لامرأة مشى وراءها حتى خيمة أهلا فأطعموه فقال ما أطيب طعامكم وأهنأ عيشكم كيف أسـاوكم وأنا غريب يمضى فى البلاد أجيرونى فأجـاروه وصـارت المرأة زوجته أنجبت بنتًا أنجبت واضحة بن سليمان بن سبيل فصال جدها وصارت حفيدته.

يا إلهى! ما أقرب المدن رغم اتساع البلاد وما أقرب البلاد رغم اتساع الأرض!

*****

(١٢)

دخل منصور إلى مكتبى فى الصباح والقـرد فـوق كتفه وقال:

ـ استعد للذهاب إلى المدينة.

ابتسمت. كلما كلمنى منصـور أحـاول أن أتكلـف الابتسام. قلت:

ـ خيرا؟

ـ قال:

ـ ستذهب إلـى مؤسسـة الضـمان الاجتمـاعى. ستحضر نماذج للتأمين على العمال. نظام جديـد أظـن أن لديكم مثله فى مصر.

اندهشت من تدخله الدقيق فى عملى، ونسيت أن عم عبد ا كثيرا ما يعطيه هذه الفرصة. قلت مبتسما:

ـ هل أنت مديرنا الجديد يا منصور؟

جلس إلى المكتب القريب من الخازنة وقال:

ـ أريد أن أعطيك هذا القرد..

انطلقت ضاحكًا. لم أعد أخشى جانبه. بدا وقد هـدأت نفسه منذ أخبرته بالموعد الكاذب لزواج سعيد من وداد.

ـ لكننى لا أحب القرود.

ـ ليس لك. لتحمله إلى ابن عمى بالمدينـة. يريـد واحدا من عمان وأنا لن أسافر إلى عمان الآن.

نظرت إلى القرد فوجدته ينظر إلى. كيف يمكـن أن أحمل القرد معى حقًا؟ هل يسمح للقرود بركوب الطائرات؟

ـ هل صدقتنى يا أخى إسماعيل. أنا فقـط أمـزح معك.

تنفست بارتياح قلت:

ـ لكننى وا   كنت مستعدا.

ـ تسلم يا أخى إسماعيل.

قال ذلك وأطرق ينظر فى صمت إلى المكتب، وأنا لا أدرى ما الذى حدث لي. أحسست برغبة شديدة فى البكاء، تأثرا من سذاجة ووداعة هذا الإنسان الطيب الذى لا أعرف ماذا يريد بالضبط.



******

ساعة ونصف الساعة ووصلنا. الطائرة الصغيرة لعبت بها المطبات الهوائية كثيرا. فى مطار صغير يشبه مطار تبوك نزلنا. لا مشاكل فى الاستقبال فنحن قادمون من الداخل. ورأيت عددا كبيرا من الرجال يجلسون على الأرض فى أحد أركان صالة الوصول رجاجية الجدران، وحولهم يقف عدد من رجال الشرطة. خليط من المصريين والآسيويين، كان الجالسون متزاحمين لا تستطيع أن تحصيهم، مغبرى الثياب والوجوه فيهم حفاة. وخرجت.

فضاء واسع وسماء عالية وباحة عريضة مسفلتة تقف فيها السيارات الأجرة والخاصة. نصف ساعة من المطار إلى المدينة. هكذا علمت. توقعت أن يتقدم منى سائق لكن لا أحد تقدم. الخارجون مثلى من المطار يتجهون إلى السيارات فى صمت، وهذا الرجل على المقعد المجاور لمقعد

السائق يشير ناحيتى، أنظر حولى لا أجد أحدا. يقصدنى أنـا إذن. ماذا يريد؟ هتف:

ـ اركب بسرعة قبل أن يأتى السائق.

لم أفهم لكنى دخلت العربة فى المقعد الخلفى. وظهر السائق وفتح بابه ودخل وهو يقول له:

ـ جاء أخوك؟

ـ أجل.

تلفت الرجل لى وابتسم، ولم يلتفت السائق الذى قال: "يا هلا".

وأدار محرك السيارة وأنا فى غاية الحيرة.

ـ أخوك يعمل فى المملكة؟

ـ أخى وابن عمى أيضا، تركنا "عوايلنا" هناك فـى مصر. ضحك السائق الصغير:

ـ وا زين ما سويتم..

واستمر يضحك والسيارة تحركت. "لعنـة ا علـى النسوان": قال السائق والتفت إلى. "لا تؤاخـذنى يـا أخـى"

ورأيت وجهه عجوزا. ليس إذن شابا صغيرا كما تصورت. وفكرت أن أفضل شىء لى هو الصمت. الرجل الذى دعانى مصرى ولا أحسب أن يؤذينى.

الطريق طويل ضيق يقطع جبالاً سـمراء وحمـراء عالية متدرجة الارتفاعات.. جبالاً صـخرية لامعـة، علـى سفوحها أخاديد جافة من آثار أمطار بعيدة الزمـان، وعلـى الأرض المنبسطة بينها "حرات" قديمة تنفث دخانًا شفيفًا كأنها فوهات براكين صغيرة خامدة منذ زمن طويـل، ولارمـال حولى ولاكثبان. لا أعرف لماذا تـذكرت الكلـب الأبـيض الضخم مثل الحمار الشارد الذى رأيته فـى طريـق تبـوك وابتسمت، هنا لابد أنهم يقتلون الكلاب فى المدن والصحارى معا، والتفت إلى الرجل وقال:

- هذه جبال بركانية تشبه جبال الصحراء الشـرقية عندنا.

لم أرد. فى حاجة أنا لمعرفة اسمه حتـى أخاطبـه، لكنى رأيت وجهه جيدا. بدا لى شخصا عاديا لا يمكن التنبـؤ بشىء وارءه وبدا لى مسكينًا أيضا، فقميصه متسـخ الياقـة، والزرار الأعلى فيه مقطوع والبلوفر الذى يرتديه قديم، لكن

وجهه أبيض مشرب بحمرة خفيفة وشعره أبيض كله وعيناه صغيرتان ذابلتان من التعب. واستمر يتحدث مخاطبا السائق.

- جبال مكة وجدة كانت متصلة بالجبال عندنا فـى مصر فى الصحراء الشرقية وهى جزء منها.

- سامحنى يا أستاذ وا أنا ما شفت مصر.. شـفت تركيا..

قال السائق ذلك بخجل حقيقى فالتفت الرجـل إلـى مبتسما وقال:

- المنطقة الغربية كلها من المملكة كانـت متصـلة بالصحراء الشرقية المصرية. لقد فصل بين المملكة ومصـر الأخدود الأفريقى العظيم قبل العصور السحيقة كما تعلم.

يخاطبنى باعتبارى شخصا متعلما. يريد أن يشعرنى بأنه شخص مثقف ولا يجب أن أخشى جانبه، بدأت أطمـئن إليه.

أخذت المدينة تظهر . بيوتها الواطئة بينها عمـارات كثيرة عالية ورأيت مآذن المسجد النبوى والقبـة الخضـراء تلمع فى الفضاء، وقال الرجل:

ـ المدينة جميلة. هواؤها عليل وأهلها طيبون. إنهم الأنصار.

ابتسم السائق وقال:

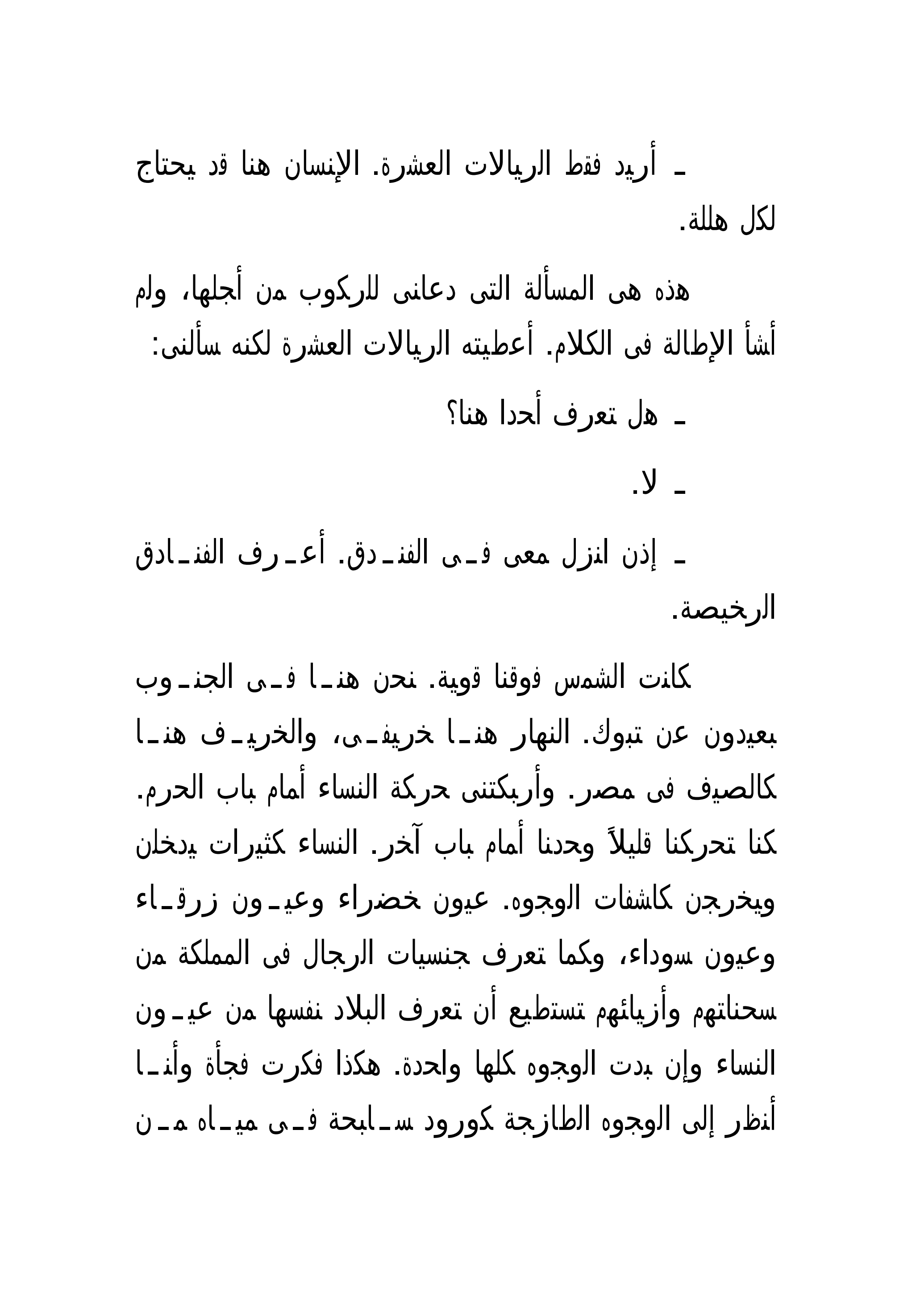
ـ ا يرضى عليك يا أستاذ.

ولم يختلف ما رأيته فى الشوارع عمـا رأيتـه فـى تبوك. الشوارع هنا أنظف قليلاً وأوسع والآسيويون أكثـر. المدينة أكبر.

توقف السائق أمام الحرم النبوى. زحام من الداخلين والخارجين فى سرعة وصمت، وزحام حول الباعة العجائز الجالسين على الأرض أمام الحرم يبيعون القمـح للـداخلين يلقون به للحمام. هذا حمام سابح فوق الحرم وتحت السماء لا يصطاده أحد ولا يأكله أحد. ونزلنا وسبقنى الرجـل ودفـع للسائق عشرين ريالاً، وقال بعد أن مضت السيارة:

ـ تستطيع أن تدفع لى عشـرة ريـالات. أعطيـت السائق الأجرة المقررة:

ـ أستطيع أن أعطيك العشرين ريالاً.



ـ أريد فقط الريالات العشرة. الإنسان هنا قد يحتاج لكل هللة.

هذه هى المسألة التى دعانى للركوب من أجلها، ولم أشأ الإطالة فى الكلام. أعطيته الريالات العشرة لكنه سألنى:

ـ هل تعرف أحدا هنا؟

ـ لا.

ـ إذن انزل معى فـى الفنـدق. أعـرف الفنـادق الرخيصة.

كانت الشمس فوقنا قوية. نحن هنـا فـى الجنـوب بعيدون عن تبوك. النهار هنـا خريفـى، والخريـف هنـا كالصيف فى مصر. وأربكتنى حركة النساء أمام باب الحرم. كنا تحركنا قليلاً وحدنا أمام باب آخر. النساء كثيرات يدخلن ويخرجن كاشفات الوجوه. عيون خضراء وعيـون زرقـاء وعيون سوداء، وكما تعرف جنسيات الرجال فى المملكة من سحناتهم وأزيائهم تستطيع أن تعرف البلاد نفسها من عيـون النساء وإن بدت الوجوه كلها واحدة. هكذا فكرت فجأة وأنـا أنظر إلى الوجوه الطازجة كورود سـابحة فـى ميـاه مـن

الضوء. عباءات سوداء حقًا أمامى لكن تظهر مـن فتحـات صدرها ملابس خضراء وحمراء وبيضاء زاهيـة لامعـة. عباءات سوداء حقًا لكنها مع الضوء الأبيض للنهار تعطـى الفرصة للوجوه اليانعة أن تعلن عن سحرها. هنا أمام بـاب الحرم النبوى الشريف لم أستطع رفع بصرى إلى السماء ولا أن أخفضه إلى الأرض. صارت عيناى على مستوى وجـوه النساء وعيون النساء وشفاه النساء ونضارة وجناتهن. لم يكن عمر بن أبى ربيعة مجنونًا وهو يحج للغزل. ما بـالى لـو رحت مكة. أستغفر ا   العظيم. ماذا أفعل فى خطف العيـون والراحة التى تبعثها الوجوه فى الأرواح.. أنا الآن محمـول على سرير من الزئبق.

ـ النساء هنا يكشفن وجوههن. لا تندهش. المسـائل كلها مقلوبة.

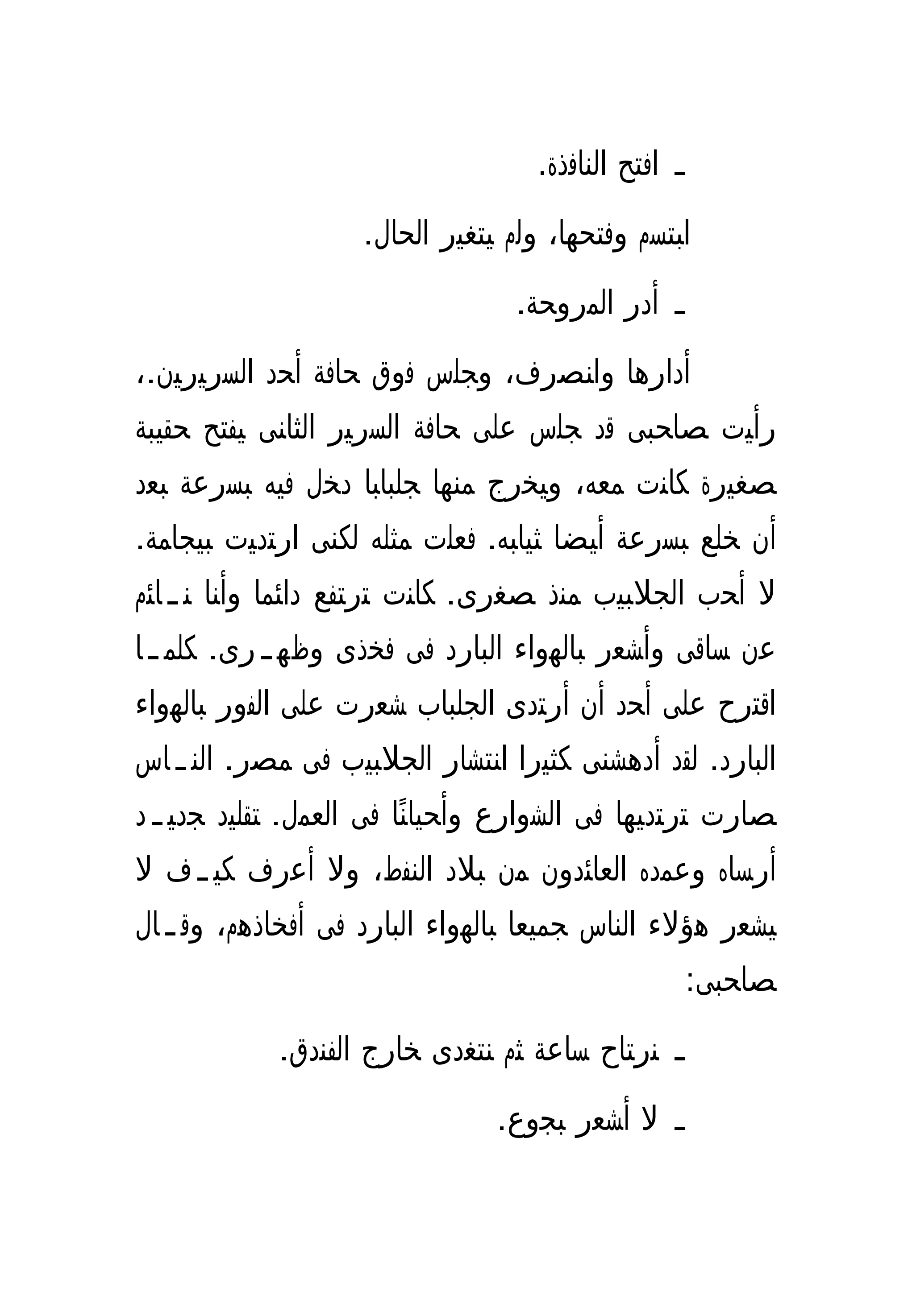
قال الرجل، فأنزلنى إلى الأرض، ومشـى فمشـيت جواره كطفل يتبع أباه.



إلى زقاق ضيق أخذنى. زحام شديد ولكن الحركـة تنساب فى هدوء ولا صوت لشخص ولا لراديو أو مسـجل، ورائحة البخور والعطور تضمخ المكان كله. صمت وخشوع كأنما الزقاق والبيوت كلها داخل مسجد كبير.

ـ من حسن حظك أنه لا توجد عمرة هذه الأيام وإلا ما وجدت مكانًا لقدم. الناس أيام العمرة تنام فى الشوارع.

لم أرد. كأنما تركته بحق يرشـدنى. دخلنـا فنـدقًا صغيرا اسمه "حراء" وقابلنا فى بهو ضيق مظلم شابا مصريا يبتسم، وصحبنا إلى غرفة فى الدور العلوى، ورحت أنظـر إلى الغرفة الصغيرة التى لا تزيد مساحتها على تسعة أمتار. بها سريران صغيران منفصلان، ودولاب معدنى من ضلفتين لا يصل عرضه إلى المتر، ولا يرتفع إلى المترين، وحوض مياه مثبت فى الحائط فوقه رفّ زجاجى عليه كوب بلاستيك واحد، وفوقه مرآة صغيرة صدئة الحواف، مغبشة الزجـاج، وفى السقف مروحة، وأحسست بالاختناق كأنما كـان الحـر محبوسا فى الغرفة وانطلق يحاصرنا مشـبعا بالرطوبـة. لا نافذة للحجرة على الشارع. لها نافـذة صـغيرة علىمنـور ضيق. قلت للشباب المصرى:



ـ افتح النافذة.

ابتسم وفتحها، ولم يتغير الحال.

ـ أدر المروحة.

أدارها وانصرف، وجلس فوق حافة أحد السريرين.، رأيت صاحبى قد جلس على حافة السرير الثانى يفتح حقيبة صغيرة كانت معه، ويخرج منها جلبابا دخل فيه بسرعة بعد أن خلع بسرعة أيضا ثيابه. فعلت مثله لكنى ارتديت بيجامة. لا أحب الجلابيب منذ صغرى. كانت ترتفع دائما وأنا نـائم عن ساقى وأشعر بالهواء البارد فى فخذى وظهـرى. كلمـا اقترح على أحد أن أرتدى الجلباب شعرت على الفور بالهواء البارد. لقد أدهشنى كثيرا انتشار الجلابيب فى مصر. النـاس صارت ترتديها فى الشوارع وأحيانًا فى العمل. تقليد جديـد أرساه وعمده العائدون من بلاد النفط، ولا أعرف كيـف لا يشعر هؤلاء الناس جميعا بالهواء البارد فى أفخاذهم، وقـال صاحبى:

ـ نرتاح ساعة ثم نتغدى خارج الفندق.

ـ لا أشعر بجوع.

ـ إذن نتغدى بعد أن نصلى العصـر. لقـد فاتنـا الظهر. سنصليه مع العصر فى الحرم.

أحسست فجأة أنه ثرثار يتكلم أكثر مما ينبغى، لكنى تجاهلت الأمر وحاولت أن أنام. لم أستطع ولا هو اسـتطاع. رأيته يتململ ممددا فوق السرير، ورايته ينهض يخرج مـن الحقيبة التى معه كتابا ويعود يستلقى يقرأ فيه.

ـ اسمى إسماعيل خضر موسى.

قلت، فابتسم وقال:

ـ كان على أن أعرفك بنفسى. كامل البلتـاجى. لا تؤاخذنى. لابد أننى اربكتك.

ـ لا تشغل بالك. لقد فهمت إشاراتك.

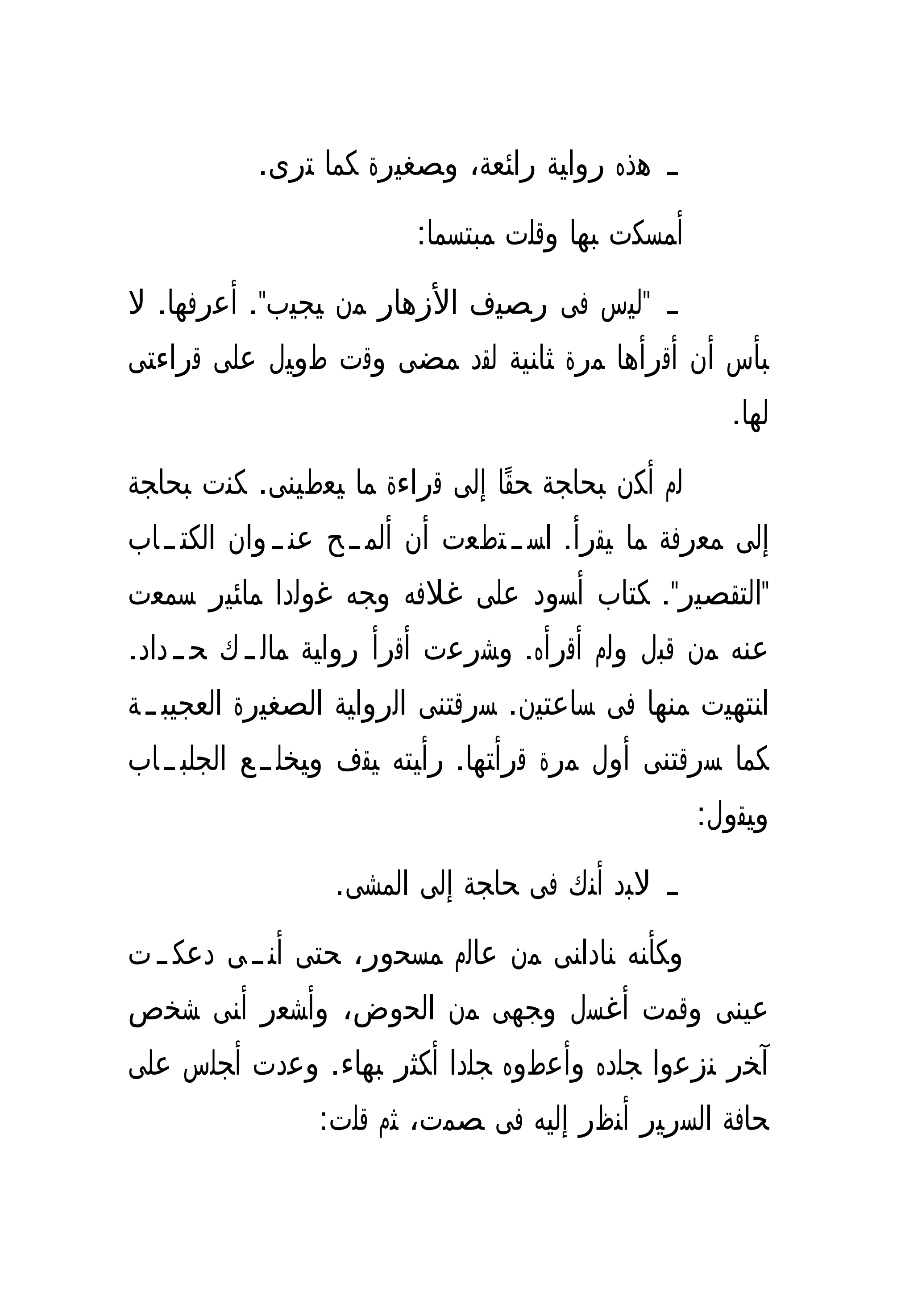
ـ لى نظرة لا تخيب فى الناس.

وسكت قليلاً ثم سألنى:

ـ إلا تحب القراءة ؟

ـ أنا قارئ قديم.

نهض بخفة، وأخرج كتابا آخر قدمه لى:



ـ هذه رواية رائعة، وصغيرة كما ترى.

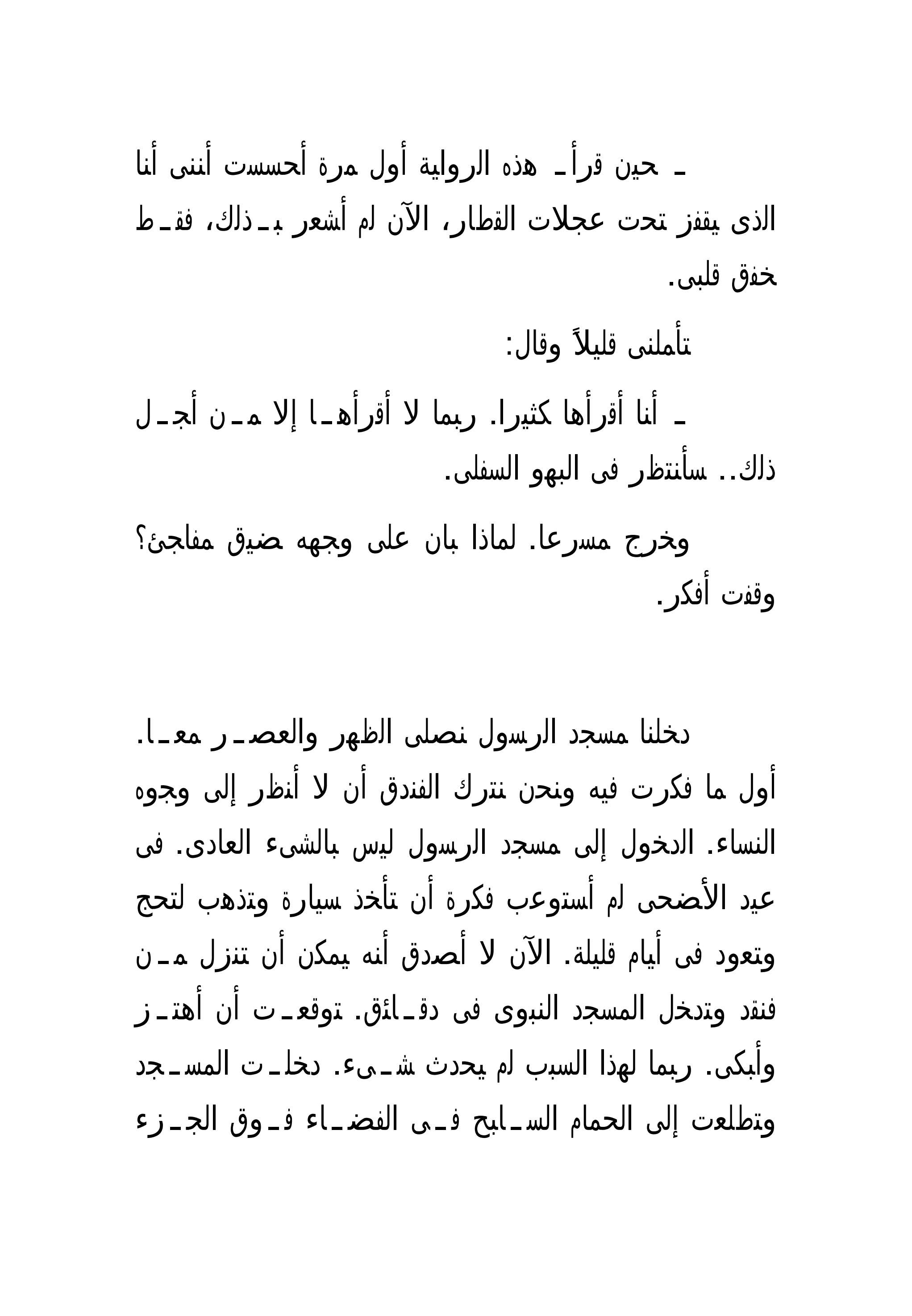
أمسكت بها وقلت مبتسما:

ـ "ليس فى رصيف الأزهار من يجيب". أعرفها. لا بأس أن أقرأها مرة ثانية لقد مضى وقت طويل على قراءتى لها.

لم أكن بحاجة حقًا إلى قراءة ما يعطينى. كنت بحاجة إلى معرفة ما يقرأ. اسـتطعت أن ألمـح عنـوان الكتـاب "التقصير". كتاب أسود على غلافه وجه غولدا مائير سمعت عنه من قبل ولم أقرأه. وشرعت أقرأ رواية مالـك حـداد. انتهيت منها فى ساعتين. سرقتنى الرواية الصغيرة العجيبـة كما سرقتنى أول مرة قرأتها. رأيته يقف ويخلـع الجلبـاب ويقول:

ـ لابد أنك فى حاجة إلى المشى.

وكأنه نادانى من عالم مسحور، حتى أنـى دعكـت عينى وقمت أغسل وجهى من الحوض، وأشعر أنى شخص آخر نزعوا جلده وأعطوه جلدا أكثر بهاء. وعدت أجلس على حافة السرير أنظر إليه فى صمت، ثم قلت:



ـ حين قرأـ هذه الرواية أول مرة أحسست أننى أنا الذى يقفز تحت عجلات القطار، الآن لم أشعر بـذلك، فقـط خفق قلبى.

تأملنى قليلاً وقال:

ـ أنا أقرأها كثيرا. ربما لا أقرأهـا إلا مـن أجـل ذلك.. سأنتظر فى البهو السفلى.

وخرج مسرعا. لماذا بان على وجهه ضيق مفاجئ؟ وقفت أفكر.

دخلنا مسجد الرسول نصلى الظهر والعصـر معـا. أول ما فكرت فيه ونحن نترك الفندق أن لا أنظر إلى وجوه النساء. الدخول إلى مسجد الرسول ليس بالشىء العادى. فى عيد الأضحى لم أستوعب فكرة أن تأخذ سيارة وتذهب لتحج وتعود فى أيام قليلة. الآن لا أصدق أنه يمكن أن تنزل مـن فندق وتدخل المسجد النبوى فى دقـائق. توقعـت أن أهتـز وأبكى. ربما لهذا السبب لم يحدث شـىء. دخلـت المسـجد وتطلعت إلى الحمام السـابح فـى الفضـاء فـوق الجـزء

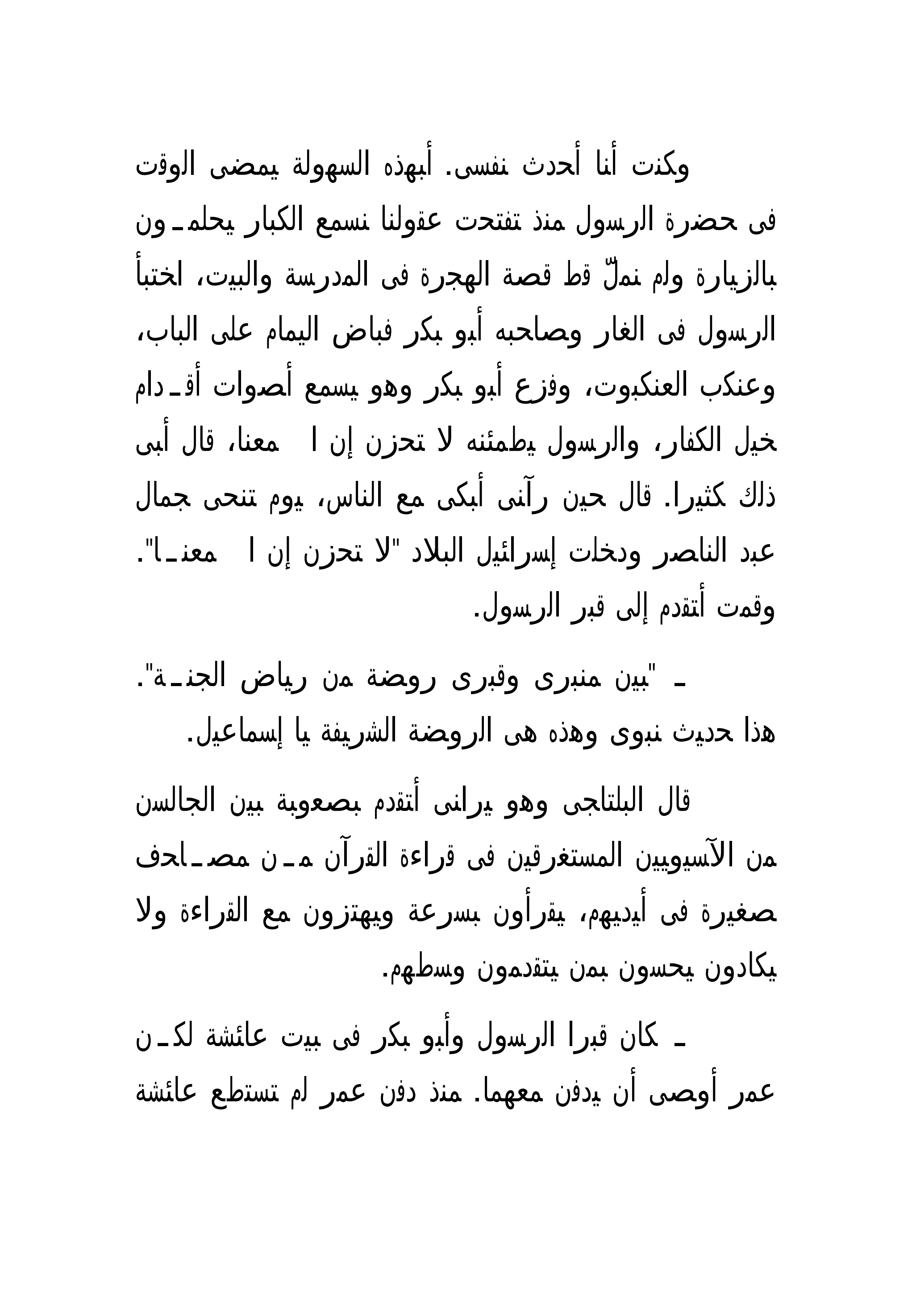
المكشوف.، لفت انتباهى اتساع المسجد الهائل، وأعداد الناس الغفيرة، وانقسام المسجد إلى نصفين. الأيمن للرجال والأيسر للنساء. لا أرى وجوه النساء الآن. وجوهنا جميعا إلى القبلة. لو التفت لى كل هاته النسوة لمت فى الحال. لا يحتـاج أى إنسان لدخول الجحيم غير أن يرى هذا العدد الهائل من وجوه النساء دفعة واحدة. ياللشيطان الجهنمى الذى يحاصرنى! قال البلتاجى:

ـ لن نستطيع الوصول إلى قبر الرسـول إلا بعـد الانتهاء من الصلاة.

ـ وجلسنا فى الجزء المكشوف من المسجد، ثم أذن للصلاة وصلينا. خشوع غامر تلبس الدنيا مع صوت الشـيخ الندى الذى يؤم المصلين.، أكذب إذا قلت إننى شعرت بتحول فى شعورى ناحية الإيمان، فأنا غير ملحد، وأكذب إذا قلـت إننى لم أشعر بشىء.

وانتهينا وكلمنى البلتاجى:

ـ انتظر قليلاً حتى يخف الزحام:



وكنت أنا أحدث نفسى. أبهذه السهولة يمضى الوقت فى حضرة الرسول منذ تفتحت عقولنا نسمع الكبار يحلمـون بالزيارة ولم نملّ قط قصة الهجرة فى المدرسة والبيت، اختبأ الرسول فى الغار وصاحبه أبو بكر فباض اليمام على الباب، وعنكب العنكبوت، وفزع أبو بكر وهو يسمع أصوات أقـدام خيل الكفار، والرسول يطمئنه لا تحزن إن ا معنا، قال أبى ذلك كثيرا. قال حين رآنى أبكى مع الناس، يوم تنحى جمال عبد الناصر ودخلت إسرائيل البلاد "لا تحزن إن ا معنـا". وقمت أتقدم إلى قبر الرسول.

ـ "بين منبرى وقبرى روضة من رياض الجنـة". هذا حديث نبوى وهذه هى الروضة الشريفة يا إسماعيل.

قال البلتاجى وهو يرانى أتقدم بصعوبة بين الجالسن من الآسيويين المستغرقين فى قراءة القرآن مـن مصـاحف صغيرة فى أيديهم، يقرأون بسرعة ويهتزون مع القراءة ولا يكادون يحسون بمن يتقدمون وسطهم.

ـ كان قبرا الرسول وأبو بكر فى بيت عائشة لكـن عمر أوصى أن يدفن معهما. منذ دفن عمر لم تستطع عائشة

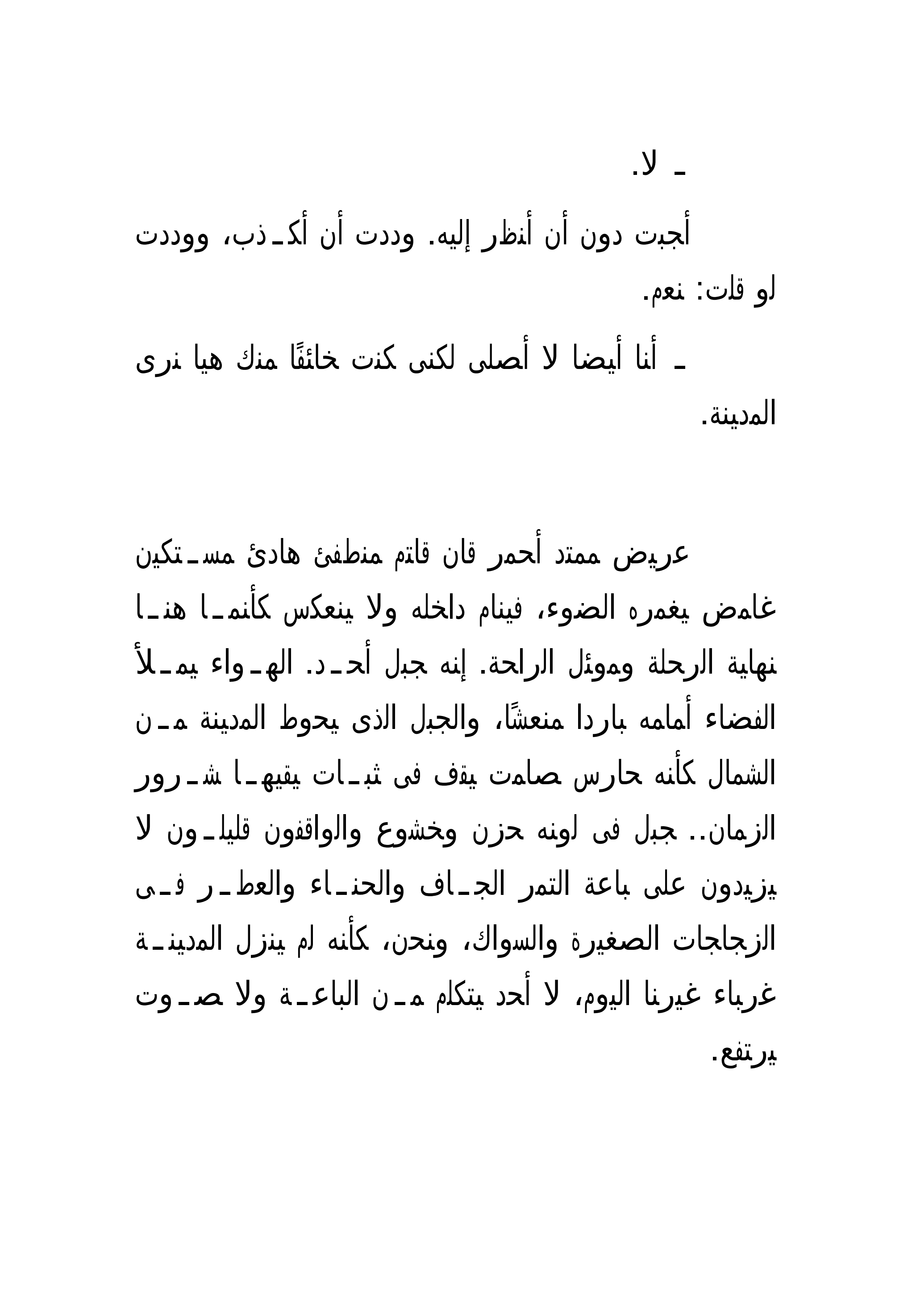
أن تتفضل فى ثيابها حرجا من عمر. هكذا قالت هى. بعـد ذلك الحق البيت بالمسجد.

البلتاجى يتحدث وأنا لا أهتم بـالرد عليـه. سـأقرأ الفاتحة وأطلب الرحمة لأبـى والصـحة لأمـى والتوفيـق لإخوتين وقفت أمام قبر الرسول وصاحبيه وأوشـكت علـى التراجع. كيف حقًا لا أبكى؟ من ينقذنى مـن حالـة الخـلاء الروحى التى تلبستنى منذ زمن طويل.. منـذ أمسـك أبـى بأيادى أخوتى وسلمهم إلى .. منذ قالت وهى تبكى:

"تركتنى فى اليوم الخامس من يونيو. ألا يذكرك هذا التاريخ بشىء؟ يوم لا يمر كل عام كبقية الأيام.. يوم سيظل معنا، حتى لو حاربنا وانتصرنا ونسيه الناس، سـأكون أنـا الوحيدة التى لا تنساه، لأنك تركتنى فيه. لماذا يا إسماعيل لا تعرف كيف تختار؟ لماذا تكون طعنتك باقية طول العمر. لا يشفى جرحى انتصارنا يوما على إسرائيل. يا طول جرحـى وبئس عذابى؟.

وخرجنا. ما كدنا نخرج حتى سألنى:

ـ هل أنت تصلى حقًا ؟



ـ لا.

أجبت دون أن أنظر إليه. وددت أن أكـذب، ووددت لو قلت: نعم.

ـ أنا أيضا لا أصلى لكنى كنت خائفًا منك هيا نرى المدينة.

عريض ممتد أحمر قان قاتم منطفئ هادئ مسـتكين غامض يغمره الضوء، فينام داخله ولا ينعكس كأنمـا هنـا نهاية الرحلة وموئل الراحة. إنه جبل أحـد. الهـواء يمـلأ الفضاء أمامه باردا منعشًا، والجبل الذى يحوط المدينة مـن الشمال كأنه حارس صامت يقف فى ثبـات يقيهـا شـرور الزمان.. جبل فى لونه حزن وخشوع والواقفون قليلـون لا يزيدون على باعة التمر الجـاف والحنـاء والعطـر فـى الزجاجات الصغيرة والسواك، ونحن، كأنه لم ينزل المدينـة غرباء غيرنا اليوم، لا أحد يتكلم مـن الباعـة ولا صـوت يرتفع.

ـ التمر والحناء والعطر والسواك سنة عن الرسول، والكحل أيضا. قال البلتاجى ولم يـتكلم أحـد غيـره ذلـك الأصيل. وعاد يقول:

ـ كان الرسول نظيفًا مقبلاً على الحياة. كان يحـب كل شىء ولا يرضى بالقليل إلا فى المال والطعام. انظـر. من هنا جاء خالد بن الوليد.

أشار إلى المكان الشهير للواقعة.

ـ وهنا كان يقف المسلمون.

ورأيت حيث أشار إلـى مسـتطيلين مـن الطـوب الصغير على الأرض.

ـ هذا الطوب يحدد قبرى حمزة ومصعب بن عمير. أعظم شهداء الواقعة. هل تعرفهما ؟

ـ أعرف حمزة. ذلك الذى أكلت كبده أم معاوية.

قلت. وتهدج صوت البلتاجى فجأة بالبكاء.

ـ كان مصعب فتى الفتيان فـى قـريش. أجملهـم وأغناهم، وإذ آمن بالدعوة ترك كل شىء. وتحمـل الجـوع

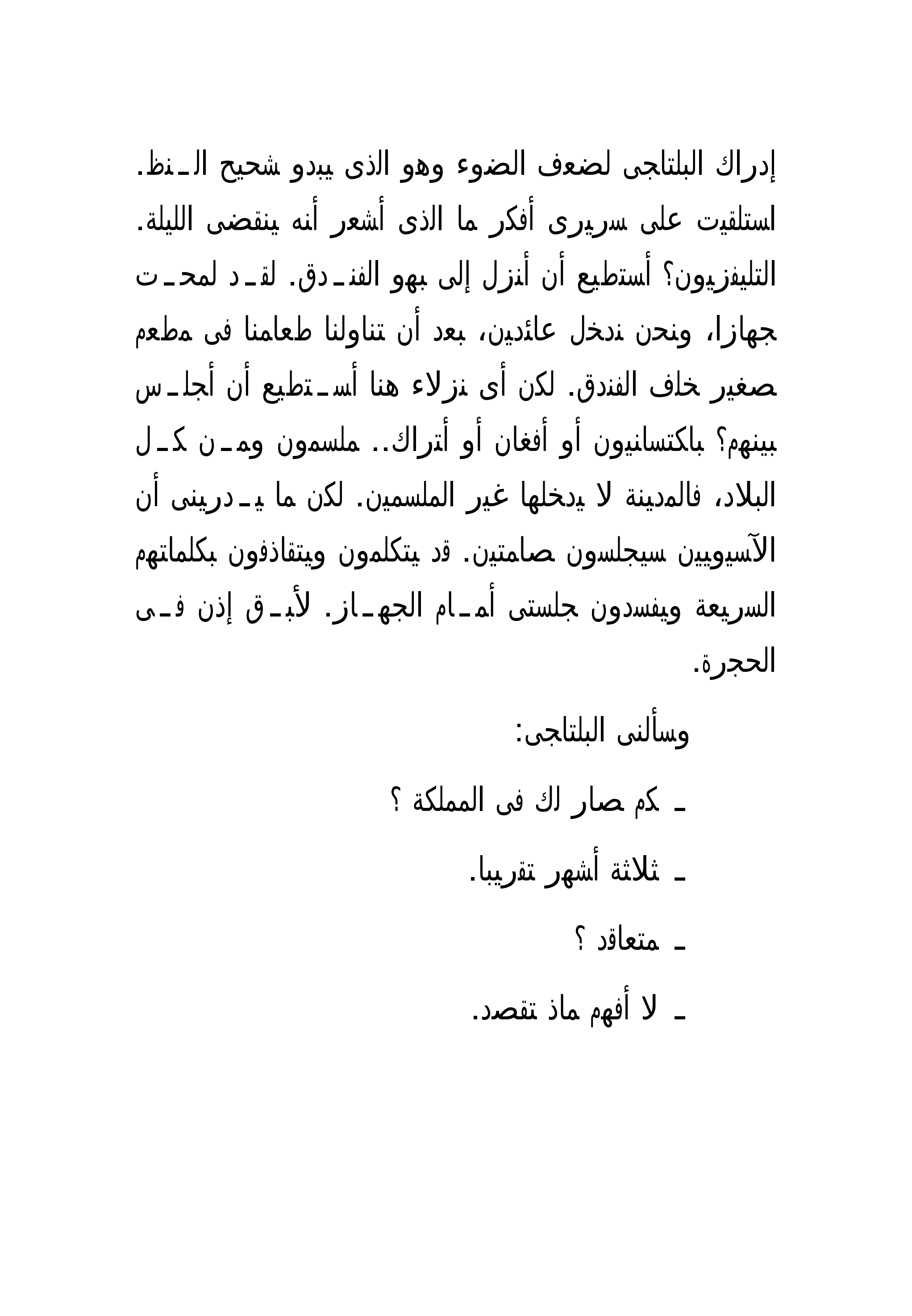
والعرى وهو محاصر مع المسلمين فى شعب أبى طالـب، وأبدا لم يستسلم. كان هو حامل الراية ذلك اليوم، ولم يتركها حتى تمزقت أعضاؤه ومات.

وسكت. ومن فوق الجبل هفت علينا نسـمة طيبـة طرية، وكنا نوشك على الدخول فى المغرب حيـث يتسـلل الليل على مهل، والشمس على يسارنا بعيدة حمراء تتراجـع عن الدنيا فى حزن، وأنا أرى المسلمين يتركـون مـواقعهم فوق الجبل وينزلون حتى لا تفوتهم الغنائم والمعركة توشـك أن تنتهى بالانتصار، فإذا بخالد بن الوليد يظهر عاليا كجبـل فوق الجبل ومعه جنوده ويغيرون علـى ظهـر المسـلمين، ويثبت الرسول، وتنكسر سنته، وينهزم المسلمون، وسـؤال الامتحان الدائم عن العبرة من الهزيمـة، والإجابـة طاعـة القائد.. لكن لماذا كان السؤال يتكرر كثيراً ؟

وتحرك البلتاجى يمشى فمشيت.



فى الحجرة التى كـان نورهـا ضـعيفًا أحسسـت بالاختناق، فطلبت مصباحا آخر أكبر، واندهشت مـن عـدم



إدراك البلتاجى لضعف الضوء وهو الذى يبدو شحيح الـنظ. استلقيت على سريرى أفكر ما الذى أشعر أنه ينقضى الليلة. التليفزيون؟ أستطيع أن أنزل إلى بهو الفنـدق. لقـد لمحـت جهازا، ونحن ندخل عائدين، بعد أن تناولنا طعامنا فى مطعم صغير خلف الفندق. لكن أى نزلاء هنا أسـتطيع أن أجلـس بينهم؟ باكتسانيون أو أفغان أو أتراك.. ملسمون ومـن كـل البلاد، فالمدينة لا يدخلها غير الملسمين. لكن ما يـدرينى أن الآسيويين سيجلسون صامتين. قد يتكلمون ويتقاذفون بكلماتهم السريعة ويفسدون جلستى أمـام الجهـاز. لأبـق إذن فـى الحجرة.

وسألنى البلتاجى:

ـ كم صار لك فى المملكة ؟

ـ ثلاثة أشهر تقريبا.

ـ متعاقد ؟

ـ لا أفهم ماذ تقصد.

كان مشغولاً بإعداد كوبين من الشاى بجهاز كهربى صغير أخرجه من حقيبته. لم يرد إلا بعد أن انتهى ورحنـا نشرب الشاى:

- أقصد هل تعمل بعقد رسمى أم مثلى؟

- تعاقدت قبل حضورى. لكن كيف تعمل هنا بـلا تعاقد؟

ابتسم وأجاب:

- كان عليك أن تدرك ذلك وحدك. ألا ترى معـنى عدة الشاى؟

وأشار إلى الحقيبة الملقاة جوار الحائط، وقال:

- فيها كل ما يلزمنى؛ صغيرة كمـا تـرى ولكـن تحوى الكثير.

وقام وفتحها، وأخرج منها مرتبـةً تمتلـئ بـالهواء فتصلح للنوم، ولحافًا يمتلئ بالهواء أيضا ويدخل الإنسان فيه ويغلقه حوله بسست فى الجانبين، وأشـياء أخـرى كثيـرة، وقال:

ـ جئت فى عمرة منذ عام ولم أعد إلى مصر. لقـد وجهوا إنذارا لكل من يعمل هنا بلا عقد رسمى، أن يصـحح موقفه قبل شهر رجب الماضى.

ـ لماذا إذن لم تتعاقد قبل الموعد .؟

ـ لأنى قد أسافر فى أى وقت.

وسكت. ولابد أنه أدرك ارتباكى، فقال:

ـ كان من السهل أن أتعاقد قبل القـرار الأخيـر.، الكفلاء يحبون هذا النوع من العمالة الذى لا يرتب عليهم أى حقوق للعمال. بعد القرار صار خطرا على الاثنين معا العمل دون تعاقد، لكنى لم أتعاقد. مازلـت أجـد الكفـلاء الـذين يغامرون بتشغيلى. أنا أستطيع أن أقوم بأعمال كثيرة أقلهـا الكتابة على الآلة الكاتبة. لكن هذا ما حدث. لذلك أنا لا أسلم من المطاردة . عند وصولك إلى المطار كنت أنـا ضـمن المقبوض عليهم لترحيلهم لأنهم يعملون بلا تعاقـد رسـمى، لكنى استطعت الهرب.

تأملته فى غاية الدهشة. قلت:

ـ كل هؤلاء الذين كانوا محاصرين برجال الشرطة مقبوض عليهم .؟

ـ وأكثر منهم كل يوم يتم ترحيلهم.

وسكتنا قليلاً ثم قال:

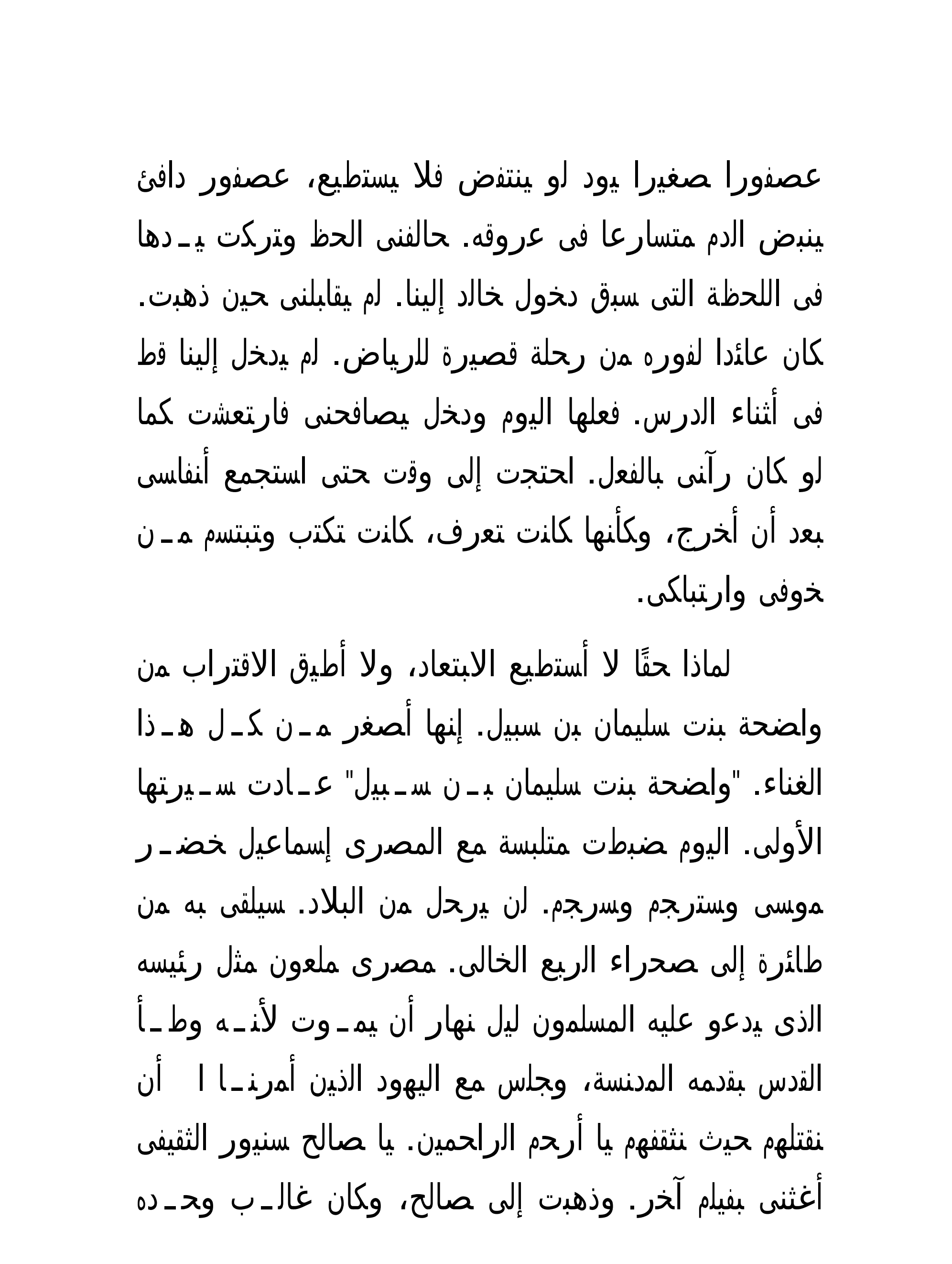
ـ لابد أنك ستسألنى كيف استطعت الهرب.

قلت فى أسى:

ـ ما يدهشنى كيف وأنت الشخص الذى يبدو مثقفًـا متعلما، تقبل لنفسك هذا الوضع الصعب.

*****

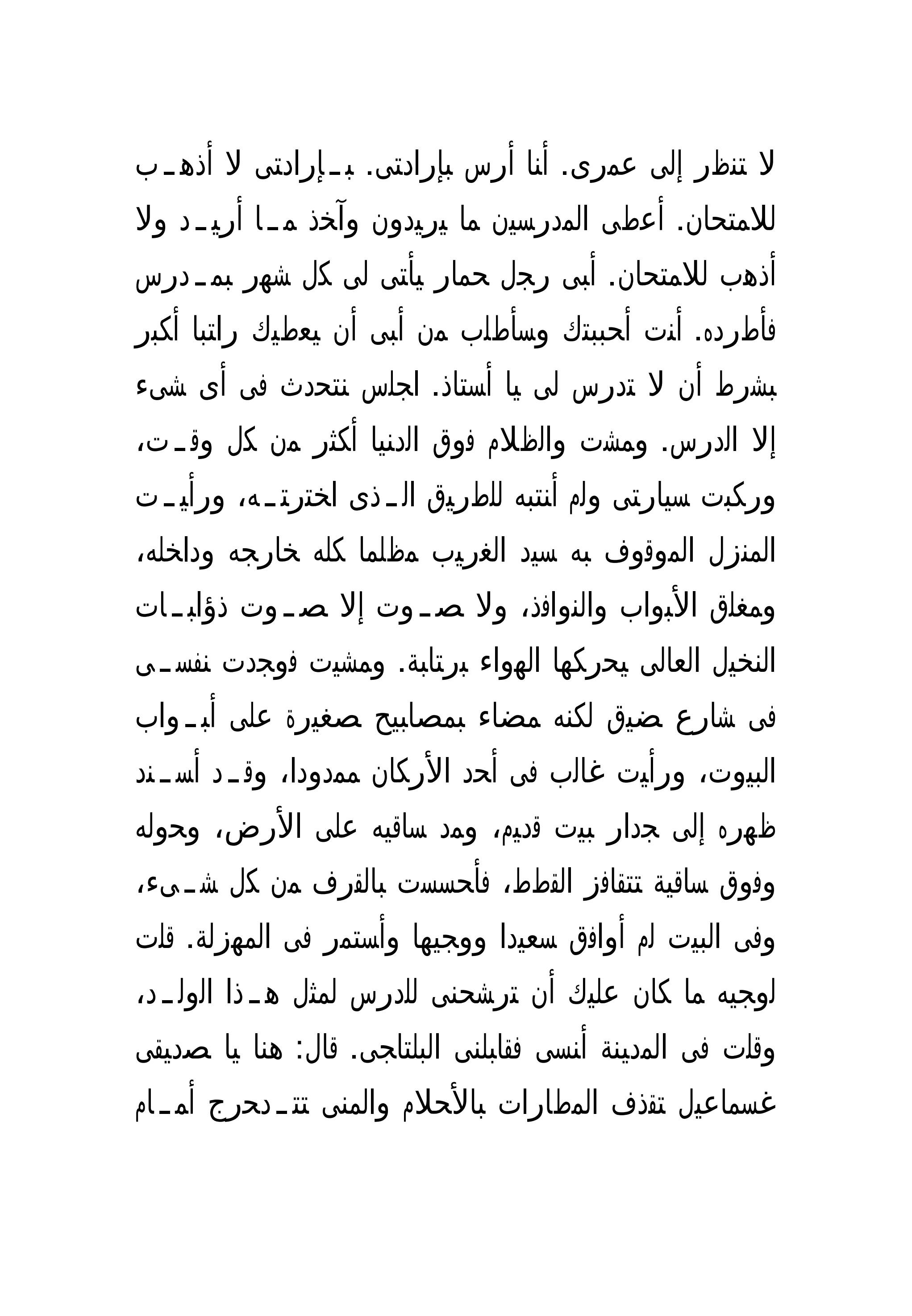
وكأنما كتبت لى هذه الليلة فـى لـوح القـدر. لقـد أحسست حين وضعت قدمى على سلم الطائرة فـى طريقـى للمدينة، أننى سوف أرتاح قليلاً من خوفى الباهظ من تطـور الأمور مع واضحة.، تركتنى أمسك يدها بين يدى فى الدرس التالى ليوم رؤيتى لجدها. قالت فجأة لمـاذا تعـاملنى بهـذه القسوة .؟ وكنت أنا أرفع صوتى بلا سبب فى الحديث كأنى أود تنفيرها من الأمر كله. ربت على ظهر يـدها فتركتهـا فأخذتها لتنام بين راحتى يـدى، وأحسسـت كـأن بينهمـا

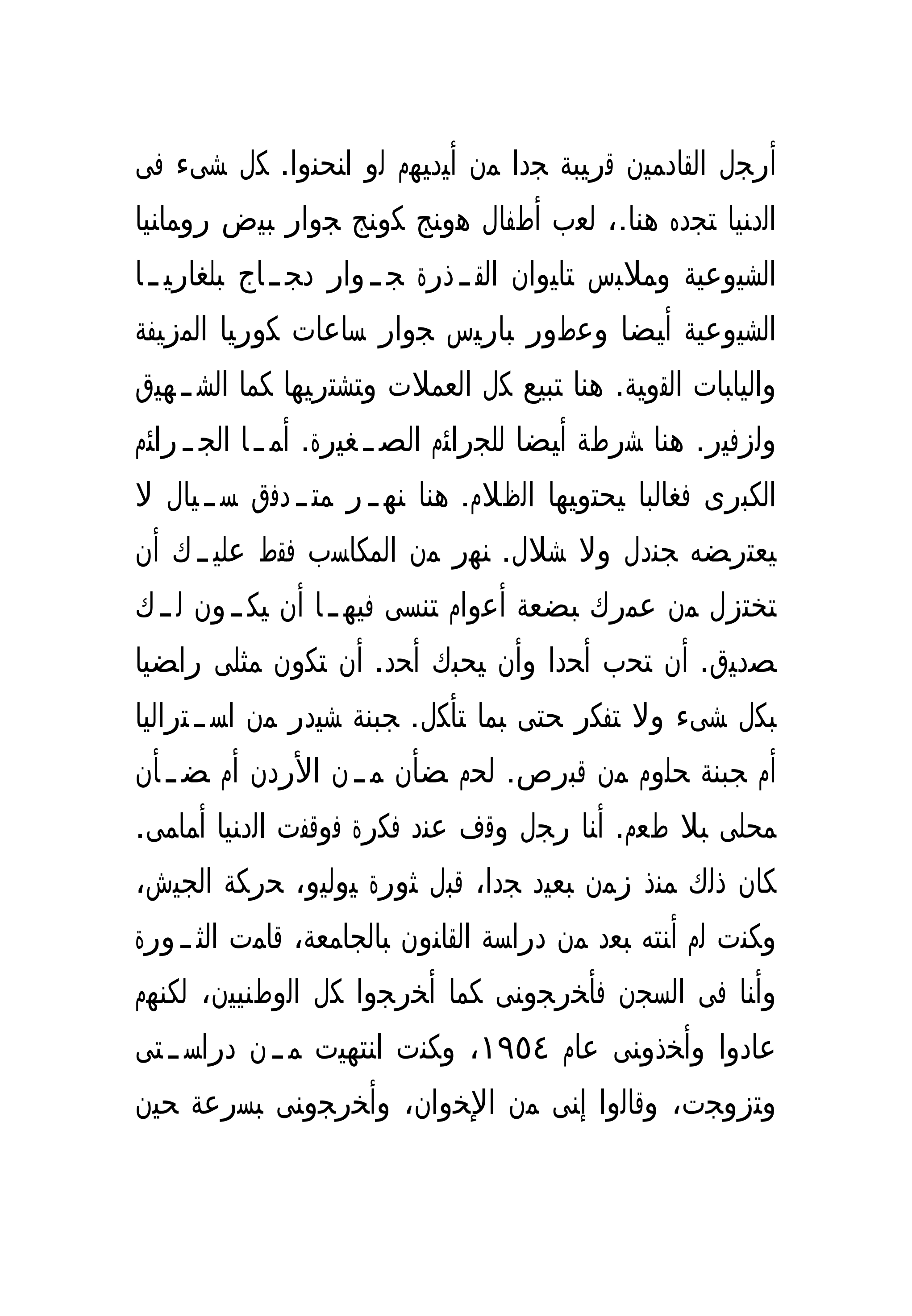


عصفورا صغيرا يود لو ينتفض فلا يستطيع، عصفور دافئ ينبض الدم متسارعا فى عروقه. حالفنى الحظ وتركت يـدها فى اللحظة التى سبق دخول خالد إلينا. لم يقابلنى حين ذهبت. كان عائدا لفوره من رحلة قصيرة للرياض. لم يدخل إلينا قط فى أثناء الدرس. فعلها اليوم ودخل يصافحنى فارتعشت كما لو كان رآنى بالفعل. احتجت إلى وقت حتى استجمع أنفاسى بعد أن أخرج، وكأنها كانت تعرف، كانت تكتب وتبتسم مـن خوفى وارتباكى.

لماذا حقًا لا أستطيع الابتعاد، ولا أطيق الاقتراب من واضحة بنت سليمان بن سبيل. إنها أصغر مـن كـل هـذا الغناء. "واضحة بنت سليمان بـن سـبيل" عـادت سـيرتها الأولى. اليوم ضبطت متلبسة مع المصرى إسماعيل خضـر موسى وسترجم وسرجم. لن يرحل من البلاد. سيلقى به من طائرة إلى صحراء الربع الخالى. مصرى ملعون مثل رئيسه الذى يدعو عليه المسلمون ليل نهار أن يمـوت لأنـه وطـأ القدس بقدمه المدنسة، وجلس مع اليهود الذين أمرنـا ا أن نقتلهم حيث نثقفهم يا أرحم الراحمين. يا صالح سنيور الثقيفى أغثنى بفيلم آخر. وذهبت إلى صالح، وكان غالـب وحـده

الموجود،وكان يبكى، وصالح يسبه، يا صالح إنه ولد مسكين هزلان فقير ممزق الثياب. يا أستاذ أنـت لا تتـدخل، هـذا الملعون لا مسكين ولا فقير. هذا مصاب بزهرى يا أسـتاذ. انظر إلى قدميه.. ملأ جمسه كله ولا يقول الكلاب. لقد مزقت كل الشرائط ها هى أكوام أمامك ورفعت الفيديو التليفزيـون من الغرفة. هؤلاء الأوساخ يريدون قتلى. اخـرج يـا أخـا القحبة. غالب يبكى بحرقة، وصالح يدفعـه أمامـه بعصـا صغيرة حتى لا يلسمه ولا يلمس ثيابه ويعود يكلمنـى. هـذا طرده أبوه من المنزل حين عرف القصة. حطم التليفزيونات السبعة التى فى بيتهم وحطم أجهزة الفيديو. أبـوه مجنـون اشترى لكل ولد من أبنائه تليفزيونًا وفيديو حتى لا يتنافسـو ولا يتهاوشوا. المشكلة يا أستاذ أن هـذا الكلـب لا يكتفـى بالأفلام الجنسية، والزهرى يا أستاذ مرض خطير. هـل لا تعرف ذلك؟ أعرف يا صالح وهيا بنا نبدأ الـدرس. لا درس اليوم يا أستاذ. لا تخف. راتبك محفوظ. من قال يا صالح إنى أستطيع أن آخذ راتبا بلا عمل؟ ومن قال يا أستاذ إنى أحتاج الدرس. أنا أنجح. يأتى المدرسون قبـل الامتحانـات إلـى مخوننا، يأخذون البطانيات وأثواب الحرير والصوف وأنجح.


لا تنظر إلى عمرى. أنا أرس بإرادتى. بـإرادتى لا أذهـب للامتحان. أعطى المدرسين ما يريدون وآخذ مـا أريـد ولا أذهب للامتحان. أبى رجل حمار يأتى لى كل شهر بمـدرس فأطرده. أنت أحببتك وسأطلب من أبى أن يعطيك راتبا أكبر بشرط أن لا تدرس لى يا أستاذ. اجلس نتحدث فى أى شىء إلا الدرس. ومشت والظلام فوق الدنيا أكثر من كل وقـت، وركبت سيارتى ولم أنتبه للطريق الـذى اخترتـه، ورأيـت المنزل الموقوف به سيد الغريب مظلما كله خارجه وداخله، ومغلق الأبواب والنوافذ، ولا صـوت إلا صـوت ذؤابـات النخيل العالى يحركها الهواء برتابة. ومشيت فوجدت نفسـى فى شارع ضيق لكنه مضاء بمصابيح صغيرة على أبـواب البيوت، ورأيت غالب فى أحد الأركان ممدودا، وقـد أسـند ظهره إلى جدار بيت قديم، ومد ساقيه على الأرض، وحوله وفوق ساقية تتقافز القطط، فأحسست بالقرف من كل شـىء، وفى البيت لم أوافق سعيدا ووجيها وأستمر فى المهزلة. قلت لوجيه ما كان عليك أن ترشحنى للدرس لمثل هـذا الولـد، وقلت فى المدينة أنسى فقابلنى البلتاجى. قال: هنا يا صديقى غسماعيل تقذف المطارات بالأحلام والمنى تتـدحرج أمـام



أرجل القادمين قريبة جدا من أيديهم لو انحنوا. كل شىء فى الدنيا تجده هنا.، لعب أطفال هونج كونج جوار بيض رومانيا الشيوعية وملابس تايوان القـذرة جـوار دجـاج بلغاريـا الشيوعية أيضا وعطور باريس جوار ساعات كوريا المزيفة واليابانات القوية. هنا تبيع كل العملات وتشتريها كما الشـهيق والزفير. هنا شرطة أيضا للجرائم الصـغيرة. أمـا الجـرائم الكبرى فغالبا يحتويها الظلام. هنا نهـر متـدفق سـيال لا يعترضه جندل ولا شلال. نهر من المكاسب فقط عليـك أن تختزل من عمرك بضعة أعوام تنسى فيهـا أن يكـون لـك صديق. أن تحب أحدا وأن يحبك أحد. أن تكون مثلى راضيا بكل شىء ولا تفكر حتى بما تأكل. جبنة شيدر من اسـتراليا أم جبنة حلوم من قبرص. لحم ضأن مـن الأردن أم ضـأن محلى بلا طعم. أنا رجل وقف عند فكرة فوقفت الدنيا أمامى. كان ذلك منذ زمن بعيد جدا، قبل ثورة يوليو، حركة الجيش، وكنت لم أنته بعد من دراسة القانون بالجامعة، قامت الثـورة وأنا فى السجن فأخرجونى كما أخرجوا كل الوطنيين، لكنهم عادوا وأخذونى عام ١٩٥٤، وكنت انتهيت مـن دراسـتى وتزوجت، وقالوا إنى من الإخوان، وأخرجونى بسرعة حين

عادوا إلى ملفى عندهم، ملف الملكية الذى تسلمته الجمهورية الفتية. وعادوا وأخذونى عام ١٩٥٦ لأشـهر قليلـة وقـالوا شيوعى، وأخرجونى قبل العدوان بأيام، فذهبت أقاتـل فـى القنال، وعدت بعد الحرب وسلّمت سلاحى. أتعرف؟ قليلـون هم من سلموا سلاحهم. الكثيرون باعوه أو هربوه. وعـادوا وأخذونى عام ١٩٥٧ ولم أخرج بعد ذلك إلا عـام ١٩٦٤. رأيت ابنى الذى صار عمره تسع سنوات، وابنتى التى صار عمرها سبعا وأخذونى عام ١٩٦٦ وأخرجونى بعد النكسـة بشهور وأخذونى عام ١٩٧٠ وانتهى دور جمال عبد الناصر معى وتسلمنى السادات الذى أفرج عنى وعن غيرى وتركنى فى الشوارع أربعة أعوام ثم أخذنى عام ١٩٧٥ فى أول أيام السنة وأخرجنى بعد ثلاثـة أشـهر ليأخـذنى عـام ١٩٧٧ ليخرجنى وأخرج أنا من مصر كلها.. هل كنت أحتاج حقًـا إلى كل هذا الوقت لأكره الوطن؟ أم فقط جئت لأن زوجتـى حولت الشقة إلى روضة أطفال استعاضت بهم عنى، وعـن ولدنا الذى يعيش فى السويد الآن، وابنتنـا التـى تزوجـت مدرسا معارا إلى الجزائر؟ أنا لا أعرف لماذا أتيت إلى هذه البلاد دون غيرها. كنت أدخل وأخرج من السجون أكثر قوة

رغم كل ما لعلك سمعت عنه، من مآسٍ بالسجون، زوجتـى فقط هى التى انكسرت، تدهورت وشابت بسرعة وشـاخت. المرأة كالأرض بلا رى تتشقق لا تسألنى لماذا لم أسافر إلى أوروبا كما فعل الكثيرون، ولا لماذا لم أذهب إلى بلاد عربية أخرى وآخذ صحيفة أوإذاعة وأشتم .؟

وبكى. ولم يتوقف "ما زوشى غبى يستمرئ العذاب". رفضت أن أتعاقد مع أحد لأظل معرضا للترحيل. مـريض أنا، متفوق فى مرضى، يستحيل علاجى.. أم ترانى أود فعلاً أن يعيدنى إلى بلادى أحد. أن يجبرنى أحد على حب الـبلاد؟ لم أكن شيوعيا أبدا يا أخ إسـماعيل ولا طبعـا كنـت مـن الإخوان. بالقوة أدمنونى السجون فقط لأنى بدأت حياتى بحب الوطن".

وأجهش فى البكاء بصوت عال، فقمت مـن فـوق سريرى مرتبكًا وجلست جواره فوق سريره.

- هون عليك يا أستاذ كامل.

- هل تعرف لو عرفوا عنى شيئًا هنـا كـم سـيفًا سيجرى فوق عنقى؟ هنا النملة لو شردت من طريقها سـتجد

فوقها ألف قدم. هنا لو أذن الديك قبل الفجر ما رأى فجرا بعد ذلك ولا صباح. هنا لافتة دانتى فوق الجحيم. لقـد فعلهـا السادات وضيعنا جميعا معه.. رجل واحد أضـاع أمـة. أى قطيع!؟

*****

لم أسمع البلتاجى بعد ذلك إلا قـرب الفجـر. نمنـا وأحسست قبل النوم بتعب لم أعهده اختلط آذان الفجر الـذى أيقظنى بنحيب مكتوم لم أتبين مصدره إلا بعد لحظات، ولـم أستطع النهوض للحديث معه مرة أخرى. خشيت أن أخجله، وظللت على وضعى نائما وعلى انتظام أنفاسى. تذكرت مـا فكرت فيه قبل أن أنام. القصة لها جوانب خفية لم يدل بهـا. ثم ما الذى حقًا يجعله يشعر كما لو كان هوالذى يقفـز مـن القطار تحت العجلات كلما قرأ رواية مالك حداد؟ لقد تمنيت لو حدثنى فى الرواية مرة أخرى،وددت لو قلت له إننى كنت مشروعا صغيرا لكاتب للقصة أيضا إلا أننى نسيت.

علقتنى رسالة أبى فى الدنيا بين السـماء والأرض، وابتلع الفضاء كل الكتب والأوراق والأقلام، لكنـه داهمنـى بحكايته. ياله من عاجز مسكين! إن أعظم ما أودعنى ا هو

النسيان. لولا نعمة النسيان لصرت مثله، فلكل منـا سـجن ضيع فيه شيئًا عزيزا حتى ولو لم يطل سجنى.

ونمت من جديد ورأيته. الديك الضخم رأسه هنـاك فى الأعالى وعرفه فى السماء السابعة وجسمه ممتـد إلـى الأرض وجناحاه يملآن فضاء الدنيا بالألوان الزاهية، ثم راح يضرب بجناحيه فيندفع الهواء البارد يكاد يجمدنى أنا الـذى أنظر إليه من أسفل فى فزع ثم يسكت فأكاد أغرق في بحـر العرق وأموت وأحس كما لو أن أحدا يمسك برأسى يضـعه فى برميل ماء فأختنق وأضرب بذارعى الهواء وفى اللحظة التى تكاد فيها الروح تَفر منـى يرفعنـى فتتـواتر أنفاسـى ويصيح الديك كوك كوك كوك سبحان الملك القدوس كـوك كوك كوك سبحان الملك القدوس وإذ برأس الديك يسقط فوق صدره ويندفع الدم يملأ الفضاء بلون أحمر وتغـرق الأرض فى الاحمرار وأسمع ضجة فى الخارج، فأصحو فزعا فـلا أجد البلتاجى ولا حقيبته. ترك لى فقط روايـة (لـيس فـى رصيف الأزهار من يجيب) وصوت عجلات القطار.

*****

(١٣)

هنا يمكن للإنسان أن ينسى كل شـىء. أدرك ذلـك جيدا. الوقت المترهل مثل الوقت المزحوم. الاثنان يغرقانك.

كان على صباح وصولى إلى تبـوك أن أبـدأ فـى تحرير استمارات الضمان الاجتماعى التى أحضـرتها مـن المؤسسة الرئيسية فى المدينة. لم أبق فى المدينة غير نهـار اليوم الثانى. ذهبت فى صـباحه إلـى المؤسسـة وأخـذت الاستمارات، وفى مسائه أخذت الطائرة عائدا.

كثيرا ما فكرت أنى سأصطدم بالبلتاجى مرة أخـرى فى الطريق، وربما فى المطار، لكن هيهات. كأنما كان حلما. والآن وأنا جالس فى غرفة مكتبى أملأ خانات الاسـتمارات ببيانات العمال لا يفارقنى وجهه. ووجدت نفسى أتوقف عـن العمل. أقف وأبتعد عن المكتب، وأدور فى الحجرة أعصـر ذهنى، لأتذكر أين رأيت وجه البلتاجى من قبل. فى الصحف. أجل فى الصحف المصرية. كان ذلك منذ سنة سنتين.. ربما

ثلاث. لا أذكر بالضبط. ورأيته أكثر من مرة. فى أى صفحة ولأى سبب؟ لا أذكر.

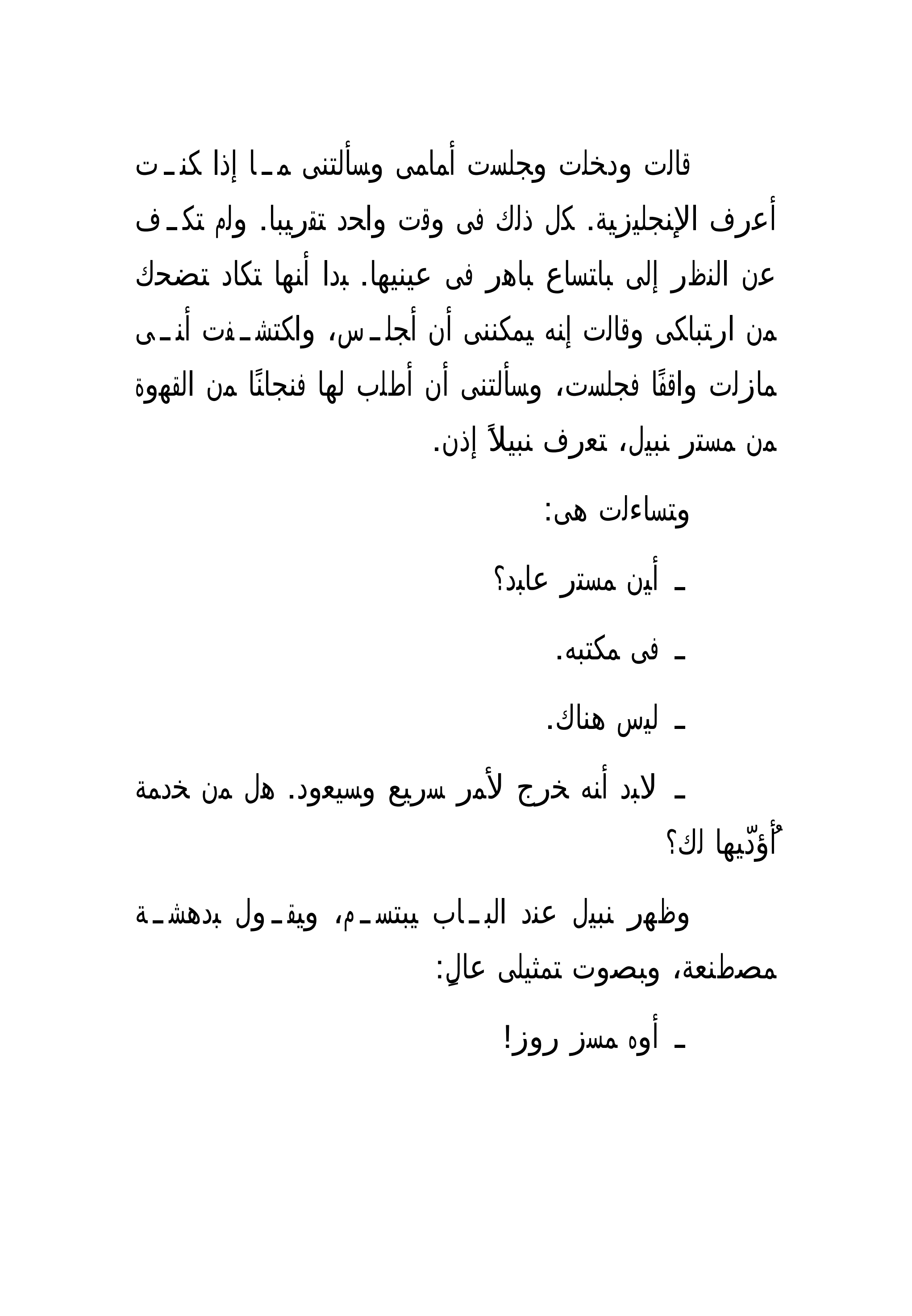
وعدت أجلس إلى مكتبى غير قادر علـى مواصـلة العمل. مكتوب إذن أن أنسى هذا الرجل مرتين "تبوك تنسيك أمك وأبوك" مثلٌ حقيقى هنا، لا يحتاج المرء إلى أكثر مـن دقائق مع منصور حتى أنسى كل شىء إلا منصورا. دقـائق مع نبيل فأنسى كل شىء إلا نبيلاً، أو أرشد كذلك ومنذر.

نظرة إلى اليمنى الذى سيأتى فـى موعـده يحـرك السواك فى فمه، أو موقف سخيف من عابد. لكن تبوك كانت أكرم.

أضاء باب الغرفة بوجهٍ متألق وشعر أشـقر حريـر وعينين زرقاوين باهرتين. امرأة سافرة الوجه، تقف بالباب، تنظر إلى بابتسامة واثقة. امرأة حقيقية ترتدى بنطلون الجينز الضيق وفوقه بلوزة حمراء الياقـة وبـولفر أزرق، وعلـى كتفيها وظهرها شال أبيض.

ووجدت نفسى أقف.

ـ جود مورنج.



قالت ودخلت وجلست أمامى وسألتنى مـا إذا كنـت أعرف الإنجليزية. كل ذلك فى وقت واحد تقريبا. ولم تكـف عن النظر إلى باتساع باهر فى عينيها. بدا أنها تكاد تضحك من ارتباكى وقالت إنه يمكننى أن أجلـس، واكتشـفت أنـى مازلت واقفًا فجلست، وسألتنى أن أطلب لها فنجانًا من القهوة من مستر نبيل، تعرف نبيلاً إذن.

وتساءلت هى:

ـ أين مستر عابد؟

ـ فى مكتبه.

ـ ليس هناك.

ـ لابد أنه خرج لأمر سريع وسيعود. هل من خدمة أُؤدّيها لك؟

وظهر نبيل عند البـاب يبتسـم، ويقـول بدهشـة مصطنعة، وبصوت تمثيلى عالٍ:

ـ أوه مسز روز!

ضحكت هى، وابتسمت أنا، ودخل هـو يصـافحها. أعطته يدها دون أن تتحرك، فأبقاها قليلاً فـى يـده وهـو يخاطبنى:

ـ روزمارى زوجة مستر لارى. أجمل أجنبية فـى البلاد.

ترك يدها، فغمزت لى بعينها، وهزت كتفها وسألتنى عما يقول.

ترجمت لها الكلام فضحكت وقالت:

ـ لأنى المرأة الأجنبية الوحيدة هنا.

ابتسمت وبدا لى الأمر سهلاً. هـذه سـيدة بسـيطة تعطيك الإحساس بالألفة. وسألت نبيلاً أن يعد لنا فنجانين من القهوة. ما كاد يخرج حتى فكرت كيف تعرف نبيـل حقًـا. مضى على ثلاثة أشهر هنا ولم أرها. هل تأتى فـى موعـد آخر بعد مواعيد العمل؟

ـ هل أنت جديد هنا مستر.. ؟

ـ إسماعيل. لى ثلاثة أشهر هنا.

ـ آسفة لم أرك. لقد سافرت إلى أمريكـا الأشـهر الثلاثة الماضية.

ـ هل تعملين هنا؟

ـ مستر لارى زوجى هو الذى يعمل. العمل ممنوع بالنسبة لى. أعمل بشكل خاص وسرى فى حضـانة مسـتر عبد ا .

ـ لا أعرف أن لمستر عبد ا حضانة.

ـ له حضانة مشهورة بالبلدة تديرها زوجته. كيف لا تعرف ذلك؟

وضحكت فأجبت:

ـ ربما لأنى أعزب.

واستمرت تضحك. وقالت إن زوجة مستر عبـد ا ضخمة جدا رغم أنه ضئيل للغاية، وهى لا تكف عن أكـل اللوز طول النهار، مع أن هذا خطر جدا على الصحة. ودخل نبيل بالقهوة وقبل أن يخرج سألها:

ـ أمريكا إذ جود روز؟

ـ جود نبيل. فيرى جود.

وضحكنا ثلاثتنا ثم خرج نبيل الذى احمـر وجهـه بشكل لافت للنظر. مضى وقت طويل ونحن نتحدث. حاولت هى أكثر من مرة الانصراف، وأنا أشجعها علـى انتظـار عابد، فتستمر جالسة، وأتمنى أنا أن لا يعود عابد، ولا يدخل مكتبى أحد، وإذا بالساعة صارت الواحدة، ولم أفطن حتـى لابتسام اليمنى الذى رأيته فجأة فتذكرت أننا لم نتبادل الابتسام اليوم، وتبادلناه على الفور. وإذْ بعابد يقف بالباب.

ـ هاللو روز.

هتف وهو يدخل يصافحها، فصافحته وهى جالسـة، ولمحت الضيق على وجهه، وقال:

ـ هلا أتيت إلى مكتبى ؟

وقفت وقالت:

ـ لابد أن أذهب الآن إلى الكامب، ليس لدى وقـت أكثر من ذلك. أحببت فقط أن أراكم.

وانطلقت خارجة بعد أن صـافحتنى، ولوحـت لـه بكفها. وسألنى عابد فجأة.

- ألم يسأل عنى أحد؟

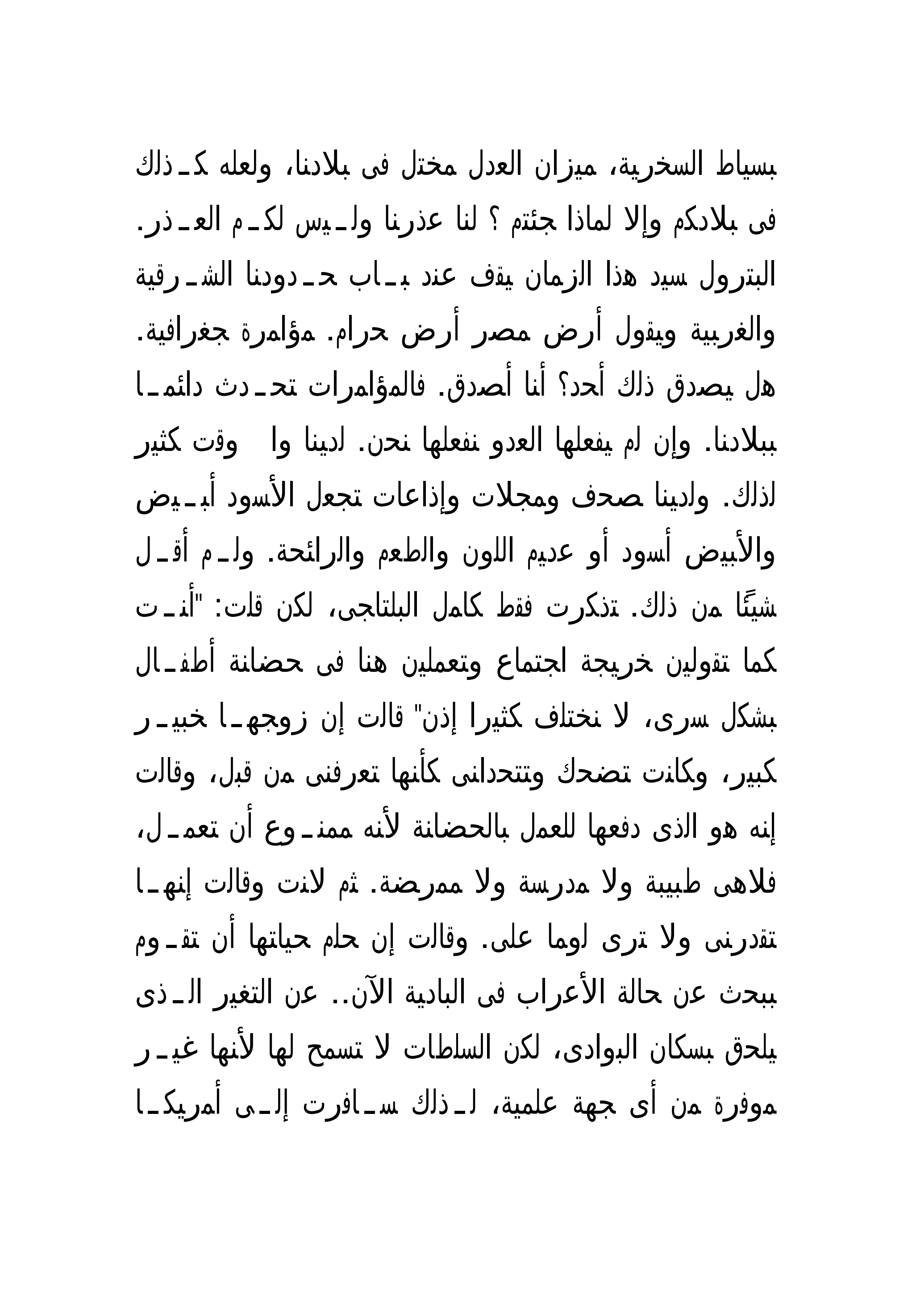
- روز.

لا أعرف كيف قلت ذلك. نظر إلى شزرا، وخـرج إلى غرفته، وأنا أشعر بالأسف الحقيقى على إجـابتى بهـذا الشكل الذى لم أخطط له.

*****

على المكتب الاستمارات السخيفة التى كنت أملأهـا وأريد ألقى بها كلها فى الباحة.

روز مارى اسم جميل بحق. لايزال فى الغرفة شـذا عطرها. يا إلهى! كم هى خفيفة كريشة، منتشية كعصـفور! مجنونة صريحة دهشت لكل إجاباتى. خريج فلسفة، ويعمـل مدرسا للغة الإنجليزية فى مصر، وهنا مسئول عـن شـئون الأفراد! أى خلط ؟ لكن هذه حالتى بالضبط وأنا فيهـا غيـر متفرد بين المصريين. ستجدين هنا عمال محارة وقيشانى من حملة المؤهلات العليا. هذه حالة مؤسفة لكن هذا ما يحـدث على كل حال. ولم أشأ الاستطراد. هذا وقت الانكشارية فيـه طردت مهن الدرجة الثالثة والرابعة العقول وساقتها أمامهـا



بسياط السخرية، ميزان العدل مختل فى بلادنا، ولعله كذلك فى بلادكم وإلا لماذا جئتم ؟ لنا عذرنا وليس لكم العذر. البترول سيد هذا الزمان يقف عند باب حدودنا الشرقية والغربية ويقول أرض مصر أرض حرام. مؤامرة جغرافية. هل يصدق ذلك أحد؟ أنا أصدق. فالمؤامرات تحدث دائما ببلادنا. وإن لم يفعلها العدو نفعلها نحن. لدينا وا وقت كثير لذلك. ولدينا صحف ومجلات وإذاعات تجعل الأسود أبيض والأبيض أسود أو عديم اللون والطعم والرائحة. ولم أقل شيئًا من ذلك. تذكرت فقط كامل البلتاجى، لكن قلت: "أنت كما تقولين خريجة اجتماع وتعملين هنا فى حضانة أطفال بشكل سرى، لا نختلف كثيرا إذن" قالت إن زوجها خبير كبير، وكانت تضحك وتتحدانى كأنها تعرفنى من قبل، وقالت إنه هو الذى دفعها للعمل بالحضانة لأنه ممنوع أن تعمل، فلاهى طبيبة ولا مدرسة ولا ممرضة. ثم لانت وقالت إنها تقدرنى ولا ترى لوما على. وقالت إن حلم حياتها أن تقوم ببحث عن حالة الأعراب فى البادية الآن.. عن التغير الذى يلحق بسكان البوادى، لكن السلطات لا تسمح لها لأنها غير موفرة من أى جهة علمية، لذلك سافرت إلى أمريكا

واستطاعت أن تأتى بخطاب من جامعة شيكاغو إلى السلطات لتسهيل مهمتها، ولم تدر أنه ستقابلها مشكلة أخرى. طلبـت السلطات أن يكون معها "محرم" فى تحركاتهـا. لـيس مـن المعقول أن تسافر امرأة وحيدة بين البوادى، ومسـتر لارى لن يترك عمله ليفعل ذلك، والوحيد الذى يمكن أن يسـاعدها هو "جورج" أخوها الذى لم يوافق على الحضور من أمريكـا للعيش فى بلد تجلد فيه الناس بسبب الخمر. ضـاعت منهـا الفرصة إلى الأبد. هل رأيت البادية هنا؟ سألتنى. لا. رأيـت شحاذًا نزل البلدة فى يوم عيد. لم أقل ذلك. ودعتنى لزيارتها وزوجها فى "الكامب" لماذا حقًا وجهت لى هذه الدعوة ولـم يسبق أن عرفتنى من قبل؟

*****

رأيت اليمنى جالسا والسواك فى فمه، ورأيت بسمته اليوم أجمل، كانت بيضاء تغطى الدنيا بدفء جميل. لقد بـدأ البرد يشتد بالليل هذه الأيام، وصارت الشمس تصحو معنـا مرهقة تصعد إلى السماء فى مهل، ولا يبدو أنهـا امتلكـت الفضاء إلا عند الظهيرة. لكن البرد بالنهار ليس قارسا علـى

أى حال. تركت مكتبى والبهجة التى تركتها روز فى الحجرة لا تزال تضحك فى وجهى، ودخلت البوفية فوقف نبيل فزعا.

ـ لقد خرج عابد إلى البلدة. كيف ستجلس هنا ؟

ـ ما الذى يمكن أن يحدث. تليفون غبى لطالب أكثر غباء. هل لديك مقعد آخر؟

كان حين دخلت يجلس على المقعد الوحيد، يقرأ فـى مجلة "الوطن العربى"، ويوشك أن "ينكفئ" علـى الصـفحة. أدركت أنه ضعيف النظر كثيرا قال:

ـ اجلس أنت على هذا المقعد وسأجلس أنـا علـى الأرض.

تكلم وقعد فى الحال، والمجلة لا تـزال فـى يـده. جلست وقال:

ـ بوفيه على قد الحال. لا تلمنى.

كان البوفيه صغيرا للغاية وقذرا، يذكرك ببوفيهـات المصالح الحكومية فى مصر.

دولاب معدنى صدئ صغير معلق على الحائط بـلا أبواب، وعلى أرففه الثلاثة علب وبطرمانات للشاى والسكر والقهوة، وتحت الدولاب بوتاجاز مسطح فوق منضدة خشبية، يبدو أن نبيل هو الذى صنعها من خشب قديم غير مهـذب، وعلى المنضدة أكواب وفنجانان، وفى الـركن الآخـر مـن البوفيه ثلاجة "وستنجهاوس" كبيرة وبيضاء.

ـ شىء غريب ياأخى! يشـتمون السـادات شـتيمة فظيعة. كل المجلات هنا تشتم السادات.

ـ هل تحب السياسة؟

ـ أبدا. عابد يشترى المجلات ولا يقرأها فأقرها أنا.

ضحكنا وعاد يتكلم:

ـ يقول إنه سبب حرب لبنان، وضـياع فلسـطين، وعميل للأمريكان، أنا أعرف أنه عميل للأمريكان. كل شىء فى مصر أصبح أمريكانيا. ثلاجات وغسالات وملابس. أنـا مثلاً لن أشترى شيئًا من هنا لأن كل شىء هنـاك. وسـكت لحظة ثم ضحك وضرب جبهته بيده ـ إنهـم لا يقصـدون ذلك. عميل يعنى جاسوسا.

وضرب الأرض بالمجلة وتركها ووقف يسألنى:

ـ تشرب شاى؟

ـ قهو.

أجبت وأنا أضحك وتناولت المجلة أقلب صفحاتها بينما انشغل هو بإعداد القهوة التى قدمها لى وقال:

ـ الغريب أنك حين ترى السادات فى التليفزيون يصعب عليك. يذكرك أحيانًا بفؤاد المهندس.. أى وا .. لكن .. فلسطين ضاعت من زمان، وحرب لبنان قائمة من زمان أيضا، أمعقول أن السادات هو السبب؟ بلا سياسة.. بلا نيلة.

وتناول المجلة التى كنت وضعتها على الأرض، ومزقها ووضعها فى سلة المهملات وأنا أضحك حتى دمعت عيناى.. وسكتنا طويلاً حتى قال:

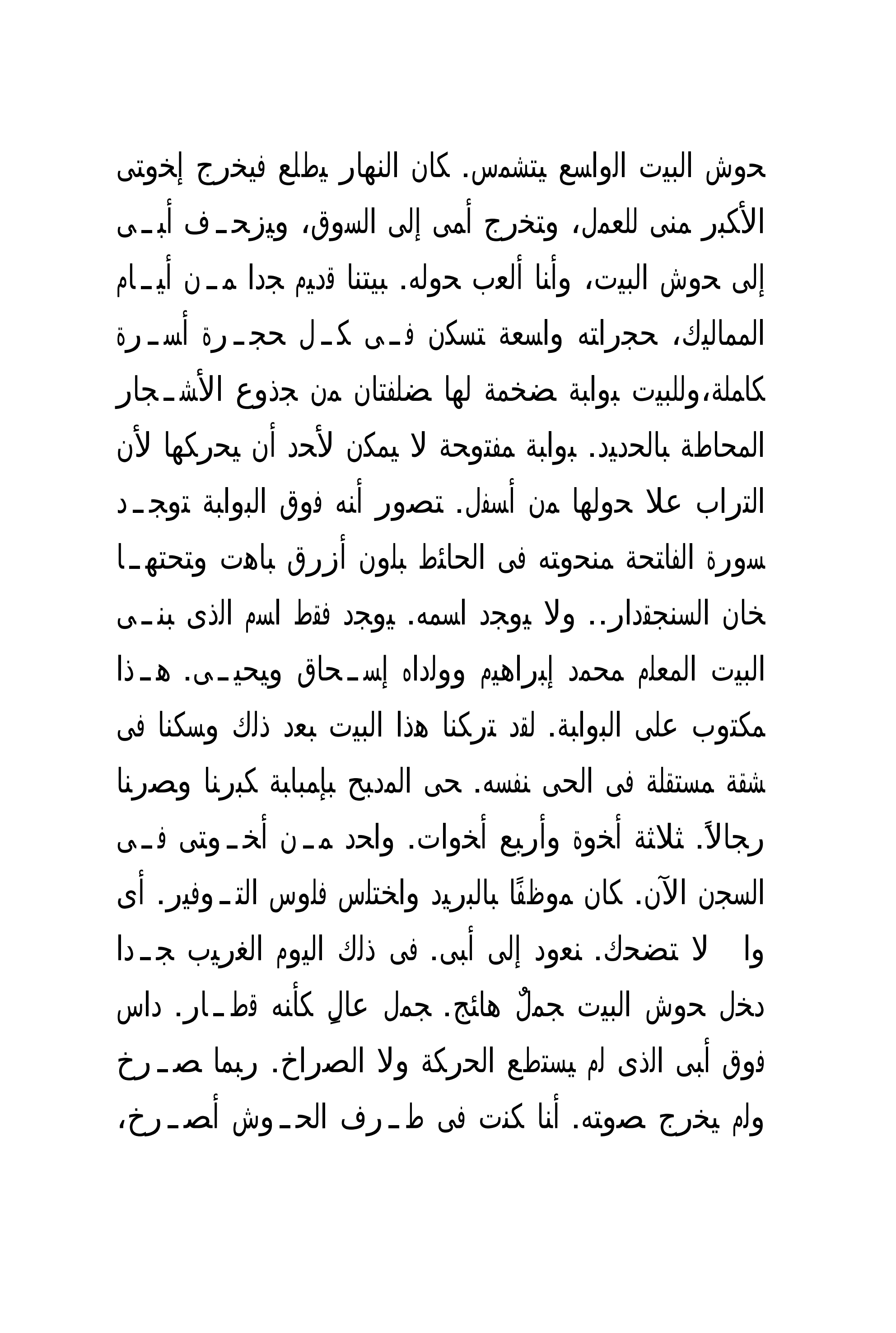
ـ والدى ا يرحمه كان له فى السياسة.

ـ أبوك؟

ـ أظن المسألة واضحة يا إسماعيل.

ضحكنا وأنا لم أكن أقصد شيئًا. أدهشـنى حضـور بديهته وطريقته فى الكلام اليوم.

ـ زمان. زمان جدا. كان أبى من الإخـوان الـذين اشتركوا فى حرب فلسطين. عاد مقطوع الذراع والساق. أى وا ، الساق اليمنى والذراع اليسرى. شىء لن يصدقه أحـد. لكن هذا ما حدث ـ وبدا جادا فجأة ـ كان سببا فى تعاسـة الأسرة. لا عمل ولا قدرة ولا أحد يسأل. قامت الثورة ولـم يبق للإخوان قيمة. هكذا كان يقول أبى. وهكذا حدثتنى أمـى فيما بعد. أنا ولدت يوم قامت الثورة. اليوم نفسه. لا تسـألنى كيف استطاع أبى ذلك فأنا أشبهه تماما وأكثر أخواتى شـبها له. صورته لدينا معلقة للآن. كان لى خال مجنون يسـاعدنا ويأخذنى إلى الإذاعة فى عيد الثورة، بعد أن أصبحت قـادرا على المشى والكلام. كان هناك أطفال كثيرون يذهبون فـى اليوم نفسه. أطفال كثيرون جدا ولدوا يـوم الثـورة. كـانوا يذيعون أسماءنا ويعطون كل طفل باكو شـيكولاته ونصـف جنيه. أمى قالت جنيه. كان خالى يأخذ الفلـوس ويعطينـى الشيكولاته. ما علينا. لا تضحك من فضـلك. هـذه حقـائق ليست قصصا صدقنى. جاء يوم كان أبى كعادته ممددا فـى



حوش البيت الواسع يتشمس. كان النهار يطلع فيخرج إخوتى الأكبر منى للعمل، وتخرج أمى إلى السوق، ويزحف أبى إلى حوش البيت، وأنا ألعب حوله. بيتنا قديم جدا من أيام المماليك، حجراته واسعة تسكن فى كل حجرة أسرة كاملة،وللبيت بوابة ضخمة لها ضلفتان من جذوع الأشجار المحاطة بالحديد. بوابة مفتوحة لا يمكن لأحد أن يحركها لأن التراب علا حولها من أسفل. تصور أنه فوق البوابة توجد سورة الفاتحة منحوته فى الحائط بلون أزرق باهت وتحتها خان السنجقدار.. ولا يوجد اسمه. يوجد فقط اسم الذى بنى البيت المعلم محمد إبراهيم وولداه إسحاق ويحيى. هذا مكتوب على البوابة. لقد تركنا هذا البيت بعد ذلك وسكنا فى شقة مستقلة فى الحى نفسه. حى المدبح بإمبابة كبرنا وصرنا رجالاً. ثلاثة أخوة وأربع أخوات. واحد من أخوتى فى السجن الآن. كان موظفًا بالبريد واختلس فلوس التوفير. أى وا لا تضحك. نعود إلى أبى. فى ذلك اليوم الغريب جدا دخل حوش البيت جملٌ هائج. جمل عالٍ كأنه قطار. داس فوق أبى الذى لم يستطع الحركة ولا الصراخ. ربما صرخ ولم يخرج صوته. أنا كنت فى طرف الحوش أصرخ،

والجمل يدوس فوق أبى مرة ومرة ومرة. يتراجـع ويهجـم على أبى الذى يرفع ذراعا واحدة لا تصل إلى عنق الجمـل وساقاً واحدة لا تصل إلى بطنه. لقد خرجـت النسـاء مـن الحجرات، والأطفال، ووقف الجميع يصرخون. لم يكن هناك رجل واحد. كل الرجال كانوا قد خرجوا يعملون فى المـذبح القريب. وفجأة قفز إلى الحوش خمسة من الرجال معفـرين منكوشى الشعر كأنهم الهنود الحمر يمسكون حبالاً وسواطير وسكاكين، لكنهم وقفوا مذهولين. كانوا هم أصحاب الجمـل، وكان الجمل يبتعد عن أبى وعلى خطمه زبد كثيـر، وأبـى سكن ولم يعد يرفع ساقًا ولا ذراعا. وقف الجمل يتنفس متعبا ، ثم أناخ بهدوء على الأرض والرغاء على خطمـه ينثـال على التراب ثم مد عنقه كمن ينـام وانقلـب علـى جانبـه، والرجال الهنود الحمر تقدموا منه بحذر، وعقروه من رقبته، وجروا إلى الخلف، لكن الجمل لم ينهض ولم يهج. فقط رفس رفستين وسكت مثل أبى.

وسكت نبيل طويلاً. أطرق ينظر إلى الأرض ويخفى دمعا يحاول الانسياب، ثم رفع إلى وجهه وهو يمسحه بكفيه، وابتسم وقال:

- عملت بنصيحتك. لم أرسل لخطيبتي شيئًا هذا الشهر. لم يصلني منها خطاب بعد . أيضا لم أرسل لأمي ولم يصلني منها خطاب.

*****

عدت إلى حجرتي أشعر أن شيئًا ثقيلاً فوق كتفي يكاد يحني ظهري. وكأن اليمني الجالس في الشمس ينتظر نظرتي أبتسم. لم أبتسم وكدت أقترب منه. أود لو صرخت فيه هاتفًا: لماذا تخايلني كل يوم بابتسامتك البلهاء؟ من الذي أعطاك حق الجلوس بلا عمل؟ ماذا تعرف هنا عني حتى تبتسم لي؟ لكنني دخلت الغرفة وسمعت صوت سيارة تدخل الباحة مسرعة. ليكن من يكون فيها. لدي إجابة جاهزة على السؤال السخيف. دخل الغرفة كان عابدا ومعه شاب مصري يرتدي بدلة أنيقة، وله وجه حسن، ونظارة بيضاء، وشعر أسود مهذب، ويحمل حقيبة سمسونايت لامعة.

لم يسألني عابد عن شيء. جلس خلف المكتب المجاور للخازنة، وجلس الشاب الأنيق أمامه، وجلست أنا إلى مكتبي.

ـ الأستاذ إسماعيل زميلنا.

قال عابد للشاب الذى قام يصافحنى بدماثة ثم جلس.

وخاطبنى عابد:

ـ الأستاذ عبد الحميد مندوب بنك الدلتا جاء إلى هنا لترويج سندات بنكية، هل تحب الاشتراك فيها ؟

ـ ليس الآن.

ـ أنا كنت أعرف ـ وخاطـب المنـدوب ـ أنـا سأشترى بعشرين ألف دولار.

قال ذلك ونظر إلى ، وفتح المندوب الحقيبة يخـرج أوراقه فقمت وتركت المكان كله. كان عابد بالبلدة ويستطيع إنهاء الشراء هناك، لكنه أتى بالمندوب ليرد لى ما تصور أنه إهانة من روز مارى التى جاءت تسأل عنه فجلست معـى، ووجهت لى الدعوة أمامه، ولم تذهب معه إلى حجرته.


*****

أخذتنى قدماى إلى الجراج. ورآنـى أرشـد ونحـن نشرب الشاى أحملق فى طبعة جريـدة (الشـرق الأوسـط) الإنجليزية الموضوعة على المنضدة بيننا.

ـ لا عليك مستر إسـماعيل. هـذه مشـاكلنا فـى باكستان.

قال ولم يأخذ الجريدة ولم يعتذر عن وجودهـا فـى العمل. لم يعد يخشى جانبى. فى الجريدة مقال يشغل مساحة كبيرة عنوانه "الرأى العام يضغط من أجل إنقاذ بوبو". وكنت أعرف من الصحف والإذاعات أن بوبو ينتظر محاكمة ثانية بعد أن قدم التماسا بإعادة النظر فى حكم الإعدام. وقال:

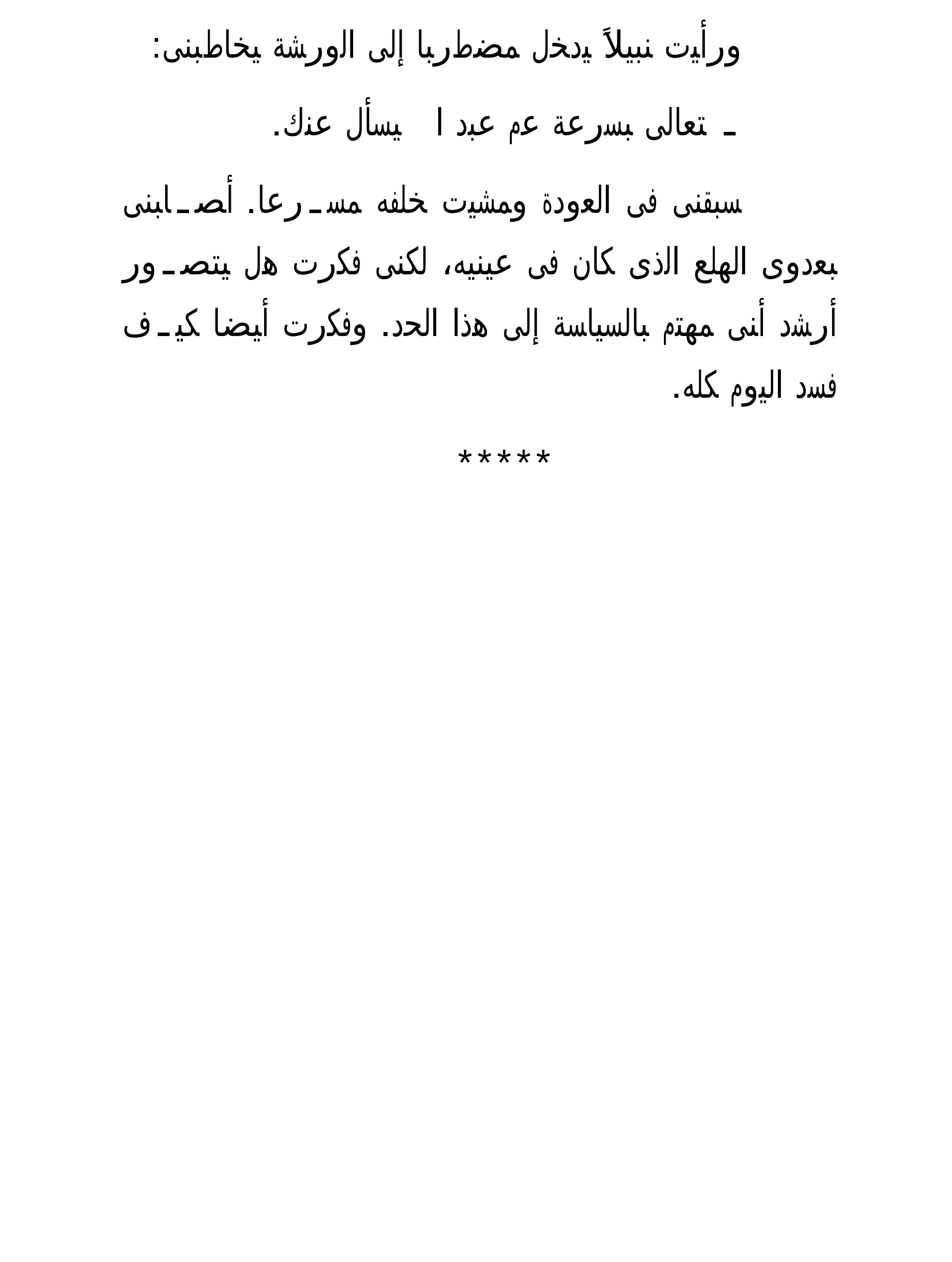
ـ ضياء الحق يطبق الشريعة الإسلامية الآن. إنـه يستجدى المملكة السعودية مستر إسماعيل.

سألته :

ـ هل تعتقد أنه سيعدم بوبو فعلاً ؟

أجاب:

ـ سيقتله. ولو استطاع أن يقتله مرتين لفعل مسـتر إسماعيل.



ورأيت نبيلاً يدخل مضطربا إلى الورشة يخاطبنى:

ـ تعالى بسرعة عم عبد ا يسأل عنك.

سبقنى فى العودة ومشيت خلفه مسـرعا. أصـابنى بعدوى الهلع الذى كان فى عينيه، لكنى فكرت هل يتصـور أرشد أنى مهتم بالسياسة إلى هذا الحد. وفكرت أيضا كيـف فسد اليوم كله.

*****

(١٤)

اشتد البرد. اليوم هو الثانى والعشرون من ديسمبر. فى الصباح نجد المياه فى الحنفية مجمدة. هذه حالة لا تحدث إلا فى البيوت العربية المكشوفة التى يظل الطل ينـام فـى ردهتها طول الليل. المشى فى الردهة الصغيرة من الغرفـة إلى دورة المياه كأنه سباحة فى بحر من الـثلج. التليفزيـون الآن له طعم مختلف، لا يذكرنى بأن الدنيا أكبر مما حـولى، يشعرنى بالدفء، نشاهد برامجه فى غرفة فاروق الخالية.

- لسنا فى حاجة إلى شريك رابع.

قال وجيه.

- نجعل غرفته غرفة معيشة.

أردف سعيد. انقطعت أخبار فاروق تماما. لم يرسل إلينا ولم يأت له ذكر فى خطابات أسرتى، ومضـت ثلاثـة أشهر هى مدة الفيزا التى خرج بها. لن يعود.

نقلنا إلى غرفته منضدة جعلناها سفرة وبعض مقاعد وتركنا سريره كما هو. أحرص أن يكون صوت التليفزيـون عاليا ويدهش سعيد ووجيه. أقول إن موجات الصوت تتزاحم موجات البرد وتطردها من الغرفة، يقولون إننى داخل علـى مرحلة من الجنون، ونضحك، فى السادسة والنصف صباحا أغادر البيت. أجد سيارتى أمام الباب مغسولة بالندى.

وكل يوم تملأ الفضاء شَبورة كثيرة لا تنقشـع قبـل التاسعة. بعد أن أدخل إلى سيارتى مرتجفًـا وأغلـق بابهـا وأديرها. أنفث بخار الماء من فمى، وأتذكر مباريـاتى مـع الأطفال فى طريقنا إلى المدرسة. من الذى ينفث بخارا أكثر لوقت أطول. كل يوم الآن أفعل ذلك وأضحك. اليوم اختلف. صحوت أشعر بغثيان. ذهبت إلى الحمام وبقيت فيه بعـض الوقت أستجيب للرغبة فى القىء ولا يحـدث. عـدت إلـى الغرفة غير قادر على الوقوف. تمددت فوق السرير وسحبت الغطاء فوقى أفكر ألا أذهب إلى العمل، لكنى ذهبت مضـت نصف ساعة وأنا متردد بين الذهاب والبقاء فوصلت متأخراً.



*****

أين أنا؟

ورأيت أشياء رمادية وأشياء بيضاء، وميـزت مـن بينها وجه عابد قريبا منى.

ـ لا تضع يدك فوق الجرح. لقد مرت بسلام.

سمعت صوتها: أذكر ذلك وأنا أستيقظ للمرة الثانية. هذا هو الدكتور وجيه يجلس على مقعد جوار رأسـى يبلـل شفتى بقطعة قطن مغموسة بالماء وأنا ممدد فوق السرير. فى الغرفة ثلاثة أسرة أخرى عليها ثلاثة رجال نـائمين لا أرى وجوههم. أنا فى المستشفى والوقت ليل فنور الغرفة مضاء.

ـ ماذا جرى يا دكتور؟

ـ لا شىء. داهمتك الزائدة الدودية فاستأصلناها.

ـ معقولة ......؟!

ـ ذلك يحدث للناس كل يوم.

ـ أنت الذى أجريت العملية ؟

ـ كنت تحب أحدا غيرى ؟

ـ لا .. أشكرك جداً.

وأحسست بأسفى. لم أقصد من سؤالى شيئًا وقال:

ـ لا تتحدث كثيرا. الأفضل أن تنام. نحن الآن فـى منتصف الليل. فى الصباح أحرص على أن تمشى قليلاً.

ثم وقف وقال:

يوجد طبيب نوبتجي وممرضـة إذا احتجـت شـيئًا جوارك زر جرس اضغط عليه.

هل تطلب شيئًا قبل أن أمضى ؟

ـ أين عايدة ....؟

ـ تعمل بالنهار. ألا زلت تذكرها ؟

أجاب وانصرف على الفور ولم ينس إطفاء النور.

*****

ظللت يقظًا فى ظلام الغرفة . أذكر كل شىء . لقـد وصلت إلى العمل متأخرا فأخبرنى عابد بغضب عم عبد ا وكيف اضطر هو إلى فتح مكتبى لإخراج دفتـر الحضـور للعمال. ولما سألته كيف فتح المكتب قال على أن لا أنسى أن المكتب والغرفة كلها كانت له من قبل.

حاصرنى الضيق وأحسست بمغص مفاجئ والرغبة فى القىء عاودتنى ، والغثيان كاد يفقدنى توازنى. أسـرعت إلى دورة المياه ووقفت أمام الحوض أفرغ ما فى جوفى، ولم أكن تناولت إفطارى بعد . خُيل إلى أن معدتى ستقفز مـن فمى، وتفصد عرق شديد على جسمى، واشتعلت الحرارة فى وجهى، ولم تعد قدماى تستطيعان حملى، فأمسـكت بحنفيـة الحوض بيدى الاثنين، ولم أدر بعد ذلك إلا وأنا أستيقظ فـى المساء فى المستشفى. لابد أنى سقطت على الأرض. زائـدة ملعونة بحق تلك التى أخذتنى بغتة بلا إنـذار. هـل يكـون الموت مختلفًا عن الوقت الذى مضى وأنا مخدر فيه لا أشعر بشىء ؟ لا أظن. الموت سهل إذن . لا أدرى لماذا فكرت فى ذلك الآن . ربما لأنه المستشفى الذى مات فيه فيليـب منـذ أيام. لقد ظللت أسرع خاف نبيل حين نادانى وأنا عند أرشد، وعند بوابة الشركة توقف وقال:

ـ مات فيليب . عم عبد ا حزين جدا.

ولم يقل شيئًا آخر. انحرف إلى البوفيه وتركنى أتقدم ببطء إلى غرفة عم عبد ا ذاهلاً. رأيت على وجهه غيظـًا مكتوما قال:

ـ سو لفيليب مكافأة نهاية الخدمة. شهر ونصف عن كل سنة وأخبرنى كم يصير له.

كنت أعرف أن فيليب أو غيره يستحق مكافأة نهايـة الخدمة شهرا فقط عن كل سنة، ولأنى أعرف أن فيليب يعمل منذ خمسة أعوام قلت:

ـ سبعة وثلاثون ألف ريال ونصف.

ـ أمتأكد ....؟

ـ أجل. كان ملفه على المكتب فى الصباح أمـامى أنقل منه بيانات لاستمارة الضمان.

ـ أجعلها خمسين ألفًا. قل على مسئولية المدير ـ ثم خاطب عابدا الذى كان يقف جوارى ـ وأنت تـذهب فـى الصباح بالمكافأة لزوجته. تنصرف الآن لتجهيز الصـندوق الذى ستشحن فيه الجثة إلى سيلان. تدفع ثمن الشحن وثمـن التذاكر لزوجته وأولاده واحجز لهم على أقرب طائرة.

ـ ألن يدفن هنا فى المملكة ....؟

تساءل عابد ، فصرخ فيه عم عبد ا .

ـ إيش يعنى يدفن بالمملكة ؟ لأنه أسلم ؟! يدفن فى بلده بين أهله.

وسكت فانصرفنا وأنا أشعر بالرثاء لعابد الذى يبـدو ملكيا أكثر من الملك.

دخلت غرفة مكتبى وجلست صامتًا. وإذ بمنصـور الذى يختفى كثيرا يظهر داخلاً والقرد فوق كتفه، ويقول بعد الجلوس:

ـ هه! كان يريد الحصول على الجنسية. كان يريـد البقاء فى المملكة. قتل نفسه. ذهب اليوم الشـيخ بالمحكمـة ليشهر إسلامه. انتهى كل شىء وحولوه إلى المستشفى للختان فمات.

ـ ختان ....؟!

ـ طبعا. ما فى ختان فى مصر؟

نظرت إليه غير قادر على التخلص مـن دهشـتى. واستطرد:

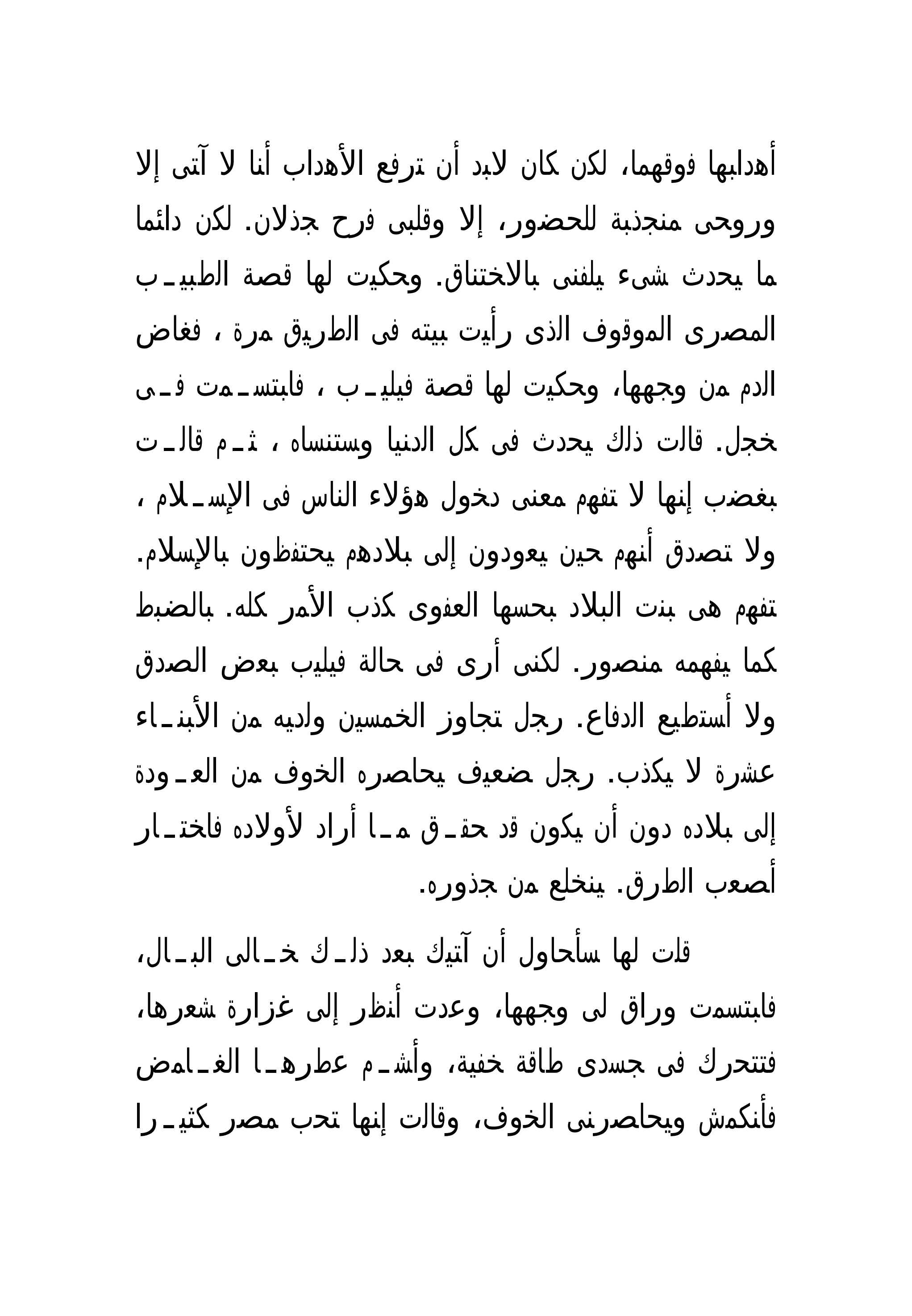
ـ ختان رجل مثل فيليب ليس سهلاً. عملية جراحية.

لم أكتف بما سمعت، ولم يكن أحد يعرف شيئًا آخر. فى البيت سألت وجيها فلم يقل أكثر من ذلك أيضـا وأنـا لا أصدق. وجيه الذى لا يريد أن يوضح لى كيف مات فيليـب يخفى عنى أمرا. وجيه هو الجراح الأول بالمستشـفى. مـا يدرينى أنه لم يخطىء وتسبب فى موت فيليب. لكـن هـل يخطىء طبيب مثله فى الختان ؟ لا أظـن أن روح الغـازى المتعالى صاحب التميز تجد لها وسيلة للتعبير فـى غرفـة العمليات . غرفة العمليات مثل غرفة العبادة ، يعمـل فيهـا الطبيب بإخلاص فى المريض الذى أسلم له روحه. أيكـون وجيه سيئًا إلى هذا الحد ....؟

صرت أنظر إليه ويتحاشى هو نظراتى. لعله فهم ما أفكر فيه، ولعل ذلك هو الذى جعله سألنى اليوم ما إذا كنـت أحب لو أجرى لى العملية أحد غيره.

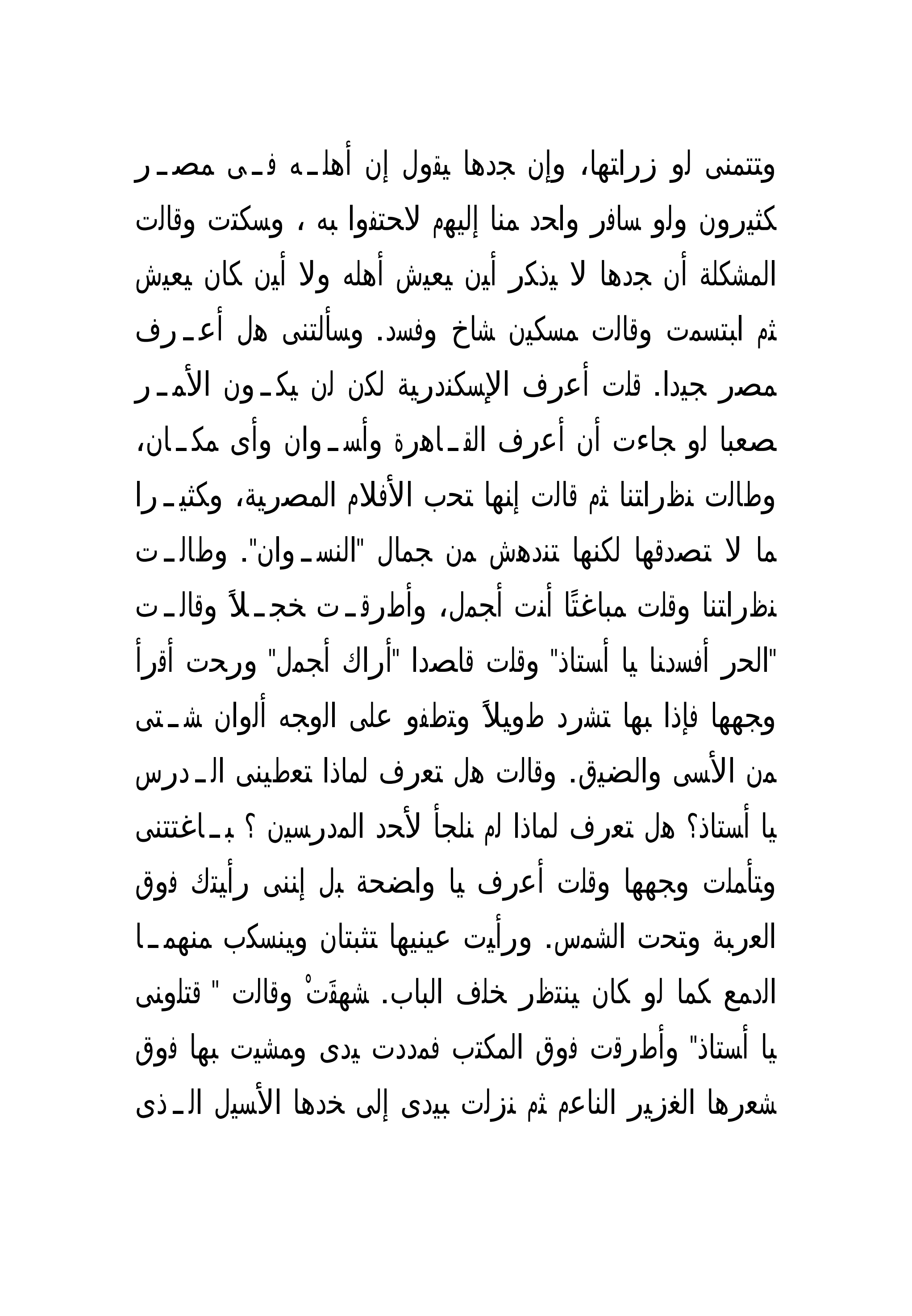
لم أستطع أن أتقبل موت فيليـب بسـهولة. صـرت عازقًا عن الكلام فى العمل وفى المساء ذهبت إلى واضحة، فقالت:

ـ لماذا تبدو كثيرا على غير ما يرام يا أستاذ. هـل تضايقك بلادنا إلى هذا الحد؟ سكت ، تأملت عينيها ، فأرخت



أهدابها فوقهما، لكن كان لابد أن ترفع الأهداب أنا لا آتى إلا وروحى منجذبة للحضور، إلا وقلبى فرح جذلان. لكن دائما ما يحدث شىء يلفنى بالاختناق. وحكيت لها قصة الطبيـب المصرى الموقوف الذى رأيت بيته فى الطريق مرة ، فغاض الدم من وجهها، وحكيت لها قصة فيليـب ، فابتسـمت فـى خجل. قالت ذلك يحدث فى كل الدنيا وستنساه ، ثـم قالـت بغضب إنها لا تفهم معنى دخول هؤلاء الناس فى الإسـلام ، ولا تصدق أنهم حين يعودون إلى بلادهم يحتفظون بالإسلام. تفهم هى بنت البلاد بحسها العفوى كذب الأمر كله. بالضبط كما يفهمه منصور. لكنى أرى فى حالة فيليب بعض الصدق ولا أستطيع الدفاع. رجل تجاوز الخمسين ولديه من الأبنـاء عشرة لا يكذب. رجل ضعيف يحاصره الخوف من العـودة إلى بلاده دون أن يكون قد حقـق مـا أراد لأولاده فاختـار أصعب الطرق. ينخلع من جذوره.

قلت لها سأحاول أن آتيك بعد ذلـك خـالى البـال، فابتسمت وراق لى وجهها، وعدت أنظر إلى غزارة شعرها، فتتحرك فى جسدى طاقة خفية، وأشـم عطرهـا الغـامض فأنكمش ويحاصرنى الخوف، وقالت إنها تحب مصر كثيـرا


وتتمنى لو زراتها، وإن جدها يقول إن أهلـه فـى مصـر كثيرون ولو سافر واحد منا إليهم لاحتفوا به ، وسكتت وقالت المشكلة أن جدها لا يذكر أين يعيش أهله ولا أين كان يعيش ثم ابتسمت وقالت مسكين شاخ وفسد. وسألتنى هل أعـرف مصر جيدا. قلت أعرف الإسكندرية لكن لن يكـون الأمـر صعبا لو جاءت أن أعرف القـاهرة وأسـوان وأى مكـان، وطالت نظراتنا ثم قالت إنها تحب الأفلام المصرية، وكثيـرا ما لا تصدقها لكنها تندهش من جمال "النسـوان". وطالـت نظراتنا وقلت مباغتًا أنت أجمل، وأطرقـت خجـلاً وقالـت "الحر أفسدنا يا أستاذ" وقلت قاصدا "أراك أجمل" ورحت أقرأ وجهها فإذا بها تشرد طويلاً وتطفو على الوجه ألوان شـتى من الأسى والضيق. وقالت هل تعرف لماذا تعطينى الـدرس يا أستاذ؟ هل تعرف لماذا لم نلجأ لأحد المدرسين ؟ بـاغتتنى وتأملت وجهها وقلت أعرف يا واضحة بل إننى رأيتك فوق العربة وتحت الشمس. ورأيت عينيها تثبتان وينسكب منهمـا الدمع كما لو كان ينتظر خلف الباب. شهقَتْ وقالت " قتلونى يا أستاذ" وأطرقت فوق المكتب فمددت يدى ومشيت بها فوق شعرها الغزير الناعم ثم نزلت بيدى إلى خدها الأسيل الـذى

كان مثلجا ورفعت وجهها من تحت ذقنها. لا عذاب فى الدنيا يمكن أن يرتسم على وجه كالذى رأيته على وجهها الصغير. وأخرجت من جيب سترتى منديلاً ورقيا ورحت أمسح الدمع وما سال على وجنتيها من كحل معه. لم أتكلم ولم تتكلم ولـم يكن ممكنًا استكمال الدرس ذلك اليوم. وقفنا واقتربت منهـا فإذا بها تفتح عينيها فى انبهار وارتعشت شـفتاها وانحنيـت واستطالت هى إذ لابد شبت على أطراف قدمها لكنى لمحت الباب مفتوحا كالعادة. ذهبت إلى الباب لأغلقه فأخذت طريقى وخرجت مسرعا.

وعدت إلى واضحة أمس أيضا فلم أجدها. قال خالد إنها سافرت للرياض وستعود بعد أسبوع، ضحك وقال إن لها خالة فى الرياض كثيرا ما تشتاق إليها ولا تستطيع واضـحة أن تتأخر عليها، وطلب إلى الجلوس فاعتذرت، ومشيت أفكر هل هو صادق فيما يقول أم أن واضحة آثرت الابتعـاد ..؟. ها أنذا بالمستشفى ولابد أنى سأمضى أسبوعا أيضا. النـوم يتغلب على الآن وأسمع صوت أذان الفجر بعيدا فى البلـدة النائمة.


*****

(١٥)

استيقظت فـى حـوالى التاسـعة. مازلـت أسـمع "صوصوة" عصافير خارج النافذة. رأيت وأنا أفـتح عينـى الثلاثة الذين فوق الأسِرة، ورأيت أفواههم تتحـرك بسـرعة غريبة أثناء الكلام. ابتسمت لهم ، فقالوا معا فى مرح : "جود مورننج. جود داى إن شاء ا ". ابتسمت مرة أخرى. ورأيت عايدة تدخل الحجرة و على وجهها ابتسامة رائعـة، وتتـألق عيناها السوداوان الواسعتان فى وجهها الخمـرى، وتزهـو ملابسها البيضاء.

وقَفَت جوار السرير وقالت:

ـ يجب أن تنهض فورا وتمشى فى الطريق بقدر ما تستطيع.

لم أرد وبقيت أتأمل وجهها. قلت.

ـ أنت عايدة؟

اقتربت أكثر وقالت:

ـ هيا انهض. سأساعدك.

وأمسكت ذراعى توقفنى. قلت:

ـ سأمشى وحدى.

ـ إذن لا تتأخر.

وتركتنى وخرجت.

*****

قمت ومشيت قليلاً إلى جدار الغرف، وعـدت إلـى السرير، فصعدت فوقه متعبا ورأيت الكوريين يقفـون فـى جلابيب بيضاء يحزمون حقائب صغيرة جدا. دخلت عايـدة ومعها حقنة، فكشفت لها ذراعى.

ـ السلام عليكم.

هتف الكوريون وهم يخرجون. لم تلتفت عايدة إليهم ولوحت لهم بيدى. ورأيتهم يمشون متباعدى السيقان قلـيلاً،

ولابد أن عايدة أدركت ما أفكر فيه، ورأت الدهشة فى عينى إذ قلت:

- كوريون أشهروا إسلامهم أمس.

ابتسمت وخرجت وعند الباب قالت:

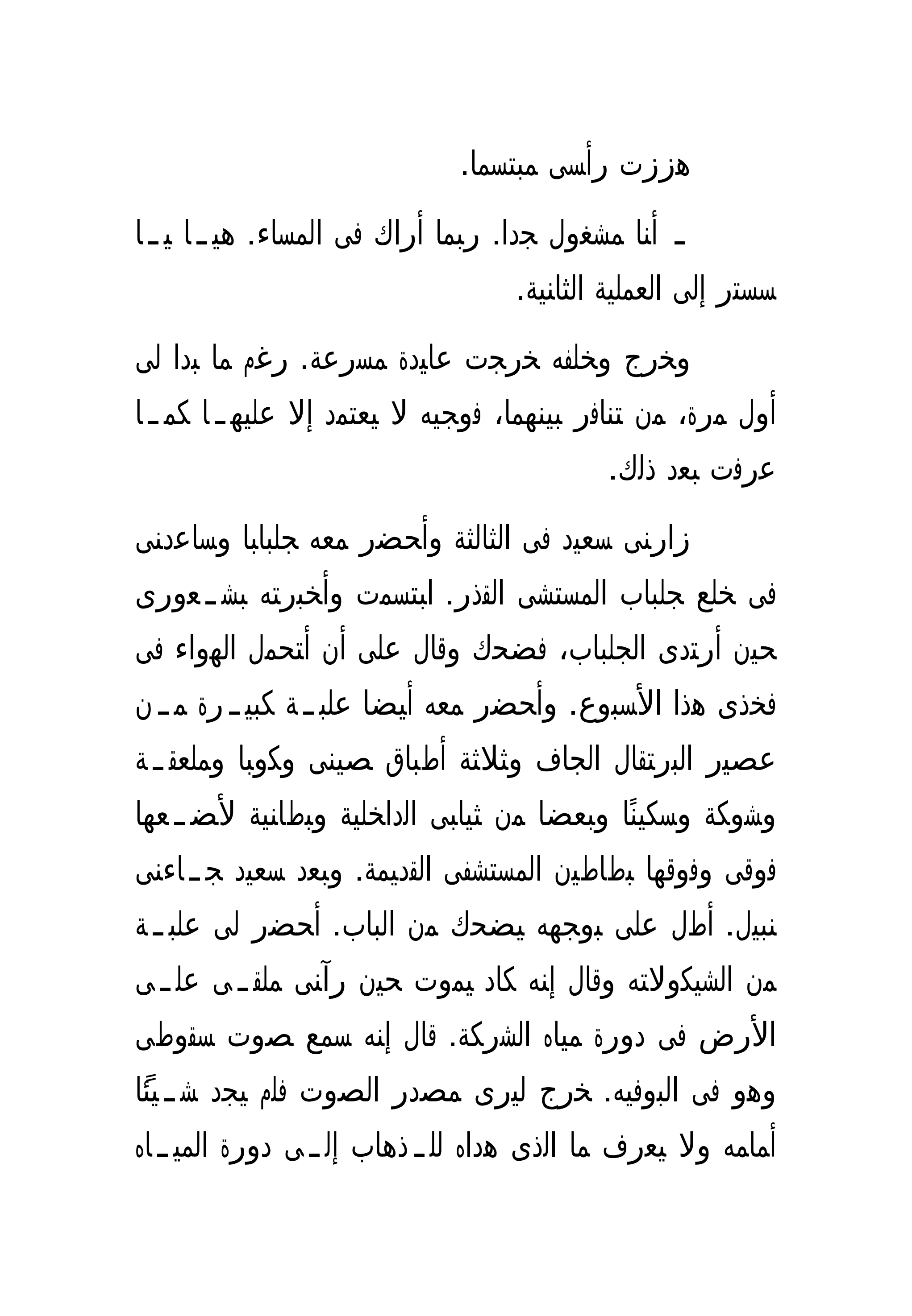
- لا تحاول أن تشرب شيئًا اليوم، وطبعا لا تأكل.

لم تعد بعد ذلك إلا عند الظهر. دخلت وخلفها عربـة المرضى يدفعها نعمان ومعها امرأة ضخمة مصرية نادتهـا عايدة "بأم زينب" وهى تطلب منها أن تضع المريض برفـق على أحد الأسِرة. خرج نعمان وأم زينـب يـدفعان العربـة الفارغة وقالت عايدة:

- زائدة دودية أيضا. داهمته فى السـيارة. شـاب سعودى كان قادما من مكة فى طريقه إلى تركيا، قالت ذلـك قبل العملية. وشعر هنا بالآم حادة فـى بطنـه فجـأء إلـى المستشفى.

ودخل الدكتور وجيه يرتدى البالطو الأبيض. بان لى طويلاً جدا كأنى لم أعرفه من قبل. قال:

- هيه. كيف حالك، مشيت اليوم؟



هززت رأسى مبتسما.

ـ أنا مشغول جدا. ربما أراك فى المساء. هيـا يـا سستر إلى العملية الثانية.

وخرج وخلفه خرجت عايدة مسرعة. رغم ما بدا لى أول مرة، من تنافر بينهما، فوجيه لا يعتمد إلا عليهـا كمـا عرفت بعد ذلك.

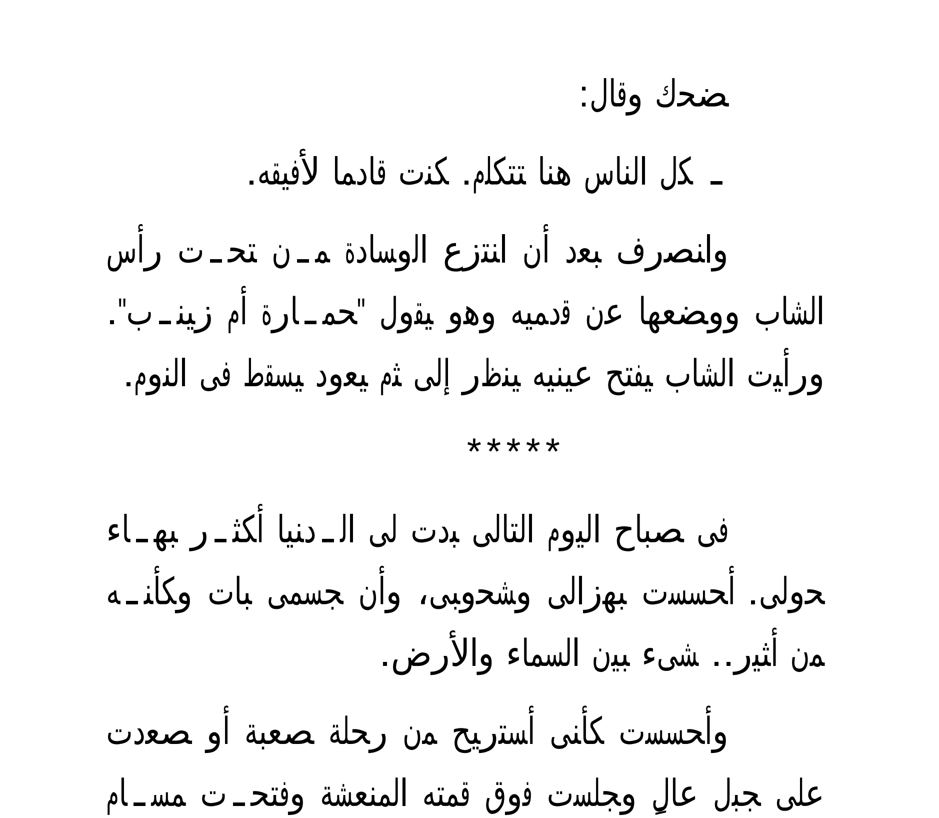
زارنى سعيد فى الثالثة وأحضر معه جلبابا وساعدنى فى خلع جلباب المستشى القذر. ابتسمت وأخبرته بشـعورى حين أرتدى الجلباب، فضحك وقال على أن أتحمل الهواء فى فخذى هذا الأسبوع. وأحضر معه أيضا علبـة كبيـرة مـن عصير البرتقال الجاف وثلاثة أطباق صينى وكوبا وملعقـة وشوكة وسكينًا وبعضا من ثيابى الداخلية وبطانية لأضـعها فوقى وفوقها بطاطين المستشفى القديمة. وبعد سعيد جـاءنى نبيل. أطل على بوجهه يضحك من الباب. أحضر لى علبـة من الشيكولاته وقال إنه كاد يموت حين رآنى ملقـى علـى الأرض فى دورة مياه الشركة. قال إنه سمع صوت سقوطى وهو فى البوفيه. خرج ليرى مصدر الصوت فلم يجد شـيئًا أمامه ولا يعرف ما الذى هداه للـذهاب إلـى دورة الميـاه

فوجدنى ممددا على الأرض. وضحك وقـال: "أنـت ثقيـل جدا".هو الذى حملنى بعد أن صرخت، وجاء عابـد يجـرى فنقلانى إلى المستشفى وقال إن أرشد حزين جـدا لأجلـى، ومنذر صرخ وقال مياه الآبار ملعونة، وضحك نبيل وقال إن روز مارى اتصلت تسأل عنى، وأنه كان موجودا بالمكتـب فرد عليها. قالت له "آيزة إسماعيل" فقـال "إسـماعيل هـو سبيتال" اندهشت وقالت "هو سبيتال" فقـال هـو "يـيس أو بريشن". وسألنى هل أخطـأ فـى الإنجليزيـة. وضـحكت وأحسست بألم فى الجرح من شدة اهتزازى، فتماسكت، وقلت له أن يسكت ، فلن أستطيع الضحك أكثر. ضحك وقال "إذن أغمك. وأكملت عن منصور" لكنى ضحكت بصوت مكتـوم فقال "سيزورك هو والقرد" وقبلنى على جبينى وانصرف.

أحسست بالعجز عن مقاومة العطش، وبجفاف شديد فى حلقى وشفتى، ودخل نعمان إلى الحجرة، فقلت له أن يبل لى قطعة قطن، ورحت أمس بها شفتى، ورأيته يقـف فـوق رأس الشاب السعودى النائم فى حيرة، ثم التفت وسألنى:

ـ هل أفاق من البنج؟

ـ أفاق. كان يتكلم كثيرا ولم أفهم منه شيئًا.



ضحك وقال:

- كل الناس هنا تتكلم. كنت قادما لأفيقه.

وانصرف بعد أن انتزع الوسادة من تحت رأس الشاب ووضعها عن قدميه وهو يقول "حمارة أم زينب". ورأيت الشاب يفتح عينيه ينظر إلى ثم يعود يسقط فى النوم.

*****

فى صباح اليوم التالى بدت لى الدنيا أكثر بهاء حولى. أحسست بهزالى وشحوبى، وأن جسمى بات وكأنه من أثير.. شىء بين السماء والأرض.

وأحسست كأنى أستريح من رحلة صعبة أو صعدت على جبل عالٍ وجلست فوق قمته المنعشة وفتحت مسام جلدى للهواء النقى. فكرت فى الأمس كيف مضى جميلاً. زارنى عابد أيضا لدقائق وزارنى بعده أرشد وجلس صامتًا يتأملنى غير مصدق. وقالت لى الممرضة التى تعمل بالليل إن شخصا اسمه منذر جاء يسأل عنى فوجدنى نائما وانصرف بعد أن ترك لى هذه اللفة. فتحتها فوجدت فيها جلبابا جديدا وفوطة جديدة كبيرة وزجاجة كولونيا أولد

سبايس. ياإلهى! كل هؤلاء أسرعوا يروننى ويطمئنون على. لابد أن الأمور غير ما يبدو لى.

وأهلت عايدة من الباب بابتسامة أكثر ألقًا من الأمس. لعلى أنا الذى صرت أكثر عافية وأفضل استقبالاً لما أراه.

ـ تستطيع اليوم أن تشرب.

ووقفت جوار السرير تعد لى كوبـا مـن عصـير البرتقال قدمته لى وقالت:

ـ ليس كله.

شربت وهى تنظر إلى لا تكف عن الابتسام. وضعت الكوب فوق الكوميدينو وابتسمت. سألتها:

ـ لماذا لم أرك أمس آخر النهار.......؟

ـ أجرينا عمليات كثيرة وعدت إلى "السكن" فى غاية التعب.

ـ طيب. يبدو أنك تضـحكين لشـىء تريـدين أن تقوليه.

ـ إطلاقًا.

وعادت تبتسم ثم سألتنى.

ـ من هى واضحة التى رددت اسمها كثيرا وأنت فى البنج. هل هى مصرية؟ هذا اسم سعودى.

إذن أفشيت كثيرا من الأسرار، تجاهلت الأمر، وسألتها:

ـ أى أسماء آخرى قلتها ....؟

ابتسمت وقالت:

ـ البلتاجى. كامل. آرون. أول مرة اسمع كلمة آرون. هل هو اسم؟

ـ هززت رأسى باسما واستمرت هى:

ـ فيليب. لقد كنت تردد فيليب كثيرا جدا. أكثر من كل الأسماء. من واضحة. أيضا سيد الغريب. هل تعرفه؟

أشرت لها بيدى أن تجلس على المقعد المجاور للكوميدينو فجلست. بدت كتلميذة طيعة. تنَهدت وقالتُ:

ـ أنا أريد أن أسألك عن فيليب.

ـ أنا لا أعرفه.

- فيليب سوساس بيليا. رجل أسود طويل له وجه قوى. سيلانى أشهر إسلامه وجاء هنا للختان ومات منذ أيام.

أغضمت عينيها ووقفت سحابة داكنة خفيفة على وجهها ثم ابتسمت وقالت:

- يحدث هذا كثيرا.

- أريد الحقيقة.

- ليس الدكتور وجيه على أى حال. لم تكن نوبتنا، جراح سعودى مبتدئ لكنه أيضا ليس خطأ الجراح. خطأ معمل التحليل الذى اختلطت عنده عينة الدم. حل عينة مريض آخر باعتبارها عينة فيليب. جاءت العينة سلبية فى كل شىء. لكن فيليب مصاب بضغط دم مرتفع جدا. اندفع الدم بقوة ولم يكن هناك سبيل لإيقافه فمات.

هذه هى المسألة إذن. خطأ تافه. لكن هل يحتاج الأمر أن يخفيه وجيه عنى؟ ربما لأن الطبيب سعودى. وقالت عايدة إن إخصائى التحاليل بالمعمل سعودى أيضا، ثم سألتنى:

- لماذا تهتم به ....؟

ـ كان صديقى.

قلت وسمعنا نحيبا شديدا فجأة من الشـاب الصـغير الذى معى فى الغرفة. قامت واتجهت إليه.

ـ لماذا تبكى يا يار؟ يؤلمك الجرح؟

قال ياسر الذى سمعت اسمه لأول مرة.

ـ الجرح هين ياست عايدة.

جلست على مقعد مجاور لسرير وقالت باسمة:

ـ تريد أن تعود إلى مكة.

ـ أريد أن أرى أمى.

نظرت إلى فى دهشة. يبدو ياسر صغيرا حقًـا فـى حوالى العشرين لكن لا يظن أحد أن شابا فى سنه يبكى ليرى أمه. قالت:

ـ ستراها بالتأكيد. أيام قليلة وتراها.

ـ أمى هنا فى تبوك.

وعادت تنظر إلى فى دهشة، وقال ياسر:

ـ أنا من مكة، لكن أمى من تبوك. لم أرها منذ مولدى. طلقها أبى وذهب، يعيش فى مكة وأخذنا معه أنا وأختى. لم يسمح لنا أبدا برؤيتها أو السؤال عنها وهى لم تأت يوما إلينا. أنا أعرف أنها من تبوك واسمها "صالحة" وهى خثعمية. أريد أن أراها.

قال ذلك وعاد يجهش بالبكاء. وبدت عايدة شاردة الذهن ثم قالت:

سأحضر لك أمك بشرط أن تكف عن البكاء.

تطلع إليها بعينين واسعتين متوسلتين وقال:

ـ سأفعل. احضريها لى ا   يرضى عليك.

وتوقف عن البكاء ونام على الفور. نام نوما حقيقيا. وقامت عايدة واقتربت منى وقالت:

ـ هنا يتزوج الواحد أكثر من واحدة، وتعيش الضرائر بلا ضغائن، لكن لم أسمع أبدا برجل يحرم زوجته من أبنائها. هنا تفرح الزوجة أحيانًا بزواج زوجها من امرأة جديدة لأنه يضطر أن يقدم إليها كل ما يقدمه للجديدة من ذهب.

- هل ستجدين أمه فعلا؟

- سأجدها. لدينا هنا خادمة سعودية اسمها "وخَبـة" تعرف كل شيء فى تبوك، ولن تعجز عن الوصل إلى أمـه صالحة الخثعمية كما يقول.

وخرجت ورحت أنا أتطلع إلى الشـاب الـذى نـام بوداعة الطفل أقدام مسرعة تدب فى الطرقة خارج الحجرة، وضحكات نسائية تأتى من بعيد، فقمت على مهل، وغـادرت السرير، ودفعت الباب أتطلع إلى الزحام فى آخر الطرقـة. رأيت عددا من المرضى الرجـال. وبعـض الممرضـات. ورأيت عايدة تقف على باب مكتبها، وتشير إلى أن أدخل إلى غرفتى. تقدمت منها.

- ماذا يجرى؟

- شىء سخيف.

ودخلت مكتبها غاضبة لا أدرى لماذا. دفعنى حـب الاستطلاع أن أتقدم فى الطريقة حتى وصلت إلى الزحـام، وإذ بالدكتور وجيه يظهـر فجـأة غاضـبا صـارخًا فـى المزدحمين بالانصراف، ولم يبق واقفًا غير طبيبة باكسـتانية

وأنا. رآنى وجيه ولم يكلمنى وحـدث الطبيبـة الباكسـتانية بالإنجليزية.

ـ ماذا تفعلين يا دكتورة ....؟

ـ ليس هناك طريقة أخرى.

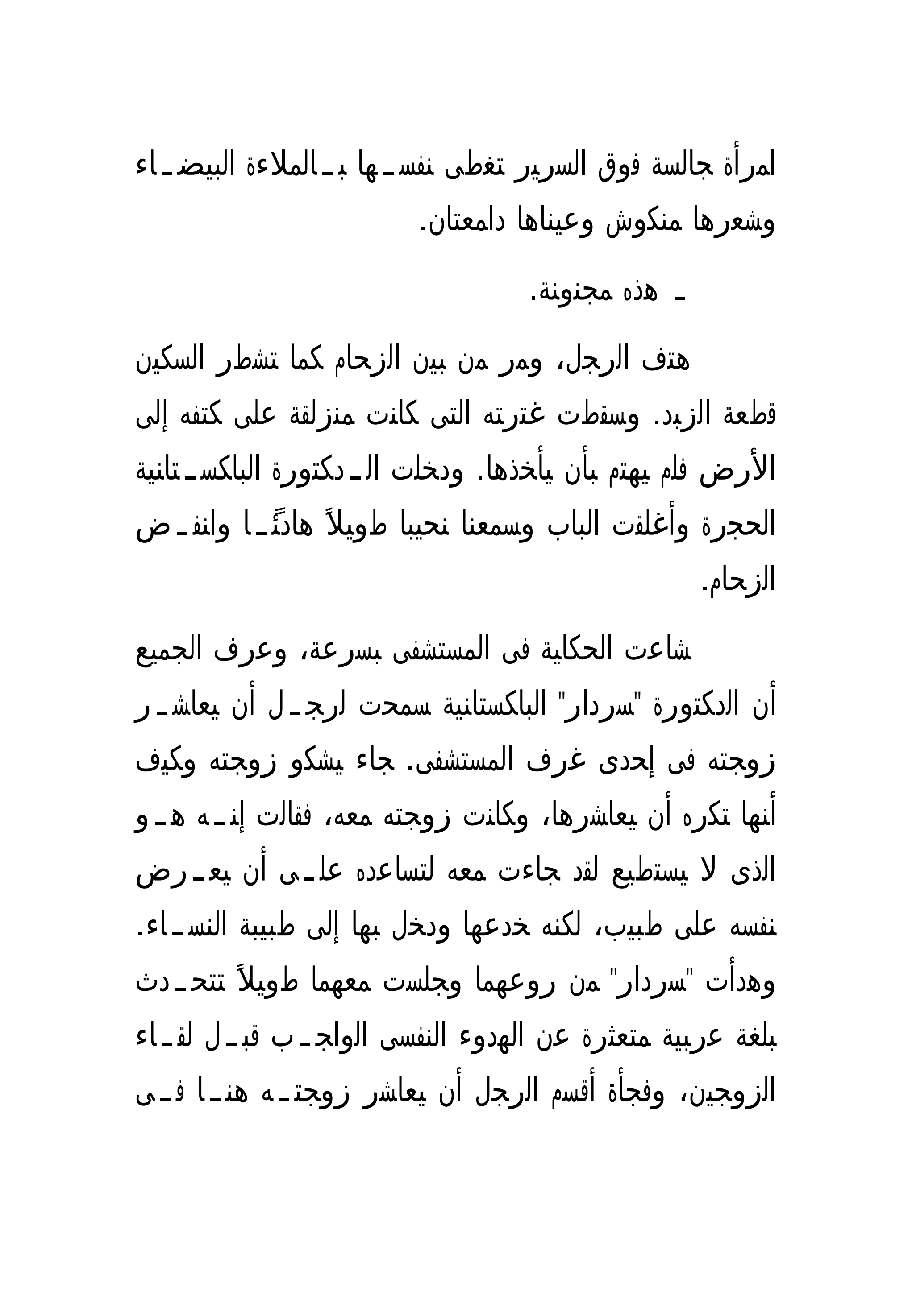
ـ لكن هذا لا يجوز فى المستشفى!

ـ هما طلبا ذلك. ثم أن هذا عملى.

ـ نظر إليها بغيظ شديد، وانصرف دون أن ينظـر إلى، ثم توقف فجأة والتفت يقول للدكتورة الباكستانية:

ـ هذا مستشفى يا دكتورة وليس قسم بوليس.

وبدا أنها غير آبهة له، وعاد الزحام من المرضـى والممرضات، والدكتورة الباكستانية تنظـر إلـيهم ببلاهـة غريبة، وسمعت ضجة داخـل الحجـرة المغلقـة، أصـواتًا مختلطة. مواء وعواء وشخيراً وصـراخًا وشـتائم وأنفاسـا متلاحقة ووقع أقدام سريعة وأشياء تقع ثـم صـمتاً طـويلاً وأنفاسا متعبة ثم فتح الباب فظهر رجـل سـعودى متوسـط العمر ممزق الثياب، في عينيه غضب ناري، ولمحت خلفـه



امرأة جالسة فوق السرير تغطى نفسها بالملاءة البيضاء وشعرها منكوش وعيناها دامعتان.

- هذه مجنونة.

هتف الرجل، ومر من بين الزحام كما تشطر السكين قطعة الزبد. وسقطت غترته التى كانت منزلقة على كتفه إلى الأرض فلم يهتم بأن يأخذها. ودخلت الدكتورة الباكستانية الحجرة وأغلقت الباب وسمعنا نحيبا طويلاً هادئًا وانفض الزحام.

شاعت الحكاية فى المستشفى بسرعة، وعرف الجميع أن الدكتورة "سردار" الباكستانية سمحت لرجل أن يعاشر زوجته فى إحدى غرف المستشفى. جاء يشكو زوجته وكيف أنها تكره أن يعاشرها، وكانت زوجته معه، فقالت إنه هو الذى لا يستطيع لقد جاءت معه لتساعده على أن يعرض نفسه على طبيب، لكنه خدعها ودخل بها إلى طبيبة النساء. وهدأت "سردار" من روعهما وجلست معهما طويلاً تتحدث بلغة عربية متعثرة عن الهدوء النفسى الواجب قبل لقاء الزوجين، وفجأة أقسم الرجل أن يعاشر زوجته هنا فى

الغرفة نفسها لتعلم الدكتورة أنه سليم، وتحدته زوجته ووافقت فأغلقت عليهما "سردار" الباب.

*****

ـ كيف يحدث ذلك؟

سألت عايدة التى دخلت تعطينى قرص "الأمبيسلين". قالت دون أن تنظر إلى:

ـ عالم مجانين..

وظهرت امرأة سوداء جدا وقصيرة وسمينة عند الباب، فقالت عايدة:

ـ إيه يا "وخبة" وجدتها........؟

ـ ها هى معى.

وأفسحت طريقًا، فدخلت امرأة أخرى قصيرة وبدينة أيضا، حول رسغيها ذهب كثير، وفى أصابعها وعلى صدرها، وتغطى وجهها بطبقات من الحرير الأسود، سألتها عايدة:

ـ أنت صالحة؟

ـ نعم.

ـ هذا ابنك ياسر.

لم ترد المرأة: تقدمت وكانت "وخبة" قد تركت الباب وتراجعت، ونظرت إلى عايدة التى بدأ دمـع يترقـرق فـي عينيها. توقعت مشهدا عاصفًا بالدموع، وجلست المرأة على كرسى جوار سرير ابنها عند رأسه، وتقدمت عايدة ووقفـت أمامها توقظه. فتح ياسر عينيه ونظر إلى المـرأة الجالسـة، وقالت عايدة بصوت مخنوق:

ـ هذه أمك يا ياسر.

اعتدل ياسر بسرعة، واستند بظهـره إلـى ظهـر السرير، وهتف بصوت هامس:

ـ أمى.

قالت المرأة بصوت عالٍ:

ـ كيفك ياسر. كيف أختك حصة؟

ولم ترفع الخمار متعدد الطبقات عن وجهها، تأملهـا ياسر وقال هامسا:

ـ بخير.

ـ كيف الشيبة ؟

ـ بخير.

ـ تعيشون فى مكة ؟

ـ لا زلنا.

ـ ا معكم.

وقامت وانصرفت وعايدة تنظر إلى وأنا أنظر إليها، ونظرت إلى ياسر، فهز كتفه، وقال:

ـ أمى صارت مجنونة.

ـ وسكت ولم ينظر إلى أحد.

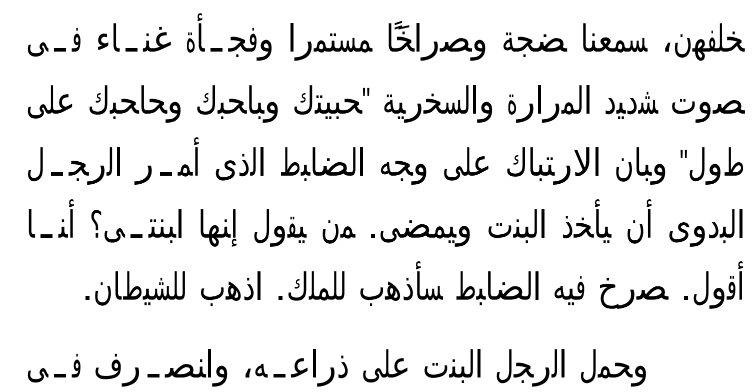
*****

لم يكن من الصعب قتل الوقت. جاءت سـيارة فـى اليوم التالى، وأخذت ياسرا إلى مكة. وكان دائما معـى فـى الغرفة واحد أو اثنان، لكن لا علاقة بيننا ولا حـديث. لقـد حول وجيه غرفتى إلى غرفة ملاحظة يمضى فيها المريض قليلاً من الوقت قبل أن يغـادر المستشـفى أو ينتقـل إلـى

حجرات المرضى، وحول غرفة الملاحظة الأصلية إلى غرفة استقبال طويل. فعل ذلك حرصا على راحتى كما قال.

تفرغت لقتل الوقت باستطلاع ما يجرى. فى اليوم التالى لحادثة الدكتور "سردار" أتت الشرطة لتحقق فى شكوى رجل من البادية يدعى أنه أحضر ابنته الصغيرة المريضة إلى قسم الأطفال فخطفتها الممرضة المصرية. رأيت الممرضة تقف فى الصالة بين ثلاثة من رجال الشرطة بينهم ضابط وعلى وجهها ذعر شديد. كانت عايدة وعدد من الممرضات يبتسمن ويضحكن. قالت الممرضة المتهمة إن ابنة الرجل موجودة وإنها هذه التى تمسك بيدها، وقال الرجل إنها ليست ابنته. طفلة فى الثالثة سمراء شعرها غزير وعيناها واسعتان علسليتان ترتدى فستانًا بمبى مدندش الذيل بدائر أخضر من الدانتيلا وفى جانبى رأسها "فيونكتان" من شرائط الحرير الأحمر. كانت بحق جميلة. يزيد من ذلك أنها صامتة لا ترد على كلام أحد. قالت الممرضة إن كل ما فعلته هو أنها رأت البنت جميلة فى ثياب قذرة فأخذتها إلى "السكن" وألبستها هذا اللبس الجميل بعد أن أدخلتها الحمام وقصت أظافرها ودرجت شعرها وعطرتها؛ ولكن الرجل

كان لايزال يقسم أن هذه البنت ليست ابنته وأنه لن يتنازل عن ابنته ولن يتنازل عن سجن الممرضة المصرية التى فجأة زاغت عيناها إلى بعيد وبدا أنها لم تعد تدرك ما حولها ثم صرخت بإيقاع طويل ففزع الضابط والشرطيان، وتراجعت الممرضة وهى تكرر الصراخ، وأسرعت عايدة وزميلاتها يتلقينها قبل أن تسقط فوق الأرض، واستطعن إدخالها إلى غرفة الممرضات القريبة، وأغلقن الباب خلفهن، سمعنا ضجة وصراخًا إلى غرفة الممرضات القريبة، وأغلقن الباب



خلفهن، سمعنا ضجة وصراخًا مستمرا وفجأة غناء فى صوت شديد المرارة والسخرية "حبيتك وباحبك وحاحبك على طول" وبان الارتباك على وجه الضابط الذى أمر الرجل البدوى أن يأخذ البنت ويمضى. من يقول إنها ابنتى؟ أنا أقول. صرخ فيه الضابط سأذهب للملك. اذهب للشيطان.

وحمل الرجل البنت على ذراعه، وانصرف فى عجلة وغيظ، وانصرف الضابط والشرطيان أسرع منه.

*****

استلقيت على سرير غيـر قـادر علـى أن أكـتم ضحكاتى. ضحكت وحدى بالغرفة وصار صوتى مسـموعا. أطلت عايدة بوجهها تضحك. ثم قالت:

ـ طبعا أنت تستغرب.........؟!

وظللت أضحك ثم وجدت أنه لم يعد لائقًا ذلك فسكت وتأملت وجهها المبهج. لابد أنها أدركت أن إحساسا بالراحة صار يشمل جسمى وروحى فأنا أشعر بتألق عينى وانبسـاط وجهى. أرخت رموشها الطويلة وتكلمت:

اسمها "وردة" الممرضة التى صرخت. لم يمض على عملها هنا ستة أشهر. بدأت عملها فى مستوصف "ضبا" وفى ضبا لا يوجد سكن للممرضات غير المتزوجـات. عـادة لا تذهب هناك غير المتزوجة. لكن هكذا جاء تعيين وردة. كان الأطباء والممرضات يتركون المستوصف فى الساعة الثانية ظهرا إلى بيوتهم. الأطباء جميعا متزوجـون والممرضـات كذلك. إلا وردة التى كان عليها أن تبقى بالمستوصف نفسه. فى إحدى الغرف فوق السطح تنام. المستوصف كبير به أكثر من عشر حجرات بالدور الأسفل.

كان على وردة أن تمضى الوقت بعد الثانية ظهـرا وحتى الصباح وحدها. لك أن تتخيل حجم الأفكار التى يمكن أن تسرق العقل فى بلد بعيد مقفر وفى مكان خال. أصـاب وردة انهيار عصبى شديد ونقلت إلى هنا. وضحكت عايـدة وقالت إن وردة تعيش الآن فى سكن الممرضـات. تضـحك كثيرا بلا ضابط وتتذكر كيف كانت تقطع الوقت بالغناء فوق السطح. كانت تغنى للسماء والفضاء وتجرى وتقفز ثم فجـأة تلاطم خديها وبالليل تنكمش فى أبعـد ركـن مـن غرفتهـا وتنتحب. الآن، بعد أن ينتصف النهار، كثيرا ما تشرد وردة بذهنها ثم تعود وتشرع فى الغناء الذى سمعته. تتلبسها "عقدة ضبا" كما صرنا نسميها.

- كنت أحسبها خائفة من الضابط.

قلت ولم أستطع أن أمنـع نفسـى عـن الضـحك. وضحكت هى أيضا وارتفع صوتها، وصرنا نضـحك كلمـا تقابلت عيوننا. لكن لم يكن ممكنا الضحك فى كل وقت.

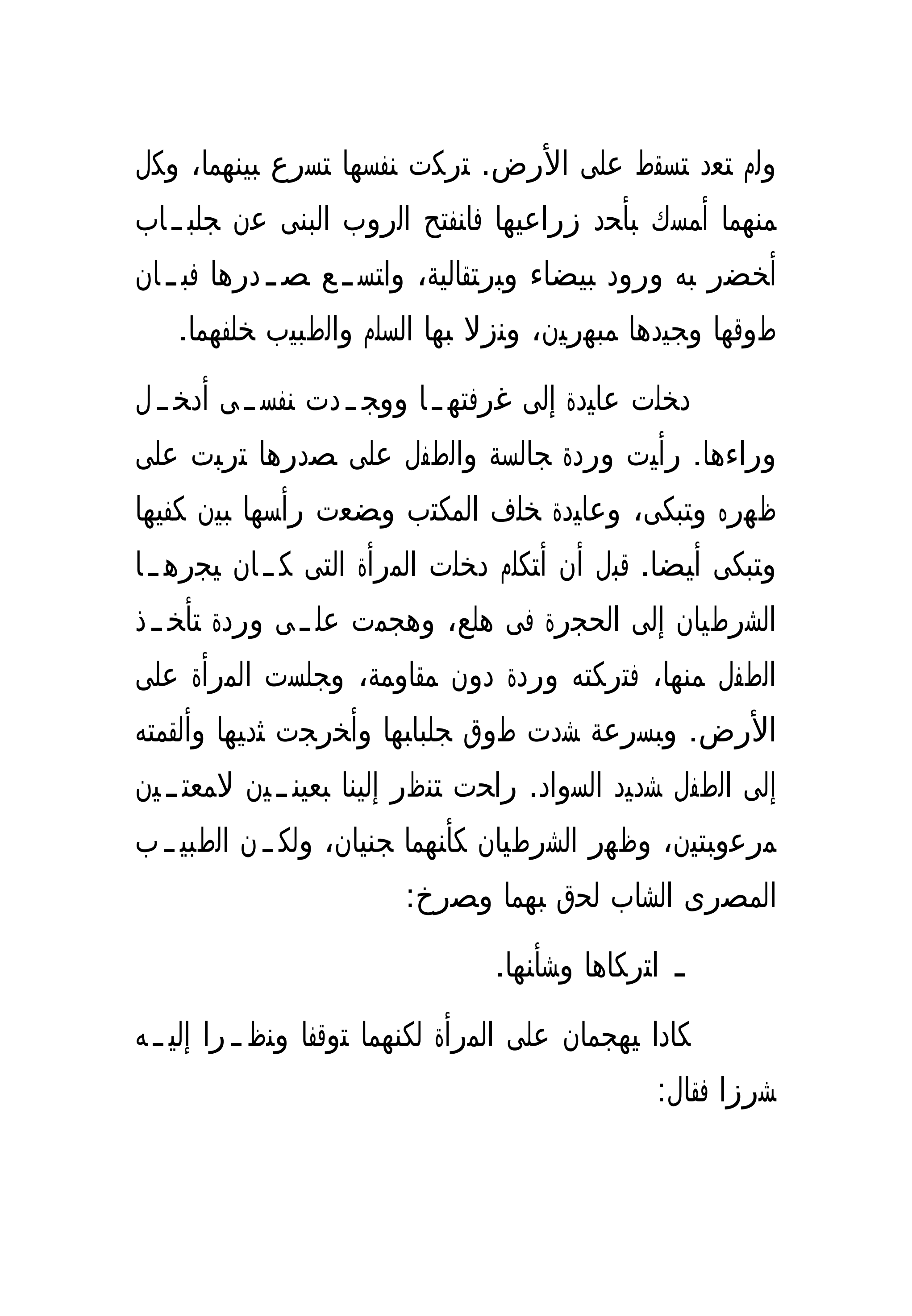


*****

صحوت على صراخ جنونى، وتركت سريرى فزعا أنا الذى أصحو كل يوم على صوت العصافير التى لا أراها ووجه عايدة البهيج. خرجت ووقفت أتطلع إلى مصدر الصوت القادم من الطرقة المتعامدة مع غرفتى، والمتجهة إلى عنبر النساء.

شرطيان يمسكان بامرأة صغيرة تحاول الإفلات منهما وهما يجرانها بغلظة وغيظ. شقراء شعرها طويل يغطى وجهها وصدرها وكتفيها، ويصل إلى نصف ظهرها. اقتربا بها أكثر، ورأيت عينيها خضراوين لكن وجهها شديد الاحمرار من آثار لطمات سابقة.

كانت تقع على الأرض، ويرفعانها بقوة وتتشبث بسيقانهما، والنساء المريضات يبكين أمام الأبواب، الممرضات من كل قسم وقفن ينتحبن. واقتربت وردة مسرعة تحمل طفلاً صغيرا أسود. دخلت به إلى غرفة عايدة التى كانت تقف جوارى ولا أدرك. كان هناك طبيب مصرى شاب يقف خلف المرأة والشرطيين يرفع نظارته البيضاء ويمسح عينيه ويمشى خطوة كلما تقدم الجنديان بالمرأة خطوة. استطاع الشرطيان أن يسحبا المرأة الصغيرة بقوة،



ولم تعد تسقط على الأرض. تركت نفسها تسرع بينهما، وكل منهما أمسك بأحد زراعيها فانفتح الروب البنى عن جلباب أخضر به ورود بيضاء وبرتقالية، واتسع صدرها فبان طوقها وجيدها مبهرين، ونزلا بها السلم والطبيب خلفهما.

دخلت عايدة إلى غرفتها ووجدت نفسى أدخل وراءها. رأيت وردة جالسة والطفل على صدرها تربت على ظهره وتبكى، وعايدة خلف المكتب وضعت رأسها بين كفيها وتبكى أيضا. قبل أن أتكلم دخلت المرأة التى كان يجرها الشرطيان إلى الحجرة فى هلع، وهجمت على وردة تأخذ الطفل منها، فتركته وردة دون مقاومة، وجلست المرأة على الأرض. وبسرعة شدت طوق جلبابها وأخرجت ثديها وألقمته إلى الطفل شديد السواد. راحت تنظر إلينا بعينين لامعتين مرعوبتين، وظهر الشرطيان كأنهما جنيان، ولكن الطبيب المصرى الشاب لحق بهما وصرخ:

- اتركاها وشأنها.

كادا يهجمان على المرأة لكنهما توقفا ونظرا إليه شرزا فقال:

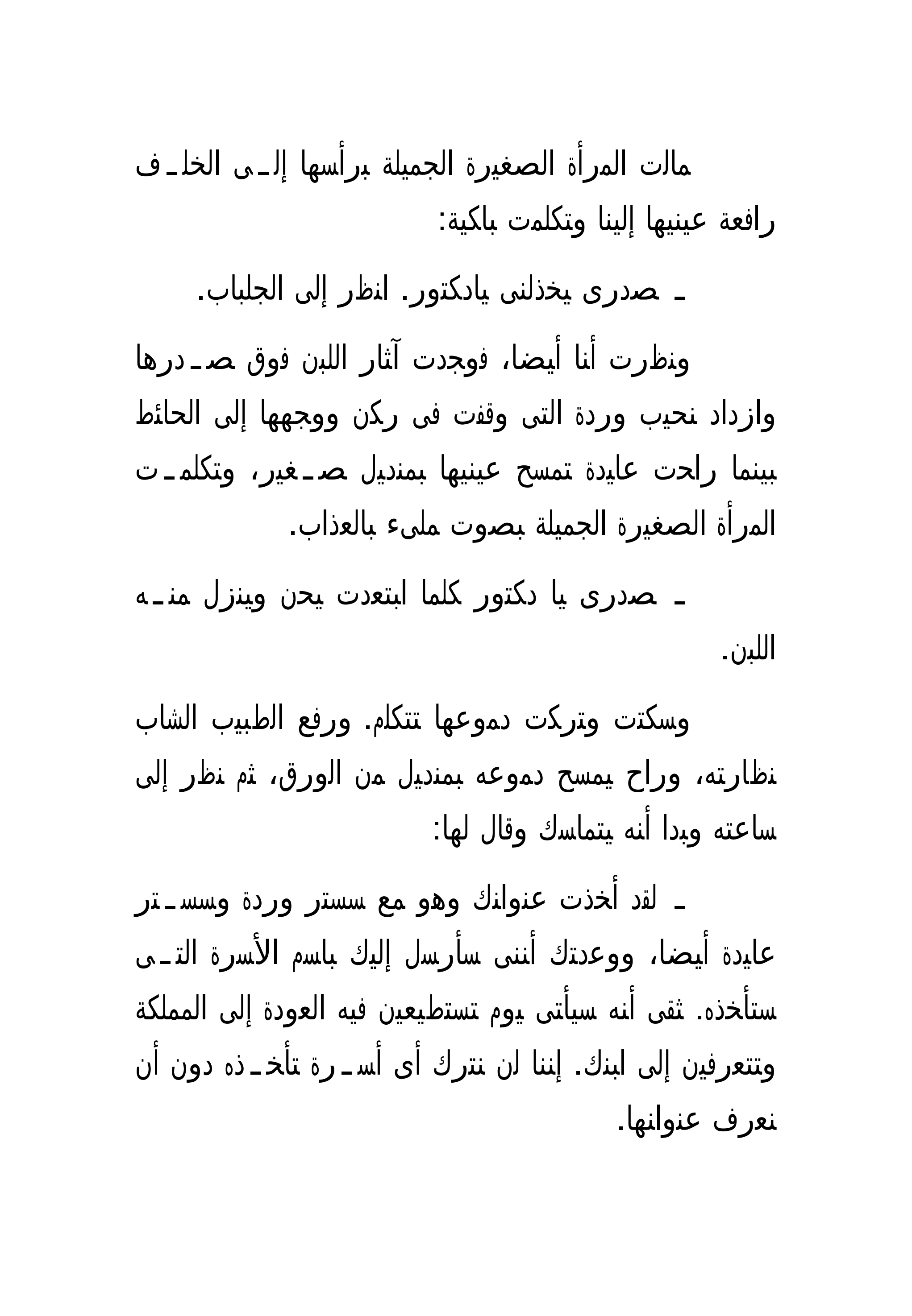
ـ إنزلا وسألحق بكما معها. أنا المسئول.

ظلا ينظران إليه بحدة ثم انطلقا يمشيان ويدبان على الأرض، ونظر هو إلى ثم انهار جالسا على مقعـد قريـب. لحظة ورفع رأسه إلى المرأة التى كانت تشد على الطفل فى صدرها كأنها تريد أن تخفيه فيه، وتغطيه بأطراف الـروب فلا نراه، ورفعت المرأة وجهها إلينا. دموعها غزيرة لكنهـا فجأة أخذت تنسكب انسكابا وهى تنظر إلى الطبيب الشاب.

ـ أعطها شيئًا تشربه يا وردة.

قال الطبيب. وفتحت وردة ثلاجة صغيرة أخرجـت منها دورقًا به عصير برتقال قدمت كوبا للمرأة التى أخذتـه وشربته دفعة واحدة. بدا لى أنها ليست هى التى تشرب فقـد تركت الكوب جوارها على الأرض بسرعة وانكفـأت علـى الطفل ترضعه. شبع الطفل فأدخلت ثـديها الصـغير إلـى صدرها. وتراجعت بظهرها تستند إلى الحائط كأنما تستريح إلى الأبد.

ـ يا أخت لا فائدة من ذلك كله. لقد تركتك تعـودين لترى ابنك خمس مرات الآن.



مالت المرأة الصغيرة الجميلة برأسها إلـى الخلـف رافعة عينيها إلينا وتكلمت باكية:

- صدرى يخذلنى يادكتور. انظر إلى الجلباب.

ونظرت أنا أيضا، فوجدت آثار اللبن فوق صـدرها وازداد نحيب وردة التى وقفت فى ركن ووجهها إلى الحائط بينما راحت عايدة تمسح عينيها بمنديل صـغير، وتكلمـت المرأة الصغيرة الجميلة بصوت ملىء بالعذاب.

- صدرى يا دكتور كلما ابتعدت يحن وينزل منـه اللبن.

وسكتت وتركت دموعها تتكلم. ورفع الطبيب الشاب نظارته، وراح يمسح دموعه بمنديل من الورق، ثم نظر إلى ساعته وبدا أنه يتماسك وقال لها:

- لقد أخذت عنوانك وهو مع سستر وردة وسسـتر عايدة أيضا، ووعدتك أننى سأرسل إليك باسم الأسرة التـى ستأخذه. ثقى أنه سيأتى يوم تستطيعين فيه العودة إلى المملكة وتتعرفين إلى ابنك. إننا لن نترك أى أسـرة تأخـذه دون أن نعرف عنوانها.

وقام بهدوء. ومد لها يده، فقامـت والطفـل علـى صدرها ثم قدمته ذاهلة إلى وردة التى مدت ذراعيها وحملته. وطال نظر المرأة إلى وردة.. إلى وردة وليس إلى الطفـل. هل كانت تريد أن تستوثق بأن التـى أخذتـه منهـا بشـر حقيقى.........؟

*****

لم أشأ أعرف القصة. حين أنزلوا جثة عبد ا   بـن الزبير ووضعوها على حجر أمه "أسماء" العجـوز الهرمـة التى شارفت على المائة انحنت عليه تقبله وقيل إنها حاضت ونزل من ثدييها اللبن.

لم أترك غرفتى ولا أكلت إلا آخر النهار حين دخلت عايدة وخلفها الخادمة المصرية "أم زينب" تحمل الطعام.

ـ نسيت أن أحضره لك فى الغـداء. لا يمكـن أن تمضى اليوم بلا أكل.

ـ لم أر أُماً بهذا الهلع من قبل.

ـ لم تر أما تُفْصل عن ابنها إلى آخر الزمن.

ـ ألن تعود مرة أخرى...؟

ـ مستحيل. مثلها يوضع على القائمة السوداء.

ـ لكن الطفل ليس صغيرا. ليس مولودا حديثًا.

أمضت عاما فى السجن ترضعه. فى مثل هذه الحالة لا تترك الأم طفلها إلا بعد عام. مسكين الدكتور أحمد. وصل هنا منذ أسبوع فقط وكلفوه بمرافقة الأم حتى المطار. رحمةً يرافق الأم طبيب حتى لا تقدم على شىء خطـر. حتـى لا تموت أو تنتحر. الموت أرحم. تصور لقد رفضت طول العام أن تدل الشرطة على أبيه. أبى الولد.

اتضحت الصورة. فتاة غرر بها أحد رجال البلـدة. لماذا لم تعترف باسمه؟ أتراها كانت تأمل أن تأخـذ ابنهـا؟ تركوها عاما فى السجن ترضعه. لابد أن تتسلمه الدولة أكثر عافية، وهى ، الأم، لم تستطع أن توقف مرور العام. كم من أمانٍ خرافية تعلقت المسكينة بحبالها الوهمية. ربما فكرت أن ا قد ينهى الدنيا فجأة فتقفز إلى الآخرة وابنها فى صدرها.

قالت عايدة إن المرأة لبنانية وأهلها يعيشـون هنـا لكنهم تبرأوا منها. لا يريدون العودة إلى لبنـان. إلـى أيـن

يذهبون والحرب قائمة فى كل مكان؟ لقد تركت لنا عنوانهـا ولكن.

وسكتنا طويلاً والطعام بيننا لم آكل منه شيئًا. قالـت "إنه طفل جميل".

ـ عبد ا ....؟

قالت:

ـ لا أعرف اسمه.

قالت إنهم أعطوه هذا الاسم، وإن اللقطاء يوضـعون هنا فى قسم الأطفال حتى تتبناهم إحدى الأسر والأمـراء أو ينقلونهم إلى ملجأ بالرياض، لكنهـا وزميلاتهـا يحبـبن أن يأخذوهم إلى السكن. إن أسود يوم هو اليوم الذى يتبنى فيـه الطفل أحد. لا يحدث ذلك إلا بعد أن يتعودن علـى الطفـل ويتعود عليهن، يصبح أكثر من أم تبكى لفراقه، ويبكى هـو من أجل كل هاته الأمهات.

*****

(١٦)

وكأننى دخلت من باب أفضى إلى حجيم لا خـروج منه. لا أستطيع البقاء أكثر من ذلـك وإن ضـبطت نفسـى متلبسا بانتظار دخول عايدة المبهج لغرفتى فى الصباح. لقـد نسيت الدنيا بالخارج. لم يكرر أحد زيارتى ولا أنـا عـدت أذكر أنى أعرف هنا أحدا.

لا أعرف الآن إلا خطوات مسرعة تحمل أكياس الدم لإنقاذ جريح، وإلا بكاء الممرضات على الموتى الذين كـان يمكن إنقاذهم لولا ولولا ولولا، وزعيق الأطباء فى المرضى أن لا يتركوا أسرتهم أو أن يتركوها ويمشوا حتى لا تـتجلط الدماء فى سيقانهم.. لا أعرف إلا صوت زغاريد تنطلق من قسم النساء. هذه فتاة بكر وضعت مولودها بعد ثلاثة أيام من الطلق والألم والانتظار وها هى الفرحة تطـل مـن عينـى الزوج الشاب الغريب الوحيد الذى تحضر الممرضات لابنـه كساء على نفقتهن وهدايا لأمه الصغيرة وطعاما سـاخنًا، لا

أعرف الآن إلا صراخًا كأنه قادم من عصور سـحيقة مـن رجل محبوس فى غرفة سفلية سينتقل إلى مستشفى الأمراض العقلية بالطائف بعد أيام، وأسمع دائما صـوت عربـة نقـل المرضى تسرع فى الطرقة ونعمان الخادم يشـخط فـى أم زينب المتعبة. الخادم من أصل البلادة له خادم من بلاد بعيدة. وقريبا من غرفتى غرفة للمحـاريق والليـل أشـباح مـن صراخهم هم المقيدون فى أسرتهم الملفوفين بالقطن والشاش المتلهفين إلى نقطة ماء. لا أعرف الآن إلا سيارات تترصدها الحوادث. تنهار عليها جرفٌ فجأة من فوق الجبال، أو تسقط هى فجأة من فوق الجبل، أو يدفعها القدر إلى "قليبة" فتنقلب، بلدة قديمة ذات اسم قديم ولا أدرى كيف تنقلب الجمال. مـن أى البلاد أنا ومن أى مكان قريب أتيـت. نمـل ثقيـل راح يغطى الذاكرة ولم أمض هنا إلا بضعة أيام. لا يكفينى وجـه عايدة الرائق المبهج وسط هـذا الجحـيم مـن الصـرخات والضحكات والموت تغلغلاً فى الحياة. كيف حقًّـا لا يمـوت الأطباء وتنتحر الممرضات؟ أى قوة شيطانية وضعها ا فى بنى الإنسان فيبدون فى النهاية أقوى من الأحجار؟

زارنى خالد، فبدا وكأنى عرفته من قبل فـى بئـر مظلمة ولا أكاد أتعرف على ملامح وجهه ولا أذكـر حتـى اسمه. "واضحة تهديك السلام" قال وفكرت أسأل مـن هـى واضحة كان دمثًا. قال إنه علم من سعيد بمرضى، وإنه أخبر واضحة فى الرياض، فانزعجت كثيـرا وتهـدينى السـلام. السلام؟ كدت أقول. قال "واضحة ستعود بعد يومين". ولم أقل أنى سأخرج بعد يومين. هكذا حدد لى وجيه موعد الخـروج مع أنى رجوته الخروج اليوم.

وحط على لقائنا صمت طويل، وتنبهت فجأة إلى دقة وجهه. ولولا شاربه والعقال الأسود والغترة لصار "واضحة" بلا اختلاف. إذن مازلت أذكر وجها ممن عرفت. ومضـى وهو يدعو لى بسرعة الشفاء، ولم أتكلم. إننى أنتظر الليلـة الأخيرة رغم إمساكى بنفسى متلبسا بانتظار دخـول عايـدة المبهج، وعايدة اليوم بدأت تعمل بالمساء.

*****

عندما انتصف الليل كنت فى حاجة شديدة إلى الكلام. سكنتْ الحركة، ولم أعد أسمع غير أنفاس واهنـة، وخفتـت

الأضواء وأنا فى الغرفة وحدى، يعادينى النـوم مـع أننـى سأغادر المستشفى فى الصباح.

تركتُ الغرفة، ووقفت فـى الطرقـة ذات الضـوء الخافت أمام باب غرفة عايدة، وترددت أن أطرقه. فى حاجة شديدة أنا للحديث معها وما خرجت إلا لـذلك وإن كنـت لا أدرى فيما سأتكلم. وسمعت صوت "نجاة الصـغيرة" خافتًـا وسمعت شيئًا كالنحيب.

فى اللحظة التى فكرت فيها أن أعـود فُـتِح البـاب ووقفتْ تنظر إلى فى ذهول.

ـ آسف . آسف جدا.

لا داعى للأسف. لقد أحسسـت بقـدميك. أخفتنـى. تفضل.

دخلت مرتبكًا وجلست هى خلف المكتب.

ـ أنا لم أقصد شيئًا.

ـ أعرف. يمكن أن تجلس.

جلست وكدت أقول، لقد سمعتك تبكين فـى صـوت خافت وها أنذا أرى أثر الدمع فى عينيك، لكنها وقفت وقالت:

ـ سأعد لك كوبا من الشاى، الجو بـارد وأريـد أن أشرب شايا أيضا.

واتجهت إلى دولاب صغير أخرجـت منـه موقـدا كهربائيا، ووضعت فوقه براد الشاى، وبدت لى وهى تتحرك صغيرة للغاية وقلت مالم أود قوله:

ـ هل أسألك لماذا كنت تبكين ....؟

ـ لقد سألتنى بالفعل.

أجابت مبتسمة وسكتنا، وانْشَغَلَتْ بإعداد الشاى ثـم قدمتْ لى كوبا وأخذت آخر، وعادت تجلس خلف المكتب.

ـ أحيانًا يشعر الإنسان بحاجة للبكاء.

فكرت ربما كان صوت نجاة الذى يبثه راديو صغير فوق المكتب هو سبب بكائها. ذلك أمر سهل مع أى مغترب.

ـ أرجو أن لا أكون تطفلت على مشاعرك.

ـ بالعكس.

- ألست سعيدة هنا........؟

- سعيدة جدا وإلا ما بقيت. تعودت علـى العمـل. وفى "سكن الممرضات" نقضى وقتنا فى مرح. نعيش أسـرة متآلفة إلى حد كبير. طبعا لدينا مشاكل مثل كل الناس، فينـا من ضحك عليها خطيبها وأخذ فلوسها، وفينا مـن يـرفض أهلها أى عريس يتقدم لها حتى تظل بقرة حلوبا لهم، وفينـا التى تزوجت وتركت زوجها، وحين عـادت مـن أجازتهـا وجدته تزوج بأخرى فى الشقة نفسها التى جهزتهـا، وفينـا العازفات عن الزواج تماما إلى الأبد.

- يا إلهى! إلى هذا الحد........؟

فينا أيضا الناصـحات اللاتـى اشـترين عمـارات وأراضى، وفينا طبعا سعيدات الحظ فى الزواج. فـى كـل الأحوال نصنع مع بعضنا حياة سهلة حلوة فى السكن.

وكستنا قليلاً. وكانت نجاة قد انتهـت مـن أغنيتهـا وينساب صوت عبد الوهاب رخيما يعطى الليل مذاقًا عذبا.

- هل تحب عبد الوهاب؟

سألتنى مبتسمة بابتسامة صغيرة. قلت:

ـ لا يوجد من لا يحب عبد الوهاب.

وسكتنا.

"لم نعتنق والهوى يغرى جوانحنا

وكم تعـانق قلبانـا

ورو‌حانا"

ـ إنها قصيدة جميلة للشاعر عزيـز أباظـة كتبهـا لزوجته.

ابتسمت وقالت:

ـ أخاف أن أقول لك إنى أحب عبد الحليم فتسـخر منى.

ـ لماذا ؟ أنا أحب عبد الحليم أيضا.

وعدنا إلى الصمت حتى وجدت نفسى أسألها:

ـ أين أنت يا عايدة من كل من حدثتنى عنهن؟

كانت هذه أول مرة أخاطبها باسمها مباشرة. وكـان سؤالى مفاجئًا لنفسى.

دائما يسبقنى لا شعورى فى كشف ما أريد ستره.

ـ أنا......؟

ولم تكمل. وظللت ناظرا إلى عينيهـا حتـى رفـت أهدابها ثم قالت:

ـ دعنا نترك هذا الحديث.

ولم يحدث.

ـ الطب مهنة فظيعة تحولك إلى آلة باردة. إذا لـم تتحول تنكسر ولا تصلح. هنا رأيت الناس يتحولـون إلـى حيوانات مسكينة، يصرخون جثثًا بلهاء لا قيمـة لهـا. لقـد تحملت ذلك كله من أجل أخوتى الذين هم سعداء الآن. كـل أخوتى السعداء عارضوا دخولى مدرسة التمريض إلا واحدا. هاشم الذى كان أكبر منى مباشرة. كان طالبـا فـى كليـة الحقوق وكان مصدر بهجة دائمة فى البيت. متفائل لا يكـف عن الابتسام، يؤمن بأن كل شىء يتغير مـع الوقـت حتـى الأفكار العتيقة. لكنه كان مصدر قلق دائـم للأسـرة. كـان يشارك فى المظاهرات بالجامعة ويأتى رجال المباحث كثيرا بالليل ليقبضوا عليه، ويخرج دائما من السجن أكثـر بهجـة وتفاؤلاً. وكان ضئيل الجسم للغاية لا يعرف أحد أى قوة فيه

لتحمل السجون. لقد تخرج هاشم من الجامعة عام (٧٣) وفى عام (٧٤) أثناء زراية نيكسون لمصر، حين أخرجوا الناس بالفلوس لتقف على شريط السكة الحديد تحيى نيكسون والسادات فى طريقهما للأسكندرية لم يستطع البقاء فى دمنهور، بلدتنا. سافر إلى الإسكندرية. كان له بها أصدقاء دراسة يحبهم. صدمته هناك سيارة ونقلوه إلى المستشفى الأميرى حيث كنت أعمل بعد أن تخرجت، ذلك اليوم كنت فى قسم الاستقبال،وفى ذلك اليوم استقبلته.

وسقطت دمعة من عينيها، ثم انسالت بعدها دموع، فأخرجت منديلاً ورقيا من علبة مناديل فى أحد الأدراج وراحت تجففها.

- أنا آسف جدا.

- تصور أنه الوحيد الذى يراسلنى....

- هو حى إذن.

لكنه فاقد القدرة على الحركة. يعيش مع أمى وأبى المسنين وخادمة.

"لذاك أنت هنا" قلت لنفسى، أى عذاب فـوق طاقـة البشر، لو كانت عايدة رجلاً لاختلف الأمر. أنثـى حاضـرة الجمال. ووجدت نفسى أربت على ظهر يدها بيدى. قلت:

ـ هل ضايقتك.....؟

ـ أنت لم تضايقنى. ولم تؤلمنى.

كانت أغنية عبد الوهاب قد انتهت وسمعت المـذيع يقول موجز أنباء الواحدة من القاهرة. قال كلاما عن بيغـين وكارتر والسادات لم أفهمه ولم أهتم به. أدرت مؤشر الجهاز بعيدا فانساب صوت عبد الحليم حافظ وادعا دافئًا شجيا.

" ياتبر سايل بين شطين يا حلو يا اسمر"

"لولا سـمـارك جوا العين ما كانت تنور"

يا حلو ياالسـمـ ـر. يا حلو يا اسـمـر

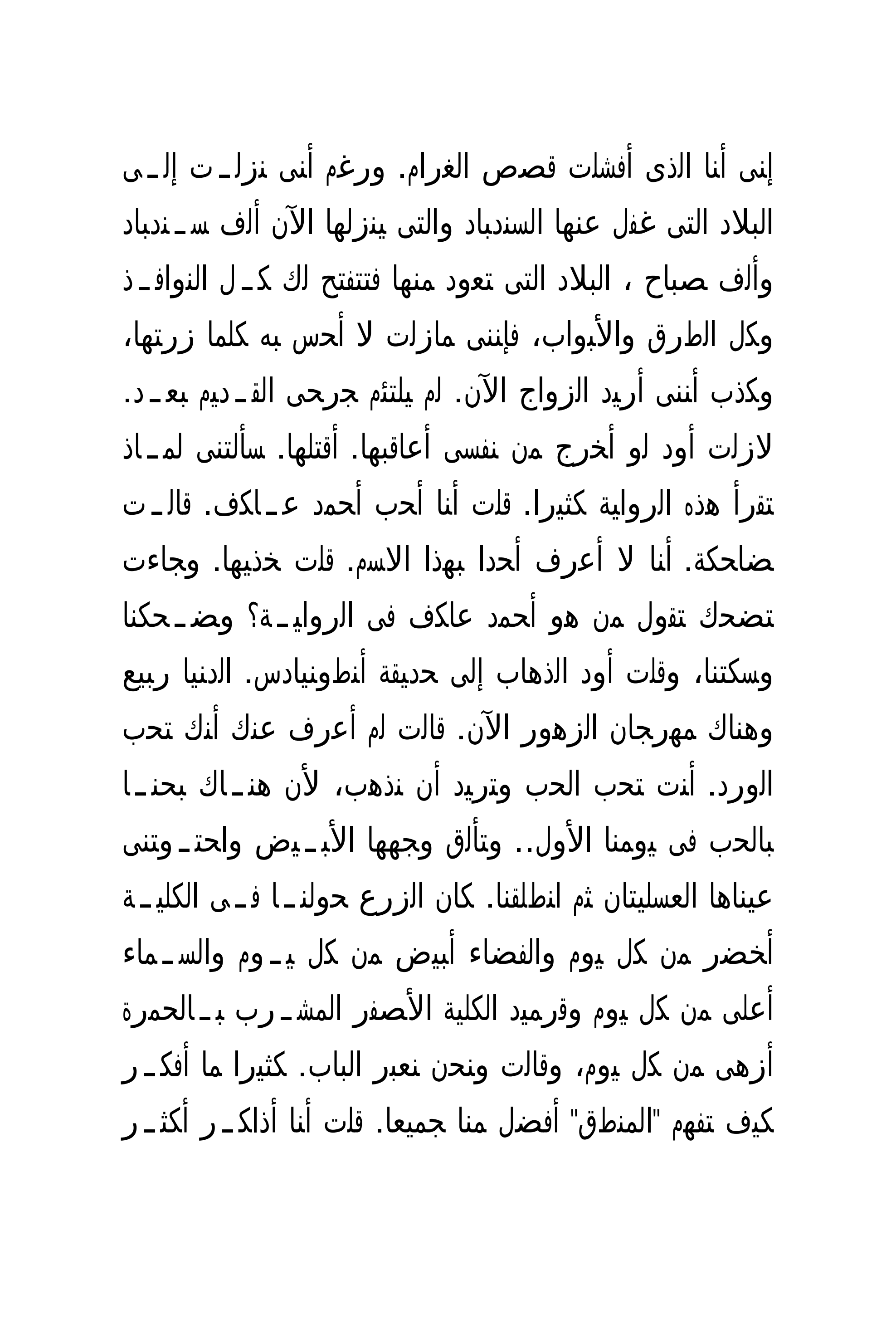
يا حلـ ـو يا اسـ ـمـ ـر

وابتسمت ورأيتها تبتسم وتتألق عيناها بانبهار فائق.

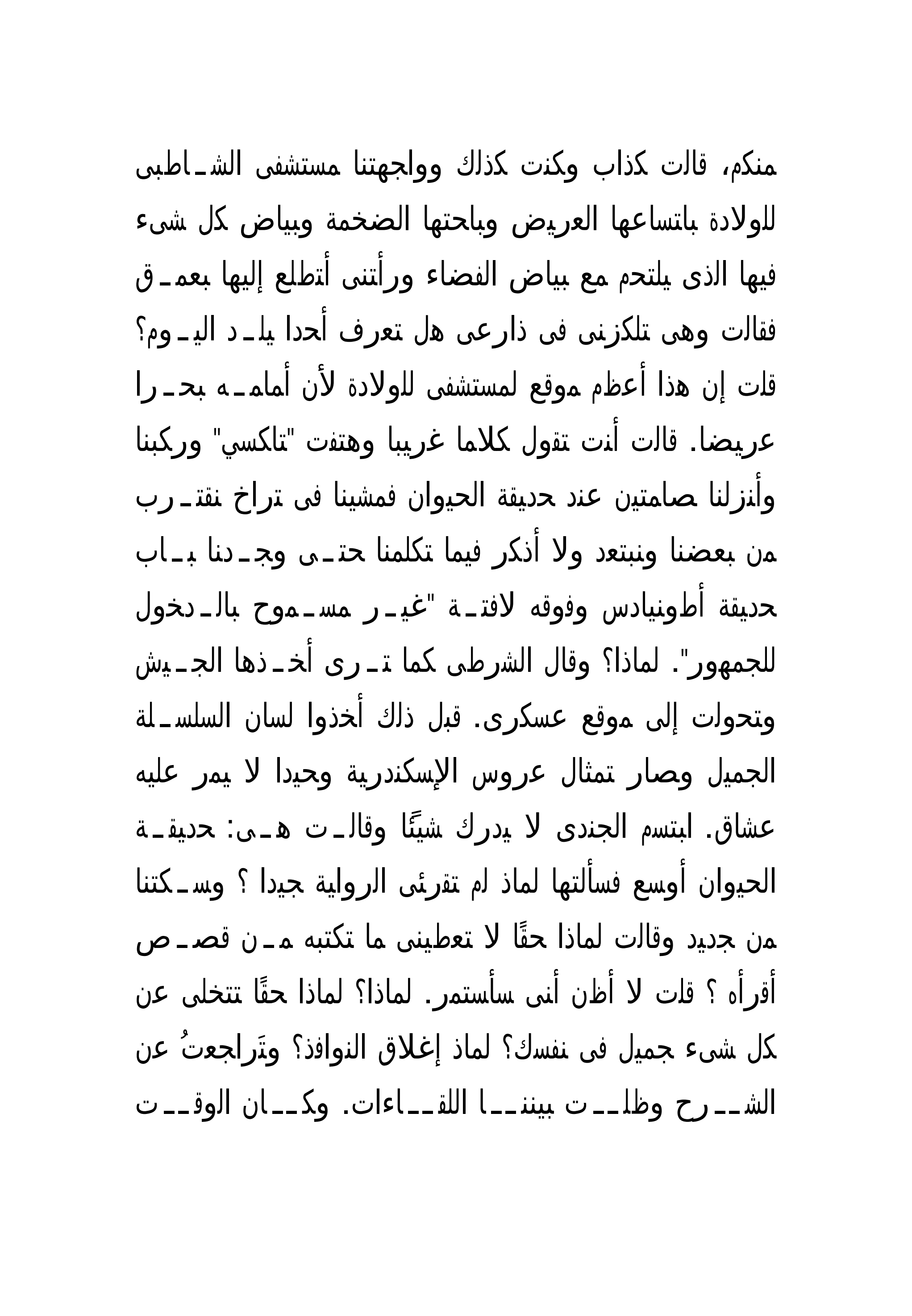
*****

(١٧)

وافق خروجى اليوم الأخير من شهر ديسمبر. تركت وجيها فى المستشفى، وفى البيت لم أجد سعيدا. لست بحاجة إلى شىء قدر حاجتى إلى النوم. تركت غرفة عايدة والفجر يوشك على الظهور. وصفت لها حالى وقلت إننى اكتشف متأخرا جدا أنى رحت ضحية مؤامرة صنعها أبى ووافقت عليها بغباء أخلاقى منقطع النظير. غباء جعل بينى وبين النساء سدا والآن أفكر جديا فى الزواج. وصمتنا كثيرا وأطرق كل منا ثم رأيتها تنظر فى ساعة يدها. أعادتنى إلى الحقيقة. هى أنثى وأنا ذكر فى بلاد يترصد فيها الهواء الأحاسيس ينقلها للعسس. قمت ولدى شعور بأنها لم تقل كل شىء. للملائكة حاجات يخفونها أيضا. كل منا أخفى شيئًا وعجز عن البوح به، مع أننى كنت كلما نظرت إلى وجهها استأنسته وتمنيت لو مضيت إلى صدرها لأنام، لم أقل لها



إننى أنا الذى أفشلت قصص الغرام. ورغم أننى نزلـت إلـى البلاد التى غفل عنها السندباد والتى ينزلها الآن ألف سـندباد وألف صباح ، البلاد التى تعود منها فتتفتح لك كـل النوافـذ وكل الطرق والأبواب، فإننى مازلت لا أحس به كلما زرتها، وكذب أننى أريد الزواج الآن. لم يلتئم جرحى القـديم بعـد. لازلت أود لو أخرج من نفسى أعاقبها. أقتلها. سألتنى لمـاذ تقرأ هذه الرواية كثيرا. قلت أنا أحب أحمد عـاكف. قالـت ضاحكة. أنا لا أعرف أحدا بهذا الاسم. قلت خذيها. وجاءت تضحك تقول من هو أحمد عاكف فى الروايـة؟ وضـحكنا وسكتنا، وقلت أود الذهاب إلى حديقة أنطونيادس. الدنيا ربيع وهناك مهرجان الزهور الآن. قالت لم أعرف عنك أنك تحب الورد. أنت تحب الحب وتريد أن نذهب، لأن هنـاك بحثـا بالحب فى يومنا الأول.. وتألق وجهها الأبـيض واحتـوتنى عيناها العسليتان ثم انطلقنا. كان الزرع حولنـا فـى الكليـة أخضر من كل يوم والفضاء أبيض من كل يـوم والسـماء أعلى من كل يوم وقرميد الكلية الأصفر المشـرب بـالحمرة أزهى من كل يوم، وقالت ونحن نعبر الباب. كثيرا ما أفكـر كيف تفهم "المنطق" أفضل منا جميعا. قلت أنا أذاكـر أكثـر


منكم، قالت كذاب وكنت كذلك وواجهتنا مستشفى الشـاطبى للولادة باتساعها العريض وباحتها الضخمة وبياض كل شىء فيها الذى يلتحم مع بياض الفضاء ورأتنى أتطلع إليها بعمـق فقالت وهى تلكزنى فى ذارعى هل تعرف أحدا يلـد اليـوم؟ قلت إن هذا أعظم موقع لمستشفى للولادة لأن أمامـه بحـرا عريضا. قالت أنت تقول كلاما غريبا وهتفت "تاكسي" وركبنا وأنزلنا صامتين عند حديقة الحيوان فمشينا فى تراخ نقتـرب من بعضنا ونبتعد ولا أذكر فيما تكلمنا حتـى وجـدنا بـاب حديقة أطونيادس وفوقه لافتـة "غيـر مسـموح بالـدخول للجمهور". لماذا؟ وقال الشرطى كما تـرى أخـذها الجـيش وتحولت إلى موقع عسكرى. قبل ذلك أخذوا لسان السلسـلة الجميل وصار تمثال عروس الإسكندرية وحيدا لا يمر عليه عشاق. ابتسم الجندى لا يدرك شيئًا وقالـت هـى: حديقـة الحيوان أوسع فسألتها لماذ لم تقرئى الرواية جيدا ؟ وسـكتنا من جديد وقالت لماذا حقًا لا تعطينى ما تكتبه مـن قصـص أقرأه ؟ قلت لا أظن أنى سأستمر. لماذا؟ لماذا حقًا تتخلى عن كل شىء جميل فى نفسك؟ لماذ إغلاق النوافذ؟ وتَراجعتُ عن الشـرح وظلـت بيننـا اللقـاءات. وكـان الوقـت

مساء فى آخر وقت لنا أيضا بالكلية ذات الحديقة الجميلة ومشينا فوق النجيل حتى حديقة كلية التجارة والشيطان الأخرس يقول لى إن الصراحة أفضل من الخداع، فصارحتها وقلت أنا لا أعرف الحب إلا للزواج وأنا لن أتزوج الآن ولن أتزوج أبداً. ومشينا صامتين وفى محطة الرمل رأينا سعد زغلول يعطى ظهره للمدينة ويشير إلى البحر، إلى غريق، وقَفَزتْ وقبلتنى على خدنى والناس كلها ترانا فى الميدان وأسرعتْ تبتعد، ولم أذهب يوم الأحد ولا أى أحد بعد ذلك. لم أكن أحبها أبدا. كنت أحب الحب كما قالت. عرفتنى التى لم تقرأ القصص ولم تعرف أننى أنا الغبى الكبير فى هذا العالم أكمل رسالة رجل تجاوز الخامسة والستين ولم يتمها.

"الحياة مأساة، والدنيا مسرح ممل، ومن عجبٍ أن الرواية مفجعة، ولكن الممثلين مهرجون، ومن عجب أن المغزى محزن، لا لأنه محزن فى ذاته، ولكن لأنه أريد به الجد كل الجد، فأحدث الهزل كل الهزل. ولما كنا لا نستطيع فى الغالب أن نضحك من إخفاق آمالنا، فإننا نبكى، فتخدعنا

الدموع عن الحقيقة. ونتوهم أن الرواية مأساة، والحقيقة أنها مهزلة كبرى".

قالت هاملت وقال نجيب محفوظ وقال أحمد عـاكف المسكين الذى قرأ أدب الكاتب والكامـل والبيـان والتبيـين ولاصار كاتبا ولا فاز بحبيب. كيف انتهى الأمر للجنون ثـم الموت؟ توالت على الرسائل مكتوبة بحبر أحمـر وأخضـر وأزرق وأسود. لماذا لم تنتبه؟ كان اليوم هو الخـامس مـن يونيو. يوم لا ينساه فى مصـر أحـد. "قـد ينسـاه النـاس بالانتصار وأظل أنا الوحيد فى شعب كامل أذكره" لم أعرف بموتها إلا قبل سفرى إلى هنا بأيام حين ذهبت إلـى الكليـة لاستخراج نسخة من شهادتى وقابلت "سامية" التـى كانـت صديقة لنا وتعرف كل شىء. جاءت مثلى لتستخرج شـهادة وتسافر إلى الإمارات. أخبرتنى سامية فأسرعت أنا بالسـفر. لم يبد عليها قط أنها يمكن أن تجن فما بالك أن تموت. مـن يطلقنى من متوتى الآن؟ من يحرق أسـرارى؟ واضـحة أم عايدة أم ترانى قاتلاً للجميع؟ كم أود حقًا أن أنام.



ـ كنت أعرف أنك هنا.

هتف سعيد وهو يدخل حاملاً كرتونة على صـدره. أسرع بها إلى غرفة المعيشة، ووضـعها فـوق المنضـدة. ووقف يلهث. قال:

ـ سنحتفل بك وبرأس السنة.

كانت الساعة الثالثة ظهرا وكنت نمت نوما عميقًـا. فتح الكرتونة وراح يخرج ما فيها ويضعه فـوق المنضـدة ويتكلم:

ـ جبن حلوم من قبرص. زيتون سيوى من مصر. هاهاها. ياأخى رؤساء الجمهوريات طبعهم غريـب. واحـد سماه زيتون الحرية والثانى زيتون العبور. فول قها. بـيض بلغارى. انظر إلى حجم البيضة. فى حجم الفرخة المصرية. فى بلغاريا يقولون للجبان جبان مثل البيضة!! هاهاهاها.

واستمر يخرج ما فى الكرتونة. ولا يكف عن الكلام والضحك. وبدا شكله غريبا لى جدا، واكتشفت لأول مرة أنه أقصر مما أتصور. كان يتحرك مثل كرة من المطاط.

ـ وخُذ أيضا جبن رومى من إيطاليا. رومى أصلى. وجبن شيدر من أستراليا انظر إلى العلبة. مدكوكـة. مثـل

البوشمان. لابد أن البوشمان انتهوا مثل الهنود الحمر. كُـل منته. لن يبقى إلا وجه ربك. وخذ أهم شىء عشرين زجاجة بيرة بدون كحول ماركة "موسى" صنع أوروبا. الأوروبيـون النصابون يضحكون على العرب. سيكون احتفالنا بخروجـك وبرأس السنة رائعا وفوق ما تتصور.

نظرت طويلاً إلى عينيه. قلت:

- ماذا جرى لعقلك اليوم ....؟

- تريد الحقيقة؟

- أجل.

- قابلت وداد.

- هل هذه أول مرة.....؟

- لا طبعا. لكنى اليوم قابلتها وقَبلتها أيضا.قبلتها هنا فى المملكة التى تقع فى الغرب من قارة أسيا وتطـل علـى البحر الأحمر والمحيط الهندى والخليج العربي وفيهـا قِبلـة المسلمين من كل أنحاء الدنيا ومنها هربت الجن والعفاريـت بسبب الحر والقر.

وصار يضحك ويصفق ويقفز فى فضاء الغرفة، فلم أستطع منع نفسى عن الضحك. وفجأة توقف وقال بجد شديد:

- ياأخى لم أكن أعرف أن الحرمان شىء فظيع إلى هذا الحد.



بعد الغداء انفردت بنفسى فى غرفتى. أدهشنى أننى أسمع صوت سعيد يغط فى نومه لأول مرة. ابتسمت وأنا أتخيل سلوكه قبل الغداء.

سعيد هذا لابد يمكُر بى. ليس أسهل من تقبيل امرأة هنا. وداد خطيبته وتعيش مع أمها وهو يزورهما ولابد أن أمها تعطيهما هذه الفرصة وأكثر. أجل. وأكثر. إن قبلة لا تحدث كل هذا الجنون. وفكرت أن أذهب إلى واضحة، لابد أنها عائدة من الرياض.

فى السادسة كان سعيد لايزال نائما. لقد نمت أنا أيضا. مرة أخرى واستيقظت ولابد أن وجيه عاد ونحن نيام فأكل ونام. كل هذا النوم حدث اليوم فى بيتنا بالنهار.

ركبت سيارتى التى لم تخذلنى رغم توقفها لأسبوع كامل. قدتها عبر الأزقة حول الشارع العام مراعيا الحفر والمطبات التى قد تؤثر على الجرح الذى نزعت خيوطه فقط فى الصباح، وجدت الشرطى يقف وسط الطريق يمنع تقدمى. يا لقد نسيت وهاأنذا أجد نفسى أمام البيت الموقوف به سيد الغريب. الشرطى يأمرنى أن أدور من جهة أخرى. منعوا المرور من الشارع إذن. ورأيت الغريب يجلس فى الشرفة يرتدى عباءة سوداء وفوق رأسه مصباح شحيح الضوء لكنى رأيت وجهه جيدا. لا أعرف إذا كان رأى وجهى أيضا أم لا فأنا أقف فى الظلام. درت بعيدا عن البيت وأخذت طريقى متمنيا فجأة أن لا أجد واضحة.. أن لا أكمل معها الدرس اليوم أيضا لكنها هى التى استقبلتنى. اتسعت عيناها بفرح طاغ ولم تتكلم. أخذت يدى بين يديها، وجذبتنى لأدخل غافلة عن جرحى وقلة قدرتى على الحركة المفاجئة. لكننى مشيت وأحسست بالقوة تدب فى روحى، ولما دخلت إلى الغرفة لم أجدها معى.

انتظرت طويلا. فى كل لحظة كنت أتخيل دخول شخص آخر إلى الحجرة. خالد أو جدها العاجز أو أمها التى

لم أرها أو أبوها الذى لم أره أو أى من أخوتها الـذين لـم أرهم، ولم يتوقف قلبى عن الخفقان حتـى رأيتهـا. غيـرت ثيابها وعادت ترتدى فستاناً طويلاً، كحلى اللـون بـه ورود بيضاء وعلى كتفيها شال أبيض، وتركت شعرها محاولاً على كتفيها وظهرها وفى رسغيها أسوارتان من ذهب مرصـعتان بالياقوت الأحمر وعلى صدرها كانت وردة ذهبيـة معلقـة بسلسلة،وعلى أوراق الوردة فصوص من اليـاقوت الأحمـر أيضا، ويسبق كل ذلك عطرها فى الطريق.. وجدت نفسـى أقف وأمد يدى، فمدت لى يديها، وأخذتهما، واقتربت منى ثم مالت إلى مقعدها، فتركت اليدين وجلَستُ قبالتها أتأمل وجهها وعينيها، أصابها شحوب قليل فى الرياض.

ـ كنت خائفة أن لا تأتى.

ـ استئصال الزائدة ليس أمرا صعبا.

ـ لا أريد أن تشرب من المياه الحكومية.

ـ قيل لى ذلك لكننى لا أحب المياه المعدنية.

ـ سأرسل اك منها كميات كبيرة.

- لا أحبها حقًا.. ثم إن الإنسان لا يملك أكثر مـن زائدة دودية واحدة.

ابتسمت وقالت:

- لم أستطع الحضور لزيارتك.

- هل نبدأ الدرس.....؟

تساءلت بغباء ومن غير قصـد كعـادتى السـخيفة، وسكتت وأطرقت ثم رفعت وجهها وقالت بهدوء وألم:

- لماذا تستصغر شأنى ؟

وانفجرتْ فى بكاء غير متوقع.

واضحة.

هتفت هامسا.

- أنا أرسلت إليـك خطابـا مـن الريـاض. ألـم تقرأه.......؟

- أنا لم أذهب إلى العمل بعد.

وظلت الدموع تسيل على وجنتيها، فأخذت مقعـدى واقتربت منها، وبذراعى اليسرى أحطت كتفيها، بيدى اليمنى

رفعت وجهها إلى فإذا بها تميـل برأسـها علـى صـدرى وتنتحب.

أسمع الآن أنفاسها وقلبها وأشم عطرهـا الغـامض وأغرق بوجهى فى شعرها الناعم الغنى.

- واضحة.

همستُ فرفعت وجهها إلى. اتسعت عيناهـا بـألق رأيته فيها مرة وارتعشت شفتاها برغبة رأيتها عليهما مـرة والتفت لا شعوريا إلى الباب فهمست لا تخف. هى التى قالت ذلك ولا أحد غيرها. هى واضحة التى فـى صـدرى الآن. ومددت يدى اليمنى إلى إبطها الأيسـر فأحسسـت بنهـدها صغيرا تحت كفى وبأنها خفيفة كحمامة وأنا أقيمهـا لتقـف وأقف. كيف طالت واستطالت؟ أم لعلنى أنا الـذى انحنيـت، صارت فى حضنى فمى على فمها وأشد عليها بكـل قـوتى وآكل شفتى شفتيها وتصطدم أسنانى بأسنانها وفـى اللحظـة التى ابتعد فيها وجهانا لألتقط أنفاسى رأيت الفرح يكاد يقفـز من عينيها، ومن جديد ضممتها إلى صدرى ورحت أعتصر رضابها وأحسست بشفتيها تتحركان مـع شـفتى وبينهمـا وحولهما. إنها لا تترك نفسها لى بل تقبلنى أيضا. نسـيت أن

هناك بابا مفتوحا وأن الموت معلق فوق رأسينا وفى اللحظة التى بدأ فيها أنها ذابت وتلاشت رأيت على وجهها طيف وجه آخر.. وجه عايدة. ابتعدت بوجهى وتأملتها. مغمضة العينين الآن. عدت أقبلها ونزلت بها إلى الأرض وأحسست بألم فى الجرح وفكرت فى جرأتى وعواقب ما أفعل هنا فى بلد ينقل فيه الهواء الكلام ووجدت نفسى أقف بصعوبة. آلمنى الجرح حقًا رغم أنى أساعدها على الوقوف معى. فتحت عينيها وبدت كأنها استيقظت من حلم بعيد.

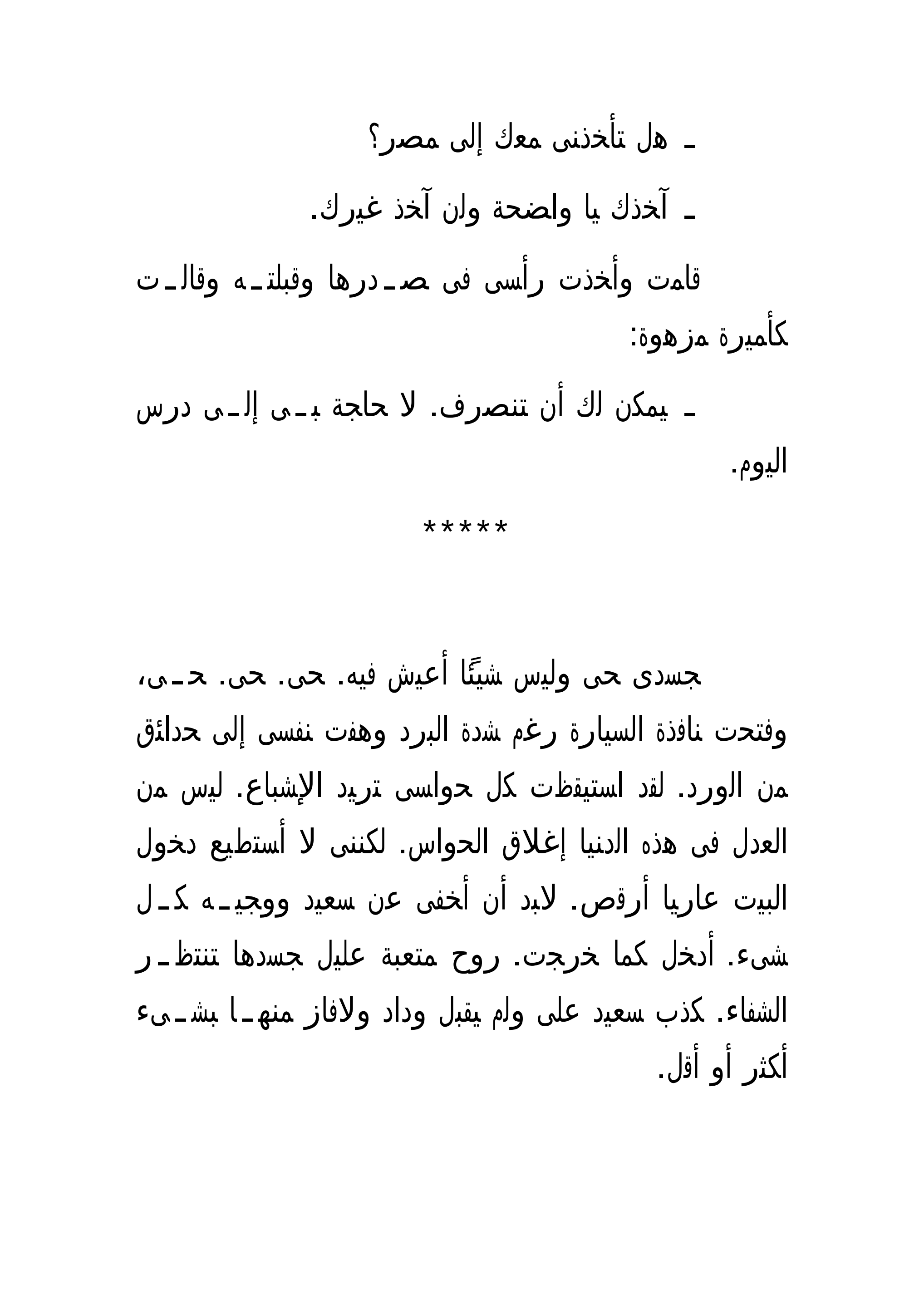
- لا تخرج الآن. لا تجعلنى أشعر بذنب.

- اجلسى يا واضحة.

- اجلس أنت أولاً.

جلسنا معا كل إلى مقعده. أطرقت وأطرقت هى. لا أعرف فيما كانت تفكر لكننى أعرف فيما فكرت.

قطعت عايدة على الطريق وقالت أثناء الحديث إنها لن تفكر فى الزواج قبل أن يشفى هشام ويمشى على الأرض ولو كلفها ذلك عشرين سنة هنا. وها هى تعود الآن وتطل بوجهها على.



ـ هل تأخذنى معك إلى مصر؟

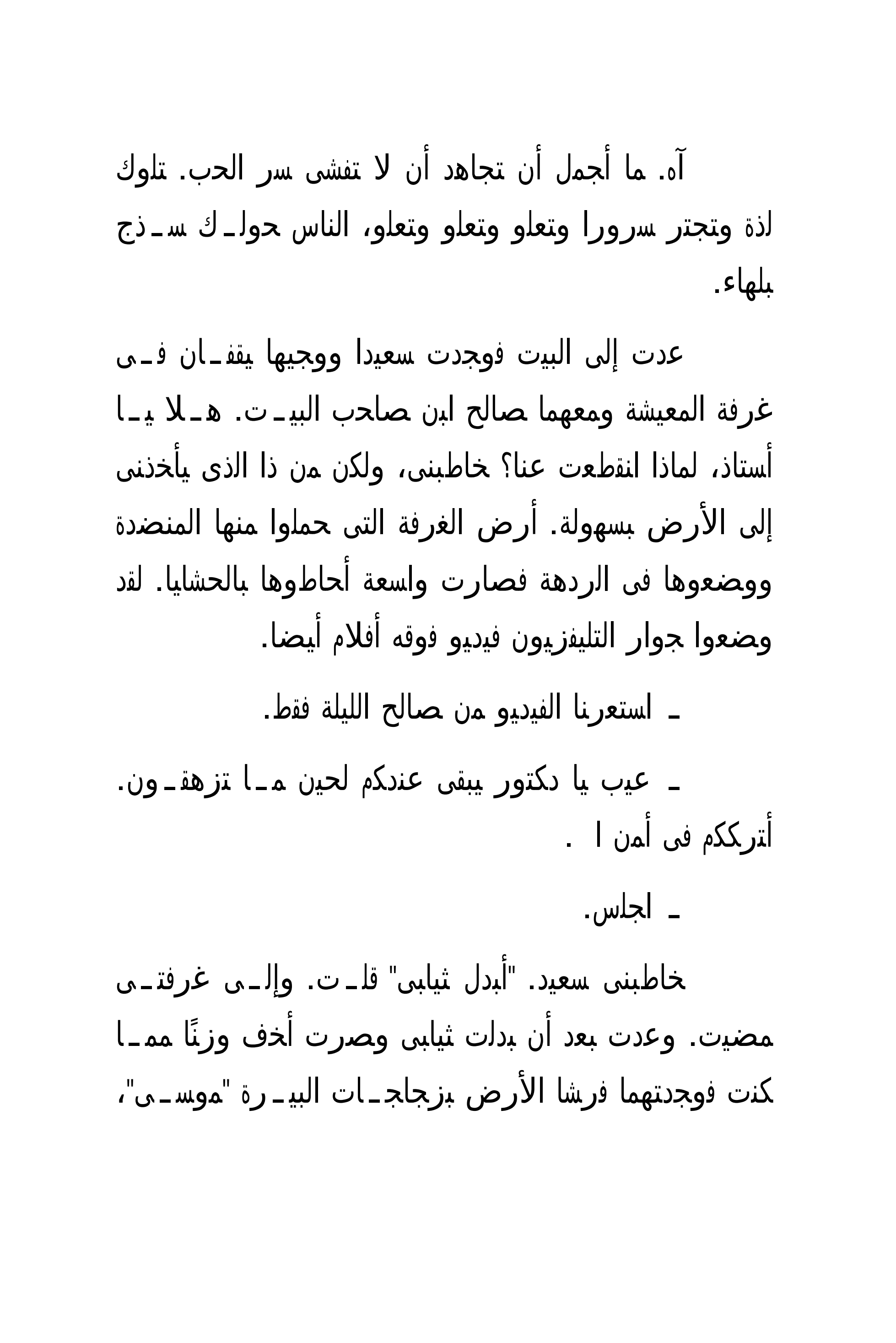
ـ آخذك يا واضحة ولن آخذ غيرك.

قامت وأخذت رأسى فى صـدرها وقبلتـه وقالـت كأميرة مزهوة:

ـ يمكن لك أن تنصرف. لا حاجة بـى إلـى درس اليوم.

*****

جسدى حى وليس شيئًا أعيش فيه. حى. حى. حـى، وفتحت نافذة السيارة رغم شدة البرد وهفت نفسى إلى حدائق من الورد. لقد استيقظت كل حواسى تريد الإشباع. ليس من العدل فى هذه الدنيا إغلاق الحواس. لكننى لا أستطيع دخول البيت عاريا أرقص. لابد أن أخفى عن سعيد ووجيـه كـل شىء. أدخل كما خرجت. روح متعبة عليل جسدها تنتظـر الشفاء. كذب سعيد على ولم يقبل وداد ولافاز منهـا بشـىء أكثر أو أقل.



آه. ما أجمل أن تجاهد أن لا تفشى سر الحب. تلوك لذة وتجتر سرورا وتعلو وتعلو وتعلو، الناس حولـك سـذج بلهاء.

عدت إلى البيت فوجدت سعيدا ووجيها يقفـان فـى غرفة المعيشة ومعهما صالح ابن صاحب البيـت. هـلا يـا أستاذ، لماذا انقطعت عنا؟ خاطبنى، ولكن من ذا الذى يأخذنى إلى الأرض بسهولة. أرض الغرفة التى حملوا منها المنضدة ووضعوها فى الردهة فصارت واسعة أحاطوها بالحشايا. لقد وضعوا جوار التليفزيون فيديو فوقه أفلام أيضا.

ـ استعرنا الفيديو من صالح الليلة فقط.

ـ عيب يا دكتور يبقى عندكم لحين مـا تزهقـون. أترككم فى أمن ا .

ـ اجلس.

خاطبنى سعيد. "أبدل ثيابى" قلـت. وإلـى غرفتـى مضيت. وعدت بعد أن بدلت ثيابى وصرت أخف وزنًا ممـا كنت فوجدتهما فرشا الأرض بزجاجـات البيـرة "موسـى"،

وجلس وجيه فى يده زجاجة صغيرة بيضاء وفى يده الأخرى "قطارة".

- كحول فى المستشفى. سأضع نقطة فى كل زجاجة والشاطر يصمد.

قال وجيه، وسعيد خرج إلى المطبخ وعـاد يحمـل صينية كبيرة فوقها ثلاث دجاجات محمرة وقطع كبيرة مـن الكباب. "متى طهوت كل ذلك؟" "اشـتراه وجيـه، اتفقنـا أن نشترى كل شىء الليلة. الليلة نبذخ".. وضحك وأنا الذى لـم أحتفل من قبل برأس السنة، وكنت أكتفى بالبقاء فـى البيـت والفرجة على التليفزيون، رأيت سعيدا ووجيها كأنهما ريفيان ينزلان المدينة لأول مرة.

- اختر لنا فيلما نبدأ به.

أمسكت الأفلام الأربعة. دكتور جيفاكو. فرانكشتين. قبضة بروس لى. البعض يفضلونها ساخنة. أى خليط ؟ ليس من بينها فيلم جنسى على أى حال. نبدأ بمـارلين مـونرو. وجلسنا نشرب ونأكل والفيديو يعمل ولا ننظر إليه، وأفقـدتنا

قطرة الكحول كثيرا من توازننا. "كل كثيرا حتى لا تسـكر". يقول وجيه "عليك اللعنة". يرد سعيد وينشد:

"لاتبك ليلى ولا تطرب إلى هند

واشرب على الورد من حمراء كالورد"

وتضحك ويقول وجيه: لكن هذه صـفراء ونـزداد ضحكًا، وينشد سعيد:

"يا خليلى من بنى مخزوم

عللانى بماء بنت الكروم"

ونضحك ويقول وجيه: ولكن هذه بنت الشعير.. يقول سعيد "بنت كلب" ونزداد صراخًا، وقلت لهما أن يسـمعانى، فاتسعت عيونهما ينتظران ما سأقول:

" وا ما أدرى بأية علة

يدعونها فى الراح باسم الراح"

"ألريحها ولروحها تحت الحشا

أم لارتياح نديمها المرتاح"

ولابد أن البيت زلزلت أركانه من صراخنا. سـألنى سعيد كيف أعرف هذا الشعر. قلت: أعرف الكثير يا سـعيد. قال لماذا تخفيه عنا؟ هيا نشرع فى المبارزة، لكننى أطلـت النظر إليه. بكى فجأة وأشار إلى الطعـام وقـال: أن نبعـد الحمار. "أى حمار؟ لا أرى أمامى إلا أنـت". قـال وجيـه، وانطلقت أصرخ ضاحكًا، لكن سعيد استمر يبكى، بل فـزع وقام مبتدعا ناحية الحائط وقال: إن الحمار يضع رأسه فـى الأكل ولابد أن نأخذه بعيدا، وراح يكرر ذلك وسمعنا طرقات سريعة على الباب الخارجى تكاد تحطمه فقمت، وفى الردهة ضحكت، وفتحت فمى "أشرب الهواء البارد. ما كدت أفـتح الباب حتى دفعونى جانبا واندفعوا إلى الغرفة، ثلاثة جنـود كأنهم شياطين، تلمع أزرارهم النحاسية وتبدو أحذيتهم ضخمة كأنها كتل من البازلت تسقط متتابعة فوق الأرض ودخل برد شديد معهم إلى الردهة والى روحى، ودخل خلفهـم ضـابط شاب قال "احملوا كل شىء، وحين اصطدمت قدمه بزجاجـة الكحول فانسكبت، لمحت وجيه يتنفس بارتياح.

بملابسنا المنزلية أخذونا فى العربـة الجيـب التـى مضت والصمت فيها، والظلام حولها والبرد، وإلـى غرفـة

خالية من الأثاث أدخلونا بقسم الشـرطة، حولنـا الجـدران الباردة وتحتنا الأرض المثلجة، وليس معنا غير بكاء سـعيد لوقت طويل من رأس الحمار التى ظلت تخايله.

فى الصباح أخذونا إلى غرفة الضـابط المسـئول. ضابط كبير ذو رتبة كبيرة ابتسم لوجيه وقال:

ـ يا هلا يا دكتور كيف صارت الليلة.........؟

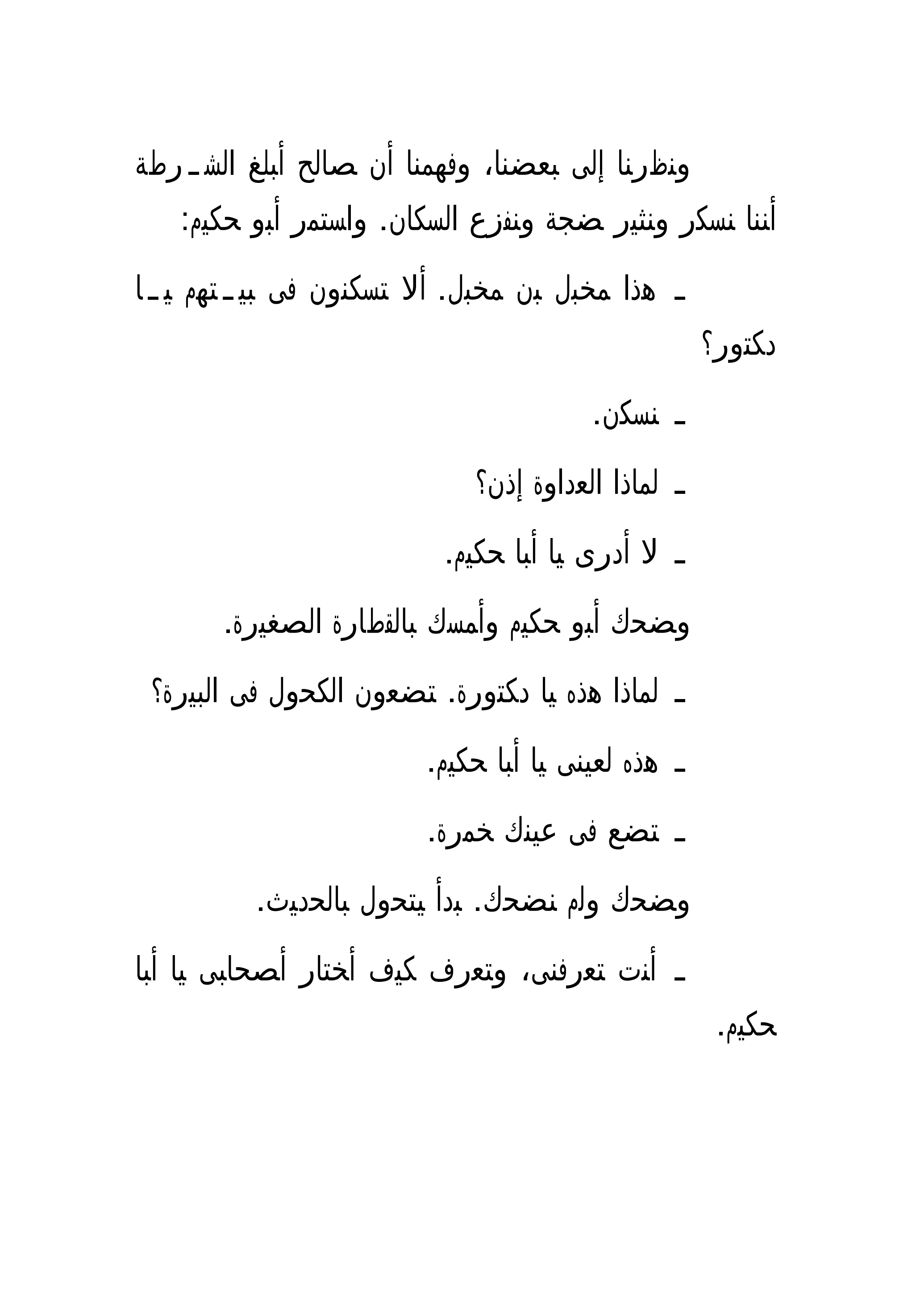
ابتسم وجيه وقال:

ـ اسأل تلميذك الذى حبسنا يا أبا حكيم.

ـ هذه عندى يا دكتور.

وأشار للضابط الشاب الذى قبض علينا أن ينصرف، وطلب لنا قهوة، وراح يقلب أوراقًا أمامه. جاء شـيخ مسـن يحمل الإبريق والفنجان، وطاف علينا، وشرب وجيه وسعيد مرتين، ولم أشرب. لا قِبلَ لى بالقهوة العربية المرة، وفجـأة هتف أبو حكيم.

ـ إيش هذا ؟ صالح بن سنيور الثقيفى. هذا مخبل.



ونظرنا إلى بعضنا، وفهمنا أن صالح أبلغ الشـرطة أننا نسكر ونثير ضجة ونفزع السكان. واستمر أبو حكيم:

ـ هذا مخبل بن مخبل. ألا تسكنون فى بيـتهم يـا دكتور؟

ـ نسكن.

ـ لماذا العداوة إذن؟

ـ لا أدرى يا أبا حكيم.

وضحك أبو حكيم وأمسك بالقطارة الصغيرة.

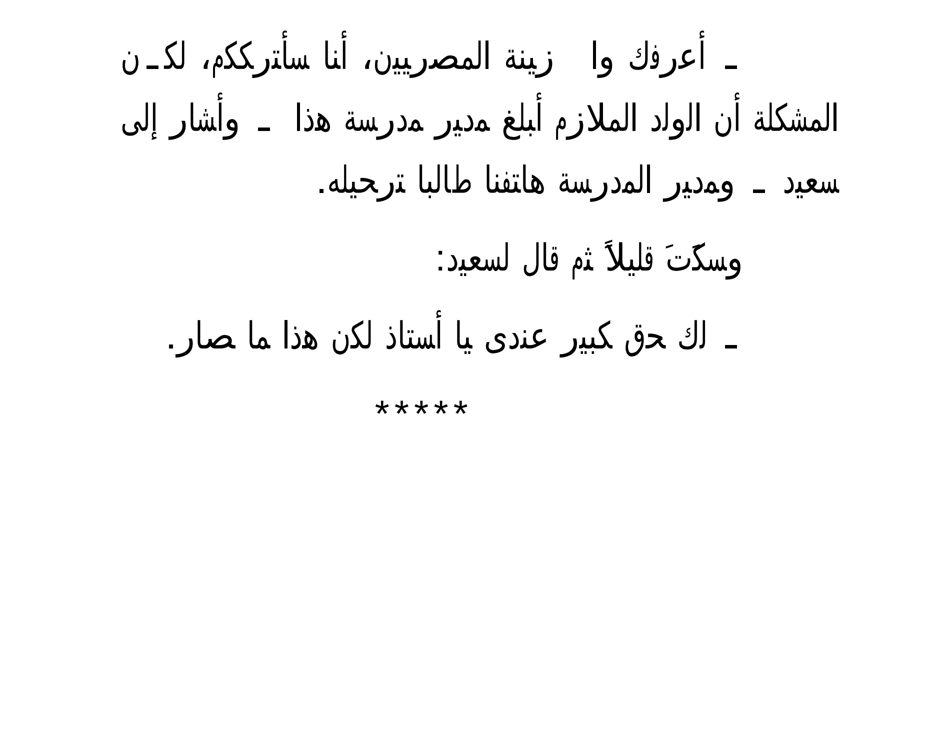
ـ لماذا هذه يا دكتورة. تضعون الكحول فى البيرة؟

ـ هذه لعينى يا أبا حكيم.

ـ تضع فى عينك خمرة.

وضحك ولم نضحك. بدأ يتحول بالحديث.

ـ أنت تعرفنى، وتعرف كيف أختار أصحابى يا أبا حكيم.



ـ أعرفك وا   زينة المصريين، أنا سأتركّكم، لكـ ن المشكلة أن الواد الملازم أبلغ مدير مدرسة هذا ـ وأشار إلى سعيد ـ ومدير المدرسة هاتفنا طالبا ترحيله.

وسكَتَ قليلاً ثم قال لسعيد:

ـ لك حق كبير عندى يا أستاذ لكن هذا ما صار.

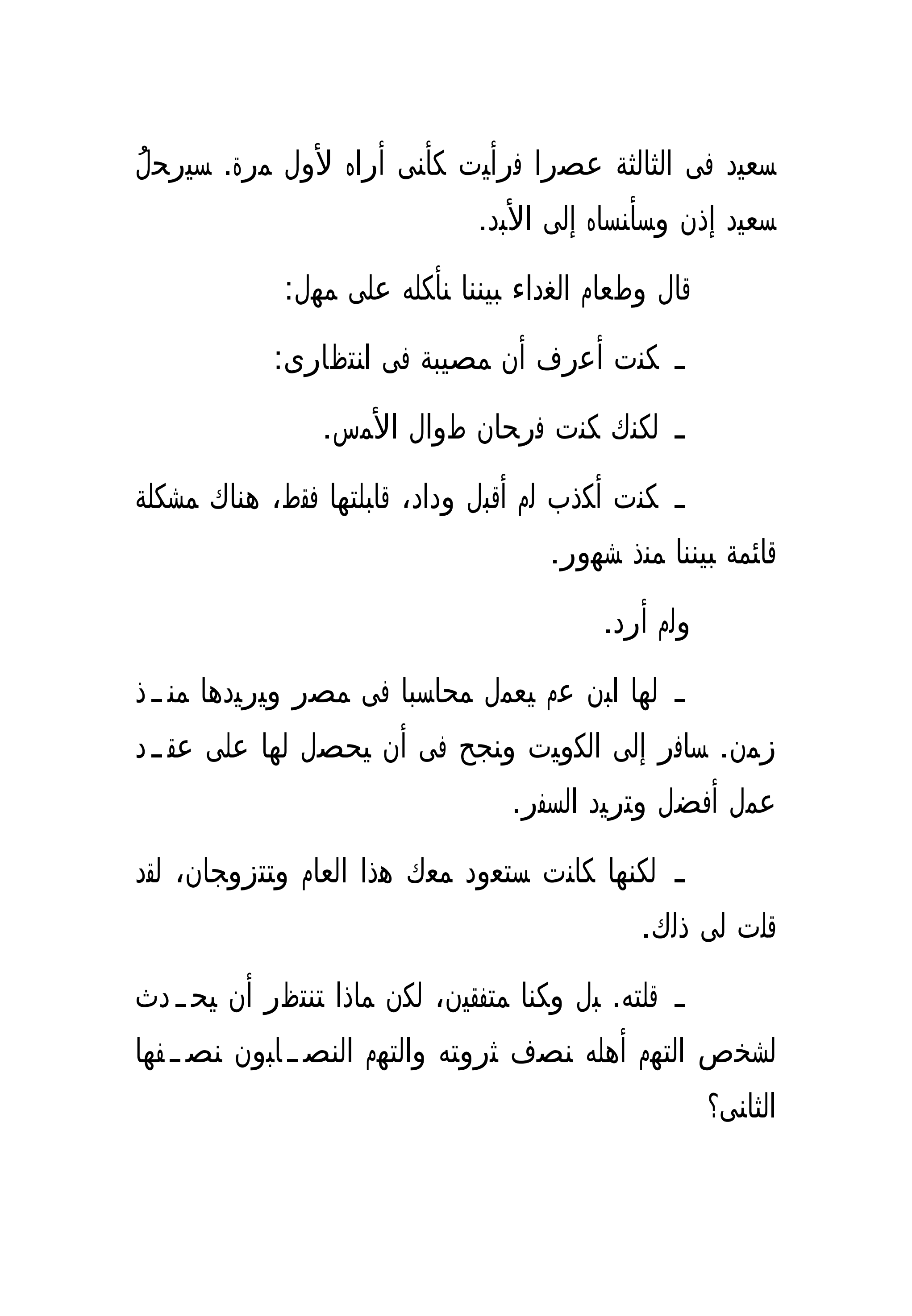
*****

(١٨)

تاقت نفسى إلى العمل، وها أنذا أقود سيارتى بسرعة وأفتح نافذة السيارة لهواء الصباح البارد ولقطع الضباب..

قطعت أجازتى وذهبت، لم يعد ممكنًا البقاء فى البيت وقتًا طويلاً. لقد عدنا من قسم الشرطة أمس إلى البيت فـى صمت. تركنا وجيه وذهب إلى المستشـفى يسـبق انتشـار الخبر. قال إن الأمر يختلف بذهابه أولاً. ودخل سعيد البيـت مستسلما، بدل ثيابه وسألته إلى أين؟ قال إلى المدرسة، هـل تظنهم يرحلوننى وأنا هنا.........؟

أخذت حماما ساخنًا بعد الليلة الباردة، ورأيت الجرح أحمر، ومكان الخيط كأنما عقرب مشى فوق جلدى، وتـرك بصمات أقدامه. وضعت فوقه ضمادة جديدة، ونمت وأيقظنى


سعيد فى الثالثة عصرا فرأيت كأنى أراه لأول مرة. سيرحلُ سعيد إذن وسأنساه إلى الأبد.

قال وطعام الغداء بيننا نأكله على مهل:

ـ كنت أعرف أن مصيبة فى انتظارى:

ـ لكنك كنت فرحان طوال الأمس.

ـ كنت أكذب لم أقبل وداد، قابلتها فقط، هناك مشكلة قائمة بيننا منذ شهور.

ولم أرد.

ـ لها ابن عم يعمل محاسبا فى مصر ويريدها منذ زمن. سافر إلى الكويت ونجح فى أن يحصل لها على عقد عمل أفضل وتريد السفر.

ـ لكنها كانت ستعود معك هذا العام وتتزوجان، لقد قالت لى ذلك.

ـ قلته. بل وكنا متفقين، لكن ماذا تنتظر أن يحدث لشخص التهم أهله نصف ثروته والتهم النصابون نصفها الثانى؟

وقام وحمل أطباق الطعام دون أن يدرى أنى لم أنته فقمت وحملتها معه. ما كدت أدخل غرفتى حتى بدلت ثيـابى وخرجت مسرعا بالعربة لا أبالى بجرحى ولا بالمطبات فى الأزقة. أى دافع خبيث كان وراء شكوى صالح؟ كيف أقنـع الشرطة أن تداهمنا؟ ووصلت إلى بيته ووقفـت أدق البـاب دقات متتابعة.

ـ من..........؟

جاءنى صوت امرأة عجوز واهن من خلف الباب.

ـ أنا إسماعيل. أين صالح؟

ـ صالح من؟

ـ لا أحد هنا بهذا الاسم.

ـ صالح التلميذ بالمتوسطة الـذى لأهلـه تجـارة بالشارع العام.

ـ لا أحد بهذا الاسم هنا. انصرفْ.

وسمعت صوت وقع الأقدام الواهنـة تعـود. تلفـت حولى. يمينى ويسارى وورائى. هذا هو البيت وليست هـذه

مدينة سحرية فيها كل ما تراه. ركبت سيارتى مرة أخـرى واندفعت إلى الشارع العام.

ـ إيش تبغى يا أستاذ........؟

قال بهدوء بعد أن دخلت دكانه، كـان يقـف يبيـع البطاطين والأقمشة وأنا أنظر إليه بغيظ شديد. لـم ينتظـر ردى.

تبغى بطانية جلد نمر. لدينا جلد نمر يحبه المصريون جدا. مصرى أنت يا أستاذ؟ أليس كذلك؟ تبـدو جديـدا فـى تبوك.

وكان يتلفت أثناء الكلام إلى ولدين رأيتهما عنده من قبل، ويبتسمان فى استمتاع.

ـ ما تبغى شيئًا؟ إذن أفْسح مكاناً لغيرك ا يرضى عليك. تشرب بارد يا أستاذ؟ وأدركتُ حماقة ما أفعل. هـذا الولد الذى لم يبلغ العشرين يسخر منى مـرتين ولا سـبيل للانتقام. عدت على مهل إلى البيت. دخلت الغرفة ونظـرت إلى نتيجة الحائط. الأول من يناير عام ١٩٧٩. آه لو انتهـى هذا اليوم وليلته وذهبت إلى عملى فى الصباح. ورأيت سعيدا

وهو يخرج حقائبه استعدادا للسفر. قال إن المدرسةَ أرسـلت تطلب رأى الوزارة والرأى سيأتى بالترحيل خلال أيام هـو يعرف ذلك وقال فجأة ما كان عليك أن تـرفض التـدريس لصالح. قلت أنا لم أرفض، فقط رفضت أن أتقاضـى أجـرا نظير الفرجة على أفلام جنسية. لا يرفض أحد رشـوته ولا هديته. رفضت أنت أن تكون له اليد العليا. هذا شـىء لـم يخطر ببالى فقط يا سعيد، صالح أصغر من أن يفكـر كمـا تقول. صالح تاجر يا إسماعيل. معظم التلاميذ هنـا تجـار، صغار السن لكن لهم نفوسا كبارا. أربكنى سعيد وقلت هـذه نفوس مريضة. قال ربما هى بريئة براءة الأطفال تتألم لأول أذى ولا تعرف كيف تدافع عن نفسها. هنا لو أعطاك أحـد شيئًا خذه بلا تردد، ولو طلب أحد منك شيئًا افعله أو أعطـه أملاً حتى ينسى فأنت لا تعرف كيف تسـير الـريح. طـال سكوتى ثم قلت إننى ذهبت إلى صالح منذ قليل. ابتسم ساخرا وقال أسعدته بالمجان.



فى غرفة مكتبى رحت أنظر إلى الدولاب الزجاجى والمقاعد والساعة المعلقة فى الحـائط والأرض والموكيـت

والمكيف ذى الصوت العالى والخازنة والمكتب المجاور لها. هذه غرفة أحبها ولا أدرى. الوقت بها يمر وإلا ما معنى هذه الشهور الأربعة التى مضت. لقد اسـتقبلنى الجميـع اليـوم بفرح. الآسيويون ونبيل ومنذر وعابد أيضا ابتسم وعم عبـد ا الذى أعجبه أن أقطع أجازتى وأحضر، وفى التاسعة دق التليفون فسمعت صوت روز مارى. ياإلهى! كنـت نسـيت. قالت إنها تفعل ذلك يوم، وإنها تنتظر أن أقبل دعوتها للغداء. قلت أقبلُها إذا كانت اليوم، فضحكت وكأنى رأيتهـا تمتلـئ بالفرح. لا تدرى أنى لا أريد العودة إلى البيت. قالت ستأتى فى الثالثة بسيارتها وسأتبعها أنا بسيارتى. وما كدت أفرغ من المكالمة حتى جاء عابد من غرفته يسألنى "هل قِبلتَ دعـوة روز؟" كان يستمع إلى حديثنا فالتليفونات على خـط واحـد. لماذا إذن جاء يسألنى. أجبت "كما سمعت". ولم يختلج وجهه ولم يتغير لونه.

قال:

ـ هذا خطاب لك.

تناولت الخطاب وتأملته. ما هذا النسيان الجـارف؟ هذا خط واضحة لا أخطئه، وهذا خطابها الذى حدثتنى عنه.

واضحة التى تفجر سرها أول أمس فقط ونسيته كأنه تم منـذ زمن سحيق.

ـ هل تعرف أحدا بالرياض؟

لم تكتب اسمها على المظروف لكنه قرأ الأختام.

ـ لى قريب هناك.

أجبت دون أن أنظر إليه.

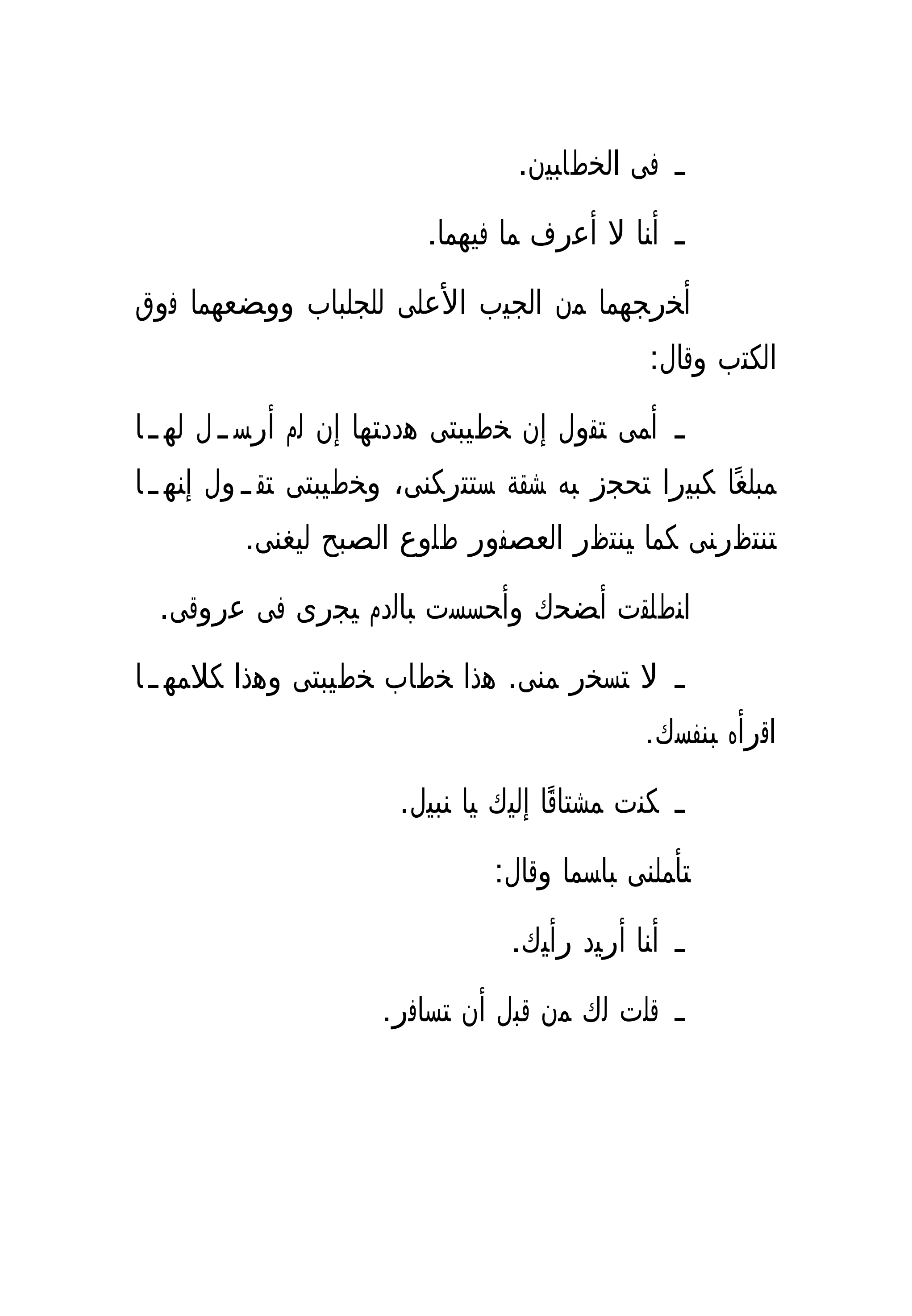
*****

وفى الثانية عشرة ، بعد أن رأيت اليمنى جالسا على الأرض والسواك فى فمه، وبعد أن ابتسم لى ابتسامة أكبـر من كل مرة سابقة، وضحكت لأنى كنت نسيته، ودخل نبيـل يحمل قهوة لم أطلبها، وجلس ثم قال:

ـ وصلنى اليوم خطابان. واحد من أمى وآخر مـن خطيبتى. ما رأيك............؟

ـ فيم؟

سألت مبتسما. ها هو نبيل يعيد إلى شيئًا من البهجـة بطريقته التى كنت نسيتها فى الكلام.



ـ فى الخطابين.

ـ أنا لا أعرف ما فيهما.

أخرجهما من الجيب الأعلى للجلباب ووضعهما فوق الكتب وقال:

ـ أمى تقول إن خطيبتى هددتها إن لم أرسل لها مبلغًا كبيرا تحجز به شقة ستتركنى، وخطيبتى تقول إنها تنتظرنى كما ينتظر العصفور طلوع الصبح ليغنى.

انطلقت أضحك وأحسست بالدم يجرى فى عروقى.

ـ لا تسخر منى. هذا خطاب خطيبتى وهذا كلامها اقرأه بنفسك.

ـ كنت مشتاقًا إليك يا نبيل.

تأملنى باسما وقال:

ـ أنا أريد رأيك.

ـ قلت لك من قبل أن تسافر.

ـ وأنا قلت لا أستطيع. إننى أفكر فى حـل آخـر. أرسل توكيلاً لأخى الأكبر يعقد قرانى على خطيبتى، وأرسل إليها فيزة دخول، وتأتى بثوب الفرح تعيش هنا معى.

ـ حل سليم.

سكَتَ لحظات وقال:

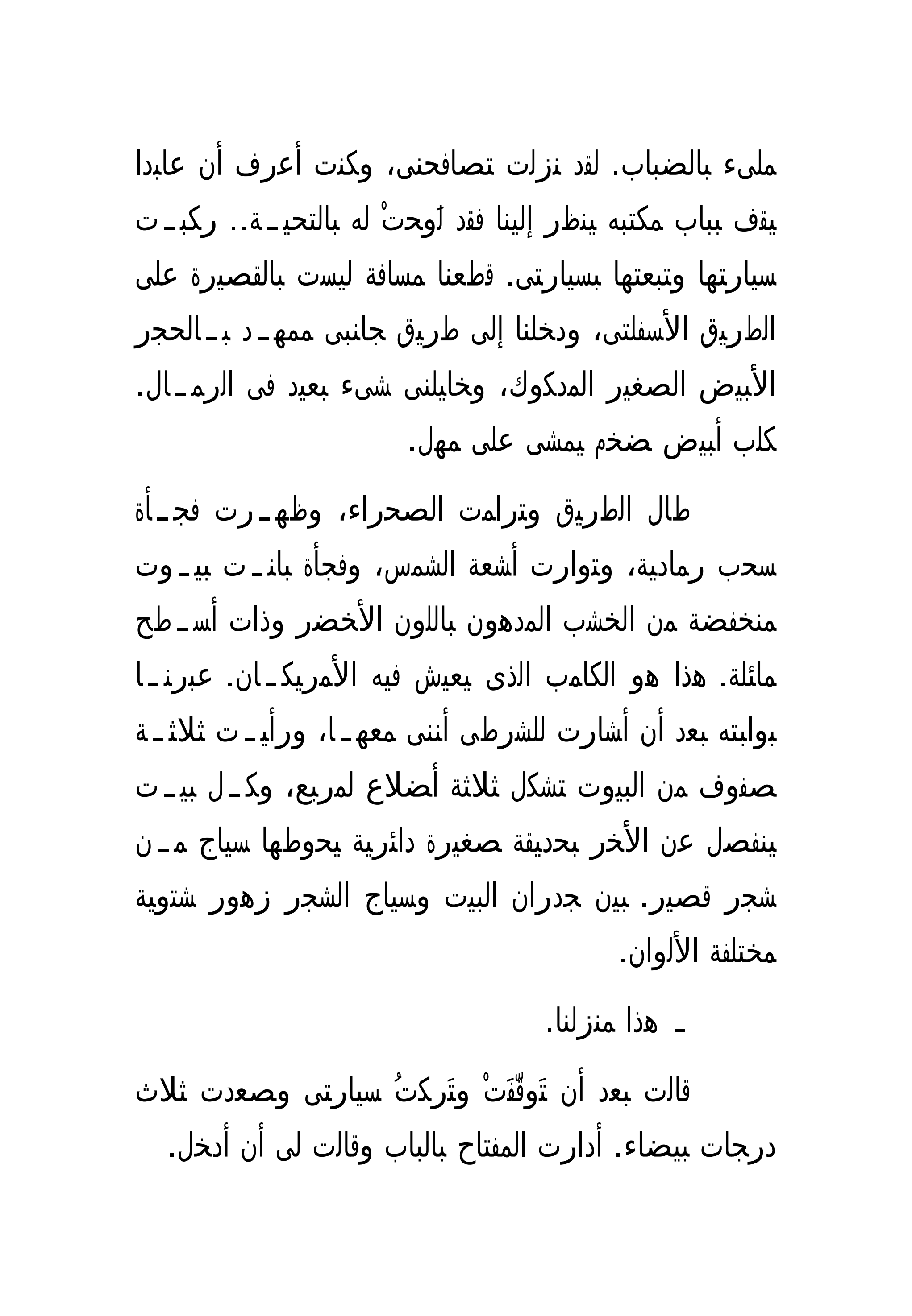
ـ المشكلة أن أخى الأكبر مختل العقل والثانى فـى السجن كما قلت لك، أنا لا أعرف كيف أخلـص مـن هـذه الورطة.

وقام وتركنى والدهشة معـى فـى الغرفـة، لكنـى أحسست وكأنى صرت أكثر صحة وعافية.

*****

فى الثالثة والربع جاءت روز. كان منذر آخر الذين انصرفوا من العمال. اقترب منى وهمس فى أذنى. "عنـدى حكايات يا أستاذ" ثم تحدث بصوت عالٍ "تكسر سـيارتك أو أكسر سيارتى لنعود كل يوم معا". وانصرف كالعادة متعجلاً.

رأيتها تقف بالسيارة خارج الباحة ووجهها وشـعرها يلمعان فى ضوء النهار الذى امتلكته الشـمس بعـد صـباح

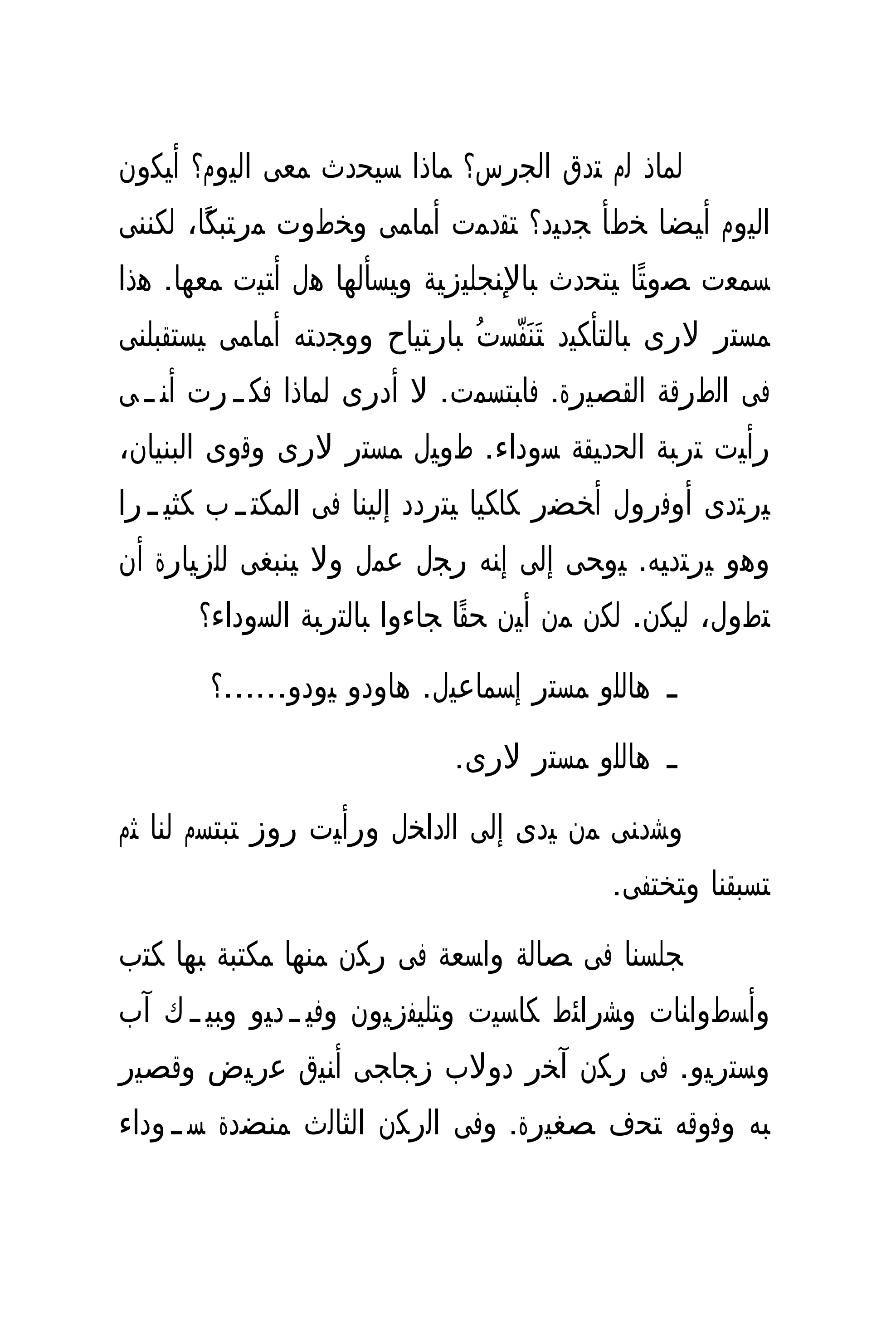


ملىء بالضباب. لقد نزلت تصافحنى، وكنت أعرف أن عابدا يقف بباب مكتبه ينظر إلينا فقد لوحتْ له بالتحية.. ركبت سيارتها وتبعتها بسيارتى. قطعنا مسافة ليست بالقصيرة على الطريق الأسفلتى، ودخلنا إلى طريق جانبى ممهد بالحجر الأبيض الصغير المدكوك، وخايلنى شىء بعيد فى الرمال. كلاب أبيض ضخم يمشى على مهل.

طال الطريق وترامت الصحراء، وظهرت فجأة سحب رمادية، وتوارت أشعة الشمس، وفجأة بانت بيوت منخفضة من الخشب المدهون باللون الأخضر وذات أسطح مائلة. هذا هو الكامب الذى يعيش فيه الأمريكان. عبرنا بوابته بعد أن أشارت للشرطى أننى معها، ورأيت ثلاثة صفوف من البيوت تشكل ثلاثة أضلاع لمربع، وكل بيت ينفصل عن الأخر بحديقة صغيرة دائرية يحوطها سياج من شجر قصير. بين جدران البيت وسياج الشجر زهور شتوية مختلفة الألوان.

- هذا منزلنا.

قالت بعد أن تَوقّفَتْ وتَركتُ سيارتى وصعدت ثلاث درجات بيضاء. أدارت المفتاح بالباب وقالت لى أن أدخل.



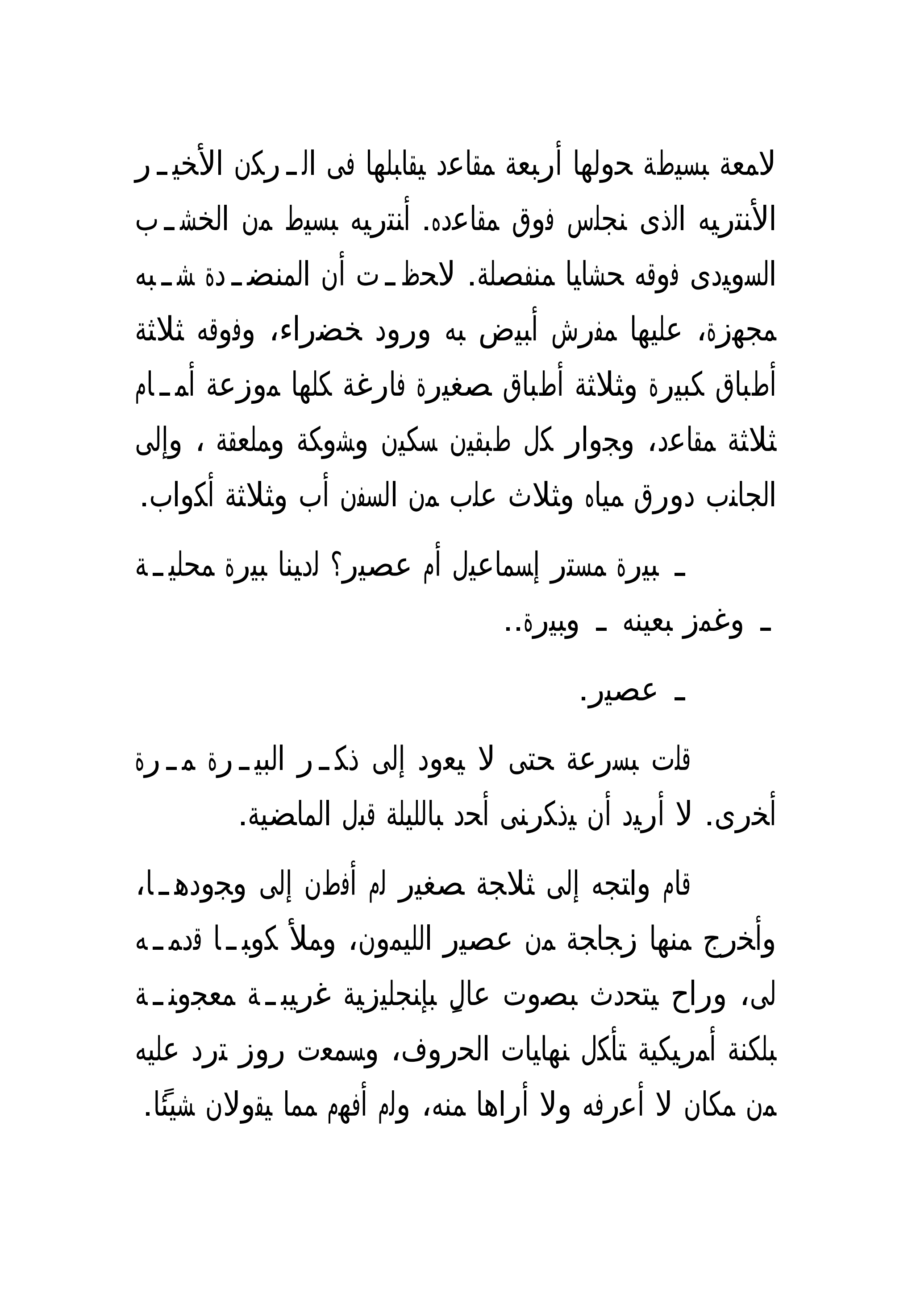
لماذ لم تدق الجرس؟ ماذا سيحدث معى اليوم؟ أيكون اليوم أيضا خطأ جديد؟ تقدمت أمامى وخطوت مرتبكًا، لكننى سمعت صوتًا يتحدث بالإنجليزية ويسألها هل أتيت معها. هذا مستر لارى بالتأكيد تَنَفّستُ بارتياح ووجدته أمامى يستقبلنى فى الطرقة القصيرة. فابتسمت. لا أدرى لماذا فكـرت أنـى رأيت تربة الحديقة سوداء. طويل مستر لارى وقوى البنيان، يرتدى أوفرول أخضر كاكيا يتردد إلينا فى المكتـب كثيـرا وهو يرتديه. يوحى إلى إنه رجل عمل ولا ينبغى للزيارة أن تطول، ليكن. لكن من أين حقًا جاءوا بالتربة السوداء؟

ـ هاللو مستر إسماعيل. هاودو يودو......؟

ـ هاللو مستر لارى.

وشدنى من يدى إلى الداخل ورأيت روز تبتسم لنا ثم تسبقنا وتختفى.

جلسنا فى صالة واسعة فى ركن منها مكتبة بها كتب وأسطوانات وشرائط كاسيت وتليفزيون وفيـديو وبيـك آب وستريو. فى ركن آخر دولاب زجاجى أنيق عريض وقصير به وفوقه تحف صغيرة. وفى الركن الثالث منضدة سـوداء

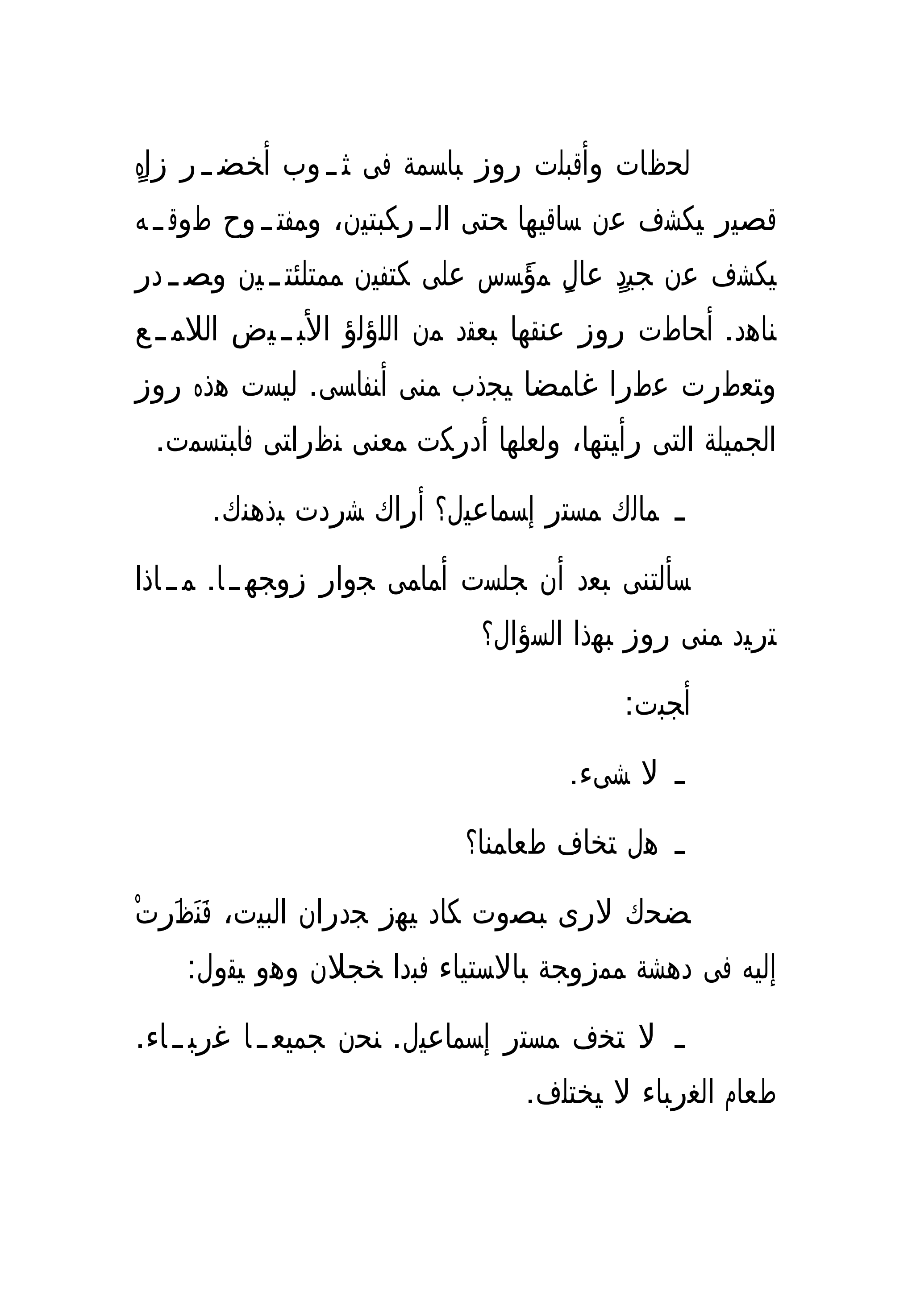

لامعة بسيطة حولها أربعة مقاعد يقابلها فى الـركن الأخيـر الأنتريه الذى نجلس فوق مقاعده. أنتريه بسيط من الخشـب السويدى فوقه حشايا منفصلة. لاحظـت أن المنضـدة شـبه مجهزة، عليها مفرش أبيض به ورود خضراء، وفوقه ثلاثة أطباق كبيرة وثلاثة أطباق صغيرة فارغة كلها موزعة أمـام ثلاثة مقاعد، وجوار كل طبقين سكين وشوكة وملعقة ، وإلى الجانب دورق مياه وثلاث علب من السفن أب وثلاثة أكواب.

ـ بيرة مستر إسماعيل أم عصير؟ لدينا بيرة محليـة ـ وغمز بعينه ـ وبيرة..

ـ عصير.

قلت بسرعة حتى لا يعود إلى ذكـر البيـرة مـرة أخرى. لا أريد أن يذكرنى أحد بالليلة قبل الماضية.

قام واتجه إلى ثلاجة صغير لم أفطن إلى وجودهـا، وأخرج منها زجاجة من عصير الليمون، وملأ كوبـا قدمـه لى، وراح يتحدث بصوت عالٍ بإنجليزية غريبـة معجونـة بلكنة أمريكية تأكل نهايات الحروف، وسمعت روز ترد عليه من مكان لا أعرفه ولا أراها منه، ولم أفهم مما يقولان شيئًا.



لحظات وأقبلت روز باسمة فى ثـوب أخضـر زاهٍ قصير يكشف عن ساقيها حتى الـركبتين، ومفتـوح طوقـه يكشف عن جيدٍ عالٍ مؤَسس على كتفين ممتلئتـين وصـدر ناهد. أحاطت روز عنقها بعقد من اللؤلؤ الأبـيض اللامـع وتعطرت عطرا غامضا يجذب منى أنفاسى. ليست هذه روز الجميلة التى رأيتها، ولعلها أدركت معنى نظراتى فابتسمت.

ـ مالك مستر إسماعيل؟ أراك شردت بذهنك.

سألتنى بعد أن جلست أمامى جوار زوجهـا. مـاذا تريد منى روز بهذا السؤال؟

أجبت:

ـ لا شىء.

ـ هل تخاف طعامنا؟

ضحك لارى بصوت كاد يهز جدران البيت، فَنَظَرتْ إليه فى دهشة ممزوجة بالاستياء فبدا خجلان وهو يقول:

ـ لا تخف مستر إسماعيل. نحن جميعـا غربـاء. طعام الغرباء لا يختلف.

وسألتنى روز:

ـ ألست سعيدا فى العمل مع مستر عبد ا ؟

ـ مستر عبد ا شخص ممتاز، لابد أنكما تعرفانـه أكثر منى، مستر لارى يعمل فـى المؤسسـة وأنـت فـى حضانته.

وظللنا الصمت. بدا أنى تجاوزت حدود اللياقة. قالت روز بعد قليل:

ـ فعلاً. مستر عبد ا شخص ممتاز.

وعدنا إلى الصمت. هل يتكدر صـفو اللقـاء؟ هـل ينتهى الكلام بهذه السرعة؟

لكن مستر لارى سألنى:

ـ هل أنت من القاهرة مستر إسماعيل؟

ـ أنا من الإسكندرية.

ـ أوه. مدينة جميلة.

ـ هل زرتها مستر لارى؟

ـ لا. قرأت عنها رباعية داريل. لابد أنك قرأتهـا. روز تقول إنك مثقف جدا.

أدهشنى إطراؤه الكاذب وقلت:

ـ اختلفت الإسكندرية الآن. لم يعد بها أجانـب ولا يهود بالذات.

ـ لكن اليهود يعودون الآن مستر إسماعيل.

ـ لا أظن مستر لارى.

قلت ذلك ونظرت إلى ظهـر روز التـى اسـتأذنت وقامت لتحضر الطعام. ظهر بديع التقسـيم، كـدت أنهـض وأحتضنه، وربلبتا ساقيها تلمعان بألق غريب. لكننى تنبهـت لنظرات مسترى لارى، فأطرقت:

قام هو ووضع فى الإستيريو شريطًا انسـابت منـه موسيقى خفيفة منعشة، وعاد يجلس صامتًا وأنا لا أستطيع أن أمنع نفسى من أن أختلس النظر إلى روز وهى تأتى لتضـع شيئًا فوق السفرة، أو تعود إلى المطبخ، وعاد يسألنى:

ـ هل تظن حقًا أن اليهود لا يذهبون إلـى مصـر الآن؟

ـ يذهبون ولكن لا يهتم بهم أحد.

ـ لكن السادات يتحدث عن السلام كل يوم.

ـ السادات ليس الشعب المصرى مستر لارى. بيننا وبين إسرائيل دم كثير.

وسكتَ وسكتُ وعدت أشعر بأنى أفسد كـل شـىء. قلت ليكن. لكن روز وقفت فاردة ذراعيها تقـول بصـوت مبهج:

ـ كل شىء جاهز الآن.

قمنا للمائدة ولم يكن الغداء مختلفًا. كان بالضبط كما قال لارى، طعام الغرباء. شرائح من اللحم البارد، وشـرائح من اللحم الساخن، وأرز قليل وخبز أقل، وخضار سـويته، وطبق كبير من السلاطة، وزجاجة نبيذ أحمر برتغالى عليها علامة الفرسان الثلاثة.

قال لارى:

ـ يجب أن نعتذر لأننا نقـدم إليـك نبيـذًا انتقـل بالطائرة.

لم أفهم ماذ يقصد، فقال:

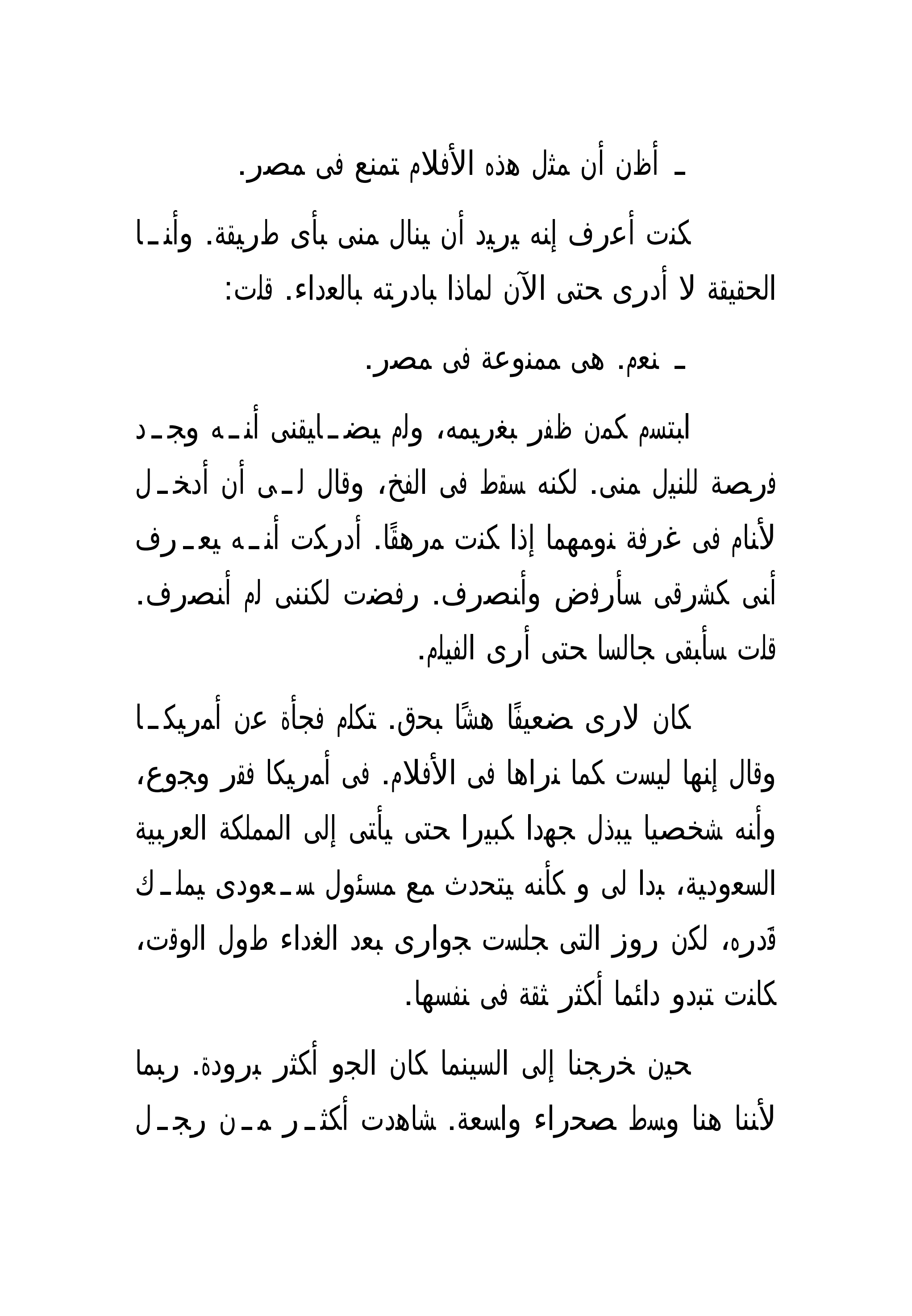
ـ النبيذ يفقد الكثير من مزاقه حين ينتقل. أفضل نبيذ تشربه فى مكانه.

ـ هذه مسائل دقيقة مسـتر لارى وأنـا لا أشـرب الخمر.

غيرت روز الموسيقى، وأدارت أسـطوانة تحمـل فالسات لشتراوس، وسألنى لارى ما إذا كنت أحب الموسيقى، فتحدثت عن سترافنسكى وطقـوس الربيـع وتشايكوفسـكى ومارش السلاف. وبدا لارى معجبا بثقافتى الموسيقية التـى أعرف أنا مقدار بساطتها، وحين قال إنه يحب كثيرا موسيقى هايدن، قلت هذا الرجعى الكنسى لا يصمد دقيقة أمام فـاجنر مثلاً، وبدا أن الجو تكهرب بحق هـذه المـرة، لكـن روز ابتسمت وقالت بتفوق تحسد عليه، لماذا حقًا لا تـأكلون فـى صمت، وتستمعون إلى فراشات شتراوس وهى تحلق حولنا.



بعد الغداء قالت روز إن بالكامب سـينما سـتعرض اليوم "التانجو الأخير فى باريس" .. وقال لارى:



ـ أظن أن مثل هذه الأفلام تمنع فى مصر.

كنت أعرف إنه يريد أن ينال منى بأى طريقة. وأنا الحقيقة لا أدرى حتى الآن لماذا بادرته بالعداء. قلت:

ـ نعم. هى ممنوعة فى مصر.

ابتسم كمن ظفر بغريمه، ولم يضايقنى أنه وجد فرصة للنيل منى. لكنه سقط فى الفخ، وقال لى أن أدخل لأنام فى غرفة نومهما إذا كنت مرهقًا. أدركت أنه يعرف أنى كشرقى سأرفض وأنصرف. رفضت لكننى لم أنصرف. قلت سأبقى جالسا حتى أرى الفيلم.

كان لارى ضعيفًا هشًا بحق. تكلم فجأة عن أمريكا وقال إنها ليست كما نراها فى الأفلام. فى أمريكا فقر وجوع، وأنه شخصيا يبذل جهدا كبيرا حتى يأتى إلى المملكة العربية السعودية، بدا لى و كأنه يتحدث مع مسئول سعودى يملك قدره، لكن روز التى جلست جوارى بعد الغداء طول الوقت، كانت تبدو دائما أكثر ثقة فى نفسها.

حين خرجنا إلى السينما كان الجو أكثر برودة. ربما لأننا هنا وسط صحراء واسعة. شاهدت أكثر من رجل

وامرأة يخرجون من البيوت، ويمشون على مهل يضـحكون ويتحدثون بصوت عالٍ، ويتجهون جميعا إلى السـينما التـى وجدتها صغيرة أنيقة ذات مقاعد جلدية وثيرة ومكيفة الهواء.

جلسنا، ودار الفيلم الممنوع فى مصـر، وخرجـت مسحوراً بأداء مارلون براندو، ولكننى رأيت عـم عبـد ا ينظر إلى فى دهشة. كان بالسينما أيضا، وكان فى صـحبته أمريكى قصير وضخم. بدا أنـه امـتعض لرؤيتـى، لكنـه تجاهلنى ومشى فى طريقه مع الأمريكى. ارتبكت قليلاً ثـم وجدت نفسى أفكر فى الرقصة الأخيرة الجميلة فـى الفـيلم، ومارلون براندو وهو يطلب من الفتاة الصـغيرة أن تضـع أصبعها فى مؤخرته، وكيف راح يتلذذ بالألم وهى تفعل ذلك.

*****

(١٩)

صرنا نتنفس الصمت ونأكله، سعيد يفعل كل شـىء بهدوء. يقوم ويجلس كأنه خيال، يأكل كـأن أسـنانه تعمـل وحدها وعلى مهل، لا يتكلم ولا يفتح التليفزيـون. يصـلى كثيرا ويقرأ فى القرآن بلا صوت. وأنا عرفـت أن عايـدة رحلت عن تبوك فَلَحِقْتُ بِصمتِه.

فى طريق عودتى بعد عودة روز مارى أحسست بألم فى الجرح. كان الوقت ليلاً، والبرد شديدا والظـلام حـولى يضيق الخلاء الواسع، وضغط الدم ينفذ من الضـمادة فـوق الجرح. سببت الحركة شقًا فى مكان الخياطة إذن كان مـن الممكن أن آخذ طريقى إلى البيت ويتدبر وجيه الأمر، لكننى توجهت إلى المستشفى، وقابلت "وردة" أنا الذى رغبـت أن أرى عايدة. أخذتنى وردة إلى طبيب باكستانى، رفيع العنق، صغير الرأس بشكل مثير فقال لها أن تعالج هـى الجـرح، وتركنا مسرعا حين سمع سيارة الإسعاف.

- أين عايدة؟ أظن أنها لا تزال تعمل بالليل.

سألت وردة وفوجئت بسؤالى، فتورد وجهها، وترددت فى الكلام ثم قالت:

- فى ضبا.

- ضبا.........؟!

- أجل.

- لماذا..........؟

- احتاجوا واحدة منا فأصابنا الرعب وتقدمت عايدة بنفسها تطلب العمل هناك.

- لكننى كنت هنا من يومين.. لم تقل لى شيئًا.

- حدث ذلك كله أمس، واليوم سافرت.

- إلى هذا الحد..........؟!

قلت بصوت هامس ووردة تنظر إلى. انتهت من وضع الضمادة وجرت تلحق بالحادثة. كيف لم يخبرنى وجيه؟ وما الذى يجعلها تأخذ مثل هذا القرار؟ أصابنى

الصمت فأصاب وجيه أيضا الذى لم يجد أحدا يتحدث إليـه، فصرنا نتنفس الصمت ونأكله........!

كان على فى اليوم التالى أن أذهب إلـى واضـحة، وكنت أعرف أننى لن أقابلها أيضا. تلقانى خالد هاشًا كعادته وأخذنى إلى الحجرة الواسعة فلم أر المكتب.

وطدت نفسى ألا أنزعج.

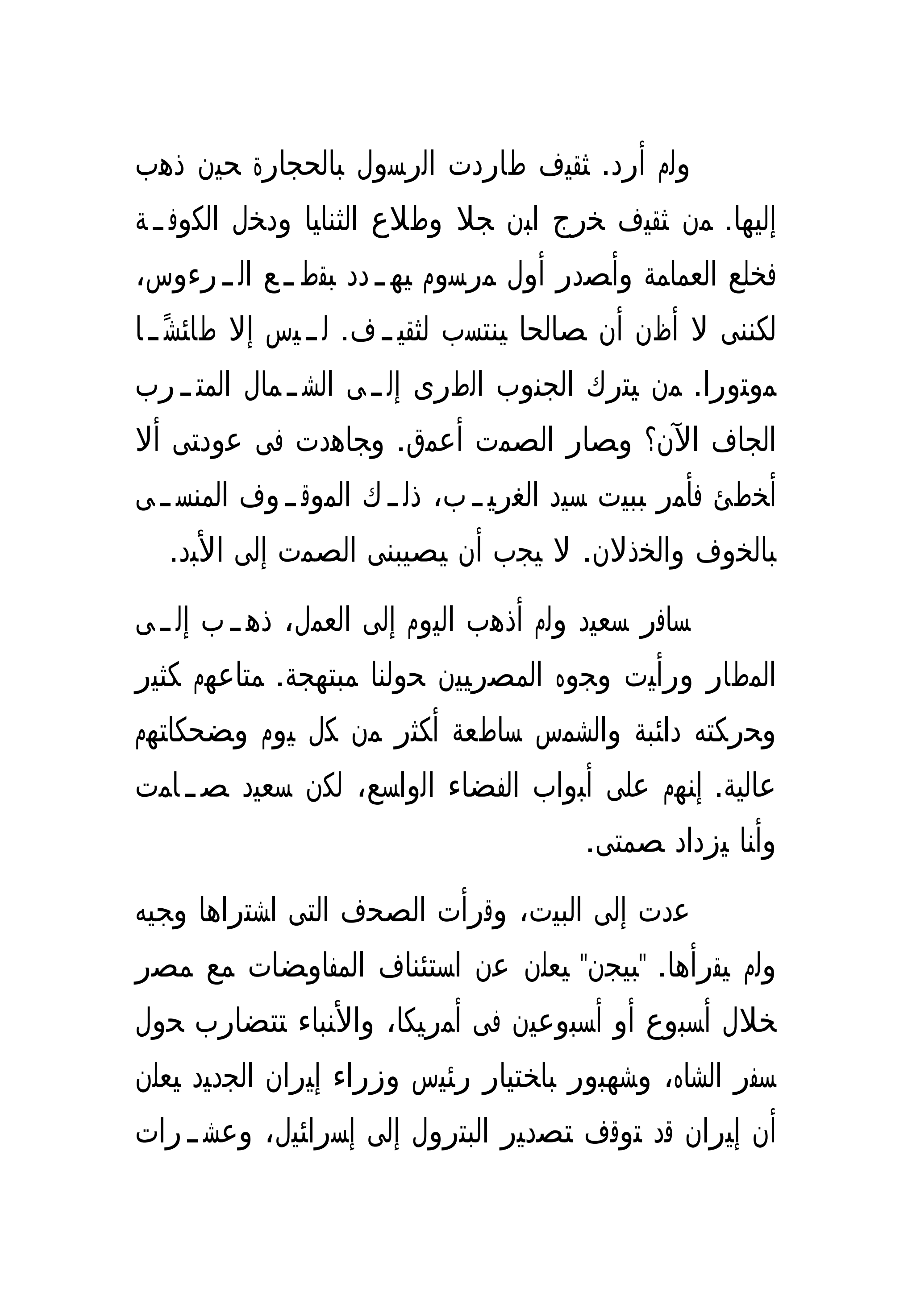
ـ تفضل بالجلوس يا أستاذ:

ـ وأشار إلى الأرض. لم أجلس ولم أرد.

ـ وا يا أستاذ واضحة مريضة جدا. منعها الطبيب من استقبال أحد لمدة أسبوعين قد تمتد إلى شهر ويعلم ا ما يحدث بعد ذلك.

مددت يدى أصافحه فصافحنى. طير صالح سـنيور الثقيفى خبر السكر فى كل تبوك. عند الباب الخارجى قـال خالد.

ـ أعرف بيتك يا أستاذ. وحـين تشـفى واضـحة سأحضر إليك.



ولم أرد. ثقيف طاردت الرسول بالحجارة حين ذهب إليها. من ثقيف خرج ابن جلا وطلاع الثنايا ودخل الكوفـة فخلع العمامة وأصدر أول مرسوم يهـدد بقطـع الـرءوس، لكننى لا أظن أن صالحا ينتسب لثقيـف. لـيس إلا طائشـًا موتورا. من يترك الجنوب الطرى إلـى الشـمال المتـرب الجاف الآن؟ وصار الصمت أعمق. وجاهدت فى عودتى ألا أخطئ فأمر ببيت سيد الغريـب، ذلـك الموقـوف المنسـى بالخوف والخذلان. لا يجب أن يصيبنى الصمت إلى الأبد.

سافر سعيد ولم أذهب اليوم إلى العمل، ذهـب إلـى المطار ورأيت وجوه المصريين حولنا مبتهجة. متاعهم كثير وحركته دائبة والشمس ساطعة أكثر من كل يوم وضحكاتهم عالية. إنهم على أبواب الفضاء الواسع، لكن سعيد صـامت وأنا يزداد صمتى.

عدت إلى البيت، وقرأت الصحف التى اشتراها وجيه ولم يقرأها. "بيجن" يعلن عن استئناف المفاوضات مع مصر خلال أسبوع أو أسبوعين فى أمريكا، والأنباء تتضارب حول سفر الشاه، وشهبور باختيار رئيس وزراء إيران الجديد يعلن أن إيران قد توقف تصدير البترول إلى إسرائيل، وعشـرات

من الأطباق الطائرة تظهر فوق أستراليا. أجسام زرقاء لامعة تطير على غير هدى فوق الساحل الشرقى للقارة، ثم يتحول لونها إلى الأحمر وترسل إشارات غامضة، والعلماء يقولون إن هذه المشاهدات هى كوكب الزهرة الذى يبـدو الآن فـى أقصى درجات لمعانه بحيث يمكن رؤيته اثنتى عشرة ساعة كل يوم بطريقة تخدع كل من يـراه فيتصـور إنـه جسـم متحرك.

عاد وجيه فى الثالثة ودهش لأننى لم أتناول الغـداء حتى عودته وقال:

إنه من اليوم سنتغدى دائما معا. قبل أن أدرك معنى كلامه فكرت فى ارتفاع صوته المفاجئ، قال:

ـ سأعمل بالليل شهرا أو شهرين.

إذن سأمضى الليل وحدى. قلت فى نفسى وعاد هـو يقول:

ـ أظن إنه لا حاجة بنا لأحـد يسـكن معنـا، أم لا تتحمل ميزانيتك نصف الإيجار........؟

قلت فى حسم:

- لسنا فى حاجة إلى شريك ثالث ولا إلى هذا البيت نفسه.

- كيف.........؟

- هل تستطيع العيش الآن فى بيت يملكـه صـالح سنيور الثقيفى؟

*****

كدت أنام بعد الغداء أنا الذى أعلنت الحـرب علـى النوم الذى أعلن الحرب على. فى يومين متتـاليين ضـاعت عايدة، وواضحة ولم يبق إلا روز مارى التى أعرف أنها لن تزيد على جملة عارضة.. والآن أيضا ضاع سعيد فازدادت للنوم الأسلحة.

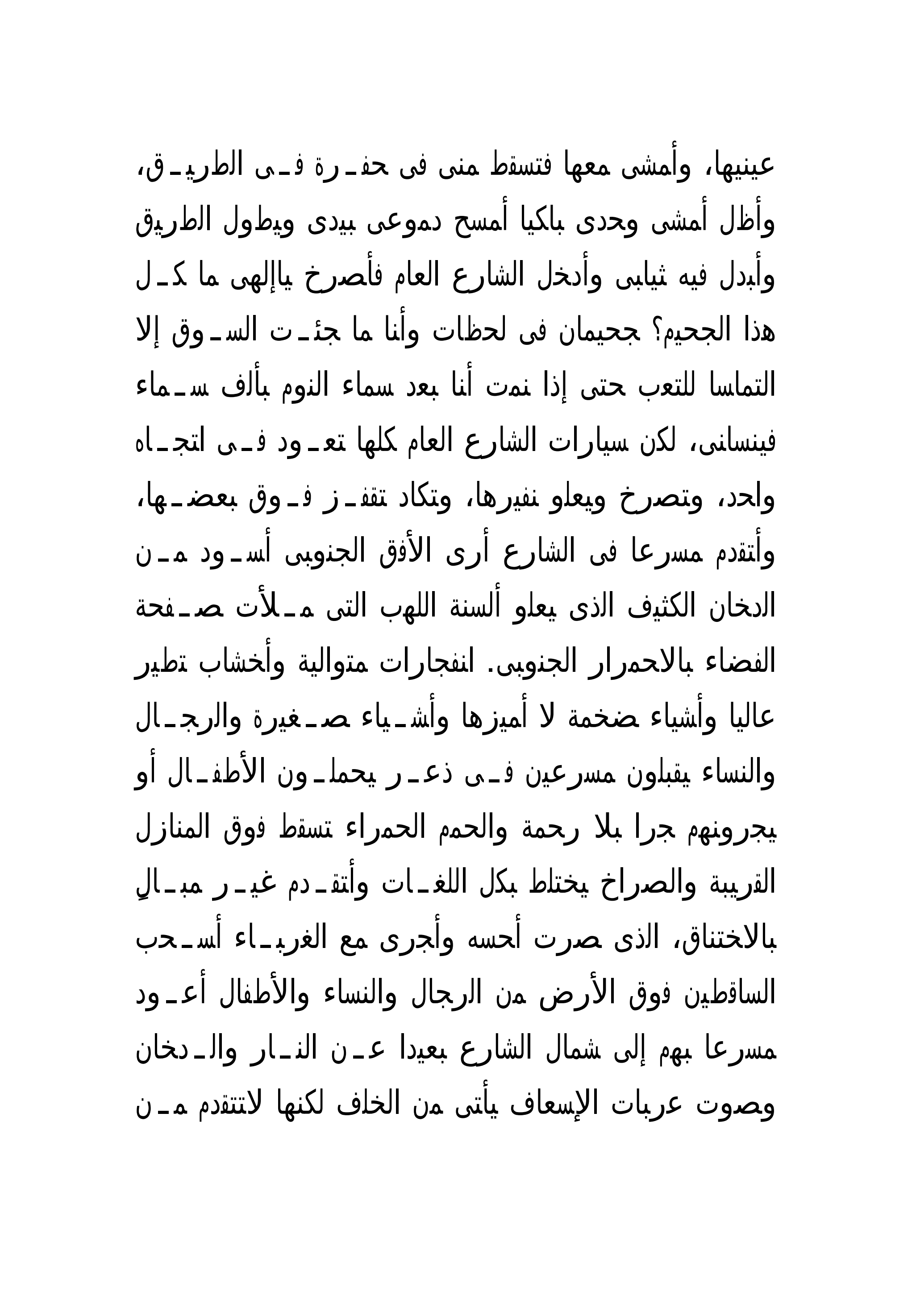
خمسة أيام وأنا أستخدم كل سـلاح حتـى لا أنـام. أستحم أكثر من مرة فى اليوم الواحد. أتناول غداء خفيفًا رغم هزالى بعد العملية. لا أجلس فوق السرير. ألعب الرياضة فى الغرفة، وأكفر بصوتٍ عالٍ. لكن النوم مثل وسواس خنـاس ينجح دائما فى اختلاس لحظة ترتخى فيها أهدابى فيضع فوق عينى دثارا ثقيلاً من الظلام، ويشدنى من قدمى إلـى أسـفل

سافلين ويظل واقفًا فوق رأسـى يرسـل كوابيسـه ورؤاه. يصيبنى النوم بالرعب الآن وأراه جالسا أمامى فى كل مكان فى الغرفة يبتسم ماكرا مطمئنًا إلى أنه سيد الكون. أنـا يـا سيدى مستعد للاستسلام بشرط أن تغير رؤاك. لماذا تداهمنى بالرعب ولم أخطئ حتى الآن فى حق أحـد. أُغْلِـقَ كتـاب واضحة إلى الأبد وخاب حدسى ، واختفت ببساطة إغلاق يد وانفتاحها، ولا أظن أن للقصة تتمة غير ما جرى فكـل مـا أحسست به لم يكن غير ظمأ. أم تراك تظن أنى أشتهى روز مارى التى دعتنى ولا أفهم للآن سر دعوتها؟ ها أنت رأيت يا سيد العيون والأجساد، ويا باعث الحياة وسـالب الأرواح، أنى ضيقت صدرى أمام زوجها، ووضـعت الجنـادل فـى طريق المياه العذبة السلسبيل. لعلك تلومنى من أجل عايـدة. أى خطأ فى أنى لا أفهم المرأة إلا للزواج؟ أى خطأ فى أنى كدت أبوح برغبتى؟ هى التى سدت الطرق وفتحـت بـاب جرح ما له من شفاء. ستبقى هنا عشرين سنة حتـى يشـفى هشام الذى دهمته سـيارة يـوم زيـارة نيكسـون للـبلاد. تحاصرنى السياسة أنا المحاصر يا سيدى لا تنس، واتركنـى أنام مرة كالأطفال فلم أخطئ يوم صرحت "لآمـال" أنـى لا

أفهم الحب إلا للزواج. من كان يدرينى ببساطة العقل وشفافية الروح، أنا ضحية الواجب والمبادئ العائلية البالية. لا خطـأ لى ولا خطيئة رغم موت "آمال" وضياع الجميع. فى زماننا لا يموت أحد بالحب إنما هى قصص قديمة كلها فما خطيئتى إن كان ذلك قد حصل؟ ألا تزال تنظر إلى رغم أنى جـالس فوق المقعد أقاوم دبيبك النملى وإغراءك بأن أغفو ولو لحظة فوق السرير؟ سأستحم الآن، ولن أعطيك اليوم فرصة. اليوم على الأقل. حتى لو عميت عيناى وتحطمت أعصابى.

وتركت المقعد متعبا. وتمددت فوق السـرير أقـاوم رغبة فى البكاء.. أملت حقًا فى النساء الثلاث. لـم تبـق إلا واحدة لا آمل فيها. أية خيبات تلو خيبات! خيبات أصـنعها بنفسى، وخيبات تلقى فى طريقى. وشددت الغطـاء فـوقى ودخَلَتْ الوجوه الثلاثة معى تحته، ورأيتهم، أولئك الحـراس الأشداء سود الوجوه صفر الأسنان ذوى الابتسـامة الدائمـة والنظرات الممتدة إلى الأفق البعيد العـالى يسـوون الأرض ويرشونها بالماء ويقيمون جداراً عاليـا ويلوحـون بأيـديهم للسماء فيتساقط منها أولاد صـغار وأولاد كبـار وشـيوخ وشباب ونساء وبنات وترتفع فى الأرض أحجار ويمسك بى

الخصيان، ويلقون بى إلى أعلى فأجلس فوق جبل تحيط قمته المياه فلا أستطيع النزول وأرى واضحة مكومة على الأرض جوار الجدار رأسها بين ركبتيها وذراعيها وتستيقظ وترى الذين يدورون حولها بالابتسامات البلهاء والذين نزلوا من السماء أمسكوا الأحجار التى ارتفعت فوق الأرض وتفزع وتجرى إلى اليمين فتراهم وإلى اليسار فتراهم وأمامها سدوا الطريق، ولا سبيل لها بتسلق الجدار وأنا عاجز عن النزول وهى تسمع صراخى وترفع لى ذراعيها هلعا وحجر بعد حجر والدم ينفجر من رأسها وروز تقف على قمة جبل قبالى انشقت عنه الأرض فجأة تضحك وتخلع ثيابها تطيرها فى الهواء،وتعود الأرض وتنبسط ويصعد الجميع إلى السماء وينزاح من حول الجبل الماء وأنزل بخطوات بطيئة أتقدم إلى واضحة التى تكومت الآن تنهنه كطفل انتهى من الصراخ بعد أن ضربوه ضربا مبرحا وجلس وحيدا فى ركن ذليلاً يدرك مبكرا جدا معنى الإهانة ويذوب الجدار قطعا من الثلج فيصير بحيرة باردة، وتمسكنى يد من ذراعى تقيمنى أنا الجالس ورأسى بين ركبتى وذراعى حول رأسى أنهنه بالبكاء وأرفع وجهى وأراها، عايدة، يترقرق الدمع فى



عينيها، وأمشى معها فتسقط منى فى حفرة فى الطريق، وأظل أمشى وحدى باكيا أمسح دموعى بيدى ويطول الطريق وأبدل فيه ثيابى وأدخل الشارع العام فأصرخ ياإلهى ما كل هذا الجحيم؟ جحيمان فى لحظات وأنا ما جئت السوق إلا التماسا للتعب حتى إذا نمت أنا بعد سماء النوم بألف سماء فينسانى، لكن سيارات الشارع العام كلها تعود فى اتجاه واحد، وتصرخ ويعلو نفيرها، وتكاد تقفز فوق بعضها، وأتقدم مسرعا فى الشارع أرى الأفق الجنوبى أسود من الدخان الكثيف الذى يعلو ألسنة اللهب التى ملأت صفحة الفضاء بالاحمرار الجنوبى. انفجارات متوالية وأخشاب تطير عاليا وأشياء ضخمة لا أميزها وأشياء صغيرة والرجال والنساء يقبلون مسرعين فى ذعر يحملون الأطفال أو يجرونهم جرا بلا رحمة والحمم الحمراء تسقط فوق المنازل القريبة والصراخ يختلط بكل اللغات وأتقدم غير مبالٍ بالاختناق، الذى صرت أحسه وأجرى مع الغرباء أسحب الساقطين فوق الأرض من الرجال والنساء والأطفال أعود مسرعا بهم إلى شمال الشارع بعيدا عن النار والدخان وصوت عربات الإسعاف يأتى من الخلف لكنها لاتتقدم من

زحام السيارات التى تركها راكبوها الآن وجروا وعلينا نحن الذين لا يعرف واحد منا الآخر أن نحمل الموتى والمختنقين إلى سيارت الإسعاف حيث تقف وصوت عربـات الإطفـاء يملأ الفضاء وتدور حول الشارع لتدخل من الشوارع الجانبية إلى موقع الحريق الذى يلتهم نصف الشارع العام الجنـوبى وتتلوى على أرض الشارع كالثعابين الضـخمة المـذعورة وتسقط فوقها حمم النار فتزداد تهورا فى التواءاتها ويهـرب الجنود والمياه تغرق أرض الشارع ولا تتجه إلى الفضاء ولا النار وتمر غيمة كبيرة فى السماء فـتظلم الأرض ويرتفـع التكبير بكل اللهجات وترتفـع الأذرع ضـارعة أن يهطـل المطر ولا مطر فتمر الغيمة غير آبهة لنا ويرتفع فى الجـو هدير الطائرات المروحية الضخمة الصـفراء وأقـرأ علـى جوانبها (القوات الجوية للولايات المتحدة). أجل . حـروف بارزة والطائرات قريبة تلقى فوق الشارع سحبا من الـدخان الأبيض وأنهارا من المياه.

مضى وقت طويل حقًا حتى وجدت نفسى وحيدا بين الخراب الشامل. كنت مبتلاً بالمياه من رأسـى إلـى قـدمى لكننى لم أكن متعبا. أى قوة جنونية تلبستنى أنا الذى لم يمض

على خروجى من المستشفى ثمانية أيام. ولم أشعر بأى ألـم فى جرحى. فقط صرت أشم رائحة شواء. فحم محـروق أم خشب أم حجارة أم بشر؟ لا أدرى إلا أننى أرى عيونًا ذاهلة للرجال والنساء تبحث بين المحروقين الذين يملأ صـراخهم الفضاء، والساكنين بعد أن صاروا جثثًـا متفحمـة. كشـفت وجوه النساء جميعا وسقطت أغطيه الرءوس من فوق الرجال وارتفع الآذان من المسجد الكبير وكل المساجد، واقتَربتْ من منطقة أم درمان التى لم تصب بسوء. الجامع يحميهـا أم أن أهلها ليسوا من هذا الزمان.......؟

ووقفت أجتهد لتذكر من الذى كنت أبحث عنه بـين الموتى والمصابين. كان سعيد هو الذى ينزل معى دائما إلى السوق. سافر سعيد حقًا وودعته بنفسى فى المطار.

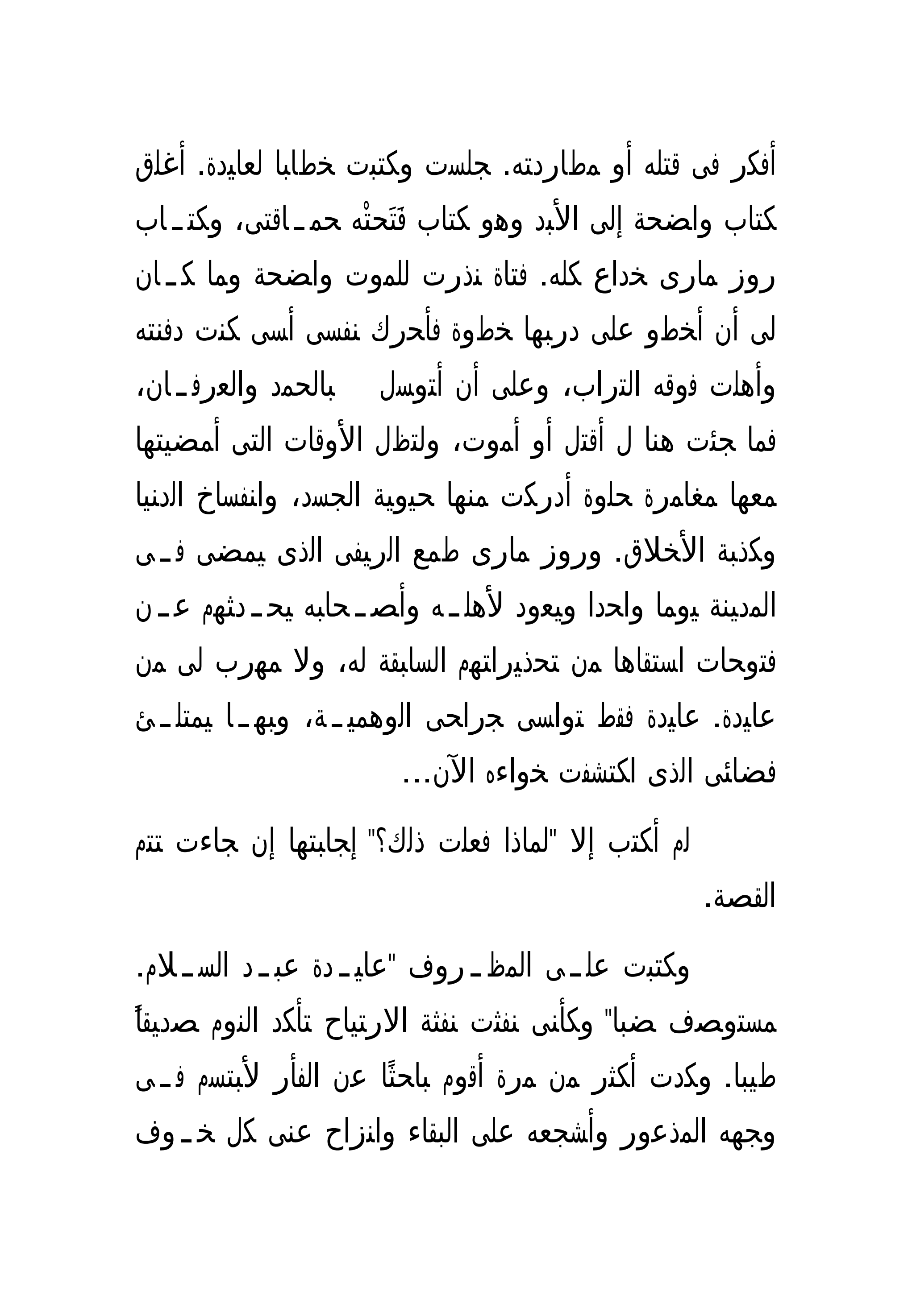
*****

(٢٠)

صار على أن أجاهد لأنسى. لا شىء هنـا ينسـيك شيئًا. تبوك لا تنسيك "أمك ولا أبوك".. والمسألة أن الغربـاء هم الذين جاءوا يبحثون عن النسيان.

ساعد انتقالنا إلى بيت جديد فى انشغال ذهنى بعـض الوقت حيث ترك لى وجيه الأمر كله بصعوبة استأجرت بيتًا صغيرا من غرفتين وعلى نفس الطراز العربية فـى نفـس الحى الذى نسكنه، الفيصلية غرب البلدة، لكن عنـد نهايتـه حين يلتقى بالصحراء بيت جديد لا تزال فيه رائحة المـلاط والدهان، وتخلصت أيضا من الأثاث الزائد ببيعه لأحد تجار "الحِراج "

أحسست وأنا أدخل البيت الجديد لأول مرة أنى قادم لفـورى من مصر ولم يسبق لى أن عرفت أحدا هنا. قلت لعل النـوم يعود إلى ما خلقه ا له ،ونمت بعمق حقا ولم يزعجنى الفأر الذى كأنما على موعد معى . دخَل وعششَ فى المطبخ، ولم



أفكر فى قتله أو مطاردته. جلست وكتبت خطابا لعايدة. أغلق كتاب واضحة إلى الأبد وهو كتاب فَتَحتُه حمـاقتى، وكتـاب روز مارى خداع كله. فتاة نذرت للموت واضحة وما كـان لى أن أخطو على دربها خطوة فأحرك نفسى أسى كنت دفنته وأهلت فوقه التراب، وعلى أن أتوسل بالحمد والعرفـان، فما جئت هنا ل أقتل أو أموت، ولتظل الأوقات التى أمضيتها معها مغامرة حلوة أدركت منها حيوية الجسد، وانفساخ الدنيا وكذبة الأخلاق. وروز مارى طمع الريفى الذى يمضى فـى المدينة يوما واحدا ويعود لأهلـه وأصـحابه يحـدثهم عـن فتوحات استقاها من تحذيراتهم السابقة له، ولا مهرب لى من عايدة. عايدة فقط تواسى جراحى الوهميـة، وبهـا يمتلـئ فضائى الذى اكتشفت خواءه الآن...

لم أكتب إلا "لماذا فعلت ذلك؟" إجابتها إن جاءت تتم القصة.

وكتبت علـى المظـروف "عايـدة عبـد السـلام. مستوصف ضبا" وكأنى نفثت نفثة الارتياح تأكد النوم صديقاً طيبا. وكدت أكثر من مرة أقوم باحثًا عن الفأر لأبتسم فـى وجهه المذعور وأشجعه على البقاء وانزاح عنى كل خـوف

من أحد أو على أحد، وأدركت أنه قد مضى شهر لم أر فيـه روز ولم أسع لرؤيتها ولا هى سعت كنت مهيأً للنسـيان إذن وخطابى لعايدة هو قطرة البلسم الأخيرة لروحى التى اعتلت بلا سبب. هو بداية الجهد لإنعاش ذاكرة الأنثى الجميلة بأنـه لا أنثى فى هذا العالم مهيأة لما هيأت نفسها له من واجب. ما الذى يمنع حقًا أن أكون فارسا نبيلاً فى هذه البلاد؟ كل فارس نبيل أنقذ امرأة فى تاريخ هذه الدنيا أحبها وأحبته.

واليوم، وقد مضت ثلاثة أيام على خطابى لها، أقود سيارتى إلى العمل بروح أثيريـة رغـم السـحب السـوداء الخادعة غير الممطرة التى تحجب عنى السـماء، وتعـزل الشمس عن أبنائها، وتضم البرد القـارس تحتهـا، فأشـعل السيجارة تلو السيجارة فى كابينة السيارة مغلقة النوافذ.

رأيت الباكستانيين يقفون أمـام الكامـب وحقـائبهم الكثيرة على الأرض ولا يكفون عن الحركـة، وأنـا أميـل بسيارتى عن الطريق الرئيسى لأدخل باحة مكاتب الشـركة. رأوا سيارتى أيضا ولوحوا إلى بأذرعهم من بعيـد. عشـرة سيسافرون اليوم إلى باكستان فى أجازتهم السنوية. تسعة منه أمضوا فى العمل خمس سنوات متواصلة، فيهم خمسة أنهوا

تعاقدهم ولن يعودوا. العاشر أرشد الذى ينـتظم فـى القيـام بأجازته كل عام، وسيعود بعد الأجازة يبدأ عامه الخـامس. ودعونى أمس وأنا أعطـيهم التـذاكر وجـوازات السـفر، وسألونى ما إذا كنت أحب شيئًا من باكستان، كلهم والذين لن يعودوا أبدوا كرمهم، لكن أرشد كان يبدو مرتبكًا. لـم أشـأ أسأله. قلت لعلها المشاعر التى تسبق السفر الطويل. بدوا لى اليوم فى سراويلهم أمام الكامب، كأطفال يوم عيد. ودخلـت الباحة تمرح فى صدرى النشوة والابتهاج.

جلست وحدى بعد أن أقبل العمال ووقعوا فى دفتـر الحضور، وما كدت أشرع فى ترجمة بعض التقارير، حتـى فكرت لم حقًا لا يأتى وجيه بإحدى زوجتيه لتعيش هنا معه؟ تجاوز وجيه الخامسة والأربعين، ودخل فى منطقة الفـراش الهانئ والبيت المريح، والنظرة الطيبـة للزوجـة الطيبـة، والسعادة بما يثيره الأولاد من ذكرى وهم يعاودون ولو قليلاً، سيرة الأب فى العلم والحب والآمال. نمط غريب من البشـر وجيه حقًا يشقى ليسعد زوجتين بعيدتين تزوجهما ليبقى عنهما بعيدا!!

ـ شفت الباكستانيين.........؟

قال نبيل وهو يدخل الغرفة باسـما يحمـل فنجـان القهوة.

ـ قرود. وا قرود. طوال الليل تعـال يـا نبيـل ساعدنا فى العثور على حبل، تعال يا نبيل ساعدنا فى العثور على كرتونة فارغة، إيش تبغى يا نبيل من باكستان. ياعم لا أبغى شيئًا أتركونى أنام، اسهر معنا يا نبيل فلن نراك مـرة أخرى. لقد ظلوا يغنون طوال الليل.

ـ وأرشد....... ؟

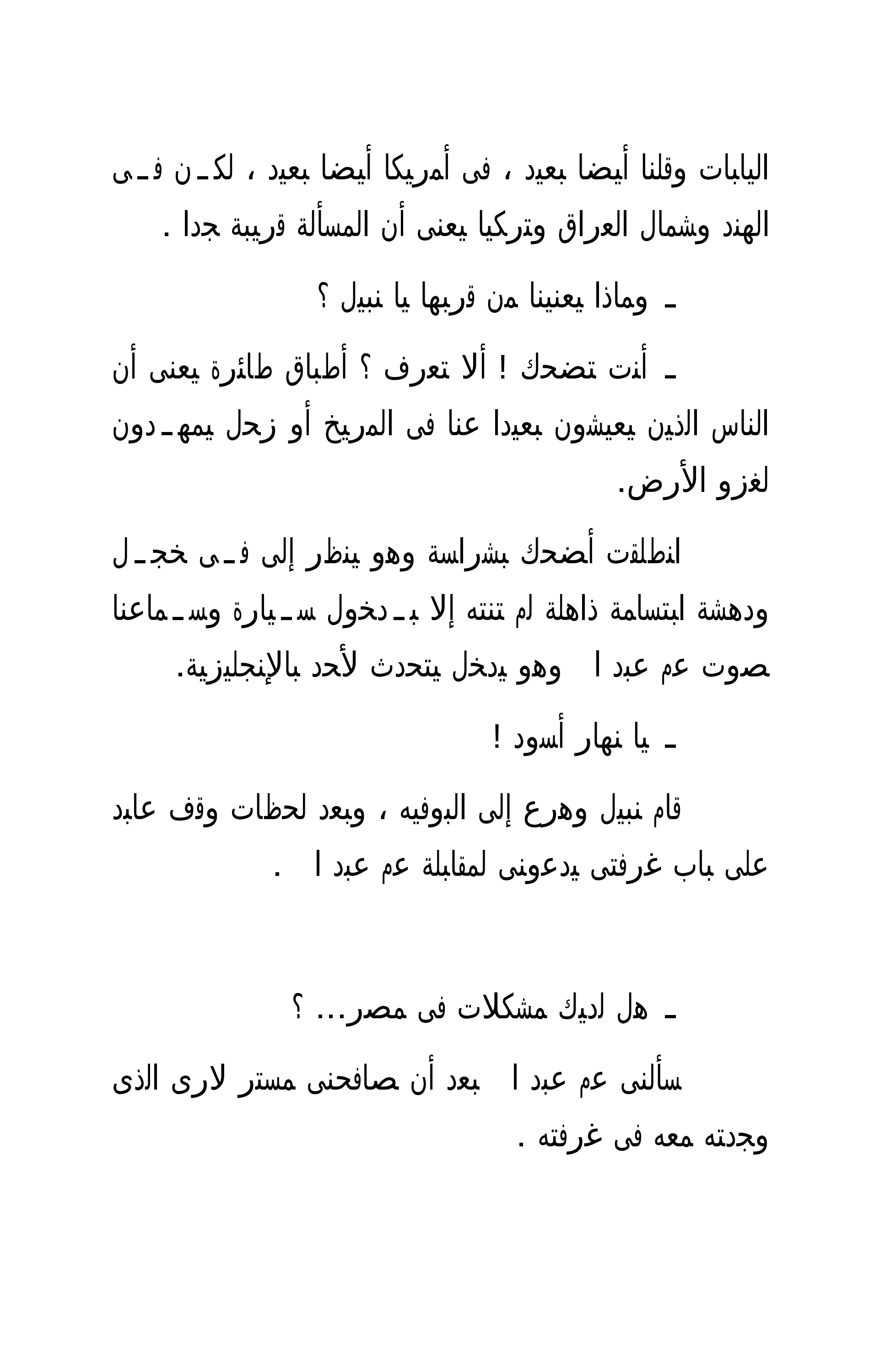
ـ غريب أرشد. لـم يـتكلم كلمـة. لمـاذا ؟ هـل تعرف ....؟

ولم أجد ردا . لا أعرف ردا حقًا . وسكتنا قليلاً ثـم قال نبيل :

ـ ما هى حكاية الأطباق الطائرة هذه الأيام ؟

أى أطباق طائرة .....؟

ـ ألا تقرأ الجرائد ؟ ألا تسمع النشـرات ؟ أطبـاق طائرة فى أستراليا وقلنا بعيد، فى نيوزيلاندا وقلنا بعيد، فـى



اليابات وقلنا أيضا بعيد ، فى أمريكا أيضا بعيد ، لكـن فـى الهند وشمال العراق وتركيا يعنى أن المسألة قريبة جدا .

ـ وماذا يعنينا من قربها يا نبيل ؟

ـ أنت تضحك ! ألا تعرف ؟ أطباق طائرة يعنى أن الناس الذين يعيشون بعيدا عنا فى المريخ أو زحل يمهـدون لغزو الأرض.

انطلقت أضحك بشراسة وهو ينظر إلى فـى خجـل ودهشة ابتسامة ذاهلة لم تنته إلا بـدخول سـيارة وسـماعنا صوت عم عبد ا وهو يدخل يتحدث لأحد بالإنجليزية.

ـ يا نهار أسود !

قام نبيل وهرع إلى البوفيه ، وبعد لحظات وقف عابد على باب غرفتى يدعونى لمقابلة عم عبد ا .

ـ هل لديك مشكلات فى مصر... ؟

سألنى عم عبد ا بعد أن صافحنى مستر لارى الذى وجدته معه فى غرفته .

ـ مشكلات من أى نوع .....؟

ـ مع العمل .. مع الجيش . أنا أعرف أن الكثيرين منكم يهربون من الجيش ويزورون أوراقهم .

ـ أنا لا مشكلة لى مع أحد .

قلت وأنا أطيل النظر إلى عينيه .

ـ إذن تسافر بعد يـومين إلـى القـاهرة .. "لاري" يشرح لك .

وانشغل عنا بالتليفزيون يدق أرقامه فقـام مسـترى لارى وهو يقول :

ـ يمكن أن نتحدث فى مكتبك .

سبقته وتبعنى ، وجلسنا على مقعدين متقابلين ، ولابد أنه لا حظ شرودى قبل أن يتكلم .

مصر . والآن . نطقها عم عبد ا فاتسع صـدرى بالفرح . مصر .. والآن . لعل فيها الشفاء من كل شـىء . مصر . من لى بالاتصال بعايدة بسـرعة البـرق لأعـرف عنوان أهلها هناك فأقابل هاشم المتفائل الذى لم تحـب مـن

أخوتها غيره والذى ضرب حولها سورا من الانتظار صـامدا دون أن يدرى . أى صلة تربطنى بها حتى أرسل إليها برقية يمكن أن يقرأها أى أحد ؟ لا تليفون بين تبـوك وضـبا . لا تليفون ؟! اللعنة على البترول والريال والدينار والدولار الذى لم يزل يوسع فى المسافات !

كيف حالك مستر إسماعيل ....؟

ـ بخير مستر لارى .

ـ الرحلة إلى مصر جميلة على أى حـال .. لقـد رشحتك أنت بالذات لهذه المهمة منذ رأتك روز . قالت إنـك تجيد الإنجليزية ونحن نحتاج لها .

ـ حدثنى عن المطلوب مستر لارى ..

ـ فى هذه المظروف بوليصة شحن بضائع قيمتهـا ثلاثمائة ألف دولار . عشرة صناديق من المعـدات المهمـة شحنتها منذ أربعة أشهر مـن سـان فرانسيسـكو بولايـة كاليفورنيا ولم تصل حتى الآن. على بوليصة الشـحن كمـا ترى رقم الرحلة وتاريخها والشركة التـى شُـحِنتْ عليهـا. شركة طيران لوفتهانزا الألمانية. وهنا أيضا خط سير الرحلة

سان فرانسيسكو. نيويورك . ميـونيخ . القـاهرة . جـدة . تبوك .

ـ ولماذ أذهب للقاهرة مستر لارى ؟

ـ لأن الاحتمال الوحيد الآن هو فقدان هذه البضائع فى أحد المطارات ، ومطار القاهرة هو المرشح لذلك ، أنت تعرف مصر أكثر منى مستر إسماعيل ؟

قال ذلك وابتسم لكنى لم أبتسم . عاد إلى شـعورى بالتحدى إزاءه . ذلك الشعور الذى قفز بيننا فجأة بلا سـبب والذى أشعر به وقد ازداد اليوم .

ـ لكن ألا يمكن مخاطبة هذه المطارات بالتلكس من هنا ؟

ـ فعلنا ولا إجابة حتى الآن . مسألة غريبة مسـتر إسماعيل ، لكن لا تشغل بالك كثيرا ، سنجد البضـائع فـى النهاية .

وأخرج من جيب سترته الداخلى رزمة صغيرة مـن الريالات وورقة وقلما .

ـ هذه خمسة آلاف ريـال لـك مصـروف جيـب بالقاهرة . أنا أعرف أن كل شىء فى القاهرة تحركه النقود . وهذا إيصال أرجو أن توقع عليه .

ولم أجد طريقة لأرد إليه الإهانة . إنه علـى حـق بالتأكيد . ارتبكت لأننى أعرف كيف انتصر عليه . وقعـتُ على الإيصال بسرعة فقام يقف مبتسما ويقول :

ـ عليك الآن بالاتصال بالخطوط السعودية لتحجـز لك تذكرة فى رحلة بعد غد ، ولا تنس أن تطلب فيزة خروج وعودة لمدة شهر أو شهر ونصف الشهر حتى يكون لـديك متسع من الوقت.

*****

خرج "لارى" ودخل "أرشد" فى نفس اللحظة شـاحب الوجه لكن فى عينيه غيظ شديد ، وألقى بنفسه على أقـرب مقعد .

ـ أرشد . غير معقول !

ونظرت إلى ساعة الحائط . العاشرة . الطائرة تقلـع فى التاسعة .

ـ هل تأخرت الرحلة أرشد...... ؟

رفع عينيه إلى وهز رأسه بالنفى . لا يـزال فيهمـا غيظ وغضب .

ـ لماذا عدت إذن ؟

ـ بوتو مستر إسماعيل .. بوتو وضياء الحق ..

ـ هل قتلوه ......؟

ـ أيدت المحكمة العليا قرار الإعدام السابق ضده . رفضت الالتماس الذى قدمه . بوتو لم يطلب العفو . المحكمة تعمل كما يريد ضياء الحق .

ـ أرشد .. أنت صديقى .. أظن ذلك . هذه المسائل الكبرى لا يجب أن تعطلنا . بوتو يقتل ضياء الحق . ضـياء الحق يقتل بوتو . إلى الجحيم بالجميع .

ـ أنا أوافقك مستر إسماعيل .. لكن ـ وأجهش فى البكاء ـ لقد هيأنا أنفسنا للسفر اليوم . أرسلنا برقيات لأهلنا وهيأوا أنفسهم لا ستقبالنا. كلنا نبكى الآن مستر إسـماعيل . كلنا نحب أولادنا وزوجاتنا وآباءنا وأمهاتنا وأخواتنا. وهـاج

يبكى . غُلام يبكى . سرور يبكى . خورشيد وجناح ومحمد . نحن تعساء جدا .

ولم أكن فهمت شيئًا بعد . أصابتنى الحيـرة ودخـل نبيل الذى عرف بنبأ سفرى للقاهرة يقول بصوت عال :

ـ هنيئًا لك بالسفر .

وتوقف عن الكلام إذ أرى أرشد يبكى .

ـ مالك أرشد ؟ مالك صديق ؟ لماذا تبكـى . هـل هناك مشكلة حول الكمون ؟

احتجت إلى قوة كبيرة أن لا أضحك ، ولـم يرفـع أرشد وجهه إليه .

قلت لنبيل :

ـ لقد حكموا على بوتو بالإعدام مرة ثانية .

ـ بوتو . بوتو من ؟ آه بوتو رئيس الوزراء .. هل هو قريبك أرشد .....؟

ومرة أخرى كتمت رغبتى فى الضـحك وغمـزت لنبيل بعينى أن يكف عن الاسترسال فـى الكـلام . سـألت أرشد :

ـ أنا لا أفهم سبب عودتك من المطار حتى الآن .

ـ التظاهرات مستر إسـماعيل انـدلعت فـى كـل باكستان . الحكومة أغلقت المطارات .

قالوا لنا ذلك هنا ، وقالوا إنه من الأفضـل إرجـاء الرحلة بدلاً من الانتظار فى جدة أو فى بومباى بالهند .

وسكتنا نحن الثلاثة . كان نبيل لا يزال واقفًا . قلـت لأرشد :

ـ لا أظن أن دولة تغلق مطاراتها أكثر من يـوم أو يومين ، وغدا وبعد غد ليس بعيدا أرشد ..

ولم يرد . وعدنات نسكت من جديد حتى سألنى :

ـ ماذا تفعل الآن مستر إسماعيل .. سـنعود إلـى العمل ....؟

ـ لا . ابقوا فى الكامب . سأحسب لكم ما تمضـونه من انتظار أيام عمل . لا تقلق أرشد .

وقف وقال :

ـ أشكرك جدا مستر إسماعيل . لا تلـومنى علـى بكائى .

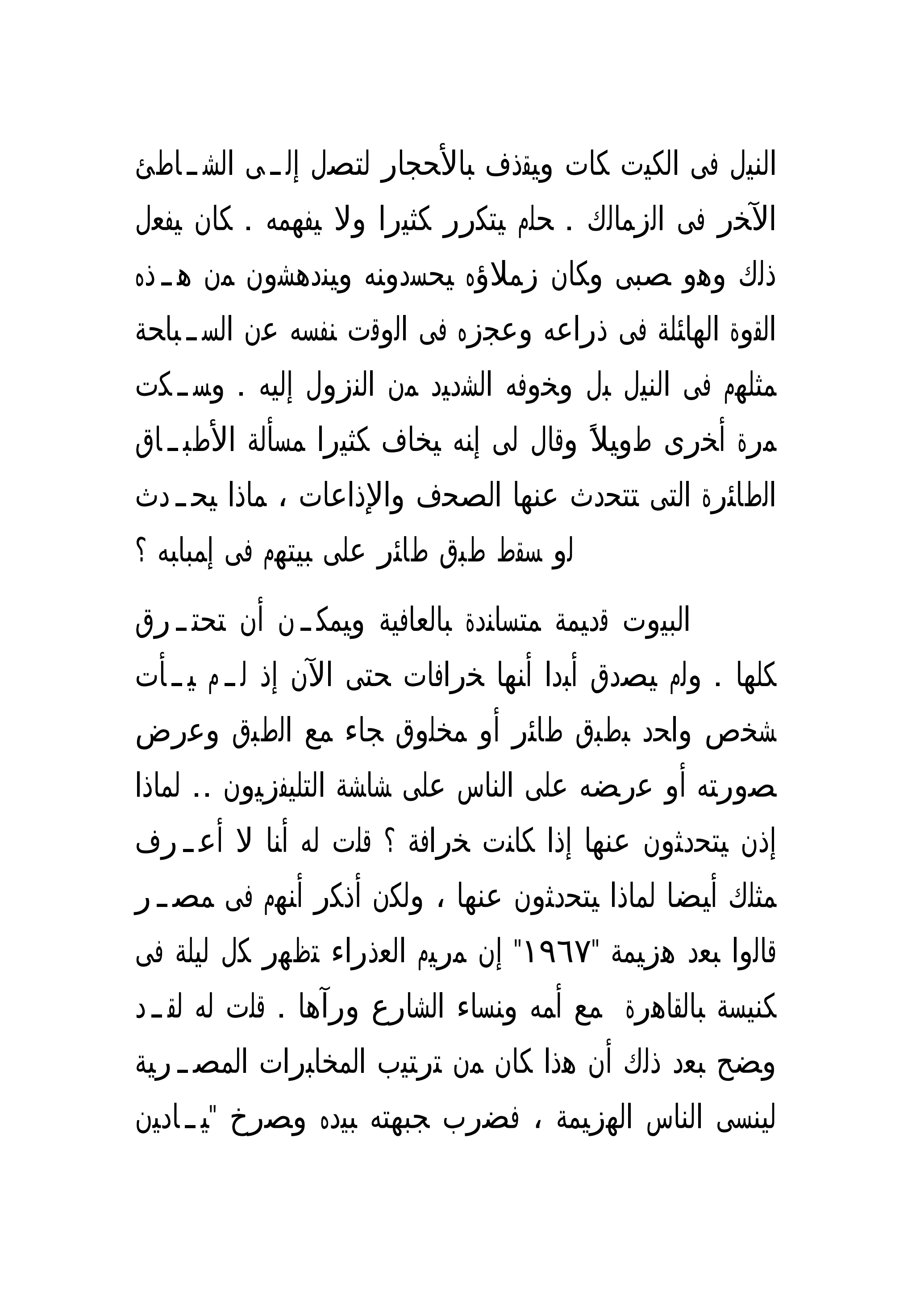
وصافحنى وظل ممسكًا بيدى لحظات . قلت :

ـ أنا أحبك أرشد . وأحب كل الباكستانيين .

فشد على يدى بيده فى تواضع كبير وانصرف .

*****

لم يعطنى أحد فرصة الجلوس وحدى . جلس عابـد معى كثيرا يشرح لى عنوانه بالمطرية وأعطانى ألف دولار لأسلمها لأبيه . خرج وكان نبيل لم يتحدث معى بعـد فيمـا يريد ، ولم يغادر الحجرة فحدثنى عن إمبابة التى يحن إليها، إلى جلوسه فى المقهى ولعـب الـدومينو بـين السـلخانية والجزارين والبشكارية الذين مهما لبسوا ملابس نظيفة تبقـى بها آثار دم ، ولم يطلب منى شيئًا ، غير أنـه سـكت مـرة سكوتًا طويلاً وقال إنه يحلم هذه الأيام بأنه يقف على شاطئ



النيل فى الكيت كات ويقذف بالأحجار لتصل إلـى الشـاطئ الآخر فى الزمالك . حلم يتكرر كثيرا ولا يفهمه . كان يفعل ذلك وهو صبى وكان زملاؤه يحسدونه ويندهشون من هـذه القوة الهائلة فى ذراعه وعجزه فى الوقت نفسه عن السـباحة مثلهم فى النيل بل وخوفه الشديد من النزول إليه . وسـكت مرة أخرى طويلاً وقال لى إنه يخاف كثيرا مسألة الأطبـاق الطائرة التى تتحدث عنها الصحف والإذاعات ، ماذا يحـدث لو سقط طبق طائر على بيتهم فى إمبابه ؟

البيوت قديمة متساندة بالعافية ويمكـن أن تحتـرق كلها . ولم يصدق أبدا أنها خرافات حتى الآن إذ لـم يـأت شخص واحد بطبق طائر أو مخلوق جاء مع الطبق وعرض صورته أو عرضه على الناس على شاشة التليفزيون .. لماذا إذن يتحدثون عنها إذا كانت خرافة ؟ قلت له أنا لا أعـرف مثلك أيضا لماذا يتحدثون عنها ، ولكن أذكر أنهم فى مصـر قالوا بعد هزيمة "١٩٦٧" إن مريم العذراء تظهر كل ليلة فى كنيسة بالقاهرة مع أمه ونساء الشارع ورآها . قلت له لقـد وضح بعد ذلك أن هذا كان من ترتيب المخابرات المصـرية لينسى الناس الهزيمة ، فضرب جبهته بيده وصرخ "يـادين

النبى" ، وقال إنه لا يصدقنى ، لم أشأ الاسترسال ، فقـال إن الصحف تتحدث عن أطباق طائرة فى بـلاد كثيـرة وهـذه علامات الساعة . وخَرج ورأيت الساعة الثانية عشرة فالتفت إلى الباحة أنظر إلى اليمين فوجدته واقفًا بباب الغرفة فوقفت فى ذهول . سيكلمنى . وتقدم وصافحنى مبتسـما ابتسـامته الواسعة :

ـ تسافر إلى مصر .. ؟

ـ أجل . هل ترغـب فـى شـىء أحضـره لـك معى ....؟

وانقبضت أسارير وجهه وتجهم وتركنـى وخـرج يجلس مكانه يمضغ السواك . ماذا كان يريد منـى ولمـاذا سألنى ؟ لم أفهم . ودخل عابد إلى الغرفة وقال إنه فكر وقرر ألا يرسل شيئًا لأحد الآن لأنه أرسل مبلغًا أكبر منذ أسبوع ، فأعطيته الألف دولار وأنا فى دهشة مما يعفل . لكن منصور الذى انقطع كثيرا عن الظهور دخل الباحـة بعربتـه فأثـار زوبعة من الغبار .

*****

ـ بلغنى أن تسأل عنى ؟

قال وهو يدخل من الباب والقرد فوق كتفه ولم أكـن سألت عنه . فكرت فيه مـرة . أردت أن أخبـره بانتهـاء خطوبة وداد وسعيد ، ليس حبا فيه ، ولكن كرها فـى وداد التى لم أرها ، والتى دفعت سعيد للاحتفال الذى أنهى وجوده هنا . أنا لا أعرف ماذا كان يبيت منصور لهمـا ، لكنـى لا أظن أنه يبيت إلا شرا . هل أفعلها الآن وأخبره .

قلت بعد أن جلس خلف المكتب المجاور للخازنـة ، ووجه نظره نحوى ينتظر إجابة :

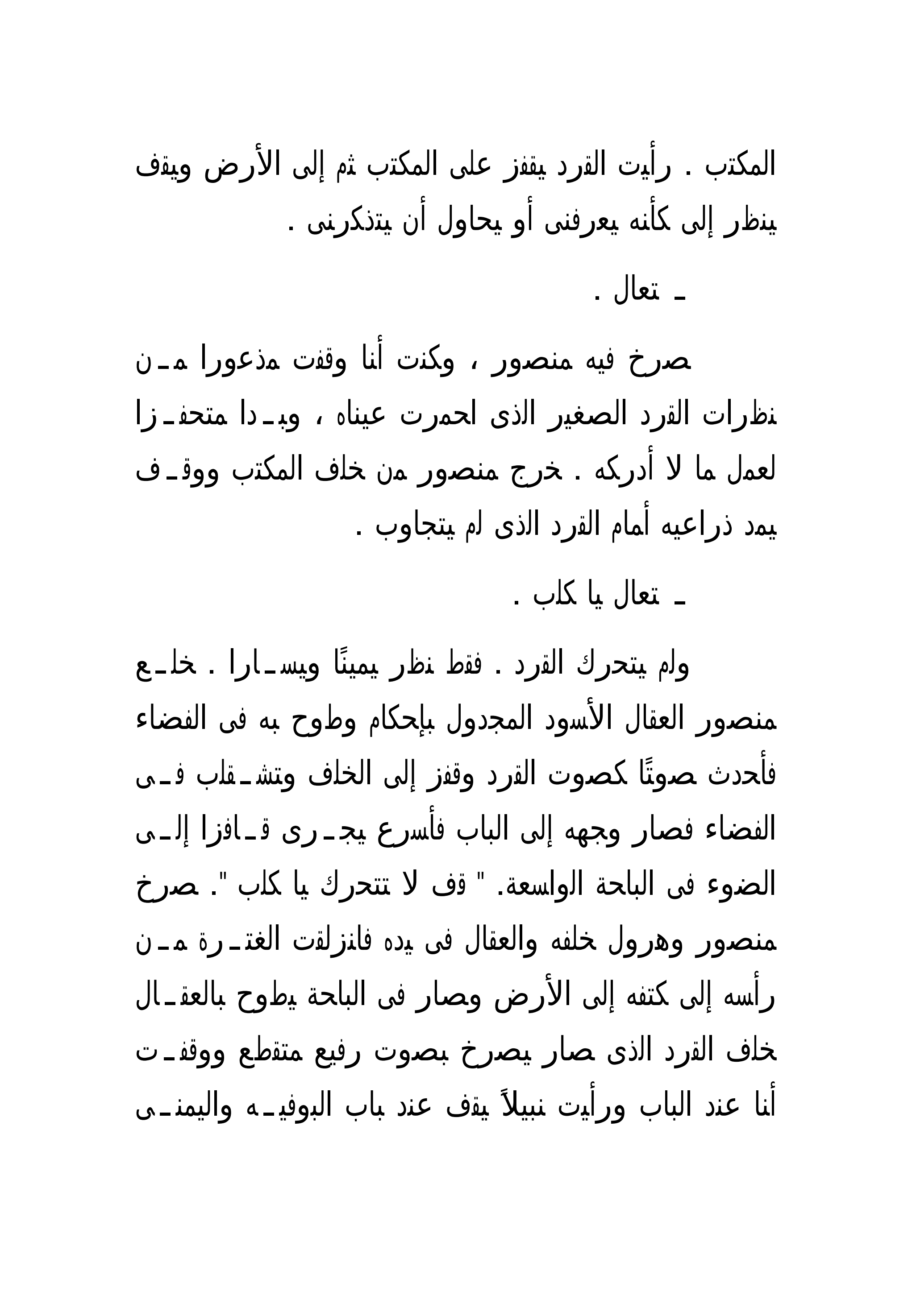
ـ لم أسأل عنك وإن كنت أحببت أن أراك .

ـ لقد عرفت القصة كلها .

ـ أى قصة.... ؟

ـ قصة رأس السنة . لقد ولى صاحبك .

وسكت . كيف عرف بسفر سعيد . هل يعرف صالح شيئًا عن منصور أيضا ؟ تجاهلت منصور وشرعت أتـرجم ما لم أبدأ فيه بعد من تقارير . لـم يتحـرك منصـور مـن



المكتب . رأيت القرد يقفز على المكتب ثم إلى الأرض ويقف ينظر إلى كأنه يعرفنى أو يحاول أن يتذكرنى .

- تعال .

صرخ فيه منصور ، وكنت أنا وقفت مذعورا مـن نظرات القرد الصغير الذى احمرت عيناه ، وبـدا متحفـزا لعمل ما لا أدركه . خرج منصور من خلف المكتب ووقـف يمد ذراعيه أمام القرد الذى لم يتجاوب .

- تعال يا كلب .

ولم يتحرك القرد . فقط نظر يمينًا ويسـارا . خلـع منصور العقال الأسود المجدول بإحكام وطوح به فى الفضاء فأحدث صوتًا كصوت القرد وقفز إلى الخلف وتشـقلب فـى الفضاء فصار وجهه إلى الباب فأسرع يجـرى قـافزا إلـى الضوء فى الباحة الواسعة. " قف لا تتحرك يا كلب ". صرخ منصور وهرول خلفه والعقال فى يده فانزلقت الغتـرة مـن رأسه إلى كتفه إلى الأرض وصار فى الباحة يطوح بالعقـال خلف القرد الذى صار يصرخ بصوت رفيع متقطع ووقفـت أنا عند الباب ورأيت نبيلاً يقف عند باب البوفيـه واليمنـى

جالسا فى مكانه لا يتحرك أو يهتم ، فقط توقف عن تحريـك السواك واتسعت عيناه . ولمعتا ووقف منصور ناحيته وطوح بالعقال فى الهواء بقوة جعلتنى أفكر أنه لو طال القرد لشطره شطرين لكن القرد قفز أعلى السيارة الكاديلاك البيضاء لعـم عبد ا الذى غادر المكتب فى المرسيدس الصفراء اليـوم . دار منصور حول السيارة والقرد يتحرك فوقها عاجزا عـن الهرب فوقها والتلويح بالعقال بهدوء فى الهـواء .. وكـأن القرد كان يعرف نية منصور ففى اللحظة التى طـوح فيهـا بالعقال بقوة قفز إلى أعلى وصرخ صراخًا طـويلاً رفيعـا متشنجا وعاد يقف فوق السيارة من الأمام وقفز القرد قفـزة كبيرة من فوق رأس منصور وهو يصـعد فانزلقـت قـدم منصور وسقط بوجهه فوق زجاج السيارة الأمامى وشـهقتُ خوفًا لكن الزجاج لم يتهشم ورأيت القرد يجرى نحـو بـاب الباحة لكنه لم يخرج. دار مع السور وفزع اليمنى الذى لـم يترك مكانه فقام لأول مرة لكنه تعثّر وانطفأ علـى الأرض وتجاوزه القرد المصروع حتى وصل إلى البوفيه فدخله نبيل بسرعة وأغلق الباب ودار القرد مع الجدران فكاد يصـطدم بى لكننى تراجعت خطوة فمر من أمامى وكان منصور قـد

استجمع نفسه ووقف بباب الباحة يسده بتلويحه بالعقال اللامع ووقف القرد قريبا منه ينظر إلى الآخر فى تحفـز ورأيـت شعر منصور أسود طويلاً ناعمـا لكنـه صـار مكنوشـًا، وجحظت عيناه واحمرتا بالشرر . وأرخى منصور ذراعـه تاركًا العقال فوق الأرض وتقدم ببطء فارداً ذراعه للقـرد . تعال لا تخف . تعال يا أخى . لكن القرد جرى مـن جديـد بسرعة مذهلة ناحية البوفية الذى ظهر نبيل على بابه مـرة أخرى وقفز قفزة جبارة إلى أعلى تَجاَوز بها البوفيه وسـور الشركة معا . وخرج منصور مسرعا من باب الباحة لكننـى كنت أعرف أنه لن يلحق به . عاد وحده ولم يتفـوه بكلمـة وركب سيارة ومضى ، ووقفت أنا أفكر أين ذهـب القـرد الآن . لابد قد لحق بالكلب الأبيض الشارد فى الرمال التى لا نهاية لها .

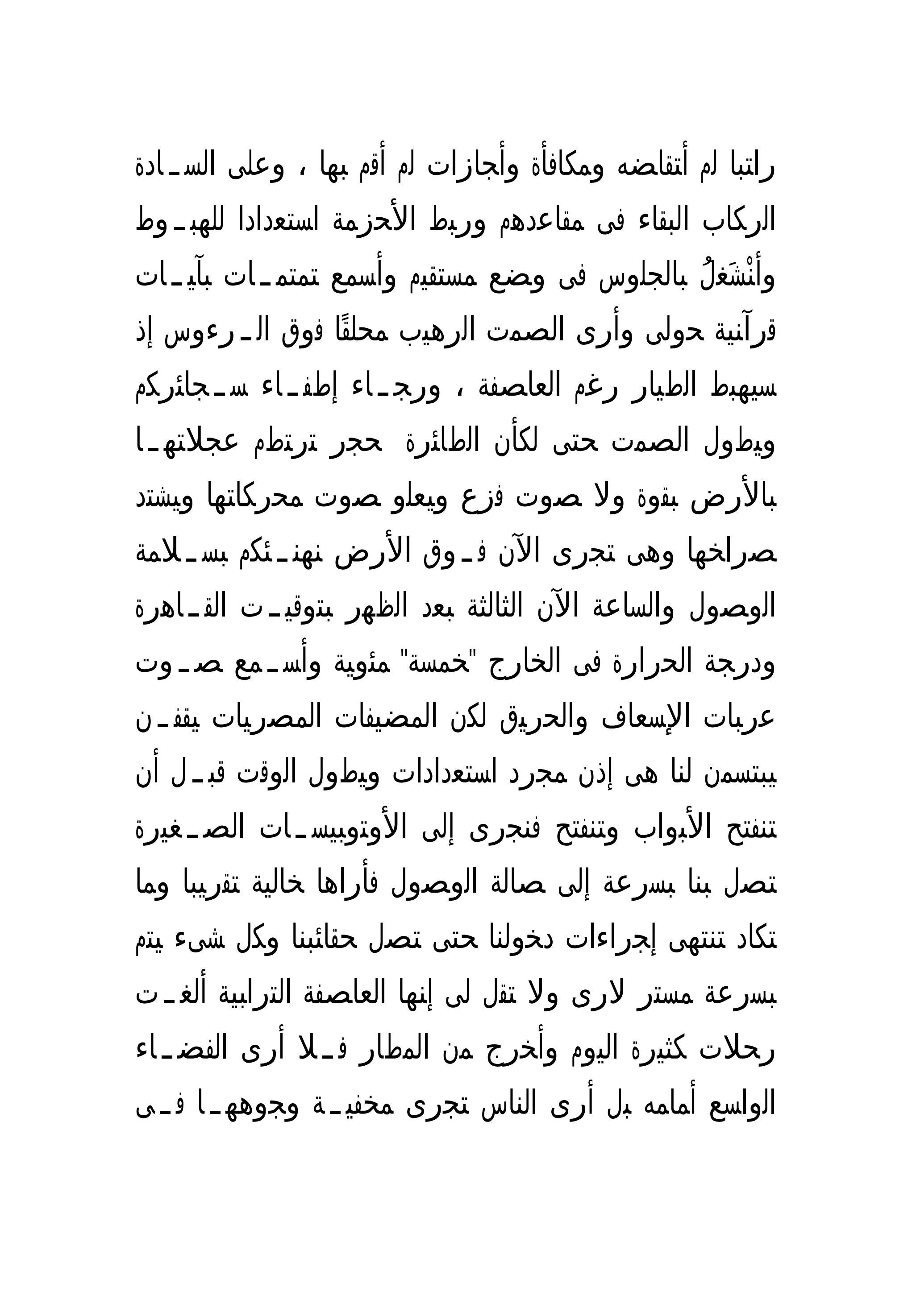
*****

(٢١)

هذه هى القاهرة .

نحن فوقها الآن . لكنى لا أرى شيئًا ، عاصفة ترابية تعطل هبوط الطائرة ، يعلن الطيار أننا قد نضطر للهبوط فى مطار الأقصر ، وأنا الذى أحببت النيل والأهرامـات لا أرى إلا فضاء أصفر من خلف زجاج النافـذة الصـغيرة التـى حرصتُ على الجلوس جوارها إذ فى ذهابى جلسـت كيفمـا اتفق وكنت مشغولاً بالخوف من ركوب الطائرة لأول مرة .

فى إيابى اليوم خيبت العاصفة رجائى ، ولم أر مـن مصر كلها إلا لسانى البحر الأحمر منفرجين صامتين وهـا هى الطائرة تَحوم دائرة فوق القاهرة أكثر من مرة وأشـعر بدوارنها والعاصفة الترابية لا تتيح لى أن أرى شيئًا. وأفكر فجأة ألا أعود إلى المملكة فلن يسأل عنى أحد ولن أضر أحدا والخمسة آلاف ريال التى أخذتها تركت فى عملى أكثر منها



راتبا لم أتقاضه ومكافأة وأجازات لم أقم بها ، وعلى السـادة الركاب البقاء فى مقاعدهم وربط الأحزمة استعدادا للهبـوط وأنْشَغلُ بالجلوس فى وضع مستقيم وأسمع تمتمـات بآيـات قرآنية حولى وأرى الصمت الرهيب محلقًا فوق الـرءوس إذ سيهبط الطيار رغم العاصفة ، ورجـاء إطفـاء سـجائركم ويطول الصمت حتى لكأن الطائرة حجر ترتطم عجلاتهـا بالأرض بقوة ولا صوت فزع ويعلو صوت محركاتها ويشتد صراخها وهى تجرى الآن فـوق الأرض نهنـئكم بسـلامة الوصول والساعة الآن الثالثة بعد الظهر بتوقيـت القـاهرة ودرجة الحرارة فى الخارج "خمسة" مئوية وأسـمع صـوت عربات الإسعاف والحريق لكن المضيفات المصريات يقفـن يبتسمن لنا هى إذن مجرد استعدادات ويطول الوقت قبـل أن تنفتح الأبواب وتنفتح فنجرى إلى الأوتوبيسـات الصـغيرة تصل بنا بسرعة إلى صالة الوصول فأراها خالية تقريبا وما تكاد تنتهى إجراءات دخولنا حتى تصل حقائبنا وكل شىء يتم بسرعة مستر لارى ولا تقل لى إنها العاصفة الترابية ألغـت رحلات كثيرة اليوم وأخرج من المطار فـلا أرى الفضـاء الواسع أمامه بل أرى الناس تجرى مخفيـة وجوههـا فـى

صدورها وتطير ثيابها والغبار يدخل الحلوق والأنوف ويشد فوق العيون جفونها فأدخل أول تاكسى يقابلنى وأشير للسائق أن يضع حقائبى فى حقيبة السيارة .

- حمدا على السلامة .

- ا يسلمك .

- إلى أين ....؟

- الإسكندرية .

- فى هذا الجو ! الأجرة ثلاثون جنيها .

- موافق .

- إذن خذ سيجارة منى .

ويلتفت السائق يعطينى سـيجارة ويبتسـم بوجهـه الأسمر النحيل المحاط بكوفية تغطى الرأس أيضـا وتلتـف حول العنق ، وينطلق بالسيارة ، ويدير مسـجلها ، فينسـاب صوت أم كلثوم .

ـ لا تخش شيئًا . سنصل بالسلامة . شريطان فقـط ونصل . الأول "جددت حبك ليه" والثانى "ذكريات" يا أستاذ . وضحك ـ أم تحب تسمع "أروح لمين؟" .

ويضحك أكثر وأبتسم أنا ويـدير مكيـف السـيارة الليموزين فيسرى الدفء فى جسدى والاطمئنـان معـه ولا يطول الطريق إذ أصل وكأنى ركبت منذ دقـائق وتضـرب حولى حلقة الاستقبال والابتهـاج ودمـوع أمـى تضـحك والتليفزيون يبث نشرة الأخبار سقوط طهران فى يد أنصـار الخمينى والغموض يحيط بمصير باختيار والملـك الحسـن يعلن أن الشاه يبقى بالمغرب كمواطن عادى والشـاه يشـكر السادات على الأيام التى قضاها فى مصـر بعـد خروجـه وضياء الحق يرفض الاستجابة للنداءات الدولية بالعفو عـن بوتو ويقول إنه لا حيلة له فى حكم المحكمة وأرشد يقول لى صباح أمس لا مفر من إعدام بوتو ما دام ضياء الحق أعلـن كذبا أنه لا يتدخل فى عدالة المحكمة ويبتسم وهو يعلن لى أن المطارات فُتِحَتْ فى باكستان وأنه سيسافر اليوم فى طـائرة المساء . رحلة طويلة مستر إسماعيل لكنها جميلـة . تبـوك جدة . بومباى . لاهور . بيشاور . آمنة زوجتـى وزينـب

ابنتى ثم أصدقائى مستر إسماعيل والوجوم لا يزال على وجه
أمى إذ رأيتنى شاحبا وعرفت أنه أجريت لى جراحة للزائدة
وأقول لها لقد حدث ذلك منذ أكثر من شهرين الآن ولا أظن
أنى شاحب كما تقولين وأضحك وتضحك أختى سناء وتقول
إنى فى أحسن صحة ويقول أخى بهاء إنى فى أحسن حـال
وهذه ساعة رادو وزجاجة بارفان شانيل وثـلاث بلـوزات
مونتيجو فرنسية وقطعة من الحرير الطبيعى تصلح فسـتانًا
وقطعة من الصوف الهيلد الإنجليزى تصلح تاييرا لك يا سناء
وقبلة من أختى على خدى والفرحة تكاد تقفز مـن عينيهـا
وهذه ساعة أورينت وقطعة صوف لبدلة وطقم أقلام شـيفرز
وابتسامة وشكرا بلا قبلة من بهاء وهذه طرحة من الحريـر
وقطعة قطيفة وبالطو أسود شيك وعباءة مغربية لك يا أمـى
وكتر خيرك يا ابنى ودموع وهذه الحقيبة بما فيها لروحيـة
وولديها وعلية وبنتيها ولا يقترب منها أحد ونضحك والحقيبة
الثالثة بها فستق ولوز وتفاح وشاى ليبتون وعصير برتقـال
جاف وصابون لوكس وفلفل أسـود وهـى أشـياء كثيـرة
تستطيعين يا أمى تقسيمها بالعدل ولا تضحكوا هكـذا يفعـل
المصريون جميعا وأنا تعلمت منهم وأنـت مـاذا أحضـرت

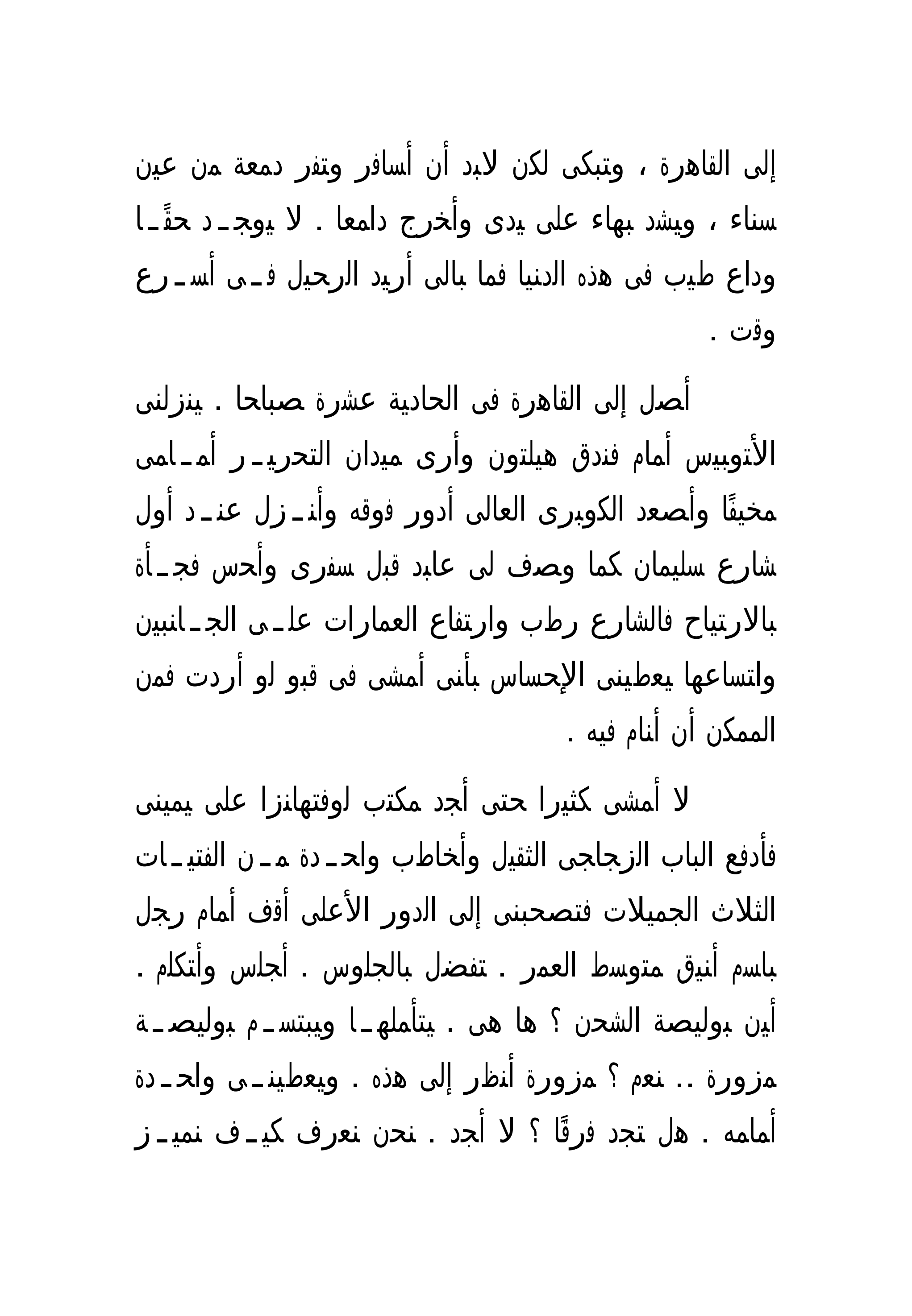
لنفسك ؟ الكثير يا أمى تركته هناك .. هنـاك هنـاك . إذن سأعود . ليس لأنى اشتريت شيئًا تركته ولكنى أحس بالحنين للعودة ويزداد الحنين كلما مر يوم بعد يـوم وأمشـى فـى شوارع الإسكندرية فكأنى أرى مدينة لا أعرفهـا فالزحـام خانق والمواصلات بطيئة والأرض طينية والمبـانى باهتـة الطلاء والتليفزيون يبث برامج غريبة ليس فيها الألفة التـى ربطت بينى وبين "مجلة التليفزيون" ولا "من كل بحر قطرة" أو "أبجد هوز" ولا "تيلى مـاتش" "والرجـل الأخضـر" ولا "الشيخ الطنطاوى" وصوت الأذان ليس جريحا ولا ذبيحا ولا فيه رنة حزن قادم من فوق جبل بعيـد ولا يصـحبه دعـاء شجى ينقل الروح إلى بحار الوداعة وليس هنا هـواء جبـل أُحد الجاف ولون الجبل الأحمر القانى الوديع . أريد أن أعود حقًا فأنا أنتظر رسالة من عايدة التى تمضى الليـل وحـدها على سطح بناء مخيف فى بلدة يسكنها الصمت والأشباح ولا يكفيها أبدا صوت عبد الحليم . مالك يا إسماعيل ؟ كل يـوم تقول لى أمى ذلك وترانى دائما متلبسا بابتسامة لا تعرف أنى أرد بها على اليمنى غريب الأطوار أو متلبسا بضـحكة ولا تدرى أن أستمع لنبيل أو ترتسم الحيـرة علـى وجهـى ولا

تدرى أن أمامى يجلس منصور متجهما والقرد على كتفه أو يعلو الضيق سحنتى ولا ترى عابدا يعطينـى خطابـا مـن واضحة عرف أنه من الرياض خطاب واضحة ؟! أين هـذا الخطاب الذى لم أفتحه . أخذته إلى البيت . أم تركتـه فـى العمل ؟ كيف مضى كـل هـذا الوقـت دون أن أفتحـه .. وأعصر ذهنى لأتذكر أين خبأته وينتابنى القلق من عابد الذى يمكن أن يجده فى المكتب فيفتحه ويقرأه .. وأمنـى الـنفس بأنى أخذت الخطاب معى البيت إلى ولابد أنه بين أوراقـى هناك وأعود وأقول ولو وجده عابد وقـرأه مـاذا يمكـن أن يحدث أكثر مما جرى ؟ راحت واضحة وانتهت قصتها إلـى الأبد ولماذا أنت صامت يا ولدى ولا تسأل أختك عن أحوالها الدراسية ولا أخاك ويالها من أم ! .. أمـى لا تريـدنى أن أنسى مؤامرة أبى على وينتهى أسبوع وأقول هذا يكفى بينكم وعندى عمل بالقاهرة ويسكت الجميع وتأخذنى أمـى إلـى غرفتى التى حرصوا على نظافتها فى غيابى كما قالوا وتقول إن علاء ابن عابس الحلوانى تقدم لخطبـة سـناء وينتظـر عودتى ولا تنتظر أن أبتلع دهشتى "علاء تخرج مـن كليـة الحقوق العام الماضى كما تعرف" وأتذكره والولـد الهـادئ

الوديع الذى أقام أبوه وليمة كبيرة للفقراء يوم نجاحه "عـلاء طموح يكفر فى فتح مكتب للمحاماة " وتغلق أمى كل الطرق ويمضى أسبوع آخر يحضر فيه علاء وأبـوه ويشـكو لـى الرجل من غلاء السكر والدقيق والسمن والزيت والشـربات والألوان الصناعية والألبان والسمسم والشيكولاته وكل شىء يدخل فى صناعة الحلوى وأنه لا يكسب إلا بـائعو الفـول والفلافل والمقاولون واللصوص والتجار الكبـار. وتزغـرد أمى وأختاى الكبيرتان ويمتلئ البيت بالضيوف ويقام فـرح بسيط وتتم الخطبة وأزهو بجمال سناء جوار علاء وتفر من عينى دمعة الآباء والأمهات وإلى محل مصـطفى درويـش أصحبهم للعشاء وتبهرنـى الأضـواء البيضـاء والمناضـد البيضاء والمفارش البيضاء وثياب العاملين البيضاء ويتحدث علاء عن مشروعه فى امتلاك الشقة والمكتب فهـو جـاهز لهما إلى حد ما. إلى حد ما ؟! وتقول سناء إن علاء يحبـك جدا وكيف قال إنه لن يتحدث فى الخطبة مع أحـد إلا أنـت حتى لو أتيت بعد عشرة أعوام. لم يكن ممكنًا البقاء عشـرة أعوام يا سناء ، ولا أتكلم وأرى البحر مظلما واسع الظـلام ونوبة البرد شديدة حقًا غير كـل عـام فـوق الإسـكندرية

المشهورة بالدفء وفى البيت تقول أمى لا يجب أن تنتظـر سناء أكثر من عام فسترة البنت الزواج .. ما رأيك ؟ رأيـى ؟! لقد رتبتم كل شىء . ولا أتكلم وأقوم لأنام فتأتى خلفـى . ألم تفكر بعد فى بنت الحلال ؟ أبتسم ولا أرد وأسعى للنـوم الذى لا يسعى إلى وأدخل تحت الغطاء فعلى أن أعود وأكمل عامى الأول وأعطيه لعلاء وسناء . فى أى ركن من الظلام كان يقع علاء هذا وينتظرنى . ليكن لكل مؤامرة نهايـة ولا أظن أن عايدة ستنصاع للفارس النبيل قبل أقل من عام .

أنام وأصحو مبكرا جدا أسأل أمى عن فاروق الـذى أتذكره فجأة فتسكت قليلاً وتقول إنها لم تعد تعرف عنه شيئًا إذ تقدم إليها يخطب سناء فرفضت . كيف تُزوجها له وله من زوجته السابقة ولد . أندهش وتستمر تقول إنها عرفت منـه أنه يعمل فى شركة لتقسيم الأراضـى بالسـاحل الشـمالى ويكسب أكثر مما كان يكسبه فى السعودية ، ولكـن سـناء قرأت فى الصحف أن شركته قد استولت على أراضى الدولة وقسمتها وباعتها للناس بملايين الجنيهات وعجز الناس عـن استغلال ما اشتروه من أرض وهناك قضايا كثيرة مرفوعـة على الشركة الآن . وأقول لأمى إنى عقدت العزم على السفر



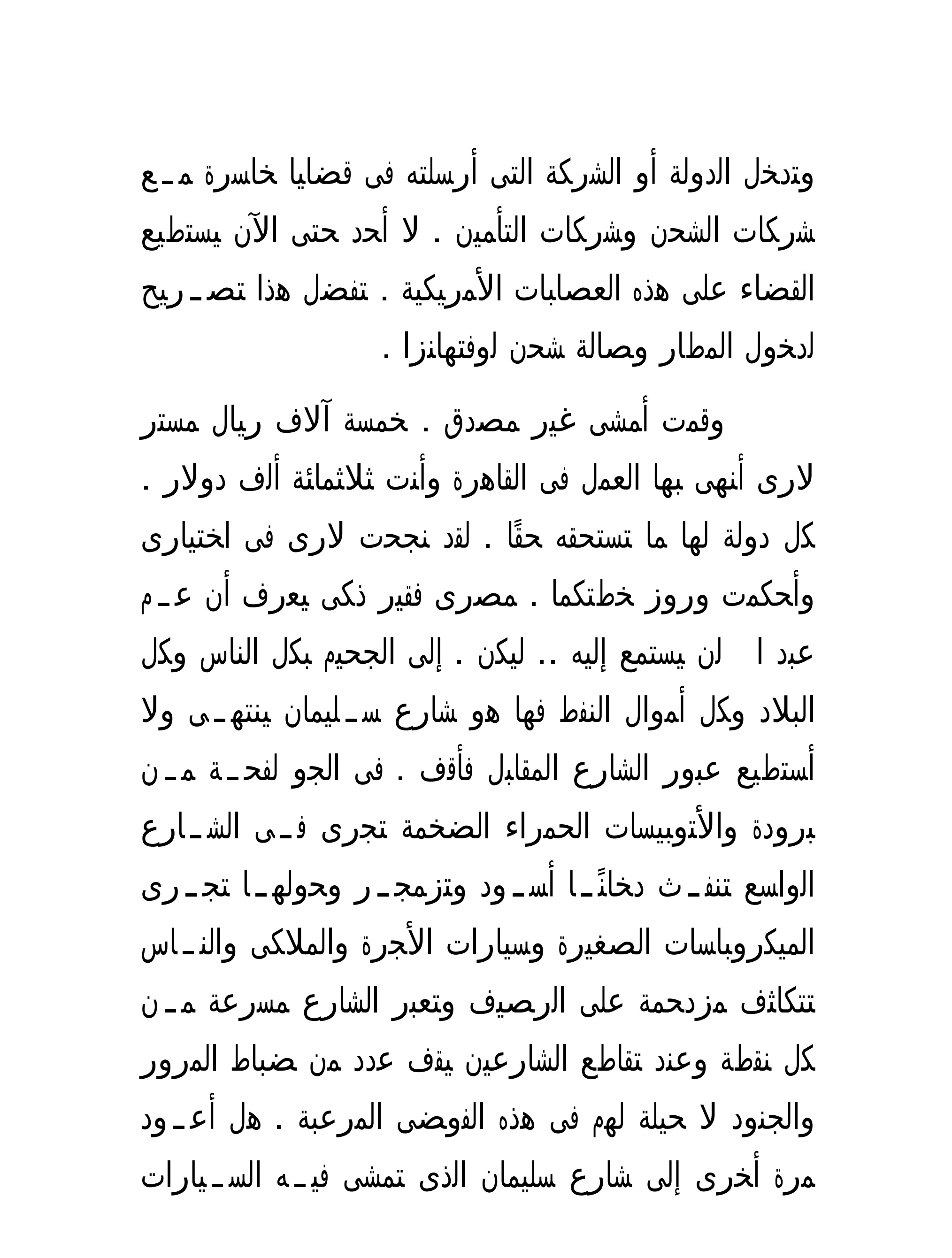
إلى القاهرة ، وتبكى لكن لابد أن أسافر وتفر دمعة من عين سناء ، ويشد بهاء على يدى وأخرج دامعا . لا يوجـد حقًـا وداع طيب فى هذه الدنيا فما بالى أريد الرحيل فـى أسـرع وقت .

أصل إلى القاهرة فى الحادية عشرة صباحا . ينزلنى الأتوبيس أمام فندق هيلتون وأرى ميدان التحريـر أمـامى مخيفًا وأصعد الكوبرى العالى أدور فوقه وأنـزل عنـد أول شارع سليمان كما وصف لى عابد قبل سفرى وأحس فجـأة بالارتياح فالشارع رطب وارتفاع العمارات علـى الجـانبين واتساعها يعطينى الإحساس بأنى أمشى فى قبو لو أردت فمن الممكن أن أنام فيه .

لا أمشى كثيرا حتى أجد مكتب لوفتهانزا على يمينى فأدفع الباب الزجاجى الثقيل وأخاطب واحـدة مـن الفتيـات الثلاث الجميلات فتصحبنى إلى الدور الأعلى أقف أمام رجل باسم أنيق متوسط العمر . تفضل بالجلوس . أجلس وأتكلم . أين بوليصة الشحن ؟ ها هى . يتأملهـا ويبتسـم بوليصـة مزورة .. نعم ؟ مزورة أنظر إلى هذه . ويعطينـى واحـدة أمامه . هل تجد فرقًا ؟ لا أجد . نحن نعرف كيـف نميـز

بينهما .. للأسف الشديد هناك عصابات دولية كثيرة تعمل فى هذا المجال وفى أمريكا بالذات . مالك ترتجف ؟ أنا لا أفهـم شيئًا يا سيدى . هل أنت صاحب الشركة ؟ أنا أعمل فيهـا . إذن عد وأخبرهم بما قلته وأستطيع أن أعطيك خطابا بذلك . مالك ترتجف ؟ ولم أقل إن أحدا لـن يصـدقنى أنـا ولارى فلارى يكسب . أطلب منى أى شى أفعلـه . أشـكرك يـا سيدى . أريد إرسال تلكس لكل هذه المطارات وآخـذ ردود التلكس معى . هذا سهل وحتى تطمئن أكثر اذهب إلى صالة شحن لوفتهانزا بالمطار هناك ستقابل المهنـدس "مجـدى" . سيبحث معك عن البضائع وسيرسل ما تشاء من تلكس . ولا أستطيع القيام ويشرح لى هو ما كنت فى غنى عن شرحه .

ـ تخيل أنك ذهبت تشترى بضائع بمليـون جنيـه وقابلك أحد رجال العصابات وأغراك بأن يعطيـك بوليصـة شحن مزورة نظير عشرة بالمائة من ثمن البضاعة التى لـم تشترها ووافقت وأخذت البوليصة . ستفوز بتسـعمائة ألـف ويفوز هو بمائة ألف وكل منكما لم يتعب فى شىء . كثيـر من المندوبين الذين ترسلهم دول الخليج لشراء بضائع مـن أمريكا يفعلون ذلك . لا يهم ما يحـدث . سـيهرب المبلـغ



وتدخل الدولة أو الشركة التى أرسلته فى قضايا خاسرة مـع شركات الشحن وشركات التأمين . لا أحد حتى الآن يستطيع القضاء على هذه العصابات الأمريكية . تفضل هذا تصـريح لدخول المطار وصالة شحن لوفتهانزا .

وقمت أمشى غير مصدق . خمسة آلاف ريال مستر لارى أنهى بها العمل فى القاهرة وأنت ثلاثمائة ألف دولار . كل دولة لها ما تستحقه حقًا . لقد نجحت لارى فى اختيارى وأحكمت وروز خطتكما . مصرى فقير ذكى يعرف أن عـم عبد ا   ان يستمع إليه .. ليكن . إلى الجحيم بكل الناس وكل البلاد وكل أموال النفط فها هو شارع سـليمان ينتهـى ولا أستطيع عبور الشارع المقابل فأقف . فى الجو لفحـة مـن برودة والأتوبيسات الحمراء الضخمة تجرى فـى الشـارع الواسع تنفـث دخانًـا أسـود وتزمجـر وحولهـا تجـرى الميكروباسات الصغيرة وسيارات الأجرة والملاكى والنـاس تتكاثف مزدحمة على الرصيف وتعبر الشارع مسرعة مـن كل نقطة وعند تقاطع الشارعين يقف عدد من ضباط المرور والجنود لا حيلة لهم فى هذه الفوضى المرعبة . هل أعـود مرة أخرى إلى شارع سليمان الذى تمشى فيـه السـيارات

بطيئة من زحامها لكن لا تجرى فيه الأتوبيسـات ويمشـى الناس متزاحمين فيه لكن على الرصيف ؟ لقد لمحت أكثـر من سينما فيه فهل أعود وأدخل إحداها حتـى ينتهـى هـذا الزحام ؟ لا أظن أنه ينتهى إلا بالليـل . إذن أقفـز السـور الحديدى الذى يحد الرصيف وأجرى أعبر الشارع فها أنـذا أقرأ لافتة "جراند أوتيل" . هذا المبنى الضخم المقابـل لـيس سوى فندق .

ـ أريد غرفة بسرعة .

أقول لموظف الاستقبال وأنا ألهـث بعـد عبـورى الشارع ، وأقف أمامه أحاول تنظيم أنفاسـى . وقـد صـار يتأملنى بإمعان فأقول :

ـ آسف . هل لديكم غرفة لشخص.... ؟

وأتلفت حولى دون قصد ولا أزال مرتبكًـا فـأعود أقول :

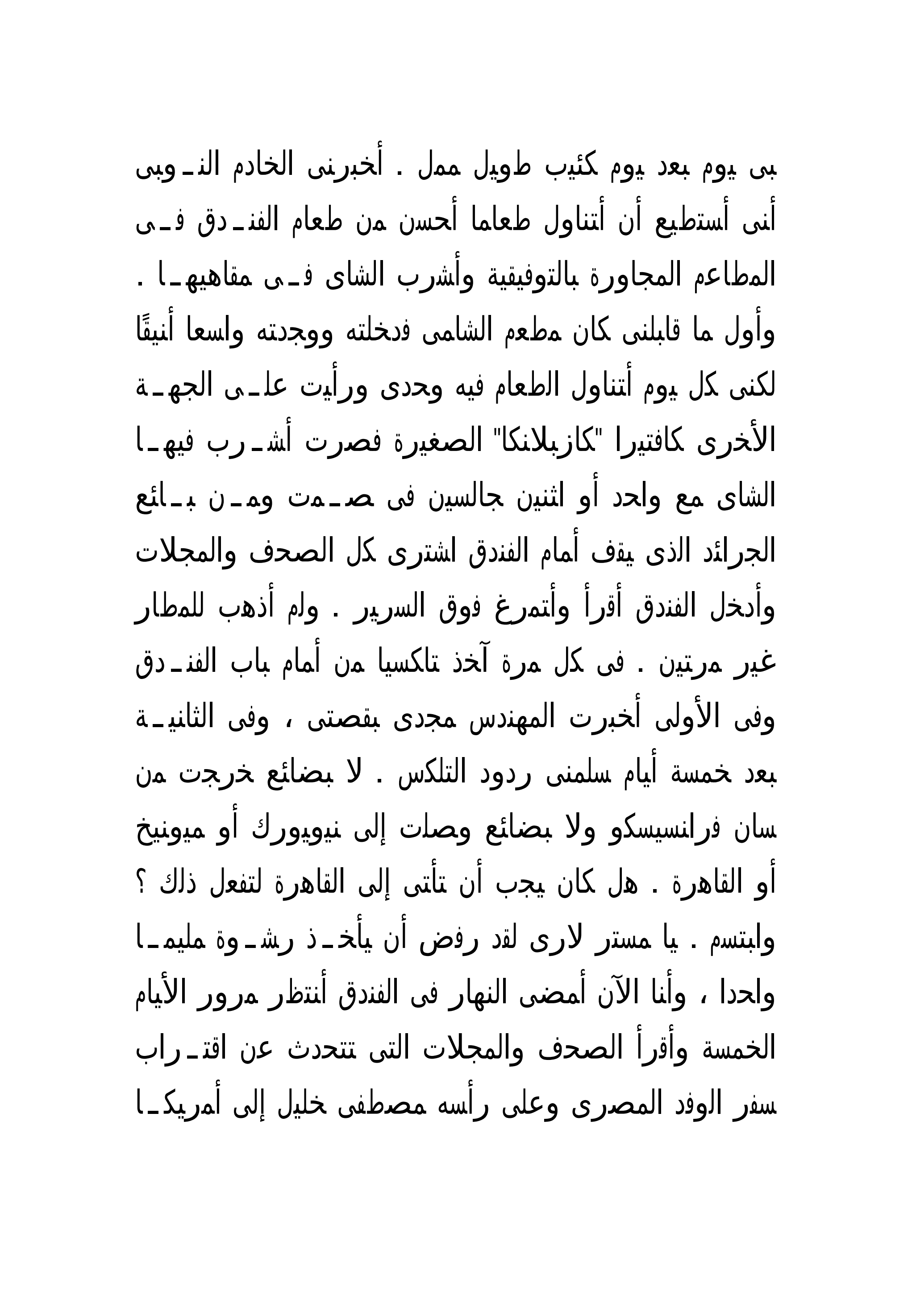
ـ آسف جدا . أنا خائف من مـدينتكم . أنـا مـن الإسكندرية ولم أتعود هذه الفوضى وهذا الزحام . أنا أيضـا جائع جدا . هل يوجد طعام فى هذا الفندق.... ؟

ـ لدينا كل شىء .

وأرى الابتسامة التى يتكلفها موظفو الفنـادق تأخـذ مكانها أخيرا ، وأعطيه جواز السفر وخمسين جنيهـا تحـت الحساب . وفى الغرفة التى يصحبنى إليها الرجـل النـوبى العجوز ، أستلقى فوق السرير ناسيا جـوعى وهلعـى . يـا إلهى ! كم مرة أتيت القاهرة ثلاث مرات . الأخيرة كانت يوم سفرى ، فلم أدخل المدينة . والثانية كانت اعتماد أوراقـى ، فلم أبتعد عن ميدان التحرير إلا إلـى القنصـلية السـعودية بجاردن ستيى . والأولى كانت من زمان ....

عام ١٩٦٨ جئنا فى رحلة مدرسية معتـادة لطلبـة الثانوية العام يزورون فيها أسوان والقاهرة . فـى القـاهرة أمضينا يومين نزلنا خلالهما لوكاندة كئيبة جدا بشارع كلوت بك . زار زملائى والمدرسون الأزهر والحسـين والقلعـة والمتحف الإسلامى والمتحف الحربى والأهرامات . هربـت منهم فى الأزهر والحسين مشيت كثيرا فى شوارع الجماليـة وجلست بمقهى رخيص فى شارع بين القصرين . مقهى يكاد يكون تحت الأرض .. لم أر وجها واحدا ذكرنى بأحمد عبد الجواد ولا فهمى ولا كمال الصغير ولا ياسين الطـائش ولا

عائشة التى تترصد لهـا القـدر ولا أمينـة ولا خديجـة ولا الأحفاد . رأيت نساء ذوات أعجاز ضخمة ونساء شـديدات التبرج وسمعت ألفاظًا قليلة الحياء مـن الرجـال والنسـاء وتساءلت كيف ومن أين كتب نجيب محفـوظ ذلـك كلـه . وكانت هذه أول مرة أدرك أن الكتابة ليست كما يحدث لى : شعور جميل وزهور بما أكتب إنها مشقة كبـرى تسـاءلت بعدها : هل يعطينى الزمان القدرة على ذلك الشقاء الجميل ؟ ولما رأيت زقاق المدق القصير جدا الضيق الأسود الرطـب تعجبت كيف عاش فيه كل أولئك الذين عشت معهم وضحكت وبكيت ولم يدهشنى إلا شكل البواكى على جـانبى شـارع كلوت باك ومحلات الأحذيـة والشـنط الكثيـرة والمقـاهى الصغيرة الضيقة والنساء العجائز يجلسن فيها غير قـادرات على الحركة ويدخن " النارجيلة " تعلو وجـوههن مسـاحيق مضحكة . بدت لى القاهرة فى ذلك الوقت مدينة أقـدم مـن الإسكندرية .. أقدم من الزمان . وكانت السواتر الحجرية قد أقيمت أمام مداخل البيوت والنور ينطفئ فى الشـوارع مـع المساء ودخان الهزيمة لا يزال فى الفضـاء . القـاهرة الآن مدينة سافرة بالجهامة فلن أبقى فيها طويلاً .. وها أنذا يمـر


بى يوم بعد يوم كئيب طويل ممل . أخبرنى الخادم النـوبى أنى أستطيع أن أتناول طعاما أحسن من طعام الفنـدق فـى المطاعم المجاورة بالتوفيقية وأشرب الشاى فـى مقاهيهـا . وأول ما قابلنى كان مطعم الشامى فدخلته ووجدته واسعا أنيقًا لكنى كل يوم أتناول الطعام فيه وحدى ورأيت علـى الجهـة الأخرى كافتيرا "كازبلانكا" الصغيرة فصرت أشـرب فيهـا الشاى مع واحد أو اثنين جالسين فى صـمت ومـن بـائع الجرائد الذى يقف أمام الفندق اشترى كل الصحف والمجلات وأدخل الفندق أقرأ وأتمرغ فوق السرير . ولم أذهب للمطار غير مرتين . فى كل مرة آخذ تاكسيا من أمام باب الفنـدق وفى الأولى أخبرت المهندس مجدى بقصتى ، وفى الثانيـة بعد خمسة أيام سلمنى ردود التلكس . لا بضائع خرجت من سان فرانسيسكو ولا بضائع وصلت إلى نيويورك أو ميونيخ أو القاهرة . هل كان يجب أن تأتى إلى القاهرة لتفعل ذلك ؟ وابتسم . يا مستر لارى لقد رفض أن يأخـذ رشـوة مليمـا واحدا ، وأنا الآن أمضى النهار فى الفندق أنتظر مرور الأيام الخمسة وأقرأ الصحف والمجلات التى تتحدث عن اقتـراب سفر الوفد المصرى وعلى رأسه مصطفى خليل إلى أمريكـا

للتحضير للتوقيع النهائى على معاهدة كامب ديفيـد ، وعـن جرائم الاغتصاب الكبرى والشقق المفروشة للدعارة وصورة السادات فى كل صفحة تضحك بالبايب الشهير . أنا لا أخرج إلا بالليل أعبر الشارع بثبات الآن وأدخل سينما مترو لأرى فيلم "الزلزال" لأنى أحب آفا غاردنر وأدخل فى اليوم الثـانى سينما ميامى لأشاهد "رجب فوق صفيح ساخن" ولا أضـحك مع عادل إمام إلا قليلاً . وفى الليلة الثالثة أدخل سينما كايرو بالاس وأشاهد ممثلة جديدة اسمها مارى فرانس بيزيـه لأن معها راف فالون ذا الوجه الحاضر ولا يدهشنى تدخل الرقابة كل لحظة فى الفيلم الجميل الذى أسموه "الرغبـة المـدمرة" واسمه "الجانب الآخر من الليل" والوقت أيضا لا يمر فأبـدأ بعد التاسعة مسيرة على الأقدام إلى الحسين . لماذا أفعل ذلك ؟ أريد التعب . تعب الليل يعنى نوم النهار وانقضاء الأيـام الخمسة رغم برودة الليل هنا فى القاهرة . كـل ليلـة أرى أشجار حديقة الأزبكية كأنها قردة سوداء والظلام يلفها وتبدو لمبات الكافيتريات التى أقيمت شيئًا مشـوها بتعـدد ألوانهـا الخضراء والحمراء وأقطع الحديقة مـع الصـمت وأنظـر وكثيرا ما أجد نياما يلتفون بالخيش وأدخل شـارع الأزهـر

فأجده خاليا ٌأغلقت محلاته ولا أحد يمشى معى غير سيارات قليلة تسبقنى ولا أفتأ أفكر كيف كانت حديقة الأزبكية حـين أجرى الفرنسيون فيها تجاربهم على المنطـاد بـين عيـون المصريين المدهوشة الخائفة ولا أجلس فى حى الحسين بأى مقهى ولا آكل فى أى مطعم إذ يحدد لى رجال البوليس الذين انتشروا طرق السير فأدور خلفه أشم رائحة نتنة فى الأزقـة وأعود وأحاول أن أتذكر ما كنـت قـررت أن أفعلـه فـى القاهرة . الليلة ، وهى الأخيرة ، تذكرت غدا فـى الصـباح أزور سعيدا . لقد ترك لى عنوانه قبل رحليه . كـم يكـون رائعا أن أفاجئه باكرا بزيارة ، أقول لنفسى وأنا عائـد إلـى الفندق والساعة قد تجاوزت الواحدة بالليل وأنا أمشى وحدى فى شارع ٢٦ يوليو وأقترب كثيرا من الفندق وإذ بيد تمسك بى من كتفى تشدنى بعنف إلى زقاق جانبى مظلم وتـدفعنى إلى الحائط . اثنان هما . رجلان ، ماردان فى عيونهما شرر مخيف . واحد يحمل سيفًا والثانى يمسـك بسلسـلة طويلـة سميكة من الحديد .

ـ طلع اللى فى جيبك يا ابن القحبة ....

أسمع صاحب السلسلة ، وأرى عينيه فيهمـا نـذير الموت ، وصاحب السيف يبتعد للوراء ويرفـع سـيفه إلـى أعلى . وأتلكأ ذعرا أتلكأ موتًا . فيتراجع صـاحب السلسـلة ويصوب لى ضربة قاصمة على ذراعى تشعل النـار فـى رأسى ، فيناولنى الآخر على جانب قدمى اليسرى ، فأسـقط فوق الأرض ، أزحف رعبا فينهالان على ظهرى ركلاً ثـم يحملنى صاحب السلسلة الجبـار ويسـندنى إلـى الحـائط وصاحب السيف يصرخ بصوت مكتوم : "اتركه لأذبحه" .

ـ أرجوك .

أتوسل بصوت لا يخرج إلا بالكاد .

ـ ترجونى يابن .. الـ ..

ـ خذ ما تشاء ..

فيتركنى وأسقط على الأرض ممددا ويقلبان جيـوبى يأخذان ما فيها .

ـ معه ريالات ودولارات . أنت منين يا واد ؟

ـ إسكندرية .

ـ حرامى فى المينا يعنى .

ويركلنى كـل منهمـا فـى ضـلوعى ويسـرعان بالاختفاء .

ملمس الأرض بارد وأنا عاجز عن النهوض يداهمنى التعب فأكاد أنام وأتذكر أن بقية نقودى فى الفنـدق ، وفـى الفندق جواز السفر ، فأشعر ببعض القـوة وأتحامـل علـى ذراعى ، وأزحف حتى الشارع . ومستندا إلى الجدران أقف وأمشى مرهقًا أكاد أقع فى كل خطوة . كان من الممكـن أن يقتلانى حقًا . ولا أرى حولى إلا أعمدة النور تضىء خـلاء من الظلام ولا توجد حتى النسمة الباردة .

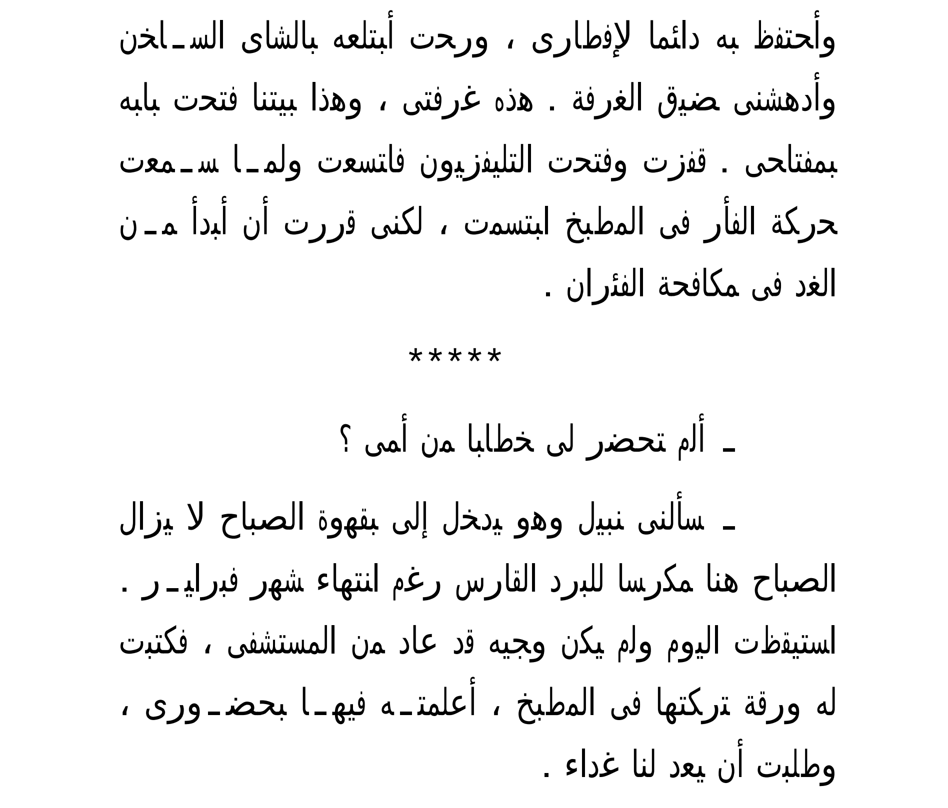
*****

(٢٢)

لا عايدة ولا واضحة ولا روز مارى ولا أرشد ولا منذر ولا نبيل . لا عابد ولا منصور ولا وجيه ولا صـالح سنيور الثقيفى . لا شىء يشدنى للعودة ولا شـىء يشـدنى للبقاء إنما هو شعور غامض يدفعنى للأمام وشعور غـامض آخر يشدنى للخلف . مسافر أنا من مصر إلـى تبـوك الآن وجئت منذ عشرين يوما من تبوك إلى مصر فمن أى الـبلاد أنا وفى أى بلد ثالث ولدت ونشأت ؟

أقلعت الطائرة فى الخامسة بالتوقيت المحلى ووصلنا فى السابعة والنصف بالتوقيت المحلى !.. الرحلة تسـتغرق ساعة ونصف الساعة لكنهم يسبقوننا بساعة من الزمان .

وصلت إلى البيت فى الثامنة والنصـف ، فوجدتـه مظلما . سأمضى الليل وحدى ، فوجيه لا يزال يعمل بالليل .



دخلت وبدلت ثيابى وبحثت عن طعام فلـم أجـد ، فأعددت كوبا من الشاى ، وتمددت فـوق السـرير وتحـت الغطاء ، ورحت آكل بسكويتًا تركته فى الغرفة مـن قبـل ، وأحتفظ به دائما لإفطارى ، ورحت أبتلعه بالشاى السـاخن وأدهشنى ضيق الغرفة . هذه غرفتى ، وهذا بيتنا فتحت بابه بمفتاحى . قفزت وفتحت التليفزيون فاتسعت ولمـا سـمعت حركة الفأر فى المطبخ ابتسمت ، لكنى قررت أن أبدأ مـن الغد فى مكافحة الفئران .

*****

ـ ألم تحضر لى خطابا من أمى ؟

ـ سألنى نبيل وهو يدخل إلى بقهوة الصباح لا يزال الصباح هنا مكرسا للبرد القارس رغم انتهاء شهر فبرايـر . استيقظت اليوم ولم يكن وجيه قد عاد من المستشفى ، فكتبت له ورقة تركتها فى المطبخ ، أعلمتـه فيهـا بحضـورى ، وطلبت أن يعد لنا غداء .

كان عابد أول من قابلنى ولم يسألنى عن المهمة ولم أشأ أن أخبره بشىء . فقط أعطانى خاطبين قال إن أحـدهما

من الرياض والثانى من ضبا ، وسألنى هل تعرف أحدا فـى ضبا أيضا .

ولم أرد . رحت أبحث فـى مكتبـى عـن خطـاب واضحة السابق فلم أجـده . لا أسـتطيع أن أسـأله عنـه ، ولأبحث جيدا فى البيت اليوم .

ـ أنت لم تطلب منى ذلك يـا نبيـل ولـم تعطنـى العنوان .

وتأملت لحيته التى أطلقها وبسمة الحزن التـى لـم أعهدها على وجهه ، وقبل أن أساله عما ألم به فى غيـابى ، قال :

ـ ربما فعلاً لم أطلب ذلك منك ، لكن كان عليك أن تذهب .

وانصرف وترك الوجوم معى فى الغرفة ، ولولا أننى انتبهت للخطابين فى يدى لنسيت أمرهما أيضا ، وضـعتهما فى جيب سترتى وبدأت أستعد لاستقبال العمال الذين أقبلـوا يوقعون فى دفتر الحضور ويبتسمون لى ، ووقف منذر وحده

يكلمنى بعد أن أخذنى فى صدره وربت على ظهـرى بقـوة وقبل وجنتى بشكل حميم .

ـ لقد تركت البيت يا أستاذ .

ـ أى بيت يا منذر ؟

ـ البيت الذى أسكن فيه ، قلت لك عندى حكايـات ولم تعطنى الفرصة .

ـ أما زلت تذكر يا منذر ؟

ـ أنا وا أريد أن أنسى ، لكنها أخـت القحبـة لا تتركنى . لقد استأجرت بيتًأ عربيـا . تصـور مـن كـان يعارضنى . زوجتى . بلهاء يا أستاذ .

لو حكيت لها القصة ما عارضتك .

ـ إيه يا أستاذ . يا مصـرى . أحكـى لزوجتـى . مجنون أنا . النساء صغيرات العقول . إنها لن تصدقنى أبدا وستقول لى علاقة بالمرأة وتتحول حياتى إلـى جحـيم . إن أخيب الرجال هم الذين يحدثون زوجاتهم بصدق . المرأة يـا أستاذ لا ترى إلا ما فى رأسها .

وتركنى أضحك ورحت أخرج التقـارير المركونـة التى لم يستطع عابد ترجمتها فى غيابى ، لكن وصل عم عبد ا وسمعته يسأل عابد عنى فأدركت أنه يطلبنى .

*****

ـ إيش سويت يا إسماعيل.... ؟

سألنى بعد أن دخلت مكتبـه ورأيـت مسـتر لارى معه . صافحنى لارى بحرارة ، صافحنى عم عبـد ا بـلا مبالاة . لم أرد على سؤاله وقدمت له ردود التلكس .

ـ إيش هذا...... ؟

تعمدت ألا أنظر إلى لاري ، وقلت :

ـ هذه ردود التلكس . لا بضائع خرجت من سـان فرانسيسكو ، ولا بضائع وصلت إلى مطار مـن مطـارات الرحلة .

امتعض عم عبد ا ، ونظر إلى لارى الذى رأيتـه يبتسم جامد الأعصاب .

ـ ماذا تفعل يا لارى ؟

سأله عم عبد ا   بالإنجليزية . أجاب لارى ؟

ـ من الأفضل الآن أن يسـافر أحـد إلـى سـان فرانسيسكو .

ازداد عم عبد ا   امتعاضا ، وقال :

ـ إذن جهز نفسك للسفر .

وقام ليغادر المكتب ، لكنه ابتسم فجأة وقال :

ـ لا تنس أن تأخذ روز معك ، لا تتركها وحدها فى المكتب .

وضحك عم عبد ا   ، فضحك لارى وخرج يغـادر المكان خلفه .

*****

لم يمض نصف ساعة على انصراف عـم عبـد ا   ولارى إلا ودق التليفون . وجدت لارى على الناحية الأخرى يطلب إلى أن أقبل دعوة جديدة إلى الغداء اليوم .

ـ لا أعتقد أنى أستطيع اليوم مستر لارى .

ـ هذه رغبة روز مستر إسماعيل وعليك تلبيتها .

ـ لكنى بالفعل مشغول اليوم مستر لارى .

ـ إذن ننتظر على العشاء مستر إسماعيل .

وقبل أن أتكلم قال :

ـ لا تحاول الاعتذار مستر إسماعيل .

لم يترك لى أية فرصة ، وأنا أيضا لم أندهش من كذبه . متى عرفت روز بحضورى حتى يقول إن هذه رغبتها . أنا أعرف خاتمة القصة وسأذهب فقط ليعرف أننى أعرف .

وتحسست سترتى أتأكد من وجود الخطابين اللذين لا أستطيع قراءتهما فى الغرفة ، ليس خوفًا من أحد ، ولكن أخشى لو أخرجت إياهما يضيع . من اليوم على ترتيب مكان فى البيت للرسائل التى لا أظن أنها ستنقطع .. من ؟ منصور ؟! هتفت وأنا آراه يقف بالباب على كتفه قرد صغير .. نسخة من القرد السابق إلا أن الهالة التى حول رقبته رمادية .

ـ كيفك إسماعيل ؟ كيف حال مصر ؟

قال وهو يدخل ليجلس خلف المكتب الثانى كعادته .

ـ بخير منصور .

ـ لعلك رأيت الأسرة ووجدتها بخير .

ـ كل شىء طيب فى مصر يا منصور .

ـ أعرف أخى إسماعيل . لقد كنت هناك أيضا .

ـ فى مصر.... ؟

ـ طبعا . سافرت إليها أولا وأمضيت أسـبوعا ثـم سافرت . إلى السودان . أما رأيت سعيدا فى مصر ؟

ـ كنت أود أن أزوره لكن الوقت لم يساعدنى .

لم أشأ أن أحكى ما حدث لى فى الليلـة الأخيـرة ، وكيف عجزت فى الصباح عن الاستيقاظ إلا عند الظهـر ، فكدت أتأخر على موعد الطائرة .

ـ أنا زرته أخى إسماعيل .. مسكين سعيد . صـار له لحية ومسبحة ولا يتحدث إلى أحد .

ولم يتركنى منصور أفكر . قال :

ـ حصلت عنوانه من داود .. تعرفها..... ؟

لم أرد .. ولا كنت قادرا على الرد . واستمر هو :

ـ وداد الآن تستعد لإنهاء عملها هنا وستسافر قريبا للكويت .

ـ سوف تتزوج قريبا لها .

ـ لا . لن تتزوج أحدا . ما رأيك فى هذا القرد ؟

ابتسمت . بدا لى منصور مهرجا شديد الحماقة .

ـ سافرت من مصر إلى السودان ، واشتريت عشرة قرود شحنتها إلى تبوك . هل تبغى قردا..... ؟

ـ لا أبغى شيئًا يا منصور . فقط لدى عمل أريد أن أنهيه .

ـ ارتاح أخى إسماعيل . أتركك فى أمان ا .

خرج وتركنى أكاد أختنق . لم تعد بى رغبـة فـى العمل ، ولا فى الحديث إلى أحد ، ولا أظن أن هـذا اليـوم سيمر بسلام .

أمضيت الوقت أفكر فى الأحاجى التى ألقاها أمامى ، ولم أصل إلى شىء مفهوم ، وفى السـاعة الثانيـة عشـرة نظرت إلى الباحة فلم أجد اليمنى العجوز .

*****

ماذ يحدث لو ذهبت إلى "روز" و "لارى" فى موعـد الغداء ؟ سترتبك كل خططهما وسأفضى لهما بمـا أعـرف وينتهى الأمر ، وأعود إلى بيتى وقد تخلصت من روز إلـى الأبد ، وأقرأ خطابى واضحة وعايدة على مهـل . خطـاب واضحة لن يزيد على كلمة وداع طيبة . كيف بـا تكتمـل القصة إلا بذلك . وليأخذ بعد ذلك خطاب عايدة الليل كلـه . ترى ماذا فكرتْ فى وقد تأخر ردى عليها كل هـذا الوقـت الذى أمضيته بمصر يالمصر التى تضيع منا كـل شـىء . على يقين أنا أن عايدة لن تغلق الباب إلى الأبد . يا بؤس هذا العمل الذى يقذف إلى اليوم كله لحظة بمجنون . آه كـم أود أن أقرأ خطاب عايدة الآن ولا أستطيع ! ها هو نبيل يـدخل صامتًا يحمل القهوة .

ـ لم أطلب قهوة .

ـ لم تكن تطلبها من قبل . هل أعود بها .....؟

تأملت وجهه الحزين ولحيته الطويلة .

ـ أجلس .

جلس مطرقًا إلى الأرض .

ـ ماذا حدث لك فى غيابى . هل ضايقك هنا أحد ؟

ـ إطلاقًا .

ـ لماذا تبدو شاحبا وتطلق لحيتك ؟

ولم يرد . تأملنى بعينين كسيرتين .

ـ ألا تقرأ الصحف ؟ ألا تسمع الإذاعات ؟

ولم أرد . ماذا فى الصحف يزعج نبيـل كـل هـذا الإزعاج ؟ دانت إيران للخمينى واختفى شـهبور باختيـار ، وكارتر يستعد لاستدعاء بيغن والسادات للتوقيع على معاهدة السلام ، وأمس افتتحوا كوبرى السادس من أكتوبر فى مصر ، وملكة بريطانيا تزور المملكة ويقيمون لها سباق الهجـن ، ولا أظن أن شيئًا فى هذا كله يخص نبيل .

ـ لا تريد أن تصدقنى حين أقول لـك إن الأطبـاق الطائرة ليست خرافة .

ـ أما زلت تذكر يا نبيل ؟ لم تعد الصحف تتحـدث فى ذلك .

ـ لكنها ستعود وستعود الصحف تتحدث عنها وأنـا خائف .

ابتسمت مشجعا وقلت :

ـ مما تخاف يا نبيل....... ؟

ـ لو سقط واحد منها هنا لاحترقنا جميعـا . هـل تظن غير ذلك ؟

لم أرد ، لا أصدق أبدا أن ما يقوله هو سبب حزنه وإطلاق لحيته . لن يصرح لى بشىء ولا حاجة لاسـتمرار الحديث . هناك تقارير كثيرة متأخرة لم أبدأ فيها بعد فلأبـدأ ولا أظن أحدا سيشغلنى فى الوقت القليل الباقى .

*****

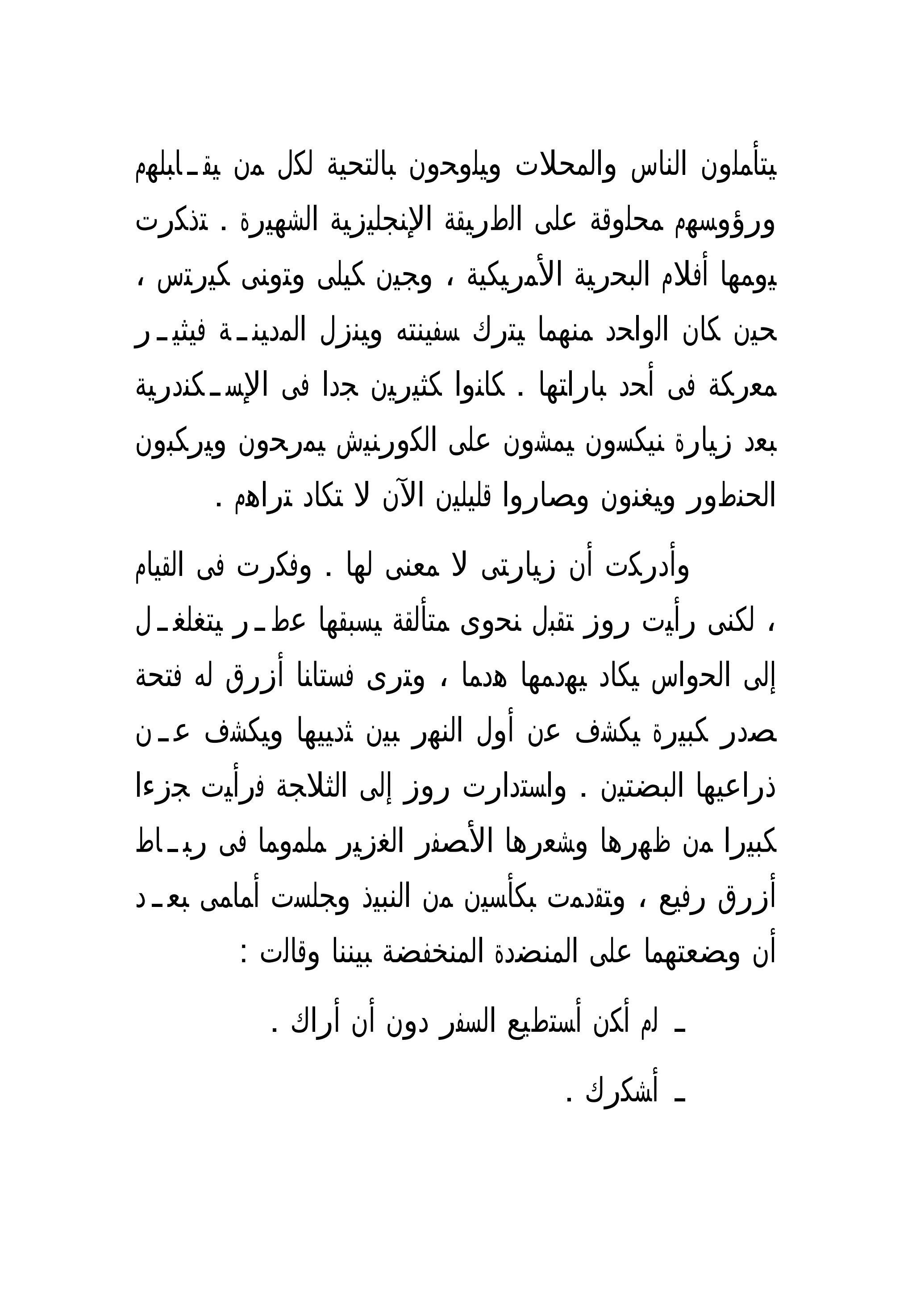
ـ مستر إسماعيل .. غير معقول... ؟!

هتف : " روز " التى فتحت الباب غيـر مصـدقة . ابتسمت ابتسامة واسعة باهرة ودعتنى للدخول .

ـ لارى ليس هناك الآن لكـن لا بـأس . سيصـل حالاً . لابد أنه تأخر لأمر ما مع مستر عبد ا . لقد أخبرنى بحضورك على العشاء . تفضل واختر أى مكـان للجلـوس أعطنى دقائق أصلح من شأنى .

كانت تتكلم بسـرعة غريبـة وراتبـاك واضـح ، وتركتنى فتقدمتُ وجلستُ تقريبا فى المقعد نفسه الذى جلست فيه المرة السابقة ، واختفت وسمعتها تتحـدث هامسـة مـع شخص لم أتبين صوته ، فابتسمت . لا أحد يمكن أن يكـون هنا غير لارى وهى امرأة ذكية أحسنت التصـرف ، لكنـى أدركت فجأة حماقة ما فعلت . إذا كنت أعرف سرهما فلماذا جئت ؟ لا يكفى أبدا أن آتى لأقول لهما ذلك .

ما جدواه الآن... ؟ لا صلة بينى وبين هؤلاء الناس إلا عداوة تأصلت فى نفسى منذ صباى وأول شبابى ، وأنا لم أصدق أبدا ما يردده السادات عن الصديق الأمريكى ، ولـم أكره رؤية أحد مثل رؤيتهم يوم نزلوا الإسكندرية بعد زيارة نيكسون ومشوا فى شوارعها فى زى البحرية طوالاً عراضا

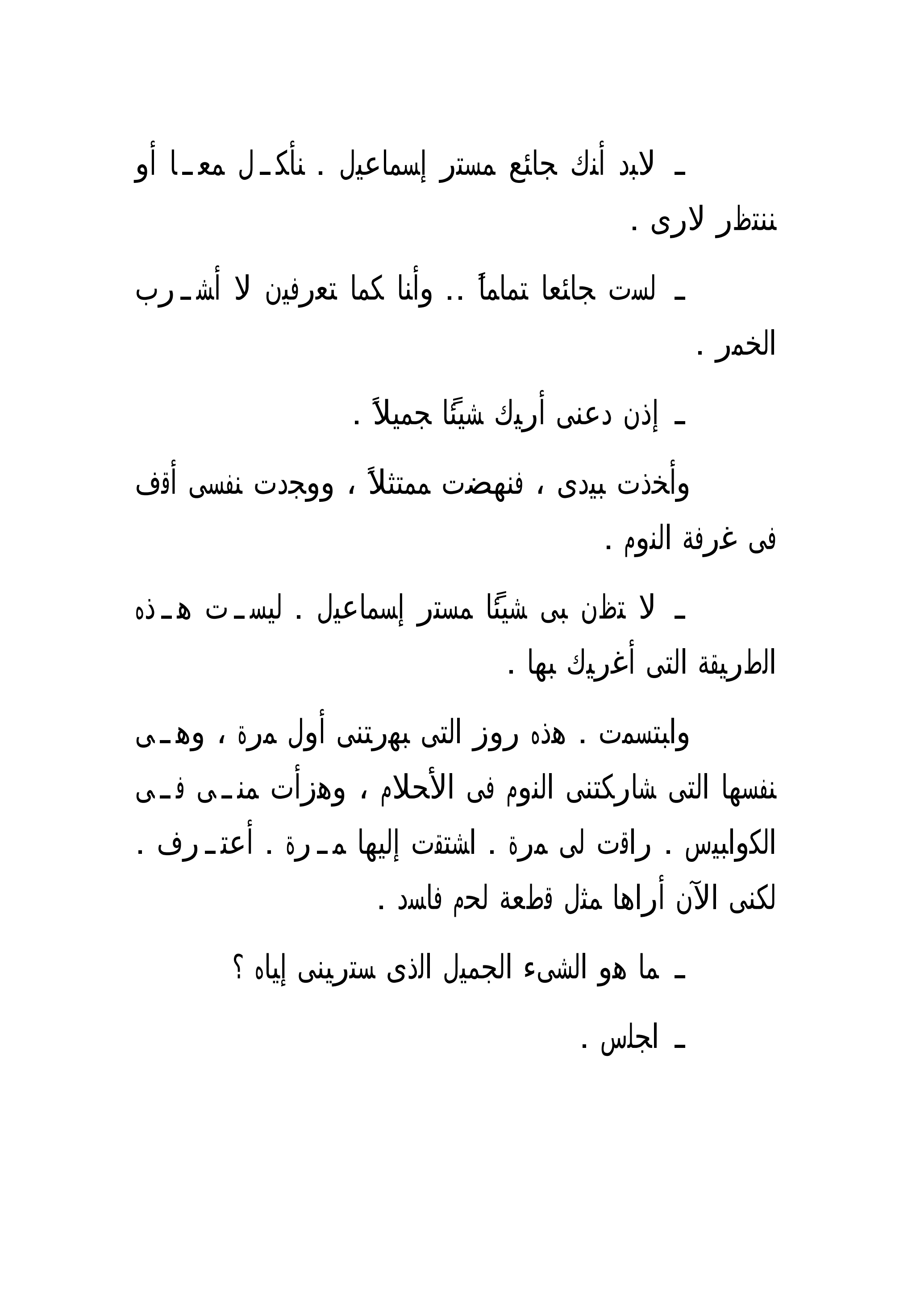


يتأملون الناس والمحلات ويلوحون بالتحية لكل من يقـابلهم ورؤوسهم محلوقة على الطريقة الإنجليزية الشهيرة . تذكرت يومها أفلام البحرية الأمريكية ، وجين كيلى وتونى كيرتس ، حين كان الواحد منهما يترك سفينته وينزل المدينـة فيثيـر معركة فى أحد باراتها . كانوا كثيرين جدا فى الإسـكندرية بعد زيارة نيكسون يمشون على الكورنيش يمرحون ويركبون الحنطور ويغنون وصاروا قليلين الآن لا تكاد تراهم .

وأدركت أن زيارتى لا معنى لها . وفكرت فى القيام ، لكنى رأيت روز تقبل نحوى متألقة يسبقها عطـر يتغلغـل إلى الحواس يكاد يهدمها هدما ، وترى فستانا أزرق له فتحة صدر كبيرة يكشف عن أول النهر بين ثدييها ويكشف عـن ذراعيها البضتين . واستدارت روز إلى الثلاجة فرأيت جزءا كبيرا من ظهرها وشعرها الأصفر الغزير ملموما فى ربـاط أزرق رفيع ، وتقدمت بكأسين من النبيذ وجلست أمامى بعـد أن وضعتهما على المنضدة المنخفضة بيننا وقالت :

ـ لم أكن أستطيع السفر دون أن أراك .

ـ أشكرك .



ـ لابد أنك جائع مستر إسماعيل . نأكـل معـا أو ننتظر لارى .

ـ لست جائعا تماماً .. وأنا كما تعرفين لا أشـرب الخمر .

ـ إذن دعنى أريك شيئًا جميلاً .

وأخذت بيدى ، فنهضت ممتثلاً ، ووجدت نفسى أقف فى غرفة النوم .

ـ لا تظن بى شيئًا مستر إسماعيل . ليسـت هـذه الطريقة التى أغريك بها .

وابتسمت . هذه روز التى بهرتنى أول مرة ، وهـى نفسها التى شاركتنى النوم فى الأحلام ، وهزأت منـى فـى الكوابيس . راقت لى مرة . اشتقت إليها مـرة . أعتـرف . لكنى الآن أراها مثل قطعة لحم فاسد .

ـ ما هو الشىء الجميل الذى سترينى إياه ؟

ـ اجلس .

وأشارت إلى السرير ، فجلست على حافته ، وجلست هى على حافته أيضا جوارى .

ـ أنت ذكية للغاية يا روز .

أنا لم أوافق لارى فيما فعل . أنا فى النهاية زوجتـه ولابد أن أحميه .

ـ كنت أحب فقط أن تختارا غيرى . ما الذى أوحى إليكما بى ؟

اقتربت منى وهست .

ـ لن تصدقنى إسماعيل . أنا كنت سأفعل ذلك مـع غيرك ، لكنى أعجبت بك وأحب أن أجـد سـببا للوصـول إليك .

ـ ليس لى فى الأمر حيلة يا روز . أنا مصرى فلن يصدقنى الناس هنا ويكذبوكما . ما كان الأمر يحتاج إلى كل هذا الترتيب . هل تعرفين ما يضايقنى حقًا ؟ أتذكرين لقاءنا الأول هنا فى بيتكم ؟ لقد كنت فظًا إلى حد كبير لكـن لارى أيضا كان أكثر فظاظة . كان يريد أن يبدو متفوقًا على . ما كان عليه أن يفعل ذلك . هل يحق له أن يفعل ذلك وهو .. ؟

ولم أكمل . وصمتنا كثيرا .

ـ أرجوك دعنى أقبلك .

ـ وداعاً يا روز .

ـ وداعا يا إسماعيل .

ورأيت في عينيها ألما فأسرعت بالخروج . لم تـأت خلفى وعند الباب الخارجى سمعتها تصرخ .

ـ أنت أغبى رجل فى العالم يا لارى ولن أتركـك تفوز بكل شىء .

*****

(٢٣)

إسماعيل :

"لماذا تركتهم يفعلون بـى ذلـك ؟ أنـا أحبـك . لا تنسى" .

"واضحة"

*****

ليتنى لم أبدأ برسالتك : لقد عـدت مـن عنـد روز أسابق سيارتى حتى أخلو إلى نفسى وأفض الرسائل . هـل تعرفين أنى بدأت برسالتك إهمالاً وإدراكًا بأن القصة تمـت فصولها وما حدث لا يعدو نزوة أو جنونًا ؟ واضـحة بنـت سليمان بن سبيل صغيرة كعصفور أنت فمـاذا تريـدين أن تصنعى بى أنا القادم من بـلاد النيـل تمتـد ورائـى آلاف

السنين . أم لهذا السبب تتعلقين بى ؟ لماذ تختـارينني أنـا ؟ تدور بك الشرطة يوم وصولى ويختلج جسدك أمـام عينـى ويختارنى صديقى لأخيك لألقاك وجها لوجـه ولا أسـتيطع الفرار . لقد تقدمت غير هياب . هل تنسين ؟ شـانئى مـنكم وعازلى منكم . صالح سنيور الثقيفى أقـوى منـا جميعـا . مسلح هو بالحماقه وبالبراءة الخائبة . يا واضحة . أنا لـم أتركك . هل تتركينني قليلاً أقرأ الرسالة الأخـرى ؟ ليسـت رسالتك الأولى . لا أعرف كيف وأين ضاعت منى . لم يكن ذلك بالفأل الحسن .

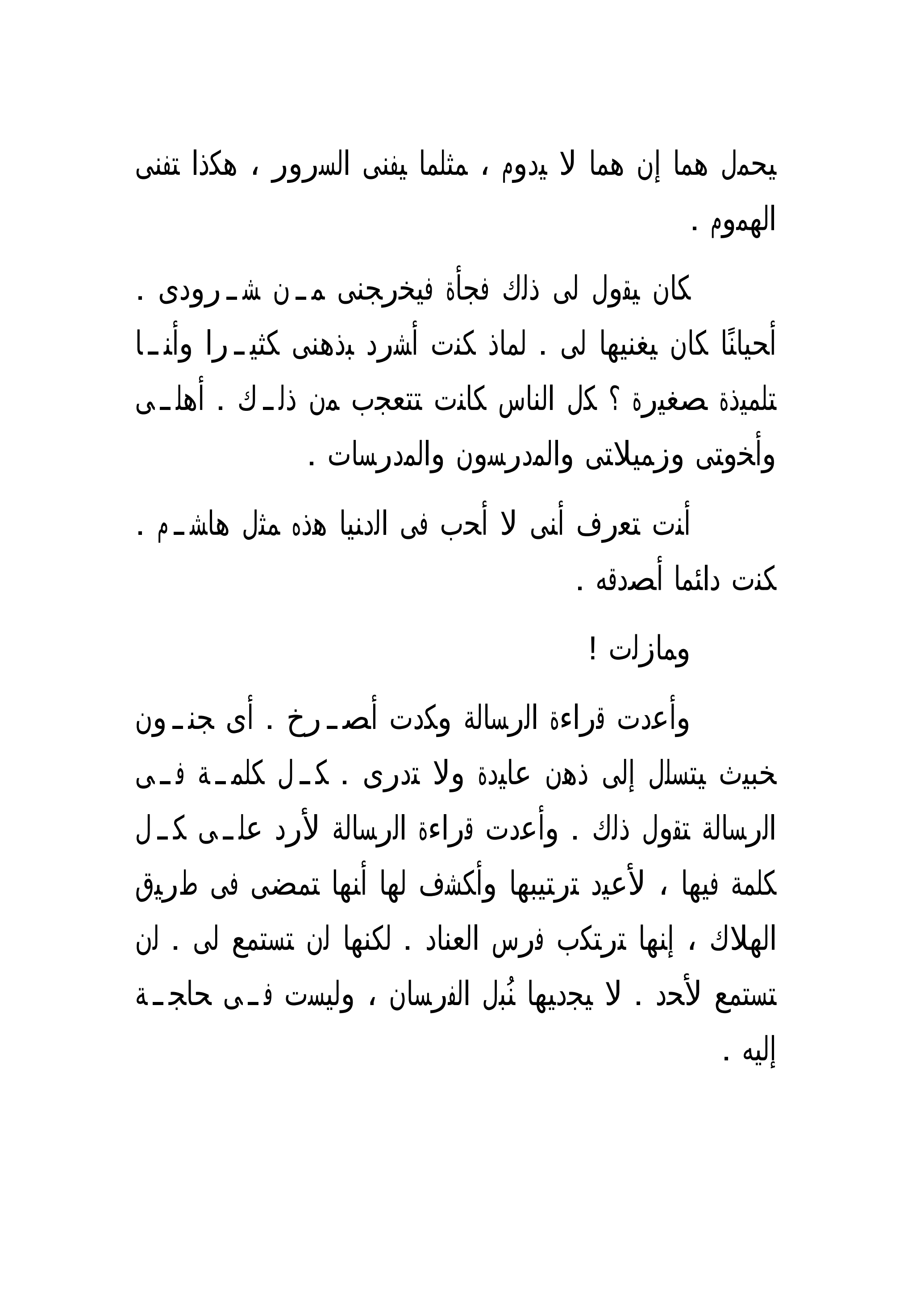
وأدركت فجأة أنى حين عدت إلى المنزل لـم أجـد وجيها . إنه لا يخرج إلى المستشفى قبل الساعة السادسة . لم أجد غداء كما كتبت له فى الصباح . لم أقابله حتـى الآن ، ولا تناولت غدائى .

فتحت الثلاجة ، فوجـدتها فارغـة لا مـن علـب العصير . دخلت غرفته ، فوجدته على منضدة صغيرة علبة تونة أخذتها وأكلتها بسرعة ، وتمددت فوق السرير أقرأ .

"لم يكن أمامى يا عزيزى إسماعيل إلا القبول . القدر يساعدنى دائما . أنا لم أسع إلى ضبا . طلبـوا واحـدة منـا

فأصاب الجميع الرعب ، وتطوعت أنا فى لحظة أدركت فيما بعد أن واحدة غيرى هى التى أبدت استعدادها وليس أنـا . واحدة غيرى هى التى تكلمت ووافقت لكن غير نادمة . ضبا ليست الجحيم ، على العكس ، إنها بلدة صغيرة جميلة قريبة من البحر ، البحر الأحمر ، والناس هنا طيبون . الصيادون يمرون على المستوصف كل يوم يقدمون لى أفضل ما عندهم من سمك بالمجان . لدى هنا سمك يكفى تبـوك الآن . هـل ترانى أستطيع أن آكل هذا السمك كله ؟ لا أحد يقبله منـى . لا أحد إلا وعنده أكثر مما عندى من سمك ، شىء غريب أن أحدثك عن هذه الأشياء . لا تلمنى . فقط أحببت أن أطمئنـك عنى ، فأنا أعرف أنك تحتاج إلى ذلك . رأيتك أول مرة يوم جئت تسهر مع الدكتور وجيه وأنا أعرف أنى سأراك مـرة أخرى . لكن .. كل الناس هنا يحبوننى ، والنسـاء يعـرفن بوحدتى فيأتين بعد العمل ليجلسن معـى فيمضـى الوقـت سهلاً . بعضهم يرسلن بناتهن ليبتن معى . شجاعة غريبـة على نساء المملكة . ربما ليست غريبة فالكرم شيمة العرب ، عرفنا ذلك فى كتب المدرسة . كيف يكون كرم النساء للنساء إلا على هذا النحو . لا تلمنى على ركاكة أسلوبى . كثيراً ما

أتذكر زميلاتى وأضحك . ماذا يصيبهن مـن هـذا المكـان الهادئ الجميل؟ حقيقة لو فكر الواحد فى هذا الاتساع حوله ، وفى بلدة ضبا القديمة التى هجرها أهلها إلى ضـبا الجديـدة لربما يصاب بالجنون . ضبا القديمة ليسـت بعيـدة . أرى بيوتها القديمة المهدمة بالليل من فوق السطح كالمقابر المليئة بالأشباح ، لكنى لا أحاول النظر ناحيتها . وبالنهـار أراهـا كالمناطق الأثرية تستحق الزيارة ولا أزورها . أنا باختصار أستطيع أن أنجو من الشعور بالوحدة بأعمال كثيرة . أعيـد ترتيب الغرفة ، أعيد ترتيب الأدوية بالصيدلية . أنا هنا أفعل كل شىء بعد مواعيد العمل . المستوصف كبير جـدا لكنـى أغلقه بقفل من الداخل . المرضى بعد مواعيد العمل يذهبون للأطباء فى بيوتهم ويأتون إلى فأعطيهم الدواء مـن فتحـة صغيرة بالباب . لا يضايقنى إلا المرضى الذين يأتون فـى منتصف الليل . لكن النور هنا يملأ كل الغرف . أنا أتركـه مضاء فيها كلها . بالنهار يكون ضوء النهار أكبر مـن كـل ضوء . أنا لا أفزع من طارق الليل أبـدا . لا يضـايقنى إلا البرد وأنا أترك الغرفة وأنزل لألبى طلب أحد . هل لا يزال البرد شديدا فى تبوك ؟ هاشم أخى كان يقول دائما قل لمـن



يحمل هما إن هما لا يدوم ، مثلما يفنى السرور ، هكذا تفنى الهموم .

كان يقول لى ذلك فجأة فيخرجنى من شرودى . أحيانًا كان يغنيها لى . لماذ كنت أشرد بذهنى كثيرا وأنا تلميذة صغيرة ؟ كل الناس كانت تتعجب من ذلك . أهلى وأخوتى وزميلاتى والمدرسون والمدرسات .

أنت تعرف أنى لا أحب فى الدنيا هذه مثل هاشم . كنت دائما أصدقه .

ومازلت !

وأعدت قراءة الرسالة وكدت أصرخ . أى جنون خبيث يتسلل إلى ذهن عايدة ولا تدرى . كل كلمة فى الرسالة تقول ذلك . وأعدت قراءة الرسالة لأرد على كل كلمة فيها ، لأعيد ترتيبها وأكشف لها أنها تمضى فى طريق الهلاك ، إنها ترتكب فرس العناد . لكنها لن تستمع لى . لن تستمع لأحد . لا يجديها نُبل الفرسان ، وليست فى حاجة إليه .

ووضعت الرسالتين أمامى فوق السـرير ، ورحـت أنظر إليها ، وأصاب عقلى شلل ، وأمحى خيالى ، وسـمعت المفتاح يدور بالباب الخارجى ، فأسرعت بإخفائهمـا تحـت وسادتى .

ودخل وجيه ومعه الطبيب الشاب الذى رأيتـه فـى المستشفى يوم ترحيل المرأة اللبنانية الصغيرة . أذكره جيـدا رغم ما يبدو على وجهه من شحوب وحزن . ربمـا لـذلك أذكره .

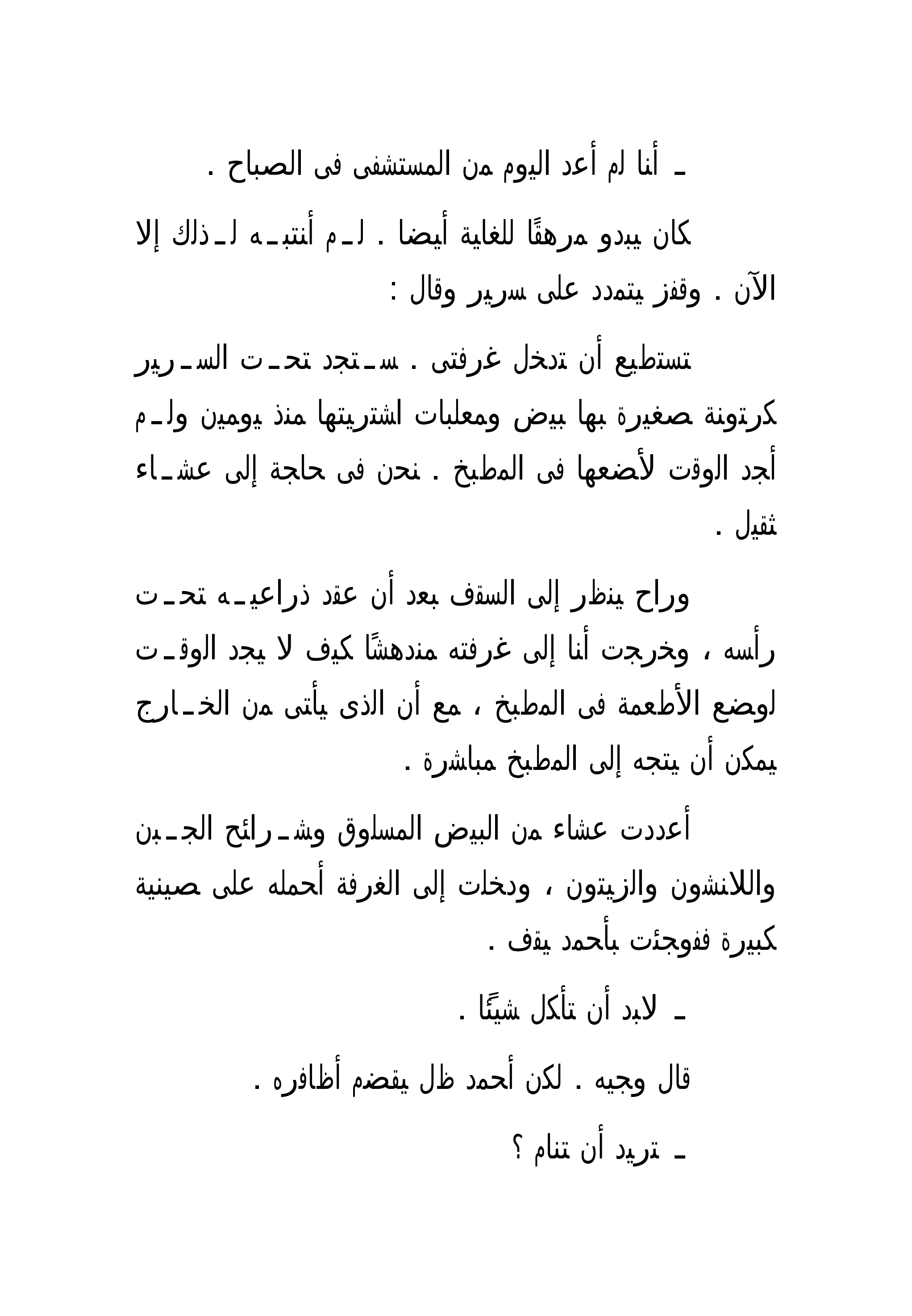
صافحنى وجيه ، واحتضننى يقبلنى ، وارتفع صوته دهشة بحضورى المفاجئ ، وبدا الطبيب الشاب ذاهلاً عنا إذ راح يقضم أظافره بأسنانه ، بدا مرهقًا للغاية حتى استند إلى الحائط .

ـ تفضل يا دكتور أحمد .

قال وجيه . وأشار إلى مقعد فى غرفتـى ، فجلـس أحمد ، وظل يقضم أظافره ذاهلاً عنا وسألنى وجيه :

ـ متى أتيت ؟

ـ أمس .



ـ أنا لم أعد اليوم من المستشفى فى الصباح .

كان يبدو مرهقًا للغاية أيضا . لـم أنتبـه لـذلك إلا الآن . وقفز يتمدد على سرير وقال :

تستطيع أن تدخل غرفتى . سـتجد تحـت السـرير كرتونة صغيرة بها بيض ومعلبات اشتريتها منذ يومين ولـم أجد الوقت لأضعها فى المطبخ . نحن فى حاجة إلى عشـاء ثقيل .

وراح ينظر إلى السقف بعد أن عقد ذراعيـه تحـت رأسه ، وخرجت أنا إلى غرفته مندهشًا كيف لا يجد الوقـت لوضع الأطعمة فى المطبخ ، مع أن الذى يأتى من الخـارج يمكن أن يتجه إلى المطبخ مباشرة .

أعددت عشاء من البيض المسلوق وشـرائح الجـبن واللانشون والزيتون ، ودخلت إلى الغرفة أحمله على صينية كبيرة ففوجئت بأحمد يقف .

ـ لابد أن تأكل شيئًا .

قال وجيه . لكن أحمد ظل يقضم أظافره .

ـ تريد أن تنام ؟

هز أحمد رأسه ، فقام وجيه وأخذه إلـى غرفتـه ، وعاد يقول قبل أن يجلس :

ـ يوم لا يمكن أن ينسى . هيا نأكل .

وضعت الصينية فوق الأرض ، وجلسـنا حولهـا ، والتقط وجيه بيضة وضعها فى فمه كاملة ، وتكلم :

ـ هل تذكر الدكتور رأفت ؟

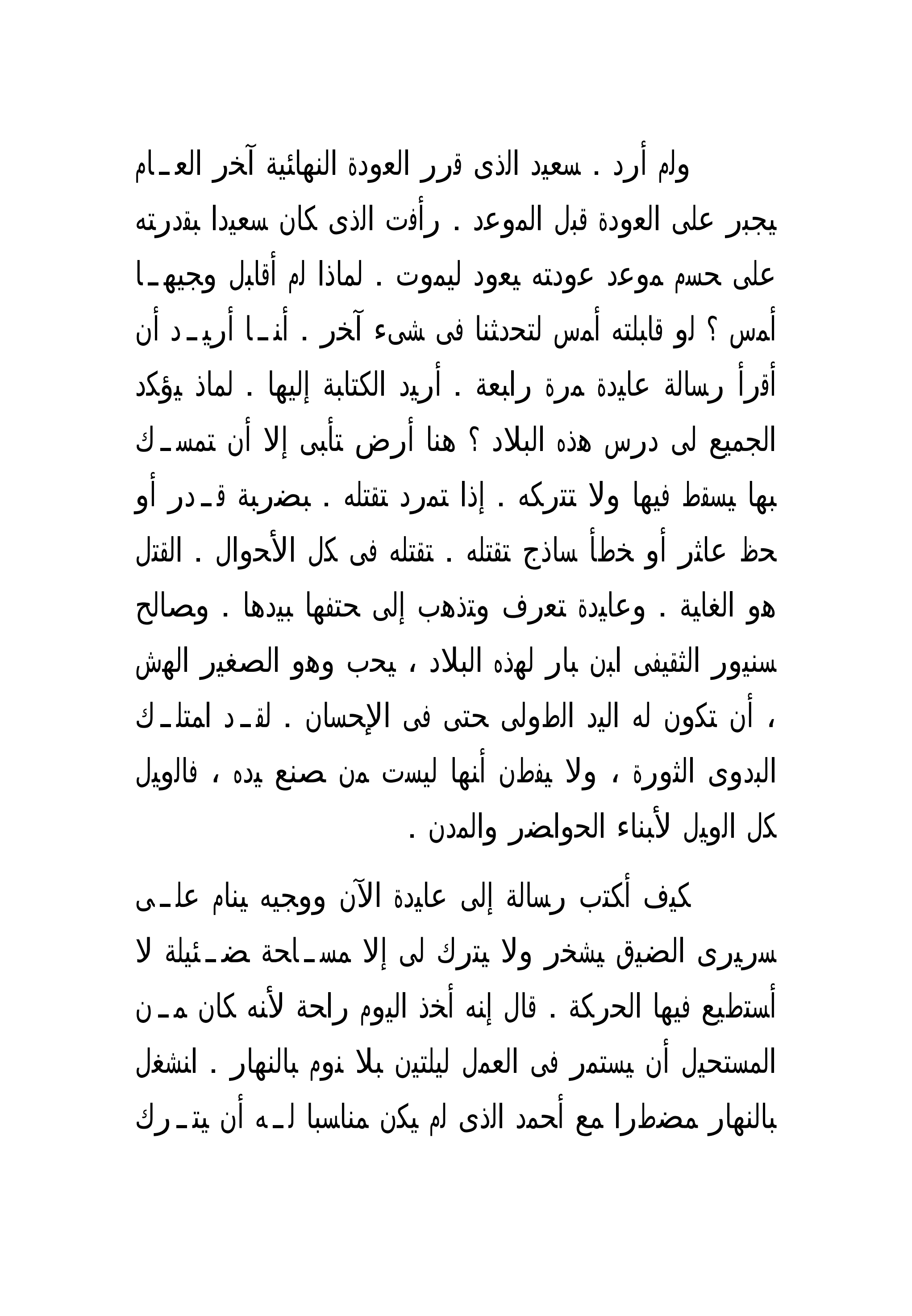
ـ طبيب المسالك البولية الذى عاد إلى مصر منـذ شهور ؟

ـ أجل .

وانشغل ببيضة جديدة وضعها فى فمه أيضا ثم تكلم :

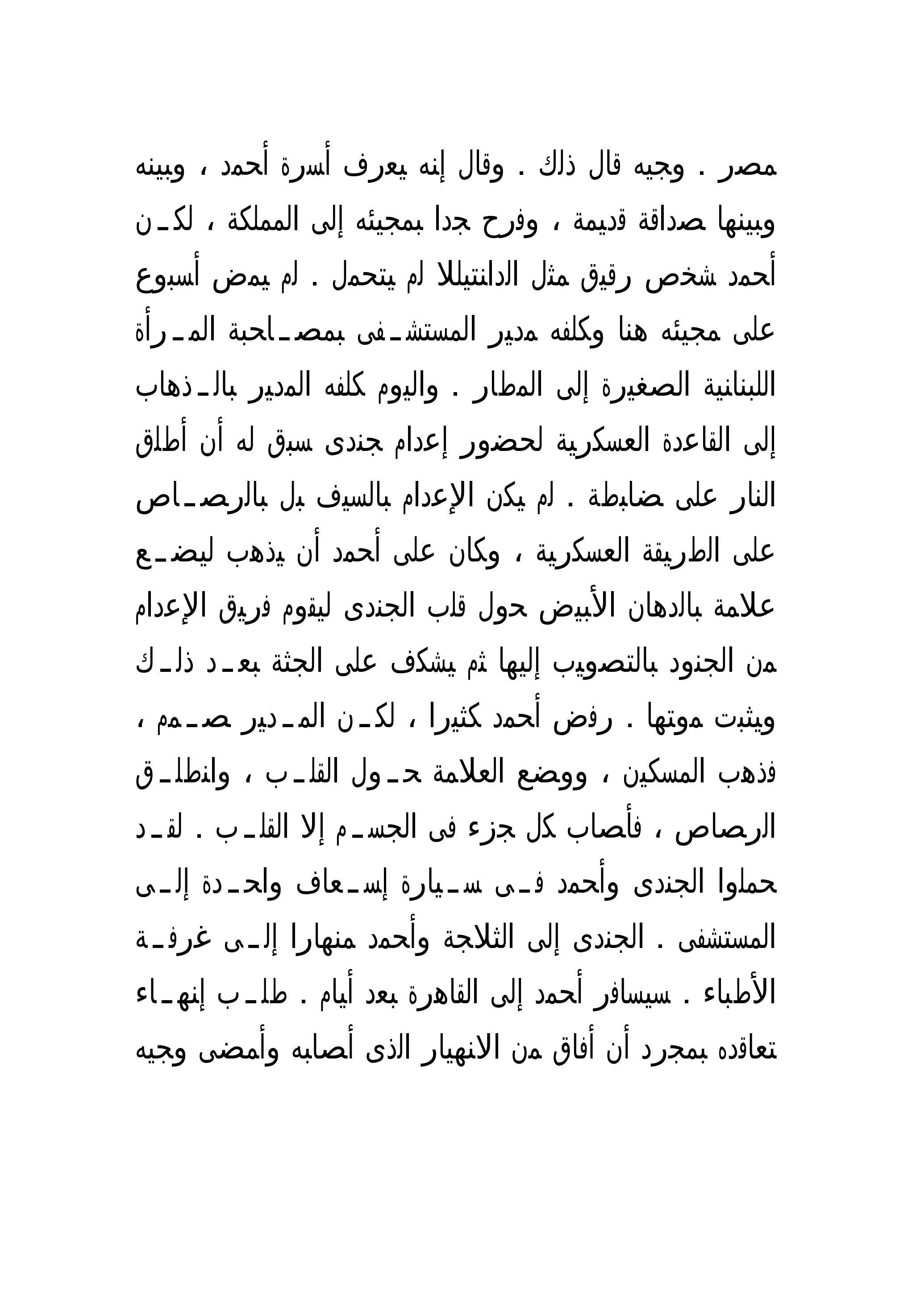
ـ ذهب إلى أمريكا ، واشترى معدات العيادة كاملـة ، ومات قبل أن يفتتح العيادة ، وسكت ولم أرد . رحت آكل على مهل ، وعاد هو يلتقط البيض ببيضة فبيضة يضـعها فى فمه كاملة ، وقال :

ـ شىء غريب . أليس كذلك.... ؟



ولم أرد . سعيد الذى قرر العودة النهائية آخر العـام يجبر على العودة قبل الموعد . رأفت الذى كان سعيدا بقدرته على حسم موعد عودته يعود ليموت . لماذا لم أقابل وجيهـا أمس ؟ لو قابلته أمس لتحدثنا فى شىء آخر . أنـا أريـد أن أقرأ رسالة عايدة مرة رابعة . أريد الكتابة إليها . لماذ يؤكد الجميع لى درس هذه البلاد ؟ هنا أرض تأبى إلا أن تمسـك بها يسقط فيها ولا تتركه . إذا تمرد تقتله . بضربة قـدر أو حظ عاثر أو خطأ ساذج تقتله . تقتله فى كل الأحوال . القتل هو الغاية . وعايدة تعرف وتذهب إلى حتفها بيدها . وصالح سنيور الثقيفى ابن بار لهذه البلاد ، يحب وهو الصغير الهش ، أن تكون له اليد الطولى حتى فى الإحسان . لقـد امتلـك البدوى الثورة ، ولا يفطن أنها ليست من صنع يده ، فالويل كل الويل لأبناء الحواضر والمدن .

كيف أكتب رسالة إلى عايدة الآن ووجيه ينام علـى سريرى الضيق يشخر ولا يترك لى إلا مسـاحة ضـئيلة لا أستطيع فيها الحركة . قال إنه أخذ اليوم راحة لأنه كان مـن المستحيل أن يستمر فى العمل ليلتين بلا نوم بالنهار . انشغل بالنهار مضطرا مع أحمد الذى لم يكن مناسبا لـه أن يتـرك



مصر . وجيه قال ذلك . وقال إنه يعرف أسرة أحمد ، وبينه وبينها صداقة قديمة ، وفرح جدا بمجيئه إلى المملكة ، لكـن أحمد شخص رقيق مثل الدانتيللا لم يتحمل . لم يمض أسبوع على مجيئه هنا وكلفه مدير المستشـفى بمصـاحبة المـرأة اللبنانية الصغيرة إلى المطار . واليوم كلفه المدير بالـذهاب إلى القاعدة العسكرية لحضور إعدام جندى سبق له أن أطلق النار على ضابطة . لم يكن الإعدام بالسيف بل بالرصـاص على الطريقة العسكرية ، وكان على أحمد أن يذهب ليضـع علامة بالدهان الأبيض حول قلب الجندى ليقوم فريق الإعدام من الجنود بالتصويب إليها ثم يشكف على الجثة بعـد ذلـك ويثبت موتها . رفض أحمد كثيرا ، لكـن المـدير صـمم ، فذهب المسكين ، ووضع العلامة حـول القلـب ، وانطلـق الرصاص ، فأصاب كل جزء فى الجسـم إلا القلـب . لقـد حملوا الجندى وأحمد فـى سـيارة إسـعاف واحـدة إلـى المستشفى . الجندى إلى الثلاجة وأحمد منهارا إلـى غرفـة الأطباء . سيسافر أحمد إلى القاهرة بعد أيام . طلـب إنهـاء تعاقده بمجرد أن أفاق من الانهيار الذى أصابه وأمضى وجيه

اليوم كله معه ، وعجز عن إثنائه عن عزمه علـى الرحيـل فاصطحبه معه أخيرا إلى البيت خوفًا عليه .

*****

(٢٤)

لا رسائل من أحد .

" لا تلومينى إذا تأخرت عليك . كنت سافرت إلـى مصر . عشرون يوما قضيتها هناك . مهمة عاجلة لم أستطع الاعتذار عنها . هل كنت محتاجا لـ ذلك ولا أدرى ؟ هنـاك أحسست بحاجتى للعودة . والآن أريد أن أسافر ، ليس إلـى مصر . إذا كان هناك شىء له شأن فى عودتى إلى هنا مرة ثانية فهو أنت .. لا أستطيع الاستطراد .

أود أن أزورك وأخاف . مـا معنـى أن تسـتقبلينى بجفاوة ثم أعود ؟ أخاف أن أطيل فأفسد الأمر كله .

النهار هنا مثل النهار عندك . الليل هنا مثـل الليـل عندك . السماء فوق هذه البلاد واحـدة ، وريـح العجـاج تضربنا جمعيا لكن ليس لى قوتـك ، خلقـت أنـت للبـذل والعطاء . خلقت أنا للمعرفة المتأخرة . أريد أن أفوز مـرة واحدة باليقين فى موعده . رأيت أن آخذ يـدك بعيـدا عـن

اختيارك المستحيل . هل تقبلينني يا عايدة زوجـا أم تـراك تلومينني..... ؟" .

ولا رسائل .

كل يوم أنظر فى عينى عابد . هو الذى ينزل البلـدة أكثر من مرة فى النهار ويمر بالبريد ، وعابد لا يحمـل إلا أوامر بالانتظار حتى يعود مرة أخرى .

مضينا قُدما فى شهر مارس ، وطرد وجـه الربيـع كثيرا من برودة الصباح بما جاء به من ضوء ، ولـم يمنـع هبوب ريح العجاج .

*****

ـ أين أرشد...... ؟

سألت الباكستانيين الذى عادوا من أجازتهم ودخلـوا مكتبى متهجين فى صباح هذا اليوم الجميل .

ـ "سرور" يعرف إنه يسـكن بـالقرب منـه فـى بيشاور .

ودخل "سرور" بعد لحظات ، قصير يكاد يقفز فـى مشيته ، وبارق العينين ، مبتسم دائما .

ـ أرشد مسكين مستر إسماعيل .. فى السجن الآن .

ـ سجن...... ؟

ـ أجل مستر إسـماعيل . قبضـوا عليـه لحظـة وصولنا . لن يعود هنا مستر إسماعيل .

ـ .....

ـ أرشد يعمل مع المعارضـة مسـتر إسـماعيل . المعارضة ترسل رجالها إلى بلاد كثيرة فى الخلـيج لجمـع الأموال . هكذا تقول الصحافة مستر إسماعيل .

ـ ....

ـ أنا آسف مستر إسماعيل . أنا أعرف أنه كان خير صديق .

وخرج "سرور" . إذن لن يعود أرشد أبدا . يا إلهى ؟ ماذا يفعلون به الآن ؟ "العسكريون أغبياء مستر إسـماعيل " . قال لى ذلك فهل سمعه العسكريون.......؟ .

ورأيت عابدا يقف عند الباب مبتسما ، ويسألنى :

ـ شفت منذر ؟

ـ لم يأت حتى الآن .

ـ لن يأتى .

ـ ...

قبض عليه أمس بتهمة محاولة اغتصاب ، ولا يزال فى الشرطة .

ـ أنا لن أعمل اليوم .

وقمت مسرعا إلى سيارتى ، وانطلقت بها غير مبالٍ بنداءات عابد المتكررة لى بالعودة ، ولا بالدهشة المروعـة التى علت وجهه حين قلت ذلك .

*****

الضوء أمامى يوسع فى الدنيا ، والرمال مترامية فى جلال باهر ، وفوقى ندف متفرقة من سحب واهنة ، وفوقنـا كلنا سماء شديدة الزرقة والصفاء . لماذا منذ أتيت إلى هـذه البلادة لم أر طيرا واحدا فى السماء ؟ حتى العصـافير التـى

كنت أسمع شقشقاتها فى المستشفى خارج النافذة لم أرهـا ، ولم تدخل واحدة لتقف لحظة على إفريز النافذة تنظـر إلينـا وتفر عائدة . بلد بلا طيور. كيف ذلك ؟ أم أنى لم أعد أرفع بصرى إلى أعلى؟

بالقرب من الموقع الذى رأيت فيه الكلب مرة جاهدت ألا أنظر . لماذا تجتاحنى الرغبة اليوم فى النظر ؟ نظرت ، ورأيته . لم يتغير الكلب الأبـيض الضـخم مثـل الحمـار الشارد .

وظللت أقود سيارتى بجنون حتى انتهى الشـارع ، وهدأتُ من سرعتى استعدادا للانحراف إلى الشارع العـام . الآن فقط أدركت أنى ذاهب إلى الشرطة لأقابل منذر . والآن فقط سألت نفسى : هل هذا ممكن ؟ ولم أنتظر الإجابة . ولم تنتظر السيارة الكابريس التى انحرفـت نحـوى فانـدفعت بسيارتى بعيدا . لكننى تركـت نهـر الطريـق وصـعدت الرصيف الصغير الذى يتوسط الشارع ، ودخلت فى النهـر الآخر ، وطقَ اصطدمت بسيارة أخرى ، واصطدم صـدرى بمقود سيارتى وأنا أندفع برأسى فى الزجاج الأمامى ، ولـم أشعر إلا والناس تشدنى من فوق مقدمة السيارة ومـن بـين

زجاجها الأمامى الذى تهشم تماما والألم فى رأسى ووجهـى يشوينى وفى صدرى يكاد يخنقنى .

ـ خيرا خيرا .

يقول الوجه المصرى البشوش للشباب الصغير الذى لا أعرفه ، والزحام حولى شديد ، وأنا ممدد جالسـا فـوق الرصيف أغالب الشعور بالإغماء ، وأشعر بالـدم السـاخن على وجهى ، ورأيت ضابطًا سعوديا شابا يصرخ صائحا بلا انقطاع :

ـ أنت.......... ؟!

ـ أطل وجه وجيه من الزحام .

ـ هيا إلى المستشفى . ضعوه فى سيارتى .

ـ خيرا . خيرا إن شاء ا .

يقول الشاب المصرى البشوش الصغير السن وهـو يأخذنى من ذراعى ، استند إليه ، ويمشى بى إلـى سـيارة وجيه .

ـ لن يذهب إلى المستشفى . الشرطة أولاً .

صرخ الضابط بوجيه ، فصرخ به وجيه أيضا .

أنا الدكتور وجيه رئيس قسم الجراحة بالمستشـفى . هذا الشاب سينزف حتى الموت هنا أو فى الشـرطة . هـل تتحمل ذلك ؟

ـ إذن أنت مسئول عن تسليمه .

ـ أنا مسئول عن تسليمه .

وأخذنى وجيه من ذراعى الثانية ، وركبنا سيارته أنا والشاب المصرى البشوش ، الصغير السن الـذى لا يـزال يردد :

ـ خيرا . خيرا إن شاء ا . لا تقلق .

ولم يكف عن الابتسام فى وجهي ، فابتسم له . رأيت ابتسامته شديدة العذوبة .

قلت :

ـ ماذا حدث ..؟.

ـ حادث بسيط .

قال الشاب ، لكن وجيه قال لى :

ـ ليس بسيطًا . لقد صدمت بسيارتك سيارة شـرطة يا أستاذ : أحمد ربك أننى كنت عائدا مـن المستشـفى الآن ورأيتك .

سأل الشاب :

ـ هل تعرفه يا دكتور ؟

ـ طبعا . نسكن معا ؟

ـ الحمد ا   . إذن أنزلنى أنا هنا . لا أظـن أنكمـا ستحتاجانى فى شىء . هل تحتاجانى فى شىء .

ـ لا . نشكرك جدا .

قال وجيه وابتسمت أنـا ومـددتُ يـدى بصـعوبة أصافحه ، فربت عليها بيديه ونزل .

*****

لم يأخذنى وجيه إلى المستشفى . أخذنى إلى العيـادة الرئيسية بالشارع العام . هناك تمددت فوق طاولة الكشـف وراح وممرضة مصرية سـمراء ينقيـان جـروح رأسـى

الصغيرة من شظايا الزجاج الذى لم يكن كثيرا ، لكنه احتاج إلى أن يحلق لى شعر رأسى كله .

كان يضحك وهو ينظر إلى رأسى بعد الحلاقة ، ولم يجد فى وجهى إلا شظيتين صغيرتين فى جبهتي ، وارتـاح كثيرا حين وجد ضلوعى سليمة .

وقال :

ـ لابد أن أكتب تقريرا كبيرا حتى أعزز موقفك أمام الشرطة .

ـ هل يحتاج الأمر ذلك ؟

ـ طبعا . لقد انحرفت عن الطريق إلى طريق آخـر وصدمت سيارة شرطة . فى الحالات العادية يمكن أن تـدفع للمتضرر ثمن الخسائر لكن مع الشرطة لا أعـرف مـاذا يمكـن أن يحـدث . ألـم تجـد غيـر سـيارة الشـرطة تصدمها .... ؟

ـ أنا لم أصدم أحدا . رأيت كأن سـيارة كـابرس تهاجمنى فانحرفت ولم أدر كيف صعدت على الفاصل بـين نهرى الطريق .

وضحك .

ـ يمكن أن ترى شكلك فى المرآة وتضحك على كل حال . سألف رأسك بالشاش رغم عدم حاجتك إليه حتى تبدو أمام الشرطة شخصا يستحق الشفقة .

لف رأسى ونظر فى ساعته وقال :

ـ لم يأت أحد . يمكن أن نذهب إلى البيت الآن .

ـ لكنى أريد الذهاب إلى الشرطة .

ـ نعم..... ؟!!

ـ أنا تركت العمل للذهاب إلى الشرطة .

ـ لماذا... ؟!

ولم أرد إذ دخل الضابط الذى كان يصـرخ وقـت الحادثة وطلب أن أصحبه ، وقبل أن يقول وجيه شيئا قلت :

ـ أستطيع الذهاب معك .

ورأيت وجيها ينظر إلى بغيظ ودهشة ، وقال :

ـ سأذهب أنا أيضا معكما .

*****

كانت خطة وجيه أن يتصل تليفونيا بأبى حكيم قبـل ذهابنا . لقد حاول مرتين فلم يجده . كان يخشى أن يتحـول الأمر إلى المحكمة فى غياب أبى حكيم ، وفى هذه الحالة لا أقل من شهر حبس ، لذلك أراد أن يماطل الضابط ولم يـدر أنى أود الذهاب بأسرع وقت حتى أرى منذر قبل ترحيله أو نقله إلى السجن . لماذا حقًا أريد أن أرى منذرا .....؟

ووصلنا واستقبلنا أبو حكيم ، ورأيت وجيها يتـنفس بارتياح .

ـ أزعجناكم يا أخوان يا مصريين . لا تؤاخـذونا . سوف نعطيك الدية يا أستاذ إسماعيل لـو تنازلـت للكلـب المخبل ابن المخبل .

قال أبو حكيم فجأة بعد أن جلسنا ، ومر علينا الشيخ المسن بإبريق الشاى . نظر إلى وجيه فـى دهشـة ، وداس على قدمى ، ففهمت أنه يطلب منى الصمت ، وعاد أبو حكيم يقول :

- أمسكنا بسائق الكابريس . دلّنا عليه الناس . مـاذا بينكم وبين هذا الولد يا دكتور ؟ هذا الفاسق لن ينجـو مـن يدى . سأوقعه ، لكن فى مسألة تستحق . إيش يبغى منك يـا أخ إسماعيل ؟

- أنا لا أعرف عمن تتحدث .

- صالح . الثقيفى . أظن أنكم تركتم بيته .

رد وجيه بعد أن نظر إلى يحذرنى من الكلام :

- تركناه بسلام وعلاقتنا معه طيبـة ولا أظـن أن صالحا يقصد شيئًا ..

كنت أنا أفكر فى كلام أبى حكيم . هل كان صـالح الثقيفى هو سائق الكابريس حقًا ؟ ماذا كان يريد مني ؟ هـل أراد قتلى أم توريطى فى حـادث كبيـر ؟ لا أسـتطيع أن أصدق . من يضمن بقاء الشعرة بين توريطى وموتى ؟ قلت فى استسلام :

- أنا أيضا لا أظن أنه كان يقصد شيئًا .

ضحك أبو حكيم وقال :

ـ أنت يا دكتور صرت تعرفنا لكن صاحبك ما يعرفنا بعد . اتركه يا أخى يتحدث بحرية ـ وخاطبنى ـ لا تخش شيئًا يا أخ إسماعيل . هنا قانون وشرطة يمكن أن تحميك .

ـ أشكرك . لكن هذه هى الحيقيقة .

ـ والدية هل تتنازل عنها أيضا ؟

ـ أتنازل عنها .

ـ أحوالكم أحوال يا مصريين ..... !

ومر بنا الشيخ المسن يحمل إبريق القهوة مرة ثانية ، فشربت فنجانًا منها لأول مرة ، وأحسست بالمرارة التى لا أطيقها فى حلقى ، فشربت فنجانًا ثانيا وقلت :

ـ لى مشكلة صغيرة هنا يا أبا حكيم .

*****

جاء منذر منكسر الوجه ، شديد الشحوب . رآنى ، ورأيت عينيه حمراوين بينما يبتسم ساخرا . "تركت العمارة يا أستاذ إلى بيت عربى . بيت قديم جميل به شجر نخيل

وشجر ليمون . زوجتى حامل وقلت الحديقة للولد . جهـاد . سأسميه جهادا . ماذا جرى يا أستاذ ؟ منذر لا ينسى . منذر لا يكل ولا يتعب . كل شىء بلا منـذر يتوقـف . جـاءنى الملعون زوجها . الشيخ المسن يمشى ويتكلم ويفعل أى شىء بصعوبة بالغة . بالكاد يمشى ويتكلم وبالكاد يفعل أى شىء ، وطلب أن أذهب معه لأصلح تكييف العمارة . من شقة لشقة تنقلت حتى وصلت شقته . دخلت ودخل معى وخرج وأنا لا أشعر وجاءت الشرطة وأنا أقف فوق السلم أعالج الكابلات . فيلم سينمائى يا أستاذ . سترى . لن يحاكمونى ولـن أدخـل السجن . سأُرحل من البلاد". ترحيلك يصـعب يـا منـذر . الفلسطينيون يحاكمون ويسجنون ويعاقبون ولا يرحلون . يـا أستاذ ! الآن أنا غير حزين . ترحيلى يعنى أن لـى وطنًـا أعود إليه . وجدوا لى وطنًا يا أسـتاذ ، ولا أحـد يـرفض الوطن ".

"هيا يا ولد" . أشار أبو حكيم للشرطى أن يأخذ منذرا ، وأنا لم أستطع إلا أن احتضنه وأقبله . "سامحنى يا أستاذ . أنا أحبك . أحب المصريين جدا . لا أكره إلا السـادات يـا أستاذ . أنا أحد جدودى مصرى . مصرى رفض أن يحفـر

فى القنال وهرب إلى الشام" . لكن الشرطى جذبـه وتـرك منذر نفسه له .

ـ لا تحزن يا مصرى . هذا حال الدنيا كما تقولون فى مصر . لا تصدق رواية هذا الولد .

كيف سمعه أبو حكيم وهو يتحـدث إلـى بصـوت خفيض .

ـ حياك ا .

ـ فى أمان ا .

مد وجيه يده يصافح أبا حكيم . لم أمد يدى أصافحه ولم يفعل هو أيضا . خرجت غير مصدق أنه كان لبيت منذر الجديد حديقة بها نخيل وشجر ليمون . لا أعرف هنا إلا بيتًا واحدا فيه ذلك ، وفيه سيد الغريب ينتظر .

مرهقًا عدت إلى البيت . دخل وجيـه إلـى غرفتـه لينام . فى غرفتى استلقيت فوق السرير . "كمين منصوب لى يا أستاذ وأنا أعرف" . ذهب منذر للكمين بقدميـه وبكامـل الوعى . وتناولت إحدى المجلات الملقاة جوار السرير فـوق

الأرض أقرأ عنوانها . لماذ فتحتها على الصفحات الأخيـرة أتأمل رسائل القراء ؟

" جاءنا من الصديقة واضحة بنت سليمان بن سـبيل بالرياض رسالة تقول فيها : إنها تحب مصر جدا وإنها كانت تتمنى لو لم يذهب الرئيس المصرى إلى إسـرائيل حتـى لا تستمر هذه القطعية بين البلدين ، وتسأل هل تقبـل الجامعـة المصرية الشباب السعودى الآن ؟ هـل توافـق الحكومـة السعودية على التحاق شبابها بالجامعة المصرية ؟ ".

وللصديقة واضحة نقول : إننا كنا نتمنى معك ، لكن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه كما يقول المتنبى ، وبالنسـبة للالتحاق بالجامعة المصرية ، ففى بلادنا الآن جامعات على أعلى مستوى ، لذلك لا أظن أن هناك معنى لاستكمال شبابنا تعليمه فى مصر .

تطلّ على واضحة إذن فى رسائل غير مباشرة . من قال لها إنى أقرأ المجلات المحلية ؟ تعرف أن الوقت لا يمر رغم سرقة الأعمار .. لابد .



*****

(٢٥)

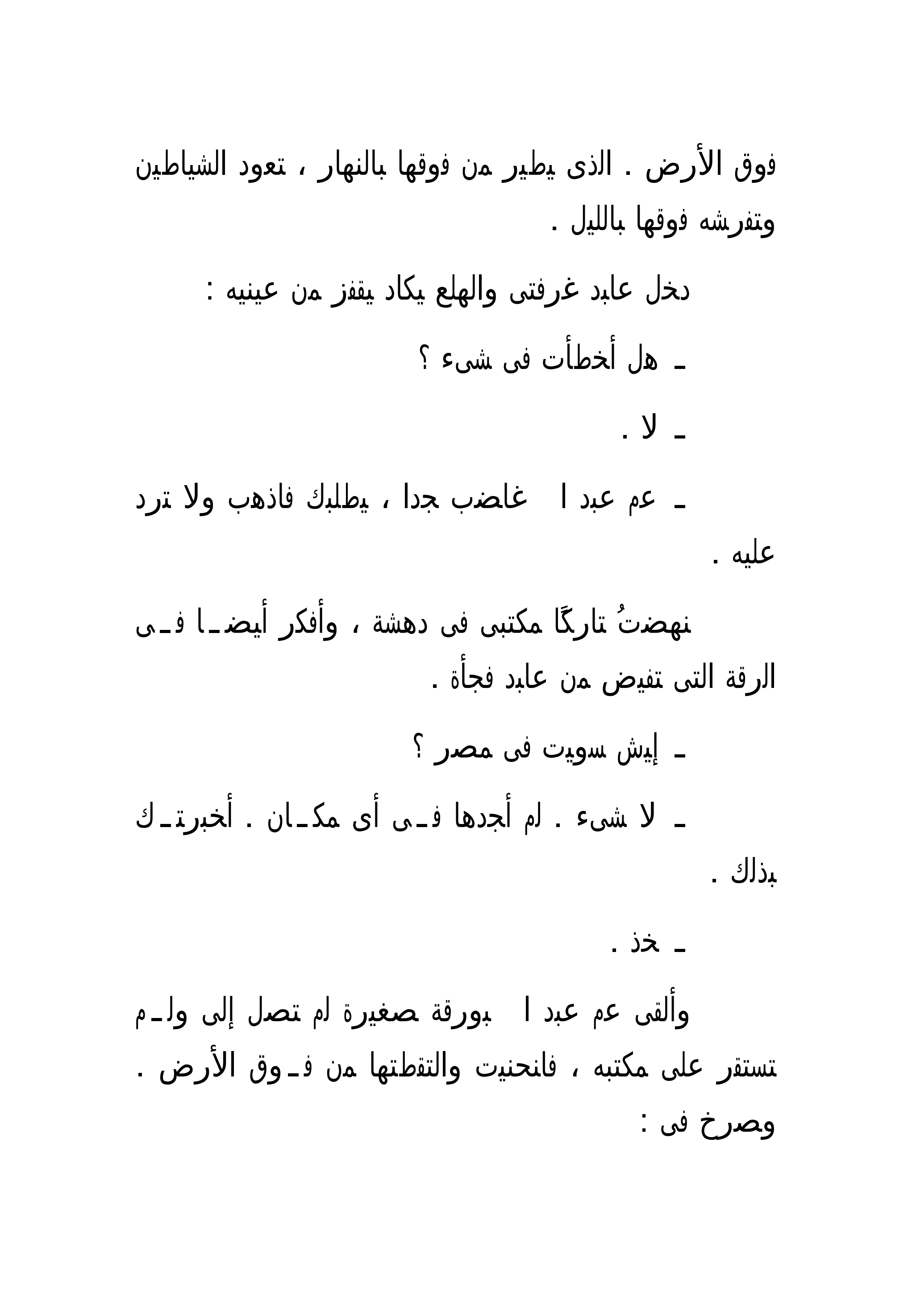
جميلة هى الدنيا والحياة جديرة حقًا بأن تعاش فنحن لا نحياها إلا مرة واحدة .. يا ا . هنـا ، والآن ، ينشـق رأسى شيئا فشيئًا وتنسكب فيه حيوية الصبا واندفاعته وأتذكر كل كتاب قرأته . من قال ذلك يا إسماعيل ؟ اوستروفسـكى وهو يشق صفوف الجيش الأبيض بسيفه ورصاصه والتفاؤل بالمستقبل يسبقه . لكننى خبير قديم بأكاذيب الكتاب ولا يجب أن أنخدع الآن فيبدو الأمر مضحكًا ، وأنا بحق لسـت فـى حاجة إلى آلام جديدة . ها أنذا أرى الفضاء حولى أنثى تخلع كل يوم عن جسمها رداء فتزداد سحرا ، ونتقدم فـى شـهر مارس فأتخفف كل يوم فى ثيابى ، وحارس الـريح حـبس "العجاج" فى كهفه ، وقتل ديكه الأغبر إذ اكتشف أنه بعد أن مزق جناحيه راح ينفث التراب من منقاره . لكن لم يأتنى رد من عايدة حتى الآن ، وكل يوم أقرر السفر إليها ، وكل يوم أنتظر .

رتبت للفئران مقتلةً ، وصنعت لوحا خشبيا تحت حوض المطبخ يصنع مع الجدار زاوية حادة ، ورحت أطاردها حتى تدخل بين اللوح والحائط ، وأدوس اللوح بقدمى فأدهسها بينه وبين الجدار . قتلت ثلاث حتى الآن . واليوم فكرت أن أبدأ فى إحصاء قتلاى .

فى حجرتى وقفت وكراسة الخطابات فى يدى لأسجل فيها عدد القتلى الذين لا أعرف أسماءهم . اليوم هو السادس والعشرون من مارس عام ١٩٧٩ . واتسعت الغرفة بى كأنما انسكب فى صدرى ماء منعش بارد . لماذا لا أبدأ من اليوم كتابة المذكرات ؟ كتابة المذكرات تجعلنى شخصا ثالثًا أرى بعين لا تثقل القلب بالأوجاع . من ذلك الخبيث الذى قرأت له ذلك مرة ؟ لا أذكر ولا يهمنى ذلك الآن ، ولأذهب مسرعا إلى العمل .



ولم أكتب المذكرات أبدا : لم يكن سهلاً أن أصبح شخصا ثالثًا . اخترت وقتًا غير مناسب لادعاء القوة . دخلت سيارة عم عبد ا إلى الباحة فأثرت زوبعة التراب . دائما يدخل عم عبد ا مسرعا . وحتى الآن لا ينتهى التراب من



فوق الأرض . الذى يطير من فوقها بالنهار ، تعود الشياطين وتفرشه فوقها بالليل .

دخل عابد غرفتى والهلع يكاد يقفز من عينيه :

ـ هل أخطأت فى شىء ؟

ـ لا .

ـ عم عبد ا   غاضب جدا ، يطلبك فاذهب ولا ترد عليه .

نهضتُ تاركًا مكتبى فى دهشة ، وأفكر أيضـا فـى الرقة التى تفيض من عابد فجأة .

ـ إيش سويت فى مصر ؟

ـ لا شىء . لم أجدها فـى أى مكـان . أخبرتـك بذلك .

ـ خذ .

وألقى عم عبد ا   بورقة صغيرة لم تصل إلى ولـم تستقر على مكتبه ، فانحنيت والتقطتها من فـوق الأرض . وصرخ فى :

ـ اقرأ .

"معذرة مستر عبد ا   . لن أعود إلى المملكة . وداعا لارى" .

ـ أتدرى معنى هذا ؟

ـ لن يعود مستر لارى .

ـ لارى لص سرق ثلاثمائة ألـف دولار ، وأنـت مصرى فرعون خبيث ذهبت إلى بيته أكلت وشربت خمـرا ونمت مع زوجته . نمت مع روز أم لا ؟

ـ لا .

وسكتنا وسكتت الدنيا حولنا . قلت لا بصوت لا يكاد يسمع . وكدت أقول إنك أنت الـذى تنـام مـع روز ، وأن حجرة عابد ونبيل هى فراشكما ، وإنك أنت الـذى تخـالف قوانين المملكة فتسهل لها العمل فـى حضـانتك ، وتسـهل لزوجها نهب الأموال فالشركة ليست شركتك ، وما أنـت إلا مدير لا ترعى إلا مصالحك التى تستخدم فيها عابدا أكثر مما تستخدمه فى العمل ، لكننى وقفت صامتًا لا أدرى من أيـن يأتى الانفجار بعد هذا الصمت .

ـ امش امش من أمامى .

*****

قال بألم واضح ، وخرجت غير مسـتاء . ضـايقنى فقط أننى لم أنم حقًا مع روز .

لم يظهر اليمنى اليوم أيضا . نظرت إلـى السـاعة فوجدتها الثانية عشرة ، ونظرت إلى الباحة فلم أجده . نسيت أنه لم يظهر منذ أيام ، كما نسيت أن أسأل عن السبب .

ودخل نبيل الغرفة يحمل القهوة وتبدو لحيته التى لا يزال يطلقها وقد ازداد طولها ، وبدا أنه يريـد أن يتحـدث معى . وقف قليلاً مترددا ثم جلس وهو يسألنى :

ـ ماذا سيحدث الآن ؟

ـ فيم....... ؟

ـ مكوك الفضاء الأمريكى .

ـ ذلك الذى تعطل فى الفضاء .

ـ أجل .

ـ سيسقط فى أى مكان . الإذاعات تقول ذلك .

ـ وهل أنت راضٍ عن ذلك .

أربكنى نبيل . قلتُ مبتسما ومتحيرا .

ـ وماذا أستطيع أن أفعل ؟

ـ سكت قليلاً وقال :

ـ لم يقل أحد أين سيسقط بالضبط .

ـ لقد قالوا إن أستراليا هى أكثر الأمـاكن احتمـالاً لسقوطه .

ـ لكنه لم يسقط حتى الآن . انتحر ثلاثة فى أستراليا فزعا ولم يسقط .

وسكتنا وأنا لا أستطيع أن أضحك . أفكر بجـد فـى طريقة أعالج بها ما يسيطر على ذهنه من أفكار ، وأعجز ، ولا أدرى سر هذا التحول فى عقله . قلت :

ـ لقد انتهت ظاهرة الأطباق الطائرة ولـم يحـدث شىء . سينتهى المكوك أيضا بسلام .

ـ لا أظن . هـذا مكـوك حقيقـى لـه أصـحاب معروفون .

ـ نبيل حدثنى عن نفسك أفضل . كيف حالك هـذه الأيام ، ألا تصلك رسائل من مصر ؟

ـ وصلتنى رسالة من أمى تقول فيها إن خطيبتـى تزوجت من سائق التاكسى .

وعدنا إلى الصمت . رأيت دمعا يكاد يترقـرق فـى عينيه .

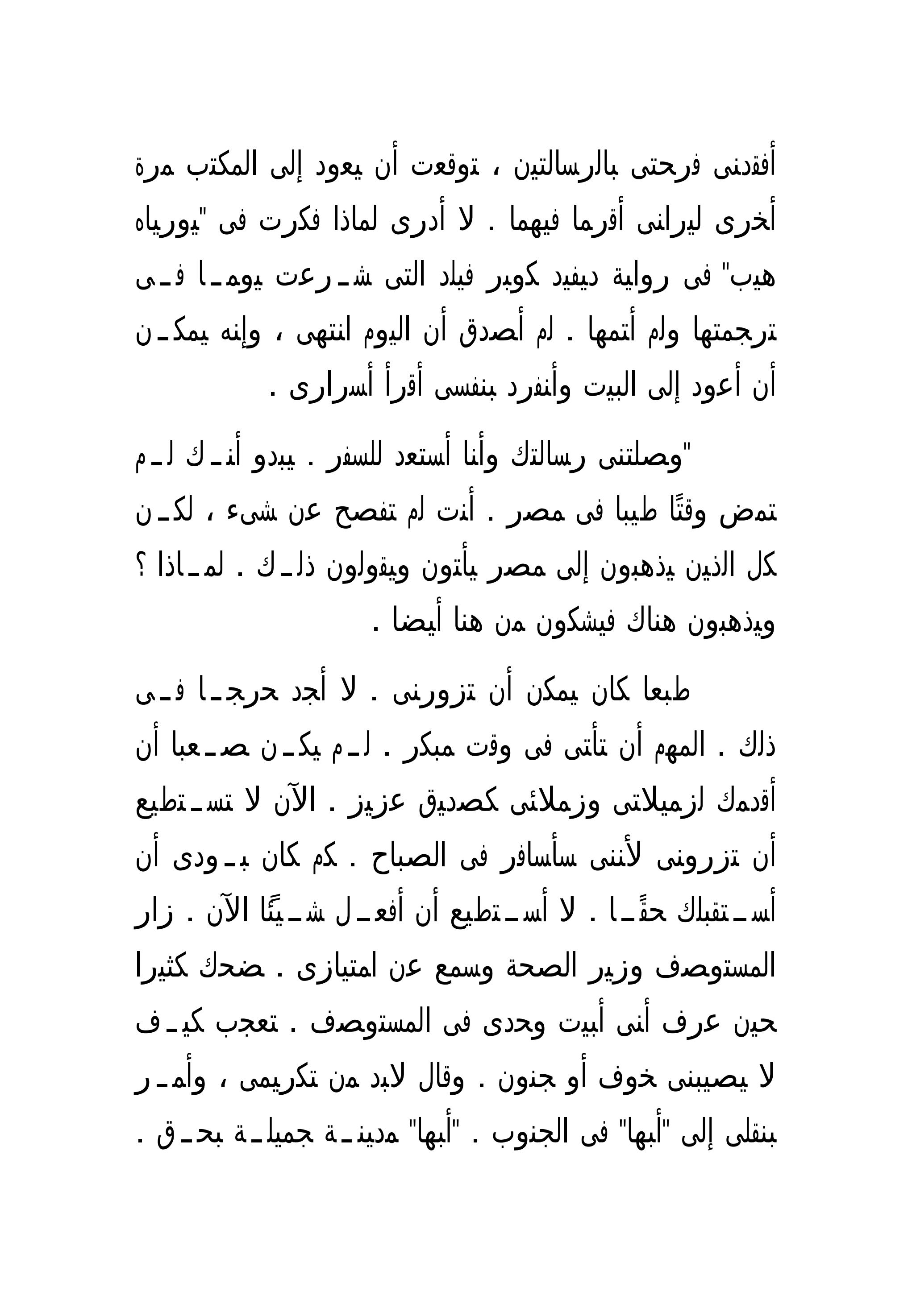
ـ اعتن بنفسك يا نبيل ، الإنسان يمكن أن ينسى كل شىء مع الوقت . يمكن دائما أن يبدأ من جديد .

ـ لا أظن أن أمى صادقة .

ـ قال ذلك وتركنى .

*****

عدت إلى البيت وتناولت الغداء مـع وجيـه . لـم نتحدث كثيرا . كنت أود الانتهاء من الطعام بسرعة لأنفـرد بنفسى فى الغرفة . لقد أحضر لى عابد اليـوم رسـالتين . أعطاهما لى والتفت يغادر المكتب ، لكنـه بعـد خطـوة أو خطوتين عاد يلتفت لى ويبتسم . كان اسم عايدة ظاهرا خلف مظروف إحدى الرسالتين ، واسم أخـى علـى الأخـرى .



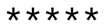
أفقدنى فرحتى بالرسالتين ، توقعت أن يعود إلى المكتب مرة أخرى ليرانى أقرءما فيهما . لا أدرى لماذا فكرت فى "يورياه هيب" فى رواية ديفيد كوبر فيلد التى شـرعت يومـا فـى ترجمتها ولم أتمها . لم أصدق أن اليوم انتهى ، وإنه يمكـن أن أعود إلى البيت وأنفرد بنفسى أقرأ أسرارى .

"وصلتنى رسالتك وأنا أستعد للسفر . يبدو أنـك لـم تمض وقتًا طيبا فى مصر . أنت لم تفصح عن شىء ، لكـن كل الذين يذهبون إلى مصر يأتون ويقولون ذلـك . لمـاذا ؟ ويذهبون هناك فيشكون من هنا أيضا .

طبعا كان يمكن أن تزورنى . لا أجد حرجـا فـى ذلك . المهم أن تأتى فى وقت مبكر . لـم يكـن صـعبا أن أقدمك لزميلاتى وزملائى كصديق عزيز . الآن لا تسـتطيع أن تزورنى لأننى سأسافر فى الصباح . كم كان بـودى أن أسـتقبلك حقًـا . لا أسـتطيع أن أفعـل شـيئًا الآن . زار المستوصف وزير الصحة وسمع عن امتيازى . ضحك كثيرا حين عرف أنى أبيت وحدى فى المستوصف . تعجب كيـف لا يصيبنى خوف أو جنون . وقال لابد من تكريمى ، وأمـر بنقلى إلى "أبها" فى الجنوب . "أبها" مدينـة جميلـة بحـق .

يقولون إنها أوروبية المناخ . جاءت زيارة الوزير فى وقـت دقيق . كنت بدأت أفقد شيئًا من قوتى ، وبدأ الخـوف يجـد مسالك إلى قلبى . ما أبشع المستوصف بالليل . السماء فوقى جميلة لكن هل يمكن أن أمضى الليل أنظر إلـى أعلـى . لا تليفزيون هنا فالإرسال لم يدخل البلدة بعـد . الراديـو هـو صديقى والراديو لا يبث إلا الألم . صارت حركة الأشـياء تحت الريح ، فوق السطح تصيبنى بالرعب ، وكل طـارق للباب من أجل دواء أظنه رجل أمن جاء للقبض على هاشم ، كانوا يأتون بالليل دائما . هل تعرف ما شغل ذهنى فى الأيام السابقة ؟ سؤال غريب . ضبا بلدتان ، بلدة قديمة وبلدة جديدة بالقرب منها . هجر الناس القديمة ، لكن الجديدة لا تختلـف عن القديمة فى شىء ، كيف تفسر هذا الأمر ؟ حتى أرسـل لك عنوانى الجديد لك السلام والأمان" .

ولا إجابة عن سؤالى . سمعت خشخشة فـأر فـى المطبخ ، فقمت وطاردته وأخرجته من خلف دولاب الأوانى وأدخلته بين اللوح الخشبى والحائط ودهسته .



لم يخرج وجيه اليوم إلى العمل .

- هنا شىء أخفيته عنك يا إسماعيل .

- ....

- أنا سأنتقل إلـى مستشفسـى "الملـك" بالمدينـة المنورة .

- .....

- يمكن أن أرشح أحد المصريين يعيش معك .

- ستنتقل نهائياً ؟

- تقريبا .. وسأسافر غدا .

- لا حاجة بى لأحد .

- ستعيش فى البيت وحدك ؟

لم أرد . كأنه لا يعرف أنى أعيش وحدى منذ أتيت . وهو أيضا لا يعرف أن رسالة أخى حملَتْ خبرا بمرض أمى وأنهم بحاجة إلى مائتى جنيه . لم يوضح لى أخى أى مرض أصاب أمى . أنسانى لدقائق خطاب عايدة وأنسـانى حـديث وجيه الخطابين معا ، وأنسانى المذيع الذى يتحدث أمامنـا الآن كل شىء . قال إن الإرسال سينتقل إلى إذاعة خارجيـة

لينقل مراسم التوقيع على معاهدة كامب ديفيـد فـى البيـت الأبيض الأمريكى . "نحن لا ننقلها على الهـواء تأييـدا ولا تيمنًا ، إنما ليرى الشعب الخيانة بعينيه" .

كارتر يقف مبتسما وسط مائدة بيضاء طويلة وجواره على اليمين يقف السادات وعلى اليسار يقف بيجن والزهـور فوق المائدة تكاد تخفيها وعلى الناحيتين الحديقـة الواسـعة وحشود من رجال السياسة وعشرات من الصحافيين يترقبون ويلتقطون الصور التذكارية . كارتر يتحدث عـن الجهـود المضنية التى بذلها الزعماء الثلاثة للوصول إلى هذه الاتفاقية ، والآمال الكبيرة لإنهاء الصراع فـى الشـرق الأوسـط . ويتحدث عن السلام فى العهد القـديم وفـى القـرآن . "وإن جنحوا للسلم فاجنح لها" يقولها بالعربيـة ويضـيع صـوت كارتر ويبرز صوت المذيع المحلى : والقرآن أيضا يقـول : "وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو ا وعدوكم" .



فى الفجر قمت وجلست فوق السرير ، وأضأت نور الغرفة وقلت لن أنام بعد اليوم فى هذا البلد . دخلت مسـرحا

كبيرا بلا مقاعد . كُلّه خشبة مربعة ، والمتفرج الوحيد هو أنا الجالس على المقعد الوحيد عند الباب ، وفوق الخشبة تسعة عشر رجلاً وامرأة وطفلاً وطفلة ، يقفون على الناحيتين ، وفى قلب الخشبة البعيد امرأة مربوطة من ذراعيها إلى ظهر سرير ، مثنية ساقاها عند الركبتين وغطت نصفها الأسفل ملاءة بيضاء ، وتصرخ وترتفع بنصفها الأعلى فيظهر العرق غامرا وجهها وتجحظ عيناها بألم رهيب ، وتجحظ عيون الرجال والنساء والأطفال بالخوف والهلع ، وأعلى المرأة جلس الشيطان فى مقعد معلق ، وله قرنان أزرقان ووجه ملطخ بالألوان الحمراء والزرقاء والصفراء ويزداد الضوء على وجهه .

الشيطان : (صارخًا بالضحك) يمكن أن أزيل خوفكم .

الرجال : (فى ضراعة) كيف يا سيد النار

الشيطان : (يفح) تختارون واحدا يموت .

(يتبادل الرجال والنساء النظرات فى ألم ، وتمسك النساء بأيدى الأطفال فى خوف) .

الرجال : ما أصعب الاختيار . (يرتكزون بسـيقانهم على الأرض ويرفعون أيديهم فى ضراعة) لماذا تفعل ذلـك بنا نحن الذين اخترناك معلما لنا هاديا ؟

الشيطان : (ضاحكًا) من أعمالكم سُلِّطَ عليكم .

النساء : (فى جرأة للرجال) لا تستمعوا إليه . هـذا مخاتل خدع آباءنا وسبب لنا كل هذا الشقاء .

الشيطان : (ضاحكًا بصوت مجسـم) إذن انتظـروا حتى تلد . هاهو المخاض يشتد .

تسقط أضواء زرقاء وحمراء على المرأة المربوطـة بالسرير ، ويختلط صراخها بموجات الضوء السريعة ، فـلا يعرف أحد ما إذا كان يرى أو يسمع ويقفز شاب فى حـوالى الثلاثين إلى الخشبة فجأة . أراه فأدرك أنه أنا . كيف قمـت من مقعدى وقفزت دون أن أدرى ؟

أنا : (صارخًا فى الرجال) .. لن يموت منكم أحد . هذا ليس بشيطان . ما الذى يجعل الشيطان يعذبكم هكـذا ؟ هذا ضميركم يستيقظ أمامكم بعد مئات السـنين ، هـذا أول

الغيث . ستلد المرأة ولن يموت منكم أحد . هل عشـتم فـى عصر محمد .....؟

الرجال والنساء : لا .

أنا : هل رآه أحدكم .....؟

الرجال والنساء : لا .

أنا : هـل سـمعتم أن ا يعـذب الأبنـاء بـذنب الآباء ......؟

الرجال والنساء : لا .

أنا : لو جاء إليكم الآن هل تمنعوه ماءكم.......... ؟

الرجال والنساء : لا .

أنا : (للرجال) إذن قفوا وانصرفوا حتى تلد المرأة ، المرأة تتعثر لأنه لم نسمع عن امرأة ولدت وسط الرجـال . (يقف الرجال لكنهم لا يتحركون) .

الرجال : أقدامنا مقيدة بالأرض .

الشيطان: (يضحك بشراسة ويحدثنى) هـل تعـرف حقيقة هذا البلد ؟

أنا : (أتقدم نحوه وأتطلع عاليا إليه والضوء الأزرق يغمرنى) أعرف .

الشيطان : هل جئت تنقذها من لعنتها ؟

أنا : أجل .

الشيطان : كـان عليـك أن تضـحى مـن أجلهـم (يخاطبهم) اسألوه إذا كان مستعدا لأن يفعل ذلك .

(ينظر الجميع نحوى . يتقدم الأطفال يتعلقون بساقى باكين . لا أحد يتكلم . يسمع صوت بكاء طفل وليد) .

الشيطان : (ضاحكًا) هـا هـى المـرأة وضـعت . سيموت منكم واحد الآن إن لـم تقـدموا واحـدا طواعيـة واختيارا .

ويسقط الرجال يتقلبون على الأرض فى ألم ، وتهرع النساء إلى الأطفال ، تحتضن كل واحدة طفلها فى صدرها . أتراجع أنا إلى الخلف شيئًا فشيئًا . وقبل أن أسقط من فـوق الخشبة يقف الرجال وبسرعة يهجمون على ويرفعوننى فـى الهواء يقذفون بى إلى الشيطان الجالس عاليا . فيحملنى مـن ذراعى ، ويقذف بى إلى هاوية سحيقة بين جبلـين عـاليين

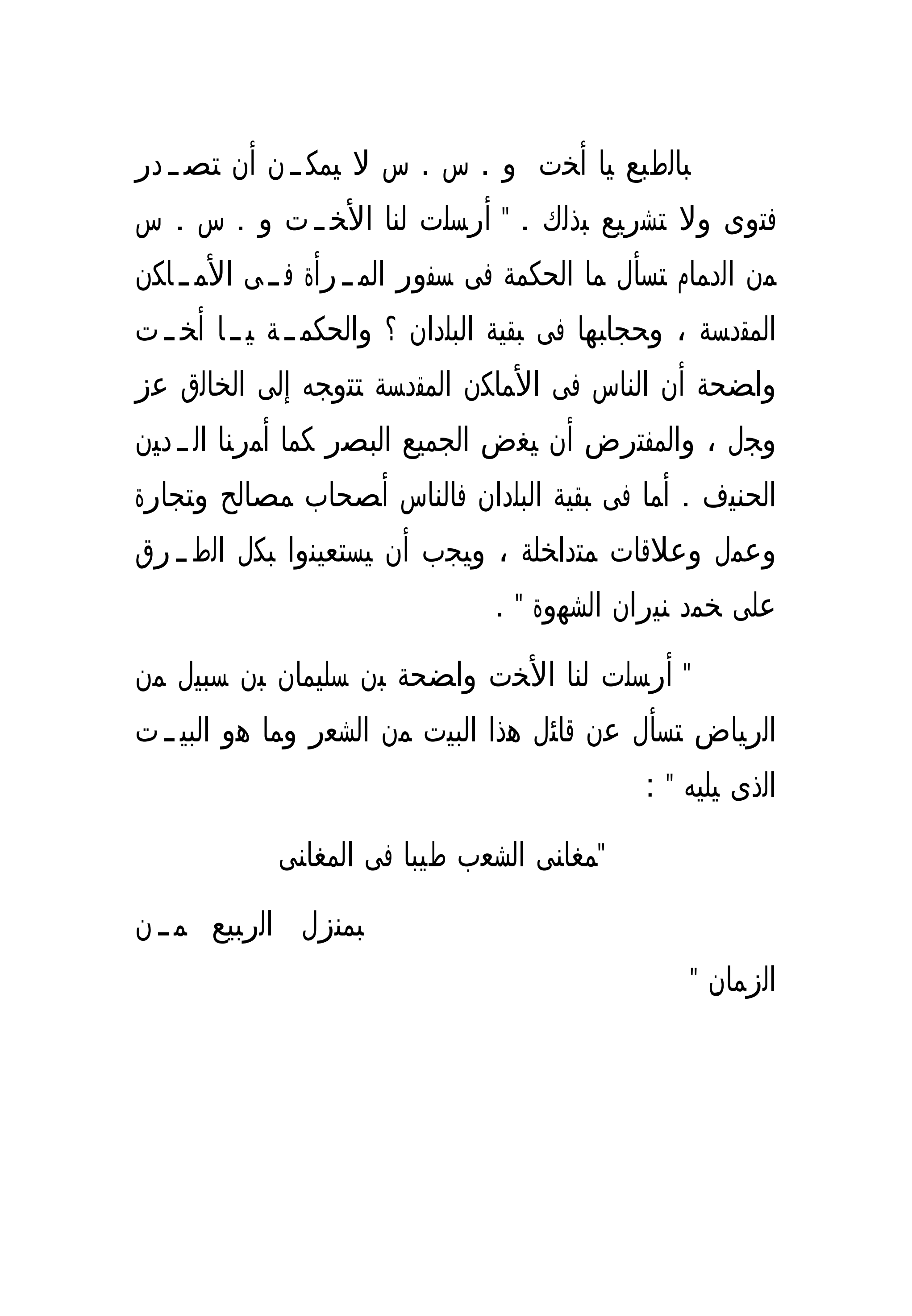
ووسط بخار أبيض وأزرق وأحمر يحاصرنى ويدخل ساخنًا إلى صدرى يكاد يخنقنى وأنا أتقلب ساقطًا ولا تلحـق بـى الذراعان اللتان ميزت بينهما وجه أمى فزعا ولا أصل إلـى قرار الهاوية .

*****

(٢٦)

ازداد هجوم الفئران وازداد هجومى . وحدى أنا الآن وقد مضى أسبوعان على سفر وجيه إلى المدينة ، وأرسـل الحر لنا لفحة من نيرانه استغرقت خمسة أيام تشوى البلدة ، ثم تراجعت مفسحة الطريق لريح العجاج تهب كل ساعة وفى القلب من كل ساعة ، ولا رسالة تأتى من عايدة تخبرنى فيها بعنوانها الجديد ، ولا تفسير للرسائل المتكررة باسم و . س . س فى المجلات المحلية والعربية التى صرت أحرص علـى شرائها .

"أرسلت لنا الأخت و . س . س من الطائف تسـأل هل يمكن أن تصدر فتوى فى المملكة تمنع الزواج إذا تجاوز الفارق فى العمرين بين الرجل والمرأة عشرين سـنة...... ؟" .



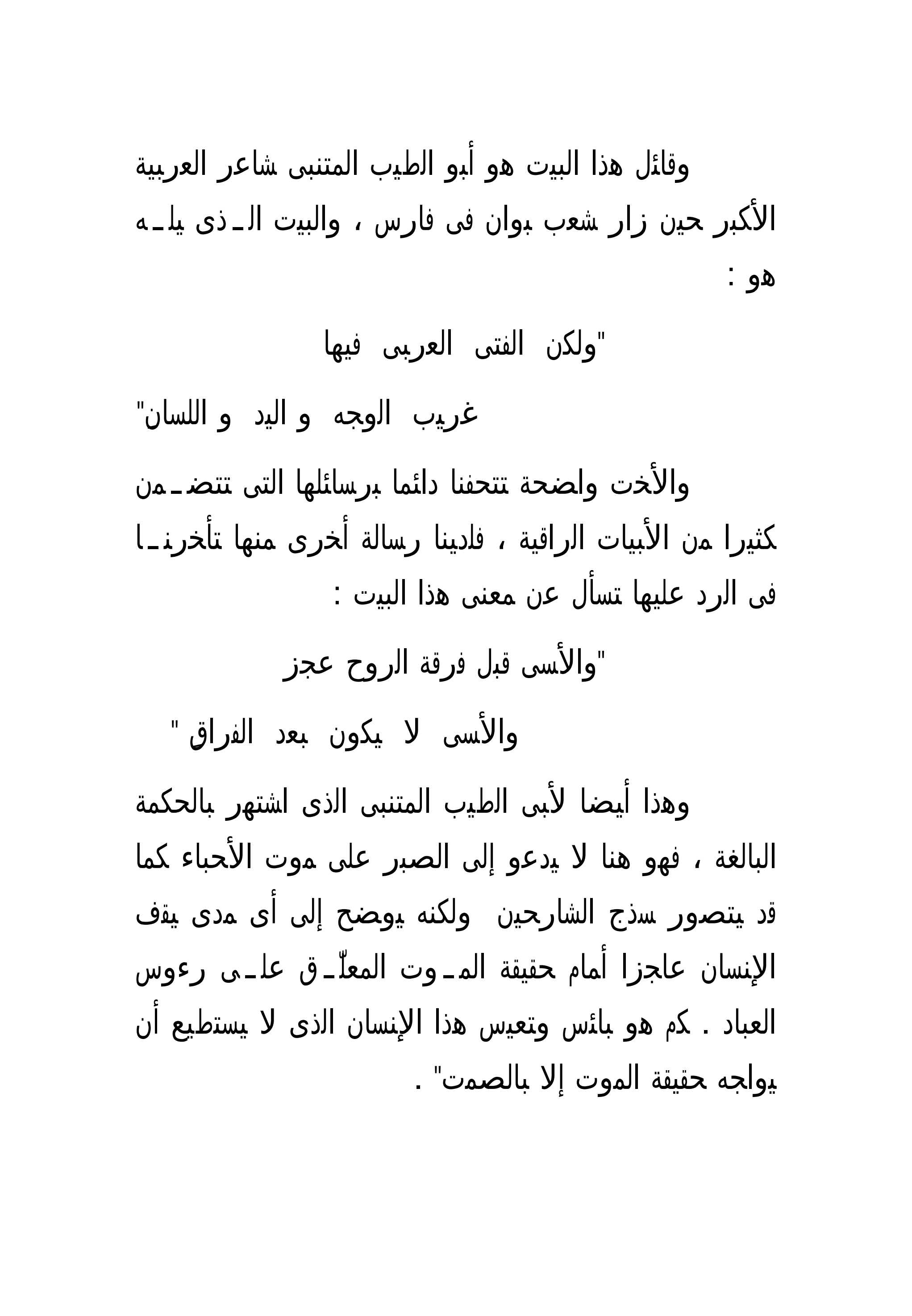
بالطبع يا أخت و . س . س لا يمكـن أن تصـدر فتوى ولا تشريع بذلك . " أرسلت لنا الأخـت و . س . س من الدمام تسأل ما الحكمة فى سفور المـرأة فـى الأمـاكن المقدسة ، وحجابها فى بقية البلدان ؟ والحكمـة يـا أخـت واضحة أن الناس فى الأماكن المقدسة تتوجه إلى الخالق عز وجل ، والمفترض أن يغض الجميع البصر كما أمرنا الـدين الحنيف . أما فى بقية البلدان فالناس أصحاب مصالح وتجارة وعمل وعلاقات متداخلة ، ويجب أن يستعينوا بكل الطـرق على خمد نيران الشهوة " .

" أرسلت لنا الأخت واضحة بن سليمان بن سبيل من الرياض تسأل عن قائل هذا البيت من الشعر وما هو البيـت الذى يليه " :

"مغانى الشعب طيبا فى المغانى

بمنزل الربيع مـن

الزمان "



وقائل هذا البيت هو أبو الطيب المتنبى شاعر العربية الأكبر حين زار شعب بوان فى فارس ، والبيت الـذى يلـه هو :

"ولكن الفتى العربى فيها

غريب الوجه و اليد و اللسان"

والأخت واضحة تتحفنا دائما برسائلها التى تتضـمن كثيرا من الأبيات الراقية ، فلدينا رسالة أخرى منها تأخرنـا فى الرد عليها تسأل عن معنى هذا البيت :

"والأسى قبل فرقة الروح عجز

والأسى لا يكون بعد الفراق "

وهذا أيضا لأبى الطيب المتنبى الذى اشتهر بالحكمة البالغة ، فهو هنا لا يدعو إلى الصبر على موت الأحباء كما قد يتصور سذج الشارحين ولكنه يوضح إلى أى مدى يقف الإنسان عاجزا أمام حقيقة المـوت المعلّـق علـى رءوس العباد . كم هو بائس وتعيس هذا الإنسان الذى لا يستطيع أن يواجه حقيقة الموت إلا بالصمت" .

تقتلنى واضحة بالشعر الذى تسأل عنه وهى تعرفه .
واضحة ذات الاسم الواضح ، فمن تكون و . س . س التـى تراسل كل هذه المجلات من كل هذه البلاد ؟ أمس الجمعـة قال الشيخ على طنطاوي :

"وصلتنا رسالة مكتوبة بخط جميل على ورق جميل أيضا من المعذبـة و . س . س "والمعذبـة" هـذه بتـأثير المجلات المصرية ، ما علينا ، المصريون بلهجتهم الحلـوة يدخلون كل البيوت . تسأل المعذبة و . س . س هـل يبـيح الإسلام زواج رجل فى السبعين من فتاة فى الثامنة عشرة ؟ وأنا أقول للمعذبة إن هذا شر أنواع التعذيب ، ولكن الإسلام يسمح لحكمة فا لم يخلق الإنسان إلا وضـع فيـه العقـل وميزه عن البهائم . ،وكل صاحب عقل لا يفعل ذلك . لكـن المال أفسد كثيرا من الرءوس الآن ، وعلى أهـل الفتـاة أن يرفضوا مثل هذه الزيجات ولا جناح عليهم . الـبعض قـد يحتج على ببعض الصحابة والتابعين ، لكن كان هذا عصرا وكانت تلك أخلاقًا وكان فى الرجال مروءة وفحولة . أستغفر ا العظيم .. " .

كم واضحة بنت سليمان بـن سـبيل ترسـل إلـى المجلات رسائلها الآن ، وكلها رموز شفرية لى أنا العاجز لا أستطيع أن أفعل شيئًا، ولا رسالة مـن عايـدة تسـلينى ولا خطاب من أخى يطمئننى على أمـى ويشـرح لـى مسـألة مرضها .


*****

ضحكت حتى كدت أقع من فوق المقعد وأنـا أقـرأ رسالة وجيه التى أحضرها لى عابد .. وقال :

ـ هذه رسالة من الدكتور وجيه الذى كـان يسـكن معك .

قرأ اسم الراسل كعادته ولم أهتم . أستطيع أن أقـرأ هذه الرسالة فى العمل . لقد تزوج وجيه فى المدينة بـامرأة لبنانية فاحشة الجمال كما يقول ، أهلها كثيرو الثراء ، لهم فى المدينة تجارة عظيمة "هذه هى الثالثة يا إسـماعيل وتبقـى واحدة ، لا أظن أنى سأفعلها ، هذه المـرأة بمئـات النسـاء جمالاً وغنى" .

ودخل نبيل إلى مكتبى مندهشًا من ضـحكاتى التـى وصلت إلى البوفيه وابتسم يقول :

ـ ألا تخشى أن يسمعك عم عبد ا ... ؟

ـ أخيرا ابتسمت يا نبيـل . عـم عبـد ا غيـر موجود . اجلس معى قليلاً .

جلس وزاغت ابتسامته وقال :

ـ لقد صليت ركعتين منذ يومين ، وطلبت أن يسقط مكوك الفضاء بعيدا عن رأسى ، واسـتجاب ا لـدعائى ، وسقط المكوك فى المحيط قرب أستراليا ..

ـ يبقى تحلق ذقنك ....!

ـ لن أحلقها إلا بعد سفرى إلى مصر .

ـ ستسافر حقًا .

ـ آخر الشهر القادم . مـايو . أنـا لا أصـدق أن خطيبتى تزوجت . لابد أنها مريضة أو أفسدت أمـى كـل شىء . المشكلة أن هذا ليس موعد أجازتى السنوية . سأرسل لأخى يرسل لى برقية يقول فيها أمى ماتت . ما رأيك... ؟

ـ لا داعى لذلك . أستطيع أن أقنع عم عبـد ا   أن يوافق على أجازتك . سأشرح له ظروفك وسيوافق .

ـ لقد رفض عابد أن يفعل ذلك . كلاب .

*****

دخل منصور المكتب باسما .

ـ حياك ا   أخى إسماعيل .

ـ حياك ا   يا منصور .. أين كنت... ؟

ـ فى الكويت .. عدت أمس .

ـ ......

ـ طبعا تندهش . تقول إنى مجنون.... ؟

ـ لا .

ـ إذن وداد .. لقد فسختْ خطبتها من سعيد تماما .

ـ لقد حدث ذلك منذ وقت طويل .

ـ لا . كانت هناك شعرة . كانت ترتدى الخاتم .

ـ ......

- واتفقت معها على الزواج .

- لكننى أعرف أنها سافرت لتلحق بقريب لها .

- لا . هذه قصة لفقناهـا لصـاحبك . أنـا الـذى أحضرت لها فيزة عمل بالكويت ، وأنا الذى اخترعت لهـا حكاية قريبها المحاسب .

- ....

- ما رأيك فى هذا الحل ؟ بوليسى . مثـل الأفـلام المصرية .

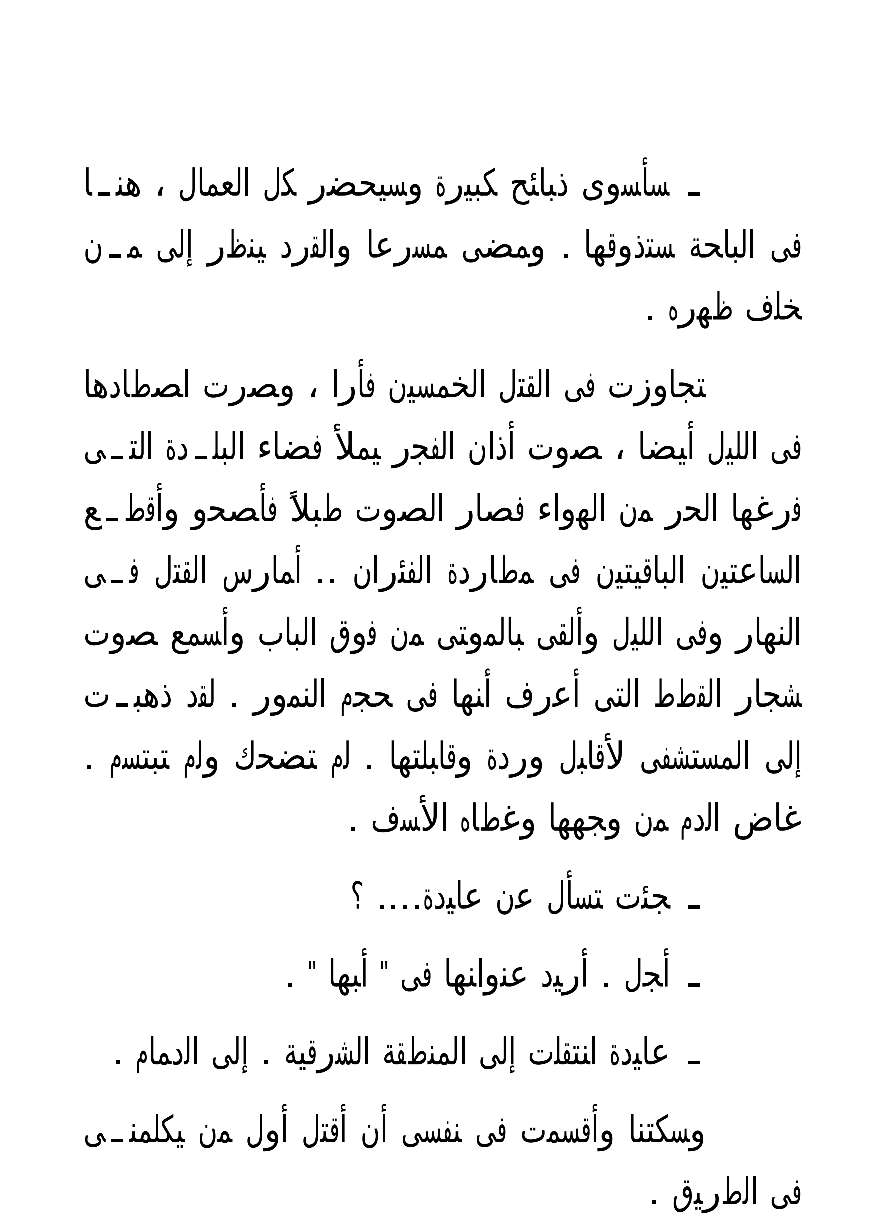
وقام واتجه نحو الباب وقال :

- استعد يوم الجمعة القادم سأسوى كبسـة كبيـرة هنا . تعرف الكبسة.... ؟

- أعرفها ولم أتذوقها .

- حتى الآن...؟ .

- حتى الآن .



ـ سأسوى ذبائح كبيرة وسيحضر كل العمال ، هنا فى الباحة ستذوقها . ومضى مسرعا والقرد ينظر إلى من خلف ظهره .

تجاوزت فى القتل الخمسين فأرا ، وصرت اصطادها فى الليل أيضا ، صوت أذان الفجر يملأ فضاء البلدة التى فرغها الحر من الهواء فصار الصوت طبلاً فأصحو وأقطع الساعتين الباقيتين فى مطاردة الفئران .. أمارس القتل فى النهار وفى الليل وألقى بالموتى من فوق الباب وأسمع صوت شجار القطط التى أعرف أنها فى حجم النمور . لقد ذهبت إلى المستشفى لأقابل وردة وقابلتها . لم تضحك ولم تبتسم . غاض الدم من وجهها وغطاه الأسف .

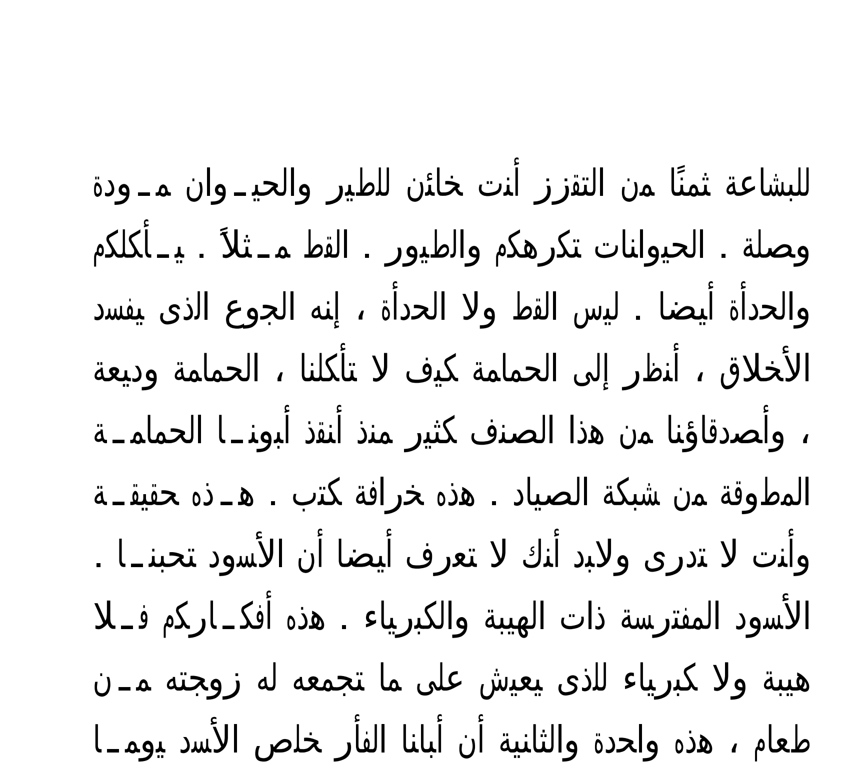
ـ جئت تسأل عن عايدة.... ؟

ـ أجل . أريد عنوانها فى " أبها " .

ـ عايدة انتقلت إلى المنطقة الشرقية . إلى الدمام .

وسكتنا وأقسمت فى نفسى أن أقتل أول من يكلمنى فى الطريق .

ولم أقتل أحدا ولا كلمنى أحد ، رحت أقتل الفئران ، لكنى لا أصطاد إلا الفئران الصغيرة - السيسى - البلهـاء عديمة الخبرة . هى التى تتسلل إلى حقل القتل الذى أعددتـه لها . لم يعد اللوح الخشبى يوضع منفصلاً . ثَبتـه بالحـائط بمفصلات بحيث إذا ضغطت عليه بقدمى عاد إلى الحائط ولا تكون هناك أية إمكانية أن ينقلب اللوح فيهرب الفأر . فئران صغيرة وبيضاء أيضا لها بطون حمراء لم ينبت بهـا شـعر بعد ولها أصوات صراصير . أين الفئران التى تلدها وكيف تتركها تأتى إلى وكيف لا تدرك أن أطفالها يقتلون كل يوم.. ؟ الليلة داهمتنى الفئران الكبار .. أنـت إسـماعيل خضـر موسى .. أنا .. لماذا تقتل أبناءنا وإخوتنا الصغار كل يـوم دون وجه حق . أنا لا أقتل جزافًا ، أنا هنا غريب فـى بلـد غريب أحب أن يستأذن ضيوفى فى الدخول على وأخـوتكم وأبناؤكم يقلقون نومى فى الليل والنهار . أنت كـاذب لأنـك تكره النوم . لكن النوم لا يكرهنى ويغلبنى فى كـل نـزال فتقلقنى فئرانكم ، هل تريدوننى آكلها ؟ لقد سددت أسفل الباب وكل الفتحات التى يمكن أن تدخل منها لكنها تدخل ، أنت لا تقتل الفئران فقط ولكن تستخدم وسيلة بشـعة . وأنـا أدفـع



للبشاعة ثمنًا من التقزز أنت خائن للطير والحيـوان مـودة وصلة . الحيوانات تكرهكم والطيور . القط مـثلاً . يـأكلكم والحدأة أيضا . ليس القط ولا الحدأة ، إنه الجوع الذى يفسد الأخلاق ، أنظر إلى الحمامة كيف لا تأكلنا ، الحمامة وديعة ، وأصدقاؤنا من هذا الصنف كثير منذ أنقذ أبونـا الحمامـة المطوقة من شبكة الصياد . هذه خرافة كتب . هـذه حقيقـة وأنت لا تدرى ولابد أنك لا تعرف أيضا أن الأسود تحبنـا . الأسود المفترسة ذات الهيبة والكبرياء . هذه أفكـاركم فـلا هيبة ولا كبرياء للذى يعيش على ما تجمعه له زوجته مـن طعام ، هذه واحدة والثانية أن أبانا الفأر خاص الأسد يومـا من شبكة الصياد أيضا ، إننا معشر الفئران قد نكون تـافهين لكننا مثل كل شىء صغير فى هذا الكون لنا فائـدة ، وأنـت جاهل لا تعرف أن ا خلاق الكون متوازنًا لا يحق لأحـد أن يفسد توازنه . هذا كلام فارغ لأن الجراثيم مخلوقات أيضـا لكننا نطاردها نقتلها قبل أن تقتلنا ، وأنتم جبناء تحملون القمل فتنشرون الطاعون الذى قتل "أبا عبيدة بن الجراح" فى الشام وأهلك جيوش نابليون فى فلسطين ودمر نصف المصـريين أيام المماليك والآن تتلفون الزرع فى مصر وتقتلون الأطفال

فى الريف وتنشرون الأمراض فى مدن القنال ترعرعتم فى خرائبها قبل انتصارنا وكأنكم بالفعل لا تريـدون أن يكتمـل انتصارنا أنتم عدو لى وأنا عدو لكم إلى يوم الـدين ، إذن لا فائدة فى الحوار معك .

وقفزت فوق الفئران السوداء فغطت جسمى كلـه ، فقمت فزعا إلى المطبخ ، ووجدت واحدا منها بـين اللـوح الخشبى والحائط فدهسته بوحشية فائقة .

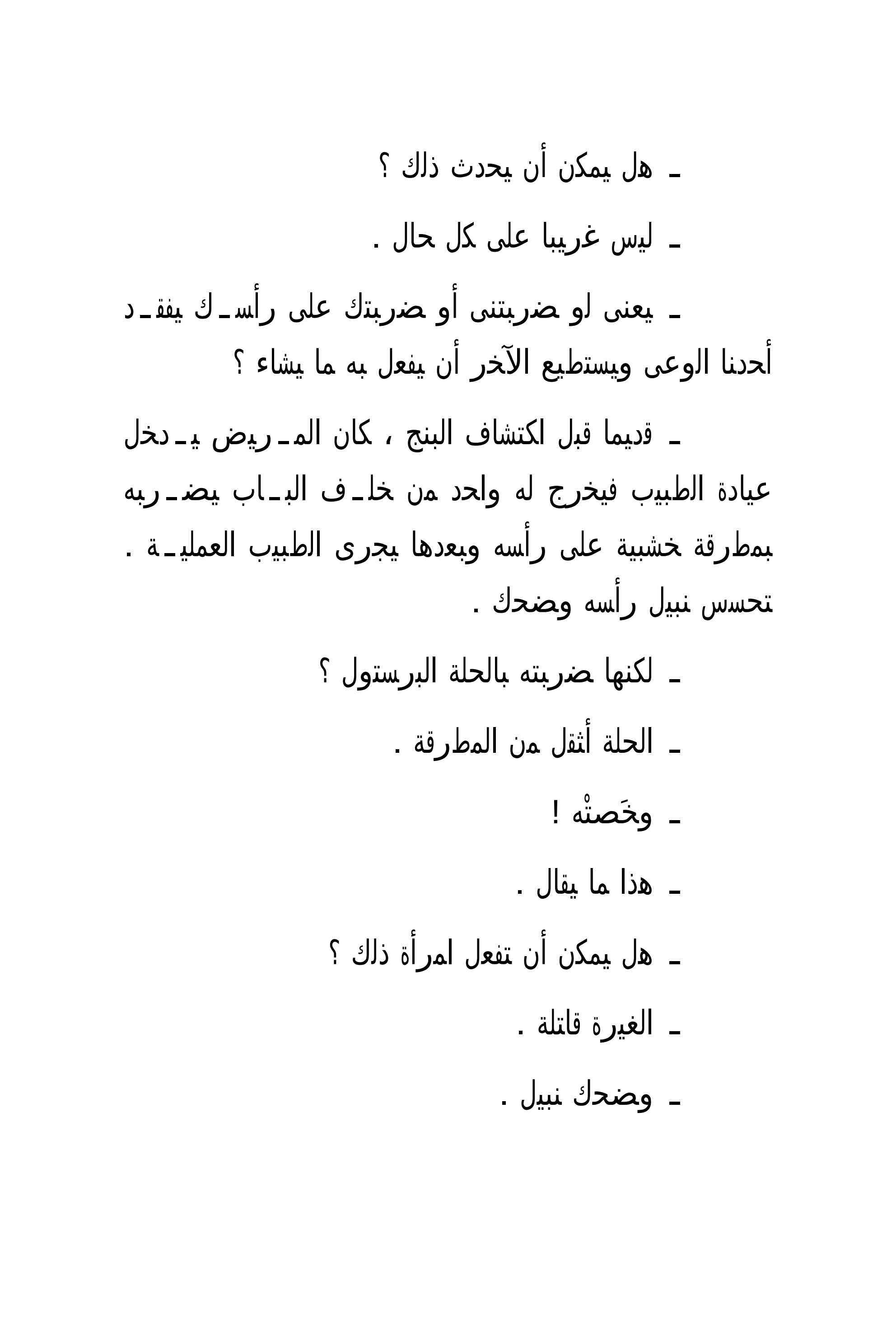
*****



(٢٧)

فجأة فكرت أن مرض أمى ليس عاديا . لا أظـن أن هناك حاجة إلى ذكر المرض العادى فى خطـاب ، وحينمـا وصلتنى رسالة من أخى يطلب فيها ألف جنيه فـى أسـرع وقت ، قطع الشك اليقين . لكنه لم يذكر نـوع المـرض ولا الخطوات التى اتخذوها للعلاج . كنت بالقاهرة منذ شهرين ، وكانت أمى فى أحسن حال . صحيح أنها تجاوزت الخمسين ، لكن هذه ليست السن التى تغتال فيها الأمراض صـاحبها . صغيرة أمى على أمراض العجز والشيخوخة . كانت صغيرة دائما على أبى . هل كان ذلك سبب الشجار الكثير بينهما فى الأعياد... ؟

كتبت إلى أخى ليعلمنى بما يحدث ، وأرسلت إليه من الجنيهات ألفين . وانتبهت إلى حديث البلادة الذى وصل إلـى مكاتب الشركة ويضحك الباكستانيون منه ، ويضحك عابد ، ويضرب نبيل كفيه فى بعضهما دهشة .



- هل يمكن أن يحدث ذلك ؟

- ليس غريبا على كل حال .

- يعنى لو ضربتنى أو ضربتك على رأسـك يفقـد أحدنا الوعى ويستطيع الآخر أن يفعل به ما يشاء ؟

- قديما قبل اكتشاف البنج ، كان المـريض يـدخل عيادة الطبيب فيخرج له واحد من خلـف البـاب يضـربه بمطرقة خشبية على رأسه وبعدها يجرى الطبيب العمليـة . تحسس نبيل رأسه وضحك .

- لكنها ضربته بالحلة البرستول ؟

- الحلة أثقل من المطرقة .

- وخَصتْه !

- هذا ما يقال .

- هل يمكن أن تفعل امرأة ذلك ؟

- الغيرة قاتلة .

- وضحك نبيل .

ـ لقد ذهب المسكين إلى المستشفى فوجدوا إحـدى خصيتيه معلقة فى بنطلونه .

وسكتنا .. وقام وهو يقول فجأة :

ـ لقد سافر منصور أمس إلى الكويت ، وهرب من عزومة الكبسة . بخيل . أنا أعرفه جيدا .

*****

لم يعد إذن فى العمل أحد أتحدث معه غير نبيـل .. "وهاج" الذى صار مسئولاً عن التغذية فى الكامـب يـأتى ، وينصاع عابد لكل طلباته بسلاسة . وأتذكر دائما أرشد وهو يسأل :

" لماذا يفعل عابد بى ذلك؟ " تمنيت لو ماطَل عابـد وهاجا . لو خالفه وعصى له مطلبا . يبدو أنه يعـرف مـا أريد . ودائما أتذكر حيرة أرشد وضيقه وقلة حيلته . وتمنيت أكثر من مرة أن أرى أرشد داخلاً فجأة . فيزة أرشد تنتهـى بعد ثلاثة أشهر . تبقى له الآن أيام قليلة . هل يفعلها أرشـد ويعود ؟ لا أظن . أشاع " سرور " خبر القبض عليه لأسباب سياسية ، ولا أظن أن له فرصة العودة أبدا . يستطيع أرشـد

أن يسافر بعد سجنه إلى أى بلد إلا المملكة . ويستطيع أرشد أن يحمل فى سجنه بأى بلد إلا المملكة . لابد أنه نسى الوقت الذى أمضاه هنا . ولابد أن سعيد يفعل الآن نفـس الشـىء ومنذر أيضا والمرأة اللبنانية الصـغيرة والـدكتور أحمـد ، ورأفت وفيليب المسكينين اللذين لا حاجـة لهمـا الآن إلـى التذكر أوالنسيان .

قطيعة غريبة تحدث بين العائدين إلى بلادهم وبـين هذا البلد . منذ البداية تبدأ القطيعة فلا أحـد يـأتى هنـا إلا ليعود . هل يعرف اليمنى العجوز ذلك ؟ أتراه يبتسم لى لهذا السبب ؟ يسخر من الأمر كله ويرى الدنيا حوله مهزلة... ؟ ما باله لا يظهر الآن.. ؟

سألت عابدا عنه أمس ، فابتسم وسألنى :

ـ هل يهمك أمره ...؟

ـ فقط أسأل .

وهز كتفه بلا مبالاة .

*****

ـ أليس هنا طريقة للاتصال بها فى الدمام . ألـيس لديكم رقم التليفون أو العنوان ؟ سألت وردة التى ذهبت إليها فى المستشفى بعد خروجى من العمل .

ـ من الصعب عليك أن تتصل بها فى الدمام ، نحن لا نعرف بالضبط فى أى مستشفى تعمل هناك .

ـ ....

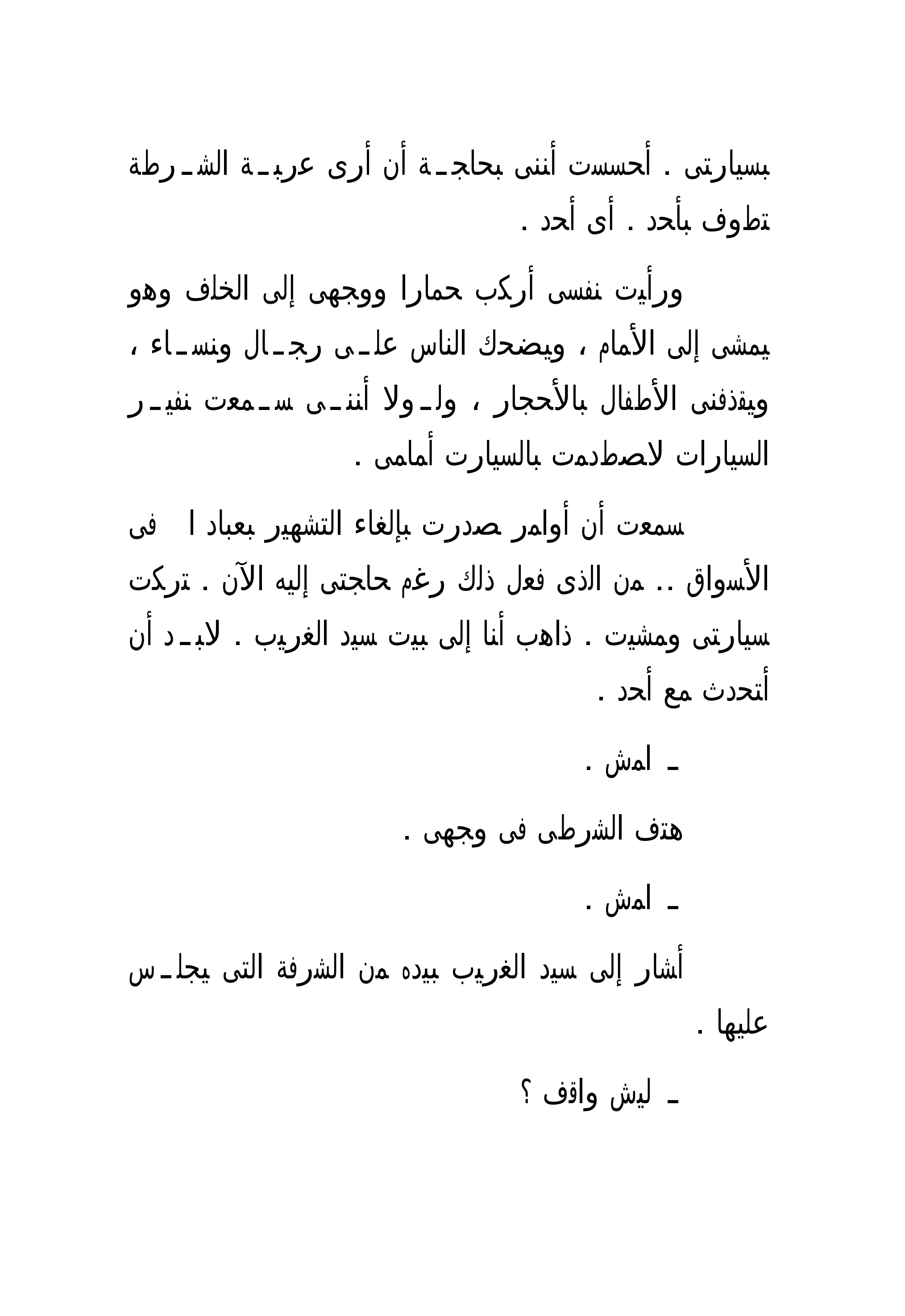
ألم تكن تكتب لها ؟

ـ كنت أكتب ..

ـ ألم ترد عليك ؟

ولم أرد عليها . قمت وصافحتها ومشيت .

كرهت العودة إلى البيت .. كرهت صيد الفئـران . إننى أغسل اللوح الخشبى كل يوم بالصابون والسـافلون . لا رائحة نتنه فى المطبخ حقًا لكننى أشمها فى الفضاء . فكرت جديا أن أبحث عن شقة صغيرة فى عمارة . ستكون فرصـة الفئران أقل . البيوت العربية الطراز لا تزيد عن أحجار فى طريقها تتسلقها أو تمر من تحتها . ودخلت الشـارع العـام



بسيارتى . أحسست أننى بحاجـة أن أرى عربـة الشـرطة تطوف بأحد . أى أحد .

ورأيت نفسى أركب حمارا ووجهى إلى الخلف وهو يمشى إلى الأمام ، ويضحك الناس علـى رجـال ونسـاء ، ويقذفنى الأطفال بالأحجار ، ولـولا أننـى سـمعت نفيـر السيارات لاصطدمت بالسيارت أمامى .

سمعت أن أوامر صدرت بإلغاء التشهير بعباد ا فى الأسواق .. من الذى فعل ذلك رغم حاجتى إليه الآن . تركت سيارتى ومشيت . ذاهب أنا إلى بيت سيد الغريب . لابـد أن أتحدث مع أحد .

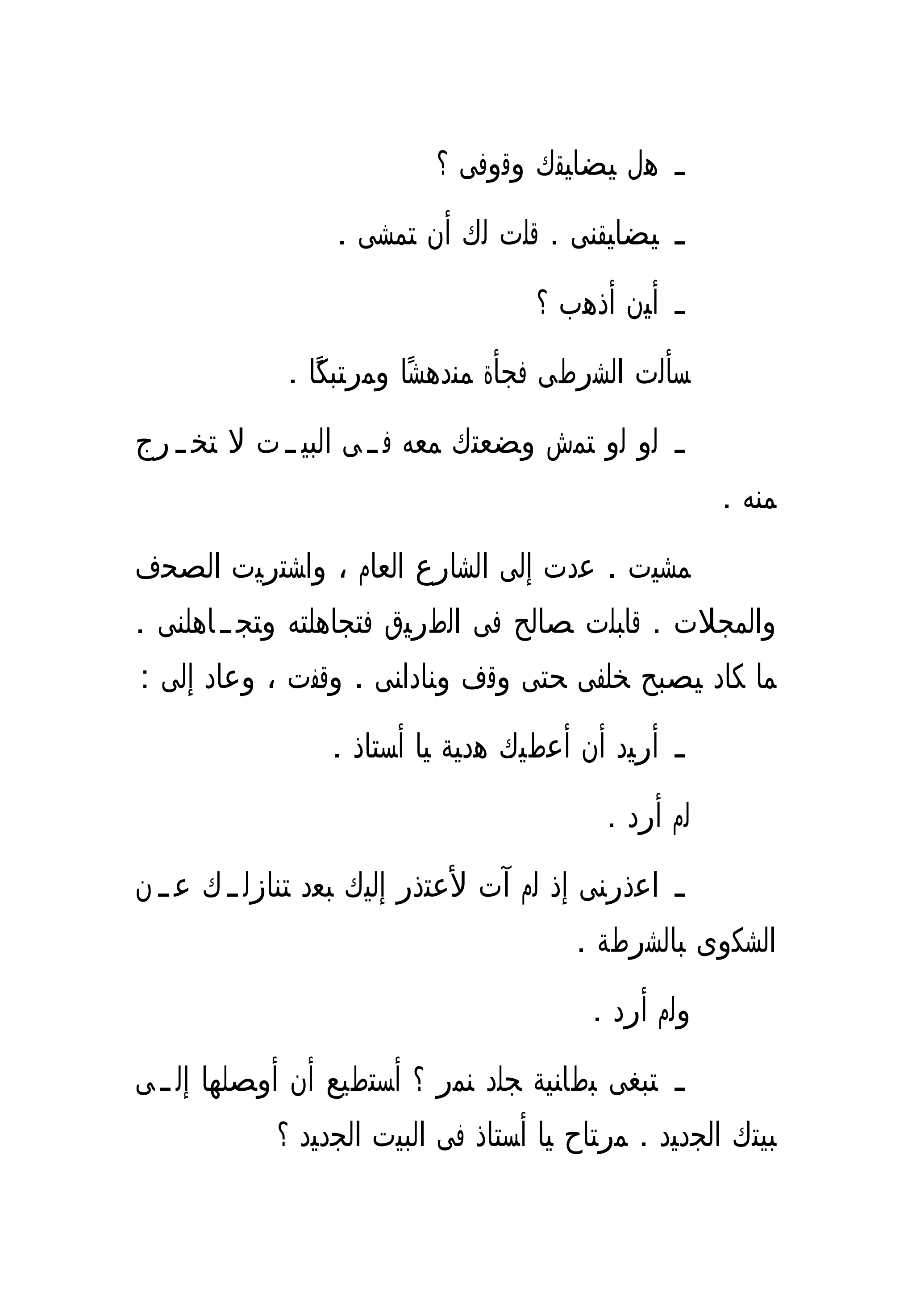
ـ امش .

هتف الشرطى فى وجهى .

ـ امش .

أشار إلى سيد الغريب بيده من الشرفة التى يجلـس عليها .

ـ ليش واقف ؟



ـ هل يضايقك وقوفى ؟

ـ يضايقنى . قلت لك أن تمشى .

ـ أين أذهب ؟

سألت الشرطى فجأة مندهشًا ومرتبكًا .

ـ لو لو تمش وضعتك معه فـى البيـت لا تخـرج منه .

مشيت . عدت إلى الشارع العام ، واشتريت الصحف والمجلات . قابلت صالح فى الطريق فتجاهلته وتجـاهلنى . ما كاد يصبح خلفى حتى وقف ونادانى . وقفت ، وعاد إلى :

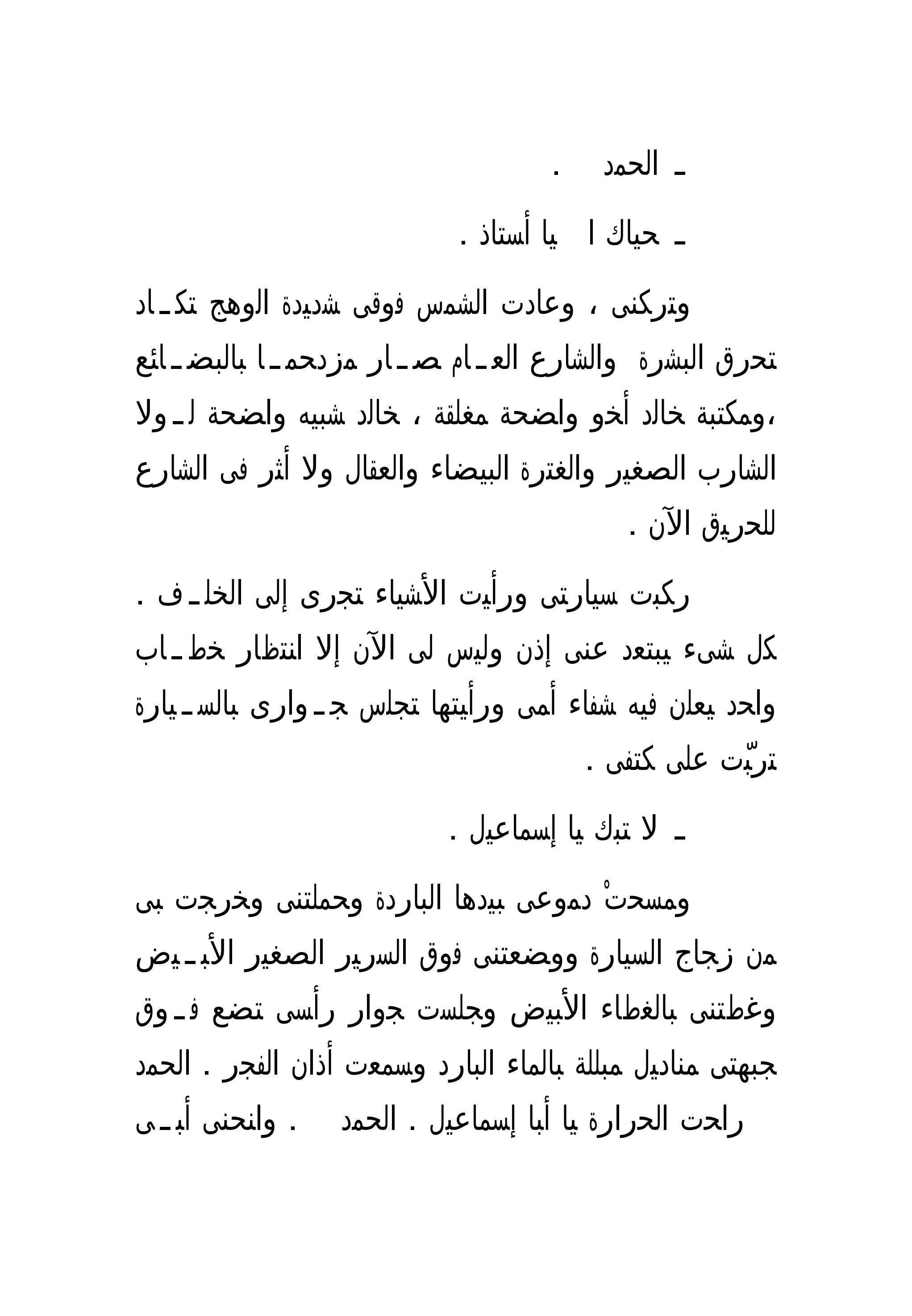
ـ أريد أن أعطيك هدية يا أستاذ .

لم أرد .

ـ اعذرنى إذ لم آت لأعتذر إليك بعد تنازلـك عـن الشكوى بالشرطة .

ولم أرد .

ـ تبغى بطانية جلد نمر ؟ أستطيع أن أوصلها إلـى بيتك الجديد . مرتاح يا أستاذ فى البيت الجديد ؟



ـ الحمد   .

ـ حياك ا   يا أستاذ .

وتركنى ، وعادت الشمس فوقى شديدة الوهج تكـاد تحرق البشرة والشارع العـام صـار مزدحمـا بالبضـائع ،ومكتبة خالد أخو واضحة مغلقة ، خالد شبيه واضحة لـولا الشارب الصغير والغترة البيضاء والعقال ولا أثر فى الشارع للحريق الآن .

ركبت سيارتى ورأيت الأشياء تجرى إلى الخلـف . كل شىء يبتعد عنى إذن وليس لى الآن إلا انتظار خطـاب واحد يعلن فيه شفاء أمى ورأيتها تجلس جـوارى بالسـيارة تربّت على كتفى .

ـ لا تبك يا إسماعيل .

ومسحتْ دموعى بيدها الباردة وحملتنى وخرجت بى من زجاج السيارة ووضعتنى فوق السرير الصغير الأبـيض وغطتنى بالغطاء الأبيض وجلست جوار رأسى تضع فـوق جبهتى مناديل مبللة بالماء البارد وسمعت أذان الفجر . الحمد راحت الحرارة يا أبا إسماعيل . الحمد   . وانحنى أبـى

يقبلنى . " قل هو ا   أحد ا   الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد " . " ا   لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما فى السماوات وما فى الأرض مـن ذا الـذى يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بـين أيـدهم ومـا خلفهـم ولا يحيطون بشىءٍ من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السماوات والأرض ولا يؤده حفظهما وهو العلى العظيم " .

اللهم خذ منى لصحته وعافيتـه وارزقنـى برزقـه وأعطنى العمر لأرى ذريته . اللهم إنى شكوت لـك همـى بالليل وتعبى بالنهار فاستمع لى وقربنى منك وخذ بيدى فـى ابنى يا عالما بحالى يا غفور يا تواب يا رحـيم اللهـم إنـى نذرت أن أذبح على باب مقام سيدى إبراهيم الدسوقى كبشـا وأعود وأذبح على باب بيتـى كبشـاً فاشـف لـى ولـدى إسماعيل . اللهم اشف مرضانا وارحم موتانا ولا تجعلنا مـع القوم الظالمين .

والبنتين يا أم إسماعيل ؟ بخير . شفتيهم ، شـفتهم ، نايمين وكويسين . شقرى عليهم يا أم إسماعيل . شقرت قلت لك . خلاص ما تزعليش حقك على .

ويعلو نفير السيارات من كل جهة .

- ليش تقف وتعطّل الطريق ....؟

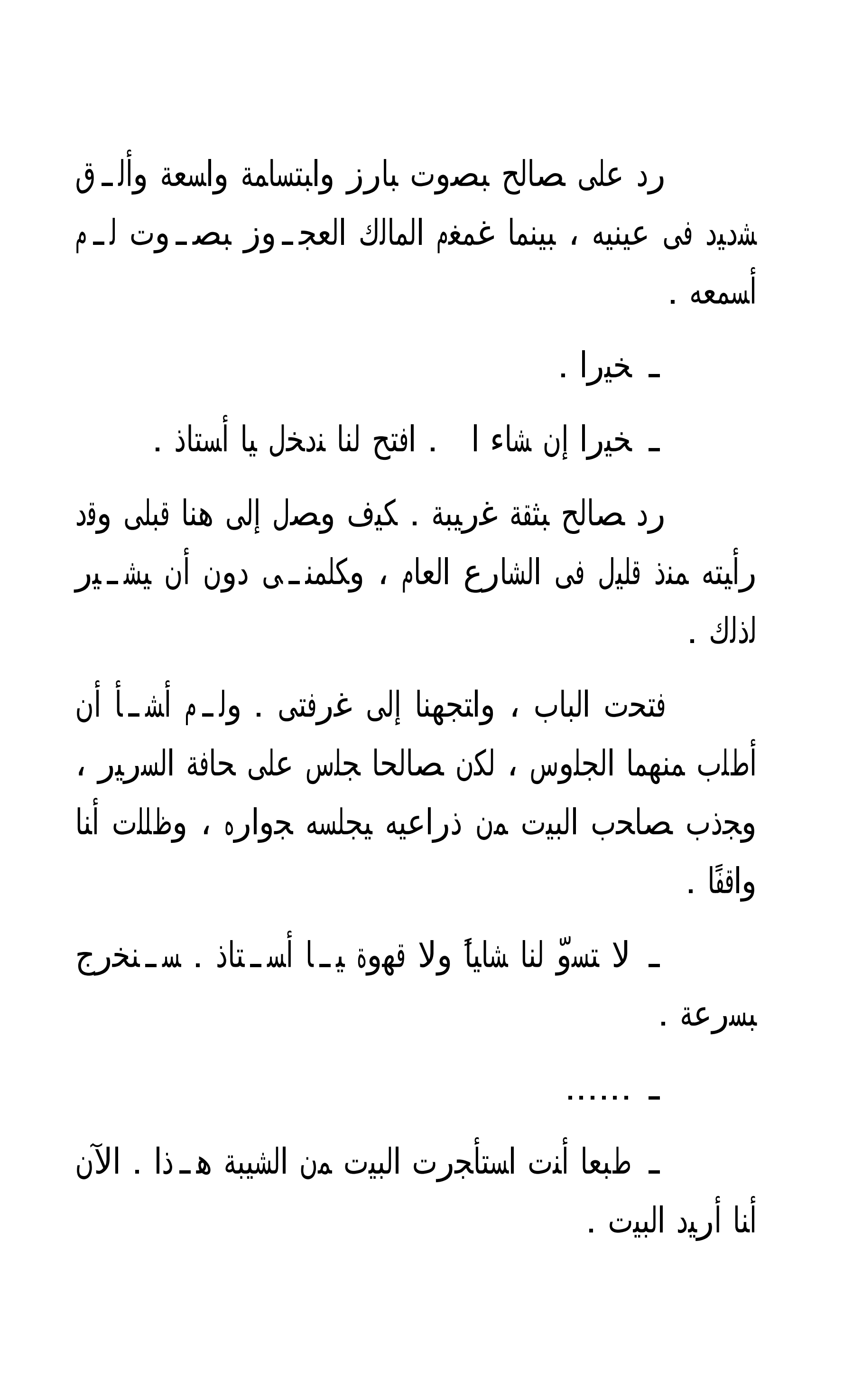
- آسف .

- مر بسرعة .

ومررت بسرعة وكل ما أخذته من البنتين الأكبر مني صار على أن أدفعه لسناء وبهاء الأصغر مني . صدر الفرخة كان لى واللحم الأحمر والبيضة ذات الصفارين وزجاجة الكوكاكولا كاملة وفطائر السمن وأفخاذ الأرانب وكبد الطيور وعناقيد البيض الذى لم يكتمل فى بطنها والماء الساخن فى الشتاء والصابون أبو ريحة والملابس الناعمة ورحلات المدارس وزيارة الحدائق . لماذا كنت أحب دائما من أبى أن يذهب بى إلى محطة السكة الحديد أتفرج على القطارات الداخلة والخارجة وحركة الناس وفرق الموسيقى فى الميدان أمام المحطة ؟ ورأيت صالح سينور الثقيفى يقف أمام الباب ومعه صاحب البيت .

- السلام عليكم .

- يا هلا .



رد على صالح بصوت بارز وابتسامة واسعة وألـق شديد فى عينيه ، بينما غمغم المالك العجـوز بصـوت لـم أسمعه .

- خيرا .

- خيرا إن شاء ا . افتح لنا ندخل يا أستاذ .

رد صالح بثقة غريبة . كيف وصل إلى هنا قبلى وقد رأيته منذ قليل فى الشارع العام ، وكلمنـى دون أن يشـير لذلك .

فتحت الباب ، واتجهنا إلى غرفتى . ولـم أشـأ أن أطلب منهما الجلوس ، لكن صالحا جلس على حافة السرير ، وجذب صاحب البيت من ذراعيه يجلسه جواره ، وظللت أنا واقفًا .

- لا تسوّ لنا شاياً ولا قهوة يـا أسـتاذ . سـنخرج بسرعة .

- ......

- طبعا أنت استأجرت البيت من الشيبة هـذا . الآن أنا أريد البيت .

ـ أى بيت .... ؟

ـ هذا .

ـ لكننى أسكنه .

أعرف يا أستاذ . أنا اشتريته من الشيبة ، واشتريت الذى يجاروه سأتزوج فى هذا وأهدم الثانى وأجعله حديقـة ، سأزرع أشجارا مصرية ، سأعطيك مهلة شهريا يـا أسـتاذ تبحث عن سكن آخر . تكفى هذه المدة ؟

ـ تكفى .

ولم أشأ النظر إلى أحدهما بعد ذلـك . لا معنـى أن أسأل المالك الأول عن صحة ما سمعت . لم يصحبه صـالح ليتآمر أو يكذب . لقد اشترى صالح البيت بحـق وعلـى أن أتركه ، سواء تزوج فيه وهدم الذى يجاوره ، أو تزوج فـى الذى يجاوره وهدمه ، أو هدم الاثنين معا ولم يتزوج .

*****

أكلت بشهية لا أذكر أنى أكلت بمثلها منذ أن أتيت . شويت كمية هائلة من لحم الضأن والكبد . ورحت ألتهمهـا وأنا واقف فى المطبخ ودون خبز . أستطيع اليـوم أن آكـل

خروقًا كاملاً .. جملاً لو أردت . وربما خرجت إلى الطريق هائجا أذبح كل من يقابلنى وأشويه وآكله . أحتاج الآن إلـى نوم كبير .

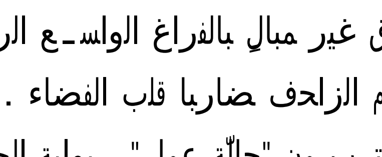
تمددت فوق السرير ، وامتدت يدى تمسك بمجلة مما ألقيه من قبل على الأرض قريبا من رأسى .

"جريمة تهتز لها المملكة . ثانى حادث مـن نوعـه خلال شهر . فتاة فى السابعة عشرة تضرب زوجهـا علـى رأسه بآنية الطبخ البريستول الثقيلة ثـم تخصـيه ، الـزوج المسكين مات من الصدمة حين أفاق وعرف ما حـدث لـه، الزوج هوع . ص . ص البالغ من العمـر سـبعين سـنة ، والزوجة القاتلة الصغيرة هى و . س . س من الريـاض ، وهى تلميذة فى المدرسة المتوسطة" .

وقلّبت المجلة مجنونًا إلى بريد القراء .

"وصلتنا أكثر من رسالة عاجلة بالتليفون تسأل هـل و . س . س صاحبة الرسائل المتكررة إلينا هـى القاتلـة . والإجابة بالنفى . ونحن نطمئن قراءنـا الأعـزاء إلـى أن صديقتنا و . س . س حدثتنا بالتليفون بعد الحادث تسأل هل

صحيح ستقوم حكومة الخمينى فى طهران بإغلاق المـدارس والجامعات وتعود إلى التدريس فى المساجد . والحقيقة أنه لا إجابة واضحة لدينا الآن . ونحن مثل صديقتنا نستمع لكثيـر من الإشاعات عن حكومة طهران الجديدة ، لكن المؤكد أنها مشغولة بتخليص الحكم لنفسها من المعارضة وأعوان الشـاه المندسين فى البلاد والمؤكد أن الحجاب عـاد يظهـر فـوق وجوه النساء فى سائر بلدان إيران . وهـذه خطـة محمـودة للحكومة الجديدة نرجو أن تتبعها خطوات أخرى فى طريـق الدين الرشيد" . وأنا الذى رأيت دكانة خالد مغلقة منذ سـاعة بالسوق قفزت من فوق السـرير ، ودخلـت فـى ثيـابى ، واندفعت أركب سيارتى أسرع بها على الطريق القادم مـن الشمال . واضحة . واضحة ولا أحد غيرها . ورحت أنهب



الطريق غير مبالٍ بالفراغ الواسـع الرهيـب حـوالى ، ولا بالظلام الزاحف ضاربا قلب الفضاء . وهناك ، بعيدا بعيـدا وأنا أقترب من "حالّة عمار" ، بوابة الحدود مـع الأردنـن ، أدركت أنه لا بحر قابلنى فى طريقى لألقى بنفسى فيه .

*****

(٢٨)

" لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمـر ، ولا الليـل سابق النهار ، وكل فى فلك يسبحون " ...

عائد إلى حيث جئت لا محالة وكل شىء اقتربت منه ابتعد . كيف نسيت أن أكون مرآة لامعة تنزلق فوقها حبـات المطر ؟

الليل والنهار ورجل واحد بينهما هـو أنـا . الليـل والنهار سماهما العرب المِلْوين لأنهما يملآن الآفـاق نـورا وظلمة . وكيف ترى حقًا فى النور الساطع وكيف ترى فـى الظلمة القاتمة ؟

الليل والنهار سماهما العرب بالجديـدين لتجـددهما بالضياء والإظلام على الدوام ، لا شأن لهما بأحد . لم يقـف النهار معى مرة يحدثنى ولا الليل فعل . سمى النهار نهـارا لظهور ضوء الفجر يجرى كالنهر من المشرق إلى المغـرب معترضا حتى يأتى على الظلام . معركة يخوضها كل منهما

مع الآخر ولا شأن لهما بأحد يقف تحتهما أو بينهما . يطـل على النهار الآن فأسرع إلى العمل غير مصدق أنـى نمـت وصحوت وأن الليل انقضى ، وأعود أردد فى نفسـى ومـن شر غاسق إذا وقب ، خوفًا من شدة ظلام الليـل ، ودخولـه كاسحا بلا هلال ولا بدر ولا نجوم ، اختلطـت علـى أيـام الشهر ، ورأيت أبى يخرج قبل المغرب يبحـث عنـى فـى الشارع لأدخل البيت قبل الظلام ، ويقول عن الرسول جنبوا صبيانكم فحمة العشاء .

سمى العرب الليل بالكافر لأنه يستر الناس ، فـالكُفر هو الستر ، والكافر يجحد نعمة ا ويسترها ، والكفور هـى القرى النائية عن المدن ، لأن ساكنها يغيب عـن جمهـور الناس ويستتر عنهم ، والرسول قال : "لا تسـكنوا الكفـور فساكنو الكفور كساكنى القبور" ، وتبوك بعيدة عن حواضـر المدن ، وفى مصر آلاف الكفور .

أرى الليل الآن " كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض " وأخرج يدى فلا أكاد أراها ، وكل ليلـة أنتظـر النهـار ،

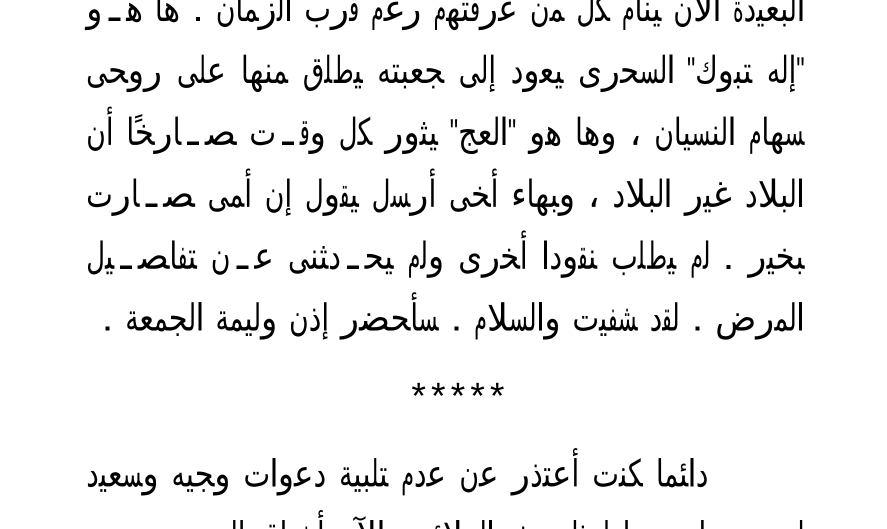
وأنتظر معه شيئًا يحملنى إلى مكان آخـر ، شـىء لا أدرك كنهه ، وإن كنت أعرف أنه ليس رسالة من أحد .

*****

عاد منصور من الكويت ولم أقابله . أخبرنى نبيل أن يوم الجمعة ستتم وليمة الكبسة التى وعدنا بها منصور مـن قبل ولم يتمها . ستكون وليمة ضخمة ، قال نبيل ، وسـيرانا منصور لآخر مرة إذًا سيسافر مرة ثالثة إلى الكويت ويبقـى هناك ، سيتزوج المصرية التى دوخته . مسكين منصور وِلد ليهوى المصريات ، وضحك نبيل وسألنى لماذا أنا مندهش .

كنت أفكر كيف يتكرر سفر منصور هكذا وفى وقت قصير . لابد أن مسألة زواجه من وداد لم تكن منتهية كمـا حاول أن يقنعنى آخر مرة . لكن لماذا لا يأتى العمل بالنهار لأراه ؟ لماذا يرسل إلى نبأ الوليمة مع نبيل..... ؟

فكرت أن أتخلف عن الحضور ، ووجـدت أنـه لا معنى لذلك . الآن انتهت كل آصرة لـى بشـىء أو أحـد . ضاعت عايدة فى الرمال البعيد ، وواضحة هـى القاتلـة ، وسينفذ فيها القصاص بالسيف لا محالة ، ولا يعنينى أن و .


س . س لا تزال ترسل أسئلتها للصحف من كل المدن ، فمنذ أيام لا أشترى الصحف ، والبيت الذى سيأخذه صالح ليهدمه أو يعمره بامرأة وأطفال ليس فيه ذكريات ، وفـى الـذاكرة البعيدة الآن ينام كل من عرفتهم رغم قرب الزمان . ها هـو "إله تبوك" السحرى يعود إلى جعبته يطلق منها على روحى سهام النسيان ، وها هو "العج" يثور كل وقـت صـارخًا أن البلاد غير البلاد ، وبهاء أخى أرسل يقول إن أمى صـارت بخير . لم يطلب نقودا أخرى ولم يحـدثنى عـن تفاصـيل المرض . لقد شفيت والسلام . سأحضر إذن وليمة الجمعة .

*****

دائما كنت أعتذر عن عدم تلبية دعوات وجيه وسعيد لى بمصاحبتهما لمثل هذه الولائم . الآن أشتاق إلى حضـور واحدة منها . لم أشتق إليها يومـا والآن أسـتعد لاسـتقبالها فرحا . هدأت روحى بعد يقينى بانقطاع كل الحبال . ربما ، وربما لأن صاحبها منصور .

أحس ، وبالغرابة هذا الإحساس المفاجئ ، أنى أقف على باب الطائرة وهواء المكيف فـى ظهـرى ، ووجهـى وصدرى يواجهان الشمس ، وأخطـو أول خطـوة دون أن

يدفعنى إليها أحد . هل سأعود مرآة لامعة ؟ علـى أنـا أن أعرف جيدا كل ما أراه . أدقق فى تفاصيله كمشترٍ حصيف ، وأشرع فى كتابة المذكرات التى تجعل ما يحـدث لـى لا يحدث معى . المذكرات تعنى الوعى . الوعى يعنى هزيمـة الوجدان ، ولا يأتينى الحزن بعد ذلك . لو أتـذكر الكاتـب الخبيث الذى قال هذا الكلام . آه . كل الكتاب خبثاء ، وكـل القراء أغبياء يصدقونهم فيعيشون حياة غير حياتهم ، سـرقة مع سبق الإصرار للوقت والعمر الجميل ولا يشكو أحد . لقد قيل إنه حين نشر غُوتَه " آلام فرتر" انتحر مئات الشباب فى ألمانيا الرومانتيكية التى هتك نابليون عرضها بقـوة . قتـل غوته شباب أمته بكتاب صغير بكى فى كتابته مرة أو مرتين ، واحتاج نابليون إلى جيوش لقتلهم . ولم تنقذ أشعار لوركـا جنود الجمهورية الذين حملوها فى جيوب سـتراتهم جـوار قلوبهم . وفى زيارتى الأخيرة للقاهرة مات "صلاح منصور" صاحب العينين النافذتين . ترك فراشه ووقف جواره يلقـى مونولوج هاملت الشهير ، وما أن قال أكون أو لا أكون حتى عاد لينام فوق الفراش نوم الأبدية .. ترى كم قتل شكسـبير بأميره الوسيم طوال القرون الخمسة الماضية . ولماذا أذهب

بعيدا هكذا أنا إسماعيل خضر موسى الـذى يفطـن دائمـا للحقائق بعد فوات الأوان ؟ ضيعنى أحمد عـاكف ونجيـب محفوظ . صدقتهما فقتلت "آمال" . أجل قتـل عمـد هـو . عرفت ما لم يعرفه أحمد عاكف ونجيب محفوظ . صـدقتهما فقتلت "آمال" . أجل قتل عمد هو . عرفت مال يعرفه أحمـد عاكف مبكرا ، أنا لن أفوز بشىء ، فلم أشأ إرهـاق قلبـى وتحطيم قلوب العباد . نجحت فى الأولى وأخفقت فى الثانية فقتلت من حيث أردت الحياة ، حتى الكتابة أيضا تتسلل مـن قلبى إلى قدمى إلى الطريق يدوسها النسيان ويعلوها الصدأ . هل كنت أعرف أنى سأصل إلى هذه النهاية ، أم جئت هنا ، على هذا البعد ، لأتقصى الأسباب ؟ يا ا ، هنا ، على بعـد مئات الأميال من كل ما هز القلب أو تحجر أمامه ، هنـا ، والآن ، أكتشف أنى أستطيع العودة وأكتب . لكننى لا أريـد أن أدمى قلبى ، أنا كاتبى وأنا قارئى فأنا قاتلى لا محالـة إذ ستصل الخدعة إلى الغاية رغم أنى الكاتب المخادع الخبيث . إذن فلأشرع فى كتابة المذكرات حيث يطغى العقـل علـى الوجدان فلا يندفع الدم بين القلب وبقية الجسد .

*****

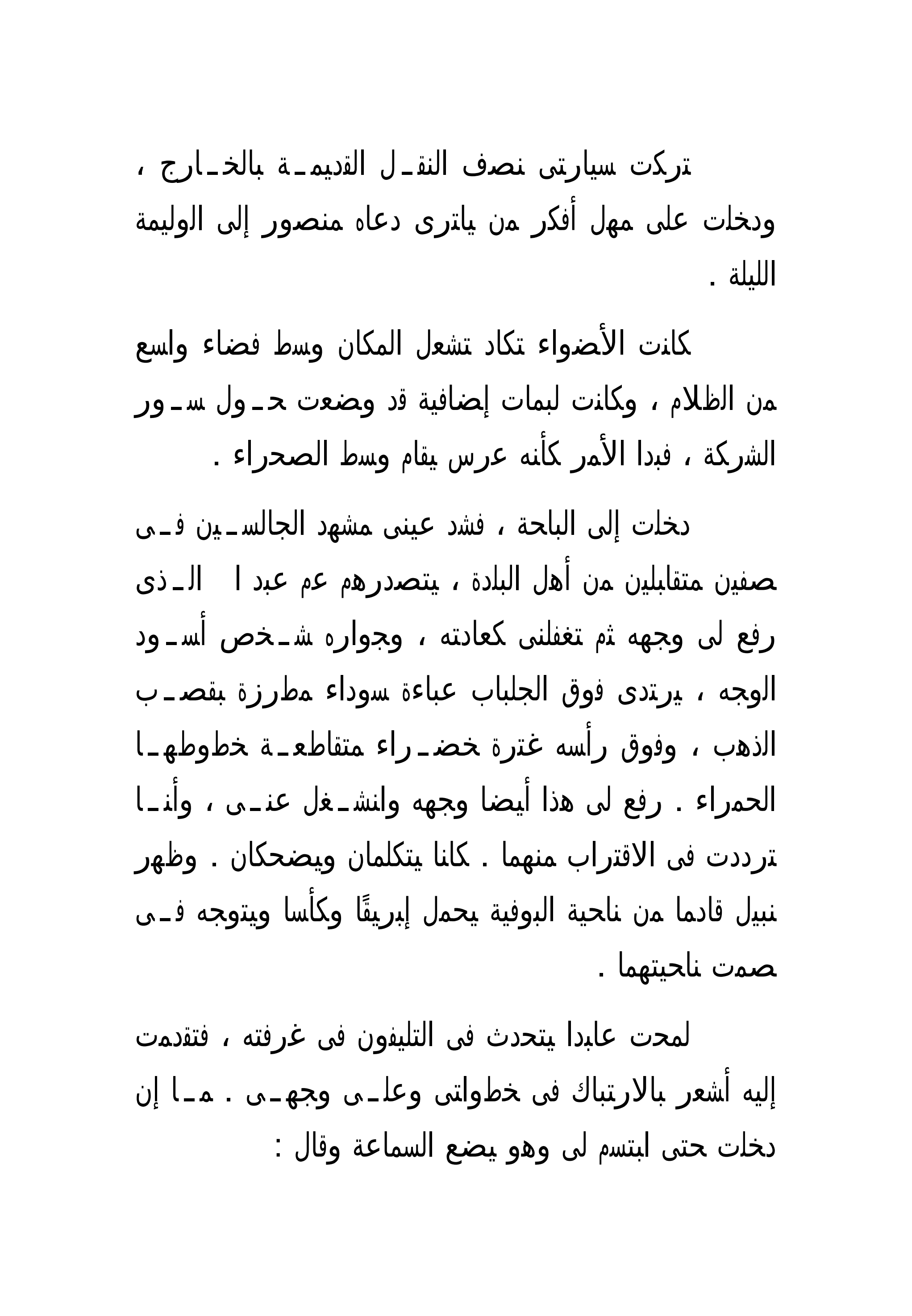
ولم أكتب المذكرات، ولا يبدوأنى سـأكتبها يومـا، وعاد الليل أثقل .

فى الحزن يطول الليل فلماذا يطول الآن وقد تقطعت بينى وبين كل شىء هنا كل آصرة ؟ ليلى ثقيل من السـخف نشأ . ليلى مقيت فى تكراره لكننى وصلت إلى صباح الجمعة ، وانتظرت فى البيت حتى انتهـت الصـلاة ، وتغـديت ، واستلقيت فوق السرير أتابع برامج التليفزيون لينتابنى قلـق مفاجئ ، فأنا أريد بحق حضور الوليمة . وكان التليفزيـون كريما معى . بث فيلما مثيرا عن غرق السفينة بوزايـدون . أنا لا أعرف شيئًا عن هذه السفينة ، وما إذا كانـت قصـة غرقها حقيقة أم لا ، لكن من منا لا ينجذب إلى هذا النوع من الأفلام الذى يصورالناس فى مأزق كبير، ويجلـى أمامنـا الإدارة الإنسانية فى أقـوى صـورها ، ويعـرض صـور الصراع بين النفوس فى لحظات الضعف والقوة . كل هـذه الأفلام يعرف المشاهد نهايتها التى لا تخذله فتنتهـى دائمـا بالنجاة.أعرف ذلك أنا أيضا ، ولكنى أمام السينما أتحول إلى طفل برئ مأخوذ ومفتون . وكان النوم أيضا كريما معـى ، ما كاد الفيلم ينتهى حتى ثقل رأسى ، وانفصل عن جسمى ،

ورأيت مرة أخرى "جين هاكمان" القسيس الورع الذى يعـظ راكبى السفينة أن لا ينسوا رحمة ا ولـم يضـعف رغـم سخريتهم به حتى إذا بدا أنه لا فرصة للنجاة بعد أن بـذلوا ، وبذل معهم ، جهدا خارقًا ، يهتف فى غضب وخيبة أمل نحن لا نريد رحمتك ، فقط نريدك أن تكف عنا ، أن تتركنا نواجه ما يحدث دون تدخل منك لأجلنا أو علينا ، فجعلنى أضـحك من يأسه وحيرته . ولما صحوت وجدت التليفزيـون يبـث برنامج "مجلة الأسبوع" والدنيا ظلام ، فأسرعت كالملـدوغ بالخروج ، وركبت سيارتى منطلقًا إلى الشركة خائفًا خـوف الموت أن تكون الوليمة قد فاتتنى .

*****

اقتربت فوجدت عددا كبيرا من السيارات تقف أمـام باب الشركة من الخارج . سـيارات كـابريس ومرسـيدس وكاديلاك وبيجو ، وبينها تبرز سيارة عم عبد ا الكـاديلاك البيضاء ، وجوارها سيارة مرسـيدس سـوداء ذات سـتائر داخلية خلف زجاجها ، ويرتفع وسط سقفها ، تماما كسـيارة عم عبد ا وإيريال إرسال واستقبال .



تركت سيارتى نصف النقل القديمة بالخارج ، ودخلت على مهل أفكر من ياترى دعاه منصور إلى الوليمة الليلة .

كانت الأضواء تكاد تشعل المكان وسط فضاء واسع من الظلام ، وكانت لبمات إضافية قد وضعت حول سور الشركة ، فبدا الأمر كأنه عرس يقام وسط الصحراء .

دخلت إلى الباحة ، فشد عينى مشهد الجالسين فى صفين متقابلين من أهل البلدة ، يتصدرهم عم عبد ا الذى رفع لى وجهه ثم تغفلنى كعادته ، وجواره شخص أسود الوجه ، يرتدى فوق الجلباب عباءة سوداء مطرزة بقصب الذهب ، وفوق رأسه غترة خضراء متقاطعة خطوطها الحمراء . رفع لى هذا أيضا وجهه وانشغل عنى ، وأنا ترددت فى الاقتراب منهما . كانا يتكلمان ويضحكان . وظهر نبيل قادما من ناحية البوفية يحمل إبريقًا وكأسا ويتوجه فى صمت ناحيتهما .

لمحت عابدا يتحدث فى التليفون فى غرفته ، فتقدمت إليه أشعر بالارتباك فى خطواتى وعلى وجهى . ما إن دخلت حتى ابتسم لى وهو يضع السماعة وقال :

- مفاجأة .! أليس كذلك .....؟

- من كل هؤلاء..... ؟

- هؤلاء شيوخ البلدة ، وكبار مـوظفى الإمـارة ، يتوسطهم عم عبد ا والأمير .

- هل هذا هو أمير تبوك ؟

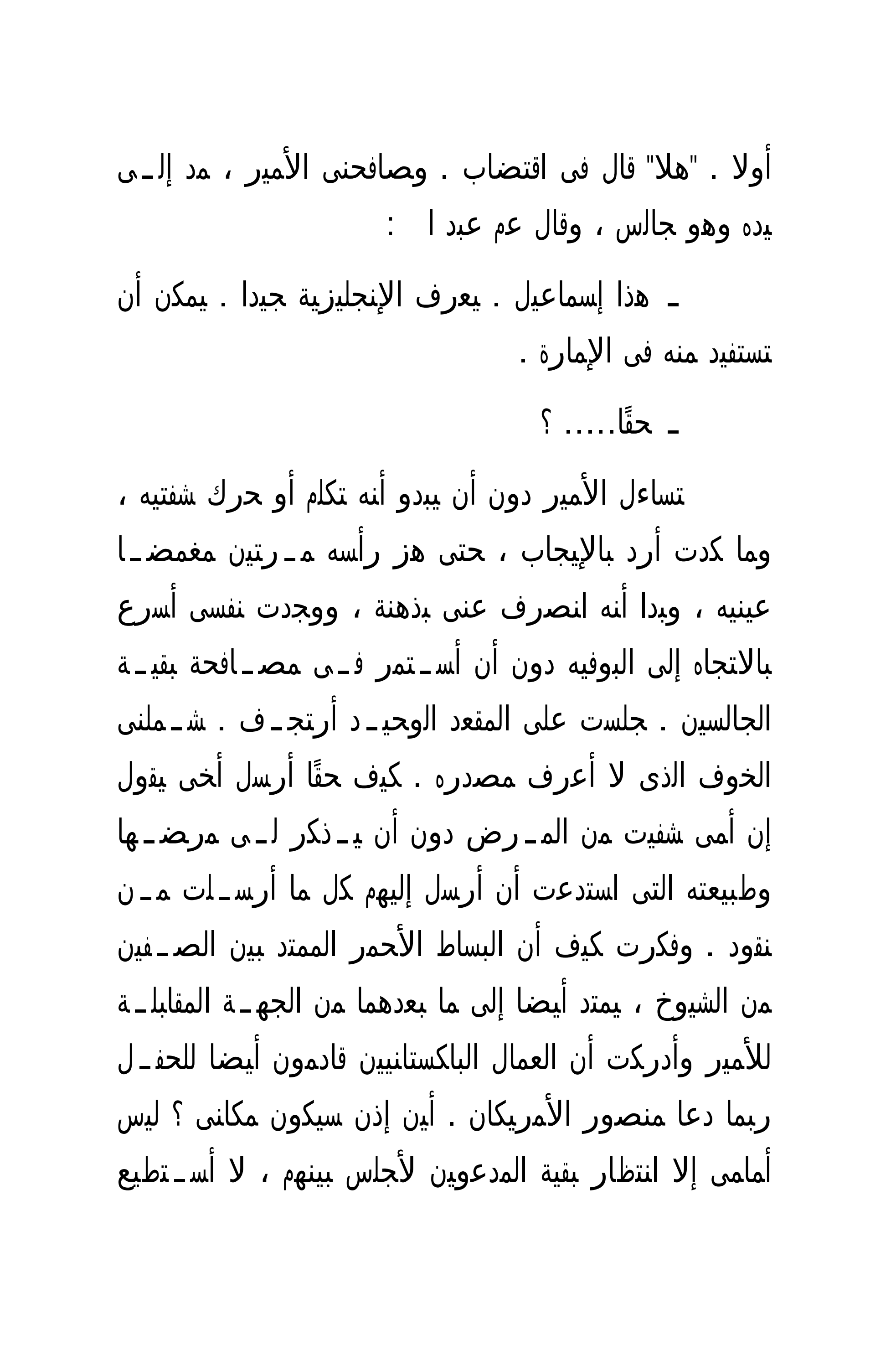
- ألم يسبق لك أن رأيته ؟

- أجل .

- إنه شخص مهذب جدا . تعالى سلم عليه .

وقبل أن أتلكم أخذنى من يدى ، ولم أجـد الفرصـة لأقاوم خوفًا غريبا استبد بى ، فتركت له نفسى ، ثم سـحبت يدى من يده بعد خروجنا من باب المكتب . لا يصح أن يبدو أمامه أنه هو الذى يدفعنى لمصافحتهم .

لم يقدمنى عابد إلى أحد بالطبع . اقتربنا من الأميـر فتركنى ، واشتبك بالحوار الضاحك مـع أحـد الشـيوخ ، واندفعت أنا تخلصا من الموقف كله أصـافح عـم عبـد ا


أولا . "هلا" قال فى اقتضاب . وصافحنى الأمير ، مد إلـى يده وهو جالس ، وقال عم عبد ا :

ـ هذا إسماعيل . يعرف الإنجليزية جيدا . يمكن أن تستفيد منه فى الإمارة .

ـ حقًا..... ؟

تساءل الأمير دون أن يبدو أنه تكلم أو حرك شفتيه ، وما كدت أرد بالإيجاب ، حتى هز رأسه مـرتين مغمضـا عينيه ، وبدا أنه انصرف عنى بذهنة ، ووجدت نفسى أسرع بالاتجاه إلى البوفيه دون أن أسـتمر فـى مصـافحة بقيـة الجالسين . جلست على المقعد الوحيـد أرتجـف . شـملنى الخوف الذى لا أعرف مصدره . كيف حقًا أرسل أخى يقول إن أمى شفيت من المـرض دون أن يـذكر لـى مرضـها وطبيعته التى استدعت أن أرسل إليهم كل ما أرسـلت مـن نقود . وفكرت كيف أن البساط الأحمر الممتد بين الصـفين من الشيوخ ، يمتد أيضا إلى ما بعدهما من الجهـة المقابلـة للأمير وأدركت أن العمال الباكستانيين قادمون أيضا للحفـل ربما دعا منصور الأمريكان . أين إذن سيكون مكانى ؟ ليس أمامى إلا انتظار بقية المدعوين لأجلس بينهم ، لا أسـتطيع

الجلوس بين الشيوخ وكبار البلدة . لا شيء لدى أقوله لأى منهم ، ولا سابق معرفة لى بأحدهم ، ولم آت للصمت والأكل ، لابد أن يحدثنى أحد ، وعابد سيجدها فرصة ليتحدث مع كل الشيوخ أمامى ، ويتبادل معهم الضحك وكلاما لا أفهمه . لن يتحدث عابد لى بكلمة منذ الآن ، ونبيل مشغول عنى بتقديم الشاى والقهوة العربية حتى يأتى منصور وطعامه .

ودخل نبيل البوفيه وقد احمر وجهه بشكل مثير .

ـ ربك يستر .

قال هامسا . وسألته :

ـ أين منصور ؟

ـ سيأتى بعد قليل ومعه عربة محملة بالطعام . سطهوه فى البلدة . فى بيته . هكذا قال . لماذا لا تخرج وتجلس معهم ؟! فرصة أن تتعرف عليهم ؟

ابتسمت . تركنى وحمل إبريقًا آخر من الشاى وخرج . هل أستطيع أن أتعرف الليلة على كل هذا العدد من الشيوخ والكبراء ذوى الغتر المدرجة ، والعباءات الفضفاضة

، والوجوه النضرة ذات اللحى الصغيرة اللامعة ؟! وبقيـت جالسا فى مكانى ، إلا أننى حركت المقعد بحيث أراهم مـن خلف الباب المفتوح ولا يروننى ، ورأيت عابدا لا يكف عن المرور حولهم ، يقف يتحدث مع واحد لحظة ، ويضحك مع الثانى ، وينحنى يقبل رأس الثالث،وأحيانًا كتفيـه ،وترتفـع أصواتهم بكلام لا أفهمه، وكثيرا ما يضحك بعضهم ، وأرى الأمير من الخلف لا يهتز ولا يبدو أنه يتحدث .

كثيرا ما تحدث وجيه وسعيد أمامى عن " الكبسة " . قالا إن الأكل فيها يكون بالأيدى . باليـد اليمنـى فقـط . لا يصح استخدام اليدين . اليد اليمنى تنهش من لحم الخـروف الصغير المشوى ، الموضوع كله فوق صينية الأرز الكبيرة التى قد يصل قطرها إلى المتر ، والأرز كـوم عـالٍ، أرز غارق فى السمن ، مخلوط باللوز والزبيب والسنوبر والفستق ، وعلى الواحد أن يأخذ بيده الأرز الساخن ، ويضغطه فـى كفه قبل أن يقذف به إلى فمه ، وكلما نَز من يـده السـمن ، كان دليلاً على كرم صاحب الوليمة ، وحـذار إذا وجـدت ملاعق أن تستخدمها . الملاعق لا تظهر إلا فى حالة تقـديم "السلاطة" مع الأكل . يكون عليك أن تحمل السلاطة بالملعقة

، وتلقى بها فوق الأرز ، ثم تترك الملعقة ، وبيدك تعود تأخذ الأرز والسلاطة معا وتكورها لتأكلها . ومن مراسم الكبسـة أن لا تبدأ تناولها إلا بعد أن يبدأ كبير الجلسة ، وكبير الجلسة اليوم هو الأمير صاحب العينين الصغيرتين المدفونتين تحت جفنين عاليين . على إذن أن أراعى كل هذه الآداب .

وسمعت ضجة عالية خارج الباحة ، ثم اندفع العمال الباكستانيون إلى الداخل يجرون ضاحكون ، وفجأة توقفـوا مصعوقين من رؤيتهم للشيوخ والكبراء . صار بعضهم يحذر القادمين مندفعين بعده ، وبعضـهم خـرج بسـرعة يحـذر القادمين من الخارج وتوقفوا حائرين لا يعرفون ما يفعلون ، فتقدم عابد إليهم وأشار إلى الناحية الخاليـة حـول البسـاط الأحمر ، فراحوا يجلسون فى صمت ، لكنى أرى على البعد وجوههم التى اشتعلت احمرارا .

عاد نبيل إلى البوفيه أحمر الوجه أيضا .

ـ لقد تأخر منصور كثيرا .

لم أرد . كنت أتابع الصمت الذى ران على الجميع . الشيوخ أيضا وعابد الذى خرج يقف عند باب الباحة قلقًـا .

وكان الضوء فى الباحة شديدا ونسمة من هواء منعش هبـت علينا ، وبدا لى كل شىء طيبا نديا ، لكن أخذنى القلق . قلت لنبيل :

ـ هل تراه لا يأتى ...؟

ـ لا أظن . لقد دعا الأمير كما ترى شيوخًا كبارا . أبوه أيضا يجلس هنا . ألا تعرفه ؟

هززت رأسى بالنفى فقال :

ـ صاحب العباءة البنية .

دققت النظر حتى رأيته فى الصف المواجـه لـى . شيخ هرم أغمض عينيه وأغلق فمه ، ويكاد رأسه الذى يهتز يسقط على صدره من النعاس .

وقال نبيل :

ـ يجب أن تأخذ مكانك الآن ، سيفطن النـاس إلـى غيابك وهذا عيب كبير ، ما دمت حضرت فعليك بـالجلوس معهم .



لم يكن هناك مكان لى إلا الصـدارة مـن الناحيـة الأخرى المقابلة للأمير وعم عبد ا . على جانبى وأمـامى صفا العمال الباكستانيين يلتحمان بصفى الشيوخ .

من الممكن أن يجلس عابد جوارى ، ومن الممكـن أيضا أن يتسع المكان لمنصور . لابد أن يجلس منصور فى الصدارة حين يأتى ، فأكون أنا على يمينه وعابد على يساره ، أما نبيل الذى لم يجلس حتى الآن ، فلن يجلس . سـيكون عليه إعداد الشاى والقهوة لتقديمها بسرعة بعد الأكل لكل هذا العدد . ربما يأكل نبيل مما يتبقى . يتبقى دائما الكثير يلقى به للقطط فتصير نمورا وتحسدها الكلاب الطريدة الممنوعة من دخول الحواضر . الليلة ستحسد القطط الكلاب إذا سيلقى بما تبقى فى الصحراء .

جاء عابد مسرعا من ناحية الباب . وجلس جـوارى وهو يقول :

"وصل الطعام" .

كان يهتز ارتعاشًا لا أعرف لماذا ، وكان يبتسـم ، وأنا راحت عيناى تتأملان الأمير الذى بدا له قصيرا سمينًا لا يكاد يرتفع رأسه إلى أحد .

ـ بالخارج الآن سيارة نصف نقل تحمـل صـوانى الطعام لكن منصورا لم يأت معها .

قال عابد لى والخوف يكاد يقفز من عينيه . وشممت حقًا رائحة السمن تتسلل إلينا فى الفضاء ، ثم دخل من الباب يمنيان يحمل كل منهما صينية مغطاة بقطعة شاش بيضـاء ، ووقفا حائرين فتقدم نبيل منهما ، وأخذهما ناحيـة الأميـر ، فوضعا الأولى أمامه والثانية بعدها بقليل ، وعادا مسـرعين إلى السيارة بالخارج . وجذب نبيل ثلاثة مـن الباكسـتانيين فقاموا على الفور ، وراحوا مع اليمنيين يحملون الصـوانى المغطاة بالشاش الأبيض ، وامتلأ الفضـاء برائحـة الإدام ، وخرجت أطراف الألسن تمر بين الشفاة ، وتحرك الحنـاجر صاعدة هابطة بابتلاع اللعاب ، وراح الشيوخ يتحدثون عـن عدم حضور منصور ويضحكون ، وترتفـع أصـواتهم ثـم تنخفض ، ويشيرون إلى أبيه الذى يفتح عينيه ويتكلم بصوت لا يسمعه أحد ، ثم يعود يغالب النعاس ، وتملمـل الأميـر ،

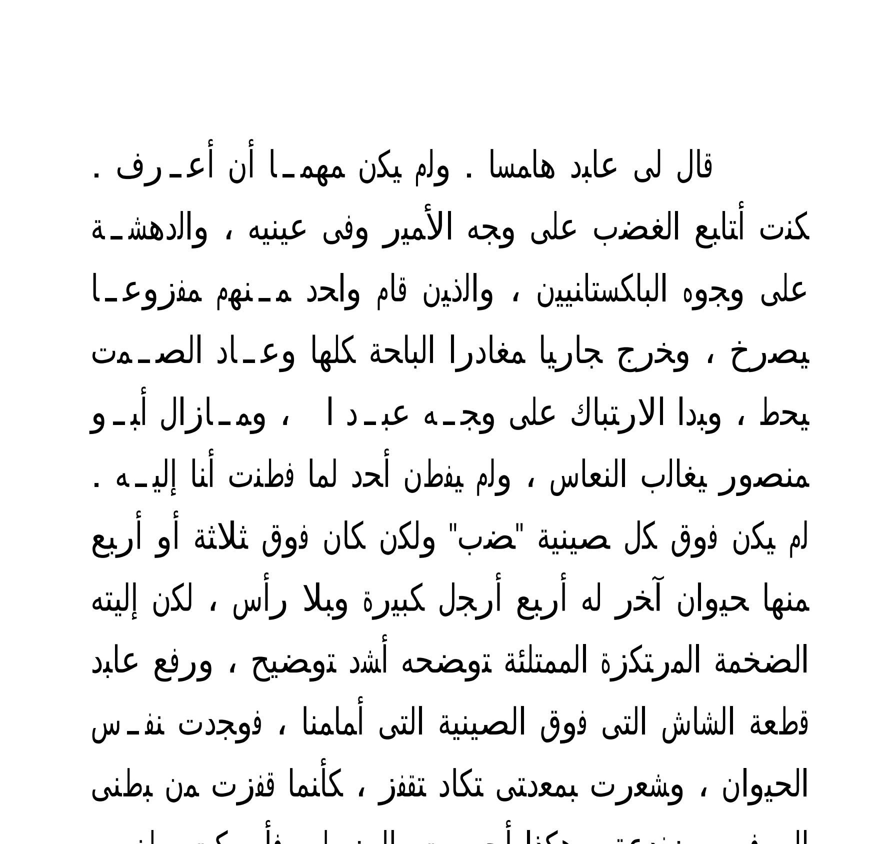
لكننى أدركت من الحوار الذى تبادله معه عم عبد ا ، ومن ضحكهما الهامس ، أنهما لن ينتظرا حضور منصور .

رحت أعد الصوانى فاكتملت عشرين ووقف اليمنيان حائرين بعد أن عاد الباكستانيون الثلاثة إلى أماكنهم ، لكـن نبيلاً أشار إليهما أن يقفا عند البوفيه فامتثلا ، وحـط علـى الدنيا صمت . ينتظر الجميع الآن أن يبدأ الأمير ، وأنا أنتظر أن يقع فوق رأسى حجر من السماء ، وأكاد أنكمش وأتلاشى ، وتمنيت بحق أن أرى منصورا .

رفع الأمير قطعة الشاش ، فامتدت الأيـدى ترفـع الشاش فوق الصوانى التى أمامها ، وامتلأ الفضاء بالأصوات الغاضبة . ضباب . ضباب . إيش سـوى هـذا المعتـوه ؟ ضباب يا أبا محمد . ضباب يا منصور . ضباب يـا عبـد ا ... ؟!

لم تكن فوق الصوانى خراف . حيوان غريب قصير مثل تمساح صغير له ذيل كثير الفقرات .

ـ هذا ضب .



قال لى عابد هامسا . ولم يكن مهمـا أن أعـرف .
كنت أتابع الغضب على وجه الأمير وفى عينيه ، والدهشـة
على وجوه الباكستانيين ، والذين قام واحد مـنهم مفزوعـا
يصرخ ، وخرج جاريا مغادرا الباحة كلها وعـاد الصـمت
يحط ، وبدا الارتباك على وجـه عبـد ا ، ومـازال أبـو
منصور يغالب النعاس ، ولم يفطن أحد لما فطنت أنا إليـه .
لم يكن فوق كل صينية "ضب" ولكن كان فوق ثلاثة أو أربع
منها حيوان آخر له أربع أرجل كبيرة وبلا رأس ، لكن إليته
الضخمة المرتكزة الممتلئة توضحه أشد توضيح ، ورفع عابد
قطعة الشاش التى فوق الصينية التى أمامنا ، فوجدت نفـس
الحيوان ، وشعرت بمعدتى تكاد تقفز ، كأنما قفزت من بطنى
إلى فمى ضفدعة ، هكذا أحسست بالضبط ، فأمسكت بطنـى
بيدى ، ونهضت جاريا إلى دورة المياه . لكننى لم أنجح فى
أن أمنع نفسى عن التقيؤ قبل بابها ، ولحق بى نبيل بسرعة ،
وأخذنى من إبطى من الخلف ، ومشى بى إلى البوفيه أكـاد
أسقط مغشيا على ، وسمعت صراخًا وهرجا ، ووقف نبيـل
بالباب يرى ما يحدث .. ا . ا . ما هذا ؟ ووقفت متحاملاً
جواره فرأيت شخصا لم تسبق لى رؤيته ، يطـارد بالباحـة

اليمنيين ، ويشبع كل من تصل إليه يده منهما ضـربا حتـى
استطاعا الهروب من باب الباحة ، فوقف هو يرفع غترتـه
التى انزلقت إلى الأرض ، ويتقدم نحو الأمير الذى قام فـى
غضب ومضى بسرعة خارجا لا يتوقف له ، وهو يحـاول
الاقتراب منه ، ولم يفلح إلا عند باب الباحة فى تقبيل رأسـه
وأنفه وكتفيه ، وملأ الشيوخ الباحـة بـالحوار والصـيحات
والضحكات أيضا . وصرخ عبـد ا   فـى الباكسـتانيين أن
يحملوا الأكل ويلقوا به فى الخارج ، ورأيت أبـا منصـور
يمشى منحنيا ولا يكف عن هز رأسه .

*****

(٢٩)

أدهشنى ظهور اليمنى العجوز من جديد . اليوم جاء مبكرا فى حوالى التاسعة . ظهر جالسا فى مكانه والسـواك فى فمه ولا يكف عن النظر إلى ولا عن الابتسام .

يزداد ابتساما اليمنى العجوز منذ ظهوره . لابد أنـه عرف حكاية منصور كلها . مسكين منصور ، فى اللحظـة الأخيرة عرف أخوه الأكبر بأمر الوليمة . قيل أن أمه أخبرته وهو يدخل البيت عائدا من الدكان ، أن منصورا ذبح القرود التى اشتراها من السودان ، وأنه استجاب يمنيين ليطهوا لـه هذا كله ، لكن اليمنيين كانا قد حملا كل شىء فـى السـيارة ومضيا . ولحق الأخ الأكبر بمنصور ، وهو يركب سـيارته الكابريس فمنعه من الحضور . هاجمه وضربه .

وضربه منصور أيضا ، لكن الأخ الأكبر نجح فـى النهاية فى ربط منصور إلى نخلة كبيـرة بباحـة البيـت ، وأسرع يحضر إلى الشركة . إنه هو الذى رأيتـه يضـرب

اليمنيين بجنون ، ويحاول بعد ذلك استرضاء الأميـر . فـى البداية لم أصدق القصة ، لكن خبر نقل منصور إلى مصحة الأمراض العقلية بالطائف أكدها لى عابد ، هو الذى أخبرنا ، ثم تحدث فيها الباكستانيون الذين عرفوا ذلك مـن زملائهـم بالشركات الأخرى . عرفت تبوك كلها القصة والنهاية ، فلم يعد هناك شك فى الخبر لقد ذهب منصور إلى الكويت للمرة الثانية فوجد وداد تزوجت قريبها . لم يساعدها منصور فـى أى شىء ، وكل ما قاله لى خيال اصطنعه هو وصدقه . عاد منصور من الكويت يلعن النفط واليوم الـذى تفجـرت بـه الأرض . من قبل كان الناس يـأكلون سـباع الصـحراء ، والضب حيوان لذيذ اللحم شهير أكله فى الباديـة . لابـد أن منصورا الذى لم يحضر الوليمة أعد القرود لنا نحن الغرباء ، ولم يكن ليوافق أن توضع الصوانى التى تحملهـا كيفمـا اتفق .



ـ لماذا لا تضحك هذه الأيام ؟

سألنى نبيل الذى سيسافر بعد غد إلى القاهرة . لـم أشأ أسأله لماذا عاد اليمنى للظهور ولماذا يحضر اليوم مبكرا

ولم أشأ أخبره أننى أشعر وكأننى ـ مسـئول عمـا حـدث لمنصور . ثم ماذا يفيد أن أحدثه عن وحدتى وتفكيرى كـل يوم فى أنه لا أحد حولى أتحدث معه . مضى أسبوعان الآن من الشهر الذى حدده لى صالح لأترك البيت . ولـم أسـع للبحث عن مسكن آخر . دائما أنسى ودائمـا لا أتحمـس إذا تذكرت .

قلت :

ـ اجلس معى قليلاً .

جلس وقد عاد الإشراق القديم إلى وجهه . نظر إلى طويلاً ثم أغمض عينيه وقال :

ـ لا أعرف لماذا أتذكر هذه الأيام قول أمى لى دائما أن فى شيئًا . من زمان وهى تقول لـى ذلـك . دائمـا تذكرنى بخالى الذى كان يأخذ منى فلوس الإذاعة ويعطينـى الشيكولاتة وكيف غرق فى النيل ، وكان يعـد مـن أشـهر السباحين فى إمبابة ، والمدرس الذى كـان يضـربنى فـى المدرسة الابتدائية حتى كرهت المدارس كيف سقطت فـوق رأسه "قلة" من إحدى البلكونات فمات فى الحال ، والضـابط

الذى أخذنى من المقهى إلى القسم مع غيرى مـن الصـبيان وتسبب فى قضائى سنتين فى إصلاحية الأحداث كيف سقطت به بلكونة فى مديرية أمن الجيزة فمات رغـم أنهـا بلكونـة الدور الأول . وخطيبتى التى تركتنى من أجل سائق تاكسى ، تقول أمى إنه سيطلقها ، لأنه اعتبرها شؤما عليه إذ دهسـت سيارة جيش كبيرة التاكسى الذى يملكه وسوته بالأرض ليلاً رغم أنه ركنه تحت شباك بيته . لماذا أفكر فى ذلك كثيـرا هذه الأيام ؟

ولم أجد إجابة . كنت محتاجا إلى حديثه الحلو يفرج همى ففاجأنى بألغازه . سألته :

ـ هل اقتنعت أخيرا بزواج خطيبتـك مـن سـائق التاكسى ؟

ـ لا أظن أن أمى تكذب طوال الوقت .

ـ لماذا تصر على السفر إذن ...؟

ـ لا أعرف .

أجاب وعاد إلى الصمت قليلاً ثم قال :

ـ هل تظن أن فى شيئًا حقًا ؟ هل أنا طيب إلـى هذه الدرجة ولا أدرى ؟ هل يحبنى ا إلى هذا الحد .....؟

ـ لا أظن أن ا يكرهك يا نبيل .

هز رأسه وابتسم وقال :

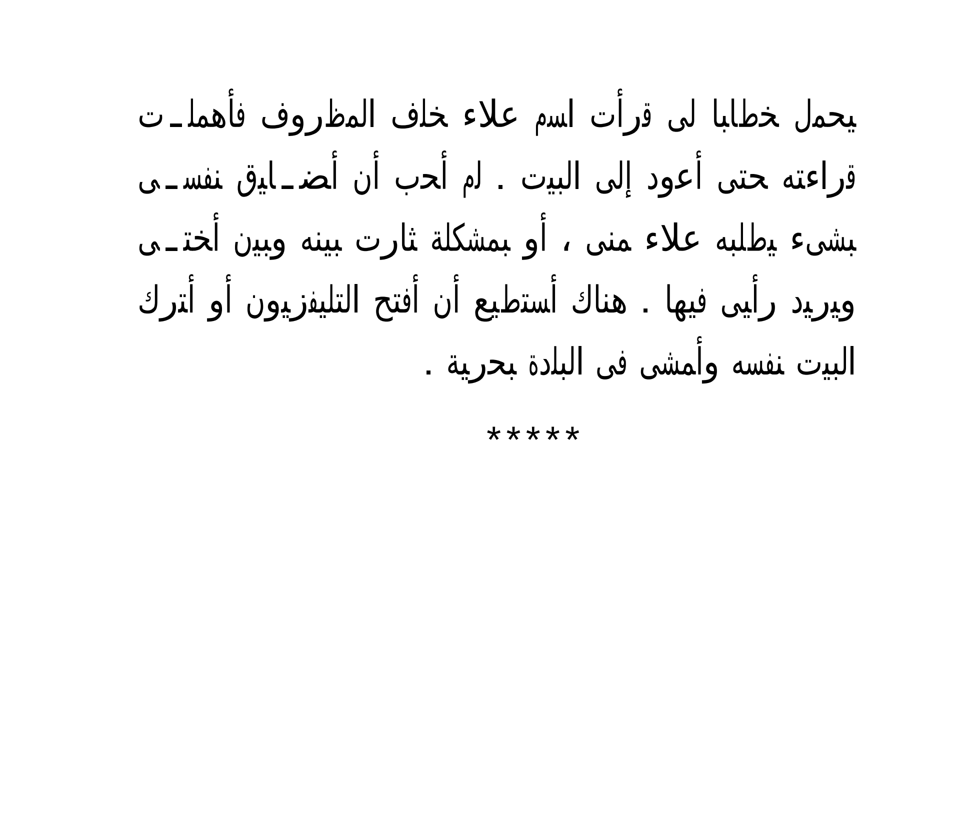
ـ ليت خالى أعطانى الفلوس ولـم يمـت ، وليـت المدرس تركنى فتعلمت ولم يمت ، وليت الضابط لم يدفع بى إلى إصلاحية الأحداث وعاش وليت خطيبتى لم تهجرنى .

وأجهش يبكى فجأة ثم قام وتركنى .

*****

جلست وحدى بقية اليوم . انهمكت فى ترجمة تقارير لا أعرف أحدا ممن يكتبونها من الفنيين الأمريكـان ، عـن مواقع عمل لم أزرها رغم كل هذا الوقت ، ولا أستطيع بين حين وآخر أن أمنع نفسى عن النظر ناحية اليمنى ، فأجـده ينظر إلى ولا يكف عن الابتسام .

من قبل ، حين كنت أنظر إليه كان يحس بنظراتـى فيبادلنى النظر ويبتسم . اليوم والأيام القليلة السابقة منذ وليمة منصور ، لا يبعد عينيه عنى . وحين عاد عابد مـن البلـد



يحمل خطابا لى قرأت اسم علاء خلف المظروف فأهملـت قراءته حتى أعود إلى البيت . لم أحب أن أضـايق نفسـى بشىء يطلبه علاء منى ، أو بمشكلة ثارت بينه وبين أختـى ويريد رأيى فيها . هناك أستطيع أن أفتح التليفزيون أو أترك البيت نفسه وأمشى فى البلدة بحرية .

*****

(٣٠)

" لم أحب أن ألقاك يوما فتلومني . لقد أثـر الجميـع إخفاء الخبر عنك حتى لا ترتبك فى عملـك . لكنـى أدرك شجاعتك وقدرتك على تحمل الصـعاب . لـذلك شـئت أن أخبرك رغم ما فى ذلك من ألم . ألم لك لأنها والدتك الحبيبة ، وألم لى لأننى خالفت ما أجمعت أسرتك عليه . لقد توفيت الوالدة منذ أسابيع وقمنا بدفنها وعمل ما يليق لها من جنازة ، وأرجو من ا   أن يقوى عزيمتك ، وأن تكون كمـا قـدرت تماما الإنسان القوى الذى يدرك حكمة ا   ، وأن تستمر فـى عملك واثقًا أننا هنا ، أنا والأسرة ، نرعى أخوتك كأخوة لنا . "

ولم أنم الليل أمس ولا أحسب أنى سأنام الليلة أيضا .
لم أستطع العودة إلى العمل لأخبر أحدا ، ولم أستطع البقـاء فى البيت إلا بعد أن درت فى البلدة قاطعا كـل شـوارعها وكأننى وحدى أمشى بين أطلال لا صوت فيها لأحد .

ـ أتى الصباح على وأنا أدق رأسى إذ كيف ضاعت منى صورة وجه أمى إلى الحد الذى لم أنجح ولو مرة فـى استحضاره . هل يلحق الموت بالخيال أيضا ؟

أذهلنى الجمود الذى حط فجأة على فصـرت مثـل حجر . لقد درت فى البلدة غير واعٍ حقًا بما حـولى ، لكـن ذهنى لا يعمل ، مضى على الليل طويلاً ، شديد الطول حقًـا لكن ذهنى لا يعمل . هل كنت أتوقع هذه النهاية لأمـى ولا أدرى ؟ ويريدنى أن أكون كما قدر هو ، الإنسان القوى الذى يدرك حكمة ا وأن أستمر فى عملى . علاء الذى لا أعرف فى أى ركن كان قابعا وقفز منه ليستولى على حصاد شقائى يريدنى أن أستمر ، وهم أخوتى ، لعبة أبى المقيتة ، أخفـوا عنى الخبر كى أستمر فى عملى . لا يريدون تعطيلى عـن إعداد نفسى بما يجب وبما يسعى كل شـباب هـذا الزمـان لإعداد أنفسهم به ، المال الذى يتفوق على ما قذفتنا به مصر من شرور . لقد اشتقت كثيرا إلى فأر . فأر واحـد يخطـئ ويدخل البيت بعد هذا الانقطاع . لن أقتله . مشتاق إلى سماع صوت خربشاته وقفزاته وهو يمرح لاهيا واثقًا مـن بـراءة الدنيا حوله .

بالطبع لم يصدق عابد ولا نبيل الخبر ، لقد رأونـى أعمل هادئًا ، لكننى أظهرت الخطاب لعابد الذى ارتبك .

ـ هل ستسافر ؟

ـ غدا .

ـ لكن ..

ـ سيوافق عم عبد ا .. لن يرفض شيئًا كهذا .

قلت له حاسما . وبعد قليل جاء عم عبـد ا إلـى المكتب ، وقبل أن أذهب إليه جاء هو إلى . لقد أخبره عابـد صافحنى وقدم إلى عزاءه ، وسألنى ما إذا كنت محتاجا إلـى أى شىء فشكرته ، وأمر عابد أن يـذهب إلـى الجـوازات لاستخراج فيزة لمدة شهر ، وأن يشترى لى تذكرة فى عودته لأسافر غدا مع نبيل . لم يقل هو مع نبيل ، فكرت أنا بسرعة وهو يصدر لعابد أوامره . ولم يضايقنى ظهور اليمنى اليوم مبكرا أيضا ولا ابتسامته التى لا تختفى . فقط فـى طريـق عودتى اشتقت إلى الذهاب إلى المستشـفى ، لأرى عايـدة وأقول لها انقطع كل ما بينى وبـين النـاس فـى مصـر ، وأدركت أننى لن أجدها . تذكرت القصة كلها . والآن فـى

غرفتى . فى البيت الذى على أن أتركه نهائياً لصـالح ، أود لو آخذ سيارتى وأسرع إلى بيت واضحة أبكى فى صدرها . يا إلهى.. ! أتذكر الآن أننى وأنا أدور فى البلدة مساء أمـس صامتًا غير مدرك لما حولى ، رأيت دكانة أخيها خالد مغلقة لاتزال . وفكرت فجأة أنهما توأمان . تذكرت شـدة الشـبه بينهما . ثم تذكرت أن خالدا أكبر بكثير . وكما حدث أمـس اشتقت اليوم إلى فأر يخطئ ويدخل . وكما لم يحدث أمـس أشعلت التليفزيون ، لكن الإرسال كان قد انتهى مـن وقـت طويل حتى أننى أرى الصباح يجاهد للانعتاق من ظلام هذه الليلة الحارة الخانقة ، وكان على أن أظل أجاهد النوم الـذى بدأ يغتالنى الآن . لو نمت ما استيقظت إلى فى المساء ، ولا أحسب أن طرقات عابد الذى سيأتى ليحملنى إلـى المطـار ستوقظنى أبدا .

ـ أراك اليوم أفضل من الأمس .

قال عابد الذى جاء فى الثامنة صباحا ووجدنى فـى انتظاره ، لم أرد لا أظن أننى كذلك . وحملت حقيبة كبيـرة فحملها عنى وترك لى الصغيرة أحملها . بانت الدهشة علـى وجهه وأحسست به يكاد يسألنى كيف اشتريت ما فى الحقائب

رغم ما يبدو علىّ من حزن ، ولم أشأ أخبره بأنه ليس فـى الحقائب إلا كل متاعى الخاص الذى جئت به من القـاهرة ، وأشياء قليلة كنت أشتريها من قبل . لم يعد لى فـى البيـت شىء . حتى التلفزيون ، الذى تركه فاروق ثم تركه سعيد ، ثم تركه وجيه ، تركته أنا .

وقاد السيارة على مهل . ليس لأن الطائرة ستقلع فى العاشرة لكن لجلال الموقف . هكذا فكرت . كنت محتاجا إلى أن أرى البلدة مرة أخيرة بانتباه، ولم يكن ممكنًا طلب شـىء هكذا منه ، والمسافة من بيتى إلى طريق المطار قليلة لا تمر من وسط البلدة .

ـ لقد ذهبت نبنيل منذ قليل .

قال ولم أرد .

ـ نبيل سيسليك فى السفر .

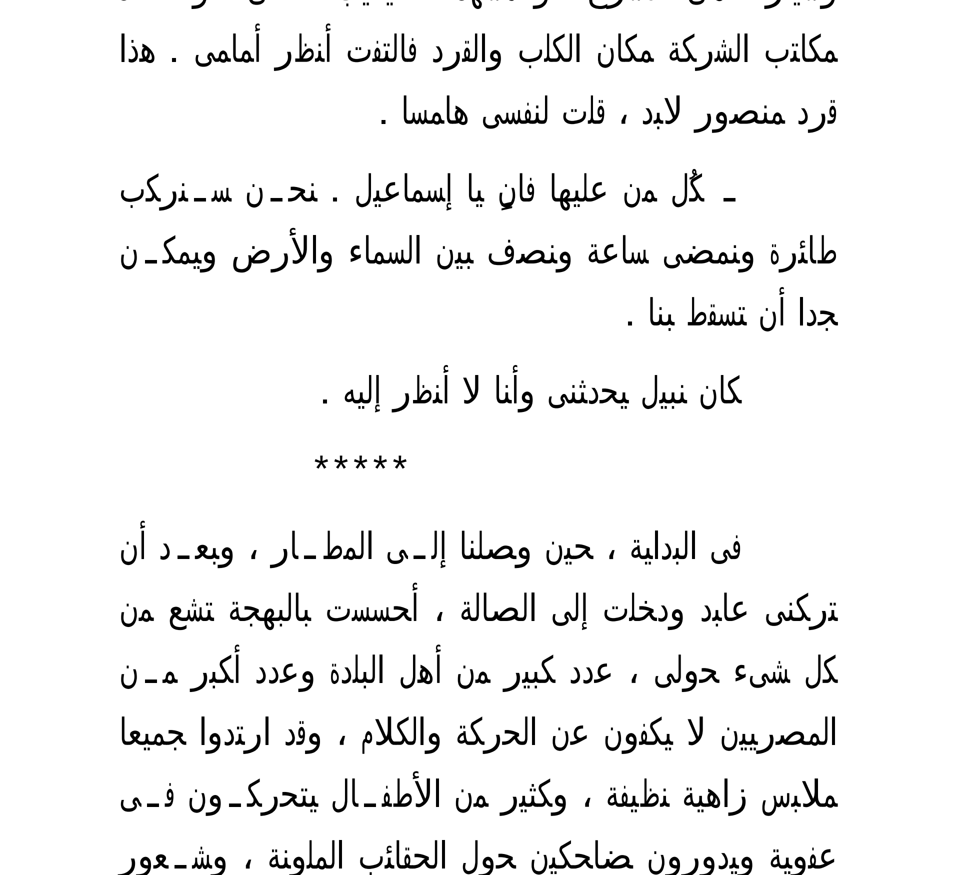
ولم أرد .

ـ أرجوك أن تعود لنا بسرعة . الموت معلق علـى رقاب العباد .

ولم أرد . وأحسست به خجلان إذ صمت ولم يـتكلم بعد ذلك ، وأنا فكرت فى هذه الروح المعاديـة تقفـز مـن جديد .

دخَلَتْ السيارة إلى طريـق المطـار ذى الأسـفلت الأسود اللامع الذى تنعكس فوقه أشـعة الشـمس متماوجـة تذكرنى بعدم استوائه . لقد صعدت الشمس اليوم بسرعة إلى السماء ، وتملكت الدنيا فى وقت مبكر ، ولـم يكـن حـول الطريق إلا رمال وكثبان .

هذا طريق أعرفه ، لكننى أراه اليـوم وكـأننى أراه لأول مرة ، ولا أستطيع أن أكف عن النظر إلـى النـاحيتين لأرى شيئًا حولى غير الكثبان . رأيت الكلب الأبيض الضخم مثل الحمار الشارد يجرى بسرعة وفوق ظهره شىء أسـود اتضحت صورته وأنا أفتح عينى على اتساعها . إنه قرد ذلك الذى يركب الكلب المسكين الذى لا يتوقـف عـن الجـرى بسرعة مذهلة ، لم ينتبه عابد إلى المشهد ، وكدت أهتف لـه أن ينظر إليه ، لكنى ابتلعت ريقى الذى أحسست به جافًـا ، والتفت ألوى عنقى لأنظر من الزجاج الخلفى ، فأرى الكلب لايزال يجرى والقرد لا يزال فوقه . لكن الطريق ينحنـى ،



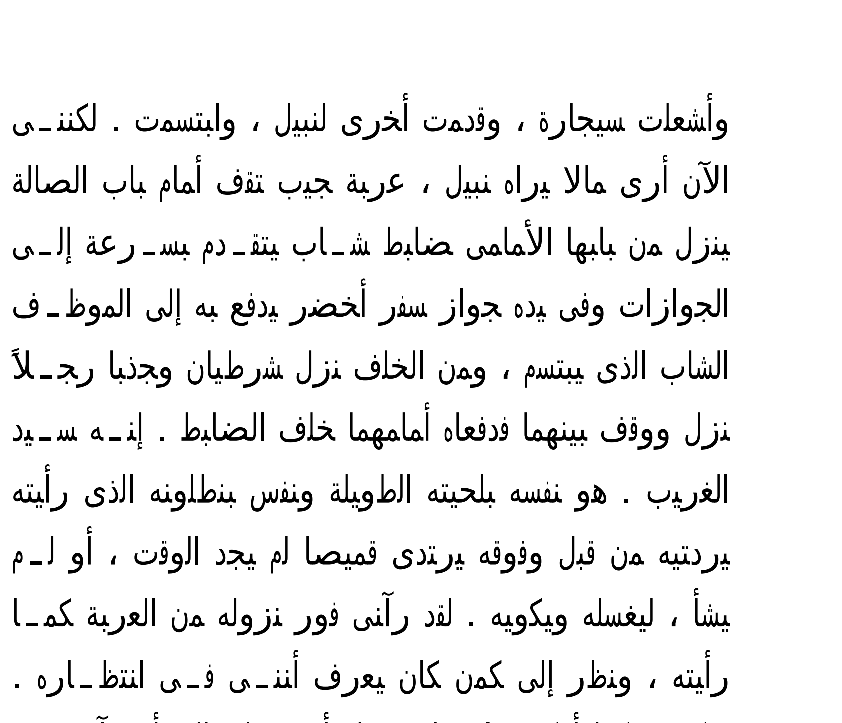
وسيارتنا هى الأسرع . والمشهد كله يغيب عنـى ، وتأخـذ مكاتب الشركة مكان الكلب والقرد فالتفت أنظر أمامى . هذا قرد منصور لابد ، قلت لنفسى هامسا .

ـ كُل من عليها فانٍ يا إسماعيل . نحـن سـنركب طائرة ونمضى ساعة ونصف بين السماء والأرض ويمكـن جدا أن تسقط بنا .

كان نبيل يحدثنى وأنا لا أنظر إليه .

*****

فى البداية ، حين وصلنا إلـى المطـار ، وبعـد أن تركنى عابد ودخلت إلى الصالة ، أحسست بالبهجة تشع من كل شىء حولى ، عدد كبير من أهل البلدة وعدد أكبر مـن المصريين لا يكفون عن الحركة والكلام ، وقد ارتدوا جميعا ملابس زاهية نظيفة ، وكثير من الأطفـال يتحركـون فـى عفوية ويدورون ضاحكين حول الحقائب الملونة ، وشـعور طيب يبعثه مكيف الهواء ، ووجوه الشباب الصـغار خلـف الميزان ومكتب الجوازات نضرة هادئة . وشملنى حقًا شعور بالراحة والرضا ، وبدا أننى نسـيت تمامـا مـوت أمـى ،



وأشعلت سيجارة ، وقدمت أخرى لنبيل ، وابتسمت . لكننـى الآن أرى مالا يراه نبيل ، عربة جيب تقف أمام باب الصالة ينزل من بابها الأمامى ضابط شـاب يتقـدم بسـرعة إلـى الجوازات وفى يده جواز سفر أخضر يدفع به إلى الموظـف الشاب الذى يبتسم ، ومن الخلف نزل شرطيان وجذبا رجـلاً نزل ووقف بينهما فدفعاه أمامهما خلف الضابط . إنـه سـيد الغريب . هو نفسه بلحيته الطويلة ونفس بنطلونه الذى رأيته يرتديه من قبل وفوقه يرتدى قميصا لم يجد الوقت ، أو لـم يشأ ، ليغسله ويكويه . لقد رآنى فور نزوله من العربة كمـا رأيته ، ونظر إلى كمن كان يعرف أننـى فـى انتظـاره . يذكرنى كما أذكره بلا شك . ولم أره ينظر إلى أحد آخـر ، أدخلوه من باب إلى غرفة ولم نره بعد ذلك . لكن المسافرين جميعا أدركوا المسألة الآن . وبدأ المصريون يتحدثون فـى هدوء ، لم يكن صعبا أن يدرك نبيل ما يحـدث ، فبعـد أن حدثنى نظر إلى حيث أنظر وقال :

ـ مقبوض عليه ويرحل . يا ساتر يا رب !

ورأيت وجهه يمتقع ويشحب ، وابتعد عنـى ، وراح يدور بعصبية بين المسافرين لوقت ليس بالقصير .

أدركت أن سيد الغريب سيصعد إلى الطـائرة قبلنـا جميعا ، فلا متاع معه ليزنه ، وإجراءات سفره لابد أن تـتم الآن ، وأن الشرطيين سيصحبانه حتى يجلس بالطائرة ، وأنا لن نرى شيئًا من ذلك ، سنجده جالسا فى الطائرة حين نصعد إليها .

بدا فى حديث المصريين الهامس أنهم يعرفون قصته ، لكن الدهشة كانت ترشح على كثير من الوجوه ، ورأيـت الخوف أيضا على وجوه كثيـر مـن النسـاء اللاتـى أرى وجوههن مكشوفة الآن . نحن فى المطار .

رأيت نبيلاً يتحدث مع المصريين ، فأدركـت أنـه يتقصى قصة سيد الغريب .

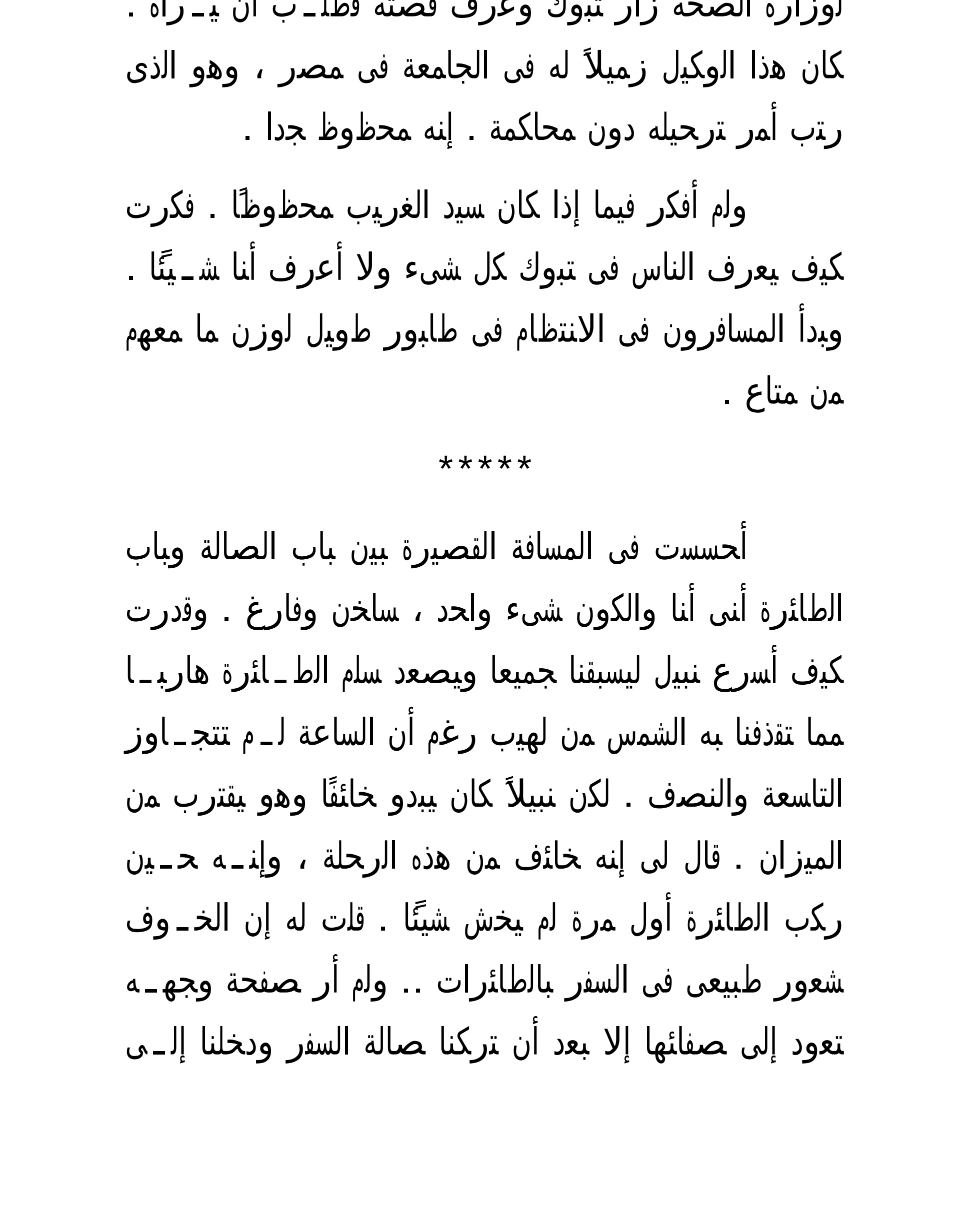
لماذا لم يحاول أن يسألنى حقًا...... ؟

ـ يقولون إنه طبيب ..

وقاطعته قائلاً :

ـ أعرف القصة كلها .

لكنه قال :



ـ لقد أطلقوا سراحه اليوم ، يقولون أن وكيلاً جديدا لوزارة الصحة زار تبوك وعرف قصته فطلب أن يراه . كان هذا الوكيل زميلاً له فى الجامعة فى مصر ، وهو الذى رتب أمر ترحيله دون محاكمة . إنه محظوظ جدا .

ولم أفكر فيما إذا كان سيد الغريب محظوظًا . فكرت كيف يعرف الناس فى تبوك كل شىء ولا أعرف أنا شيئًا . وبدأ المسافرون فى الانتظام فى طابور طويل لوزن ما معهم من متاع .

*****

أحسست فى المسافة القصيرة بين باب الصالة وباب الطائرة أنى أنا والكون شىء واحد ، ساخن وفارغ . وقدرت كيف أسرع نبيل ليسبقنا جميعا ويصعد سلم الطائرة هاربا مما تقذفنا به الشمس من لهيب رغم أن الساعة لم تتجاوز التاسعة والنصف . لكن نبيلاً كان يبدو خائفًا وهو يقترب من الميزان . قال لى إنه خائف من هذه الرحلة ، وإنه حين ركب الطائرة أول مرة لم يخش شيئًا . قلت له إن الخوف شعور طبيعى فى السفر بالطائرات .. ولم أر صفحة وجهه تعود إلى صفائها إلا بعد أن تركنا صالة السفر ودخلنا إلى

أرض المطار . لقد سبقنا جميعا . وتأخرت أنا الذى مشـيت على مهل أنظر ناحية اليمين فأرى طائرة هليوكبتر صـغيرة صفراء على جانبها صورة العلم الأمريكى وتحتـه قـرأت (القوات الجوية للولايات المتحدة الأمريكية) وأنظر يسـارى فأرى طائرة هليوكبتر أخرى .

جلست صامتًا بجوار نبيل الصامت . رأيـت سـيد الغريب يجلس فى المقعد الأول خلف كابينة القيادة ، بعيـدا عنا جميعا فى الدرجة الأولى التى لا يشغلها أحد . لابد أنهم اختاروا له هذا المكان حتى لا يكلمه أحد . توقعت أن يعلـق نبيل على هذا الكرم فى الترحيل ، لكن نبيلاً كان لا ينظـر إلى . شَخَص بعينيه إلى لا شىء وراح يقرأ "الفاتحة" أكثـر من مرة بصوت أسمعه بوضوح رغـم صـوت محركـات الطائرة .

ربطنا الأحزمة ، وامتنعنا عن التـدخين ، وطافـت علينا إحدى المضيفات بعلبة البونبونى ، وتحركت الطـائرة مرتفعة عن الأرض ، فرأيته يغمض عينيه ، وسمعته يقول : "الحمد " ، واستوت الطائرة فى الفضاء ، فـراح الركـاب يفكون أحزمتهم ، وتنهد نبيل وقال :

ـ الآن ليحدث ما يحدث :

ربتُ على ساقه أشجعه فقال :

ـ أنا لن أعود مرة أخرى :

نظرت إليه فى دهشة . قال :

ـ هذا قرارى ولا رجعة فيه . كل فتـاة سـأخطبها ستتركنى وتتزوج . لابد أن أظل فى مصر لأحافظ على مـا أملك .

وسكت لحظة وقال :

ـ أنت أيضا يجب أن لا تعود .

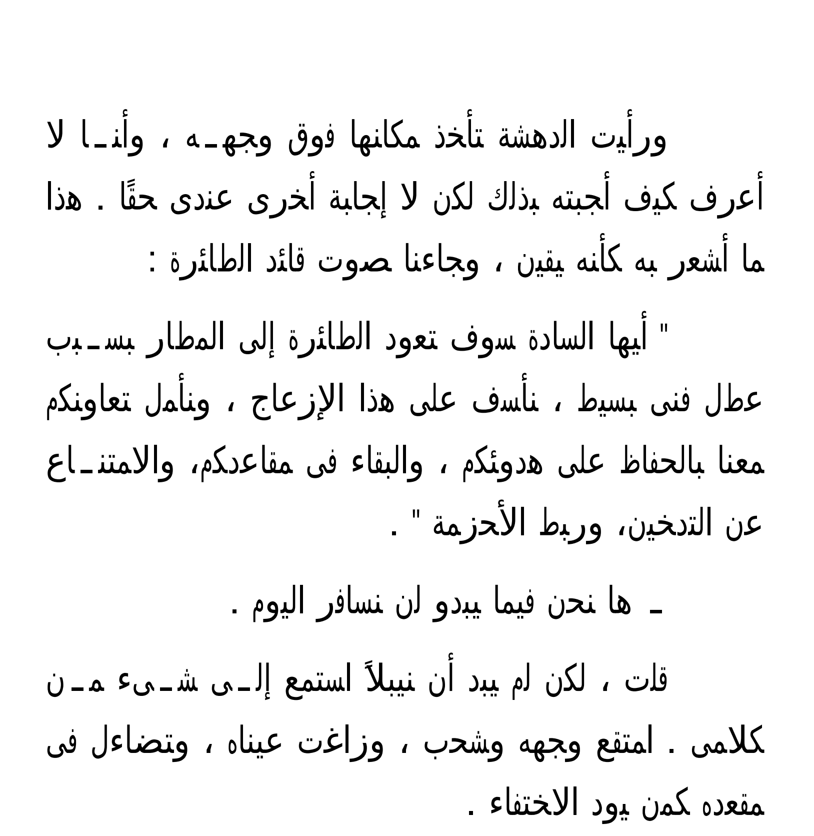
تأملته وقلت :

ـ أنا بالفعل لن أعود يا نبيل .

ـ ستبقى فى مصر ......؟

سألنى وقد اتسعت عيناه ببهجة مفاجئة . قلت :

ـ لا .



ورأيت الدهشة تأخذ مكانها فوق وجهـه ، وأنـا لا أعرف كيف أجبته بذلك لكن لا إجابة أخرى عندى حقًا . هذا ما أشعر به كأنه يقين ، وجاءنا صوت قائد الطائرة :

" أيها السادة سوف تعود الطائرة إلى المطار بسـبب عطل فنى بسيط ، نأسف على هذا الإزعاج ، ونأمل تعاونكم معنا بالحفاظ على هدوئكم ، والبقاء فى مقاعدكم، والامتنـاع عن التدخين، وربط الأحزمة " .

ـ ها نحن فيما يبدو لن نسافر اليوم .

قلت ، لكن لم يبد أن نبيلاً استمع إلـى شـىء مـن كلامى . امتقع وجهه وشحب ، وزاغت عيناه ، وتضاءل فى مقعده كمن يود الاختفاء .

ـ نبيل ! ماذا حدث ......؟

كان ينظر إلى فى رعب .. رعب لم أعرف من قبل أنه يمكن أن يصيب البشر . ولم نكن قد ارتفعنا كثيرا ، لقـد أحسست بالطائرة تهبط ، ولم أجـد وقتًـا لأنـادى إحـدى المضيفات إذ انشغلت بربط حزامى حولى ، ثم رحت أربـط حزام نبيل حوله ، وهو ذاهل عنى لا يكاد يحس بى .

ارتطمت عجلات الطائرة بالأرض بقوة أفزعتنـا ، فارتفعت صيحات الركاب ، وكاد قلبى ينخلع وأنا أرى نبيلاً يتضاءل أكثر ، وسمعت صوت صفير المحـرك العـالى ، وصوت احتكاك العجلات القوى بالأرض ، وسمعت بالكـاد صوت نبيل وهو يقول :

ـ لا يوجد عطل فنى يا أستاذ إسماعيل .

ـ ....

وفى اللحظة التى توقفت فيها الطائرة ، رأيـت مـن خلاف زجاج النافذة الصغيرة عددا من الجنود يقبـل نحوهـا بسرعة .

ـ لا يوجد عطل فنى يا أسـتاذ إسـماعيل ، ليتـك تنهض من جوارى الآن . لقد سرقْتُ الخازنة . عرفت رقمها أخيرا ، وأخذت منها خمسين ألف ريال خبأتها فى العفش .

بسرعة انفتح باب الطـائرة .. وبسـرعة وجـدت جوارى وأمامى ثلاثة من الجنود ينقضون على نبيل يجذبونه بقوة وأنا عاجز حتى عن الكلام ، والركاب جميعا ينظـرون إلى ما يحدث فى هلـع ، والمضـيفات المصـريات وقفـن

مشدوهات منكمشات جوار بعضهن يكدن يتلاشين والفـزع على وجوههن ، ولم أر وجه سيد الغريب ، ظل جالسا فـى مكانه لا يتحرك ولا يهتم بأن يعرف ما يدور بالطائرة .

*****

من النافذة الصغيرة أيضا رأيت عم عبد ا وعابـدا ومعهما الضابط الكبير أبو حكيم وحولهم عدد من الجنـود ، والجنود الثلاثة يدفعون نبيلاً ناحيتهم ، ولا يكفون عن ضربه على قفاه ومؤخرة رأسه بأيديهم ، وركله فى ظهره بأرجلهم ، ورأيت عابدا يتقدم بسرعة نحو نبيل يقابله بركلة شديدة فى بطنه ، فينحنى نبيل ، ولا يكف الجنود عـن ضـربه علـى ظهره وقفاه ورأسه ، وعابد يعود إلى الخلف خطوة ثم يهجم ضاربا بكل قوته ، مرة بيده ، ومرة بقدمه ، حتى سقط نبيل فوق الأرض على ظهره ورأيت الدم يغطى وجهه ، لكـنهم انحنوا يمسكون بقدميه يجرونه جرا ، يسحلونه ، على أرض المطار ، ويدورون من خلف الطائرة لم يعد ممكنًا لى رؤيته ، لكن الجالسين فى الجانب الآخر ، الذى كانوا قـد انـدفعوا إلى جانبنًا يحاولون الرؤية معنا ، أسرعوا بالعودة إلى جانبهم

، ووقفوا متزاحمين ينظرون من النوافـذ الصـغيرة . ولـم أحاول معاودة النظر .

*****

حضرات الركاب .. نعتذر لكم عما حدث منذ قليل ، ونوجه عنايتكم إلى أننا سنقلع على الفور . رجاء الجلـوس فى مقاعدكم والتزام الهدوء ، وربط الأحزمة والامتناع عـن التدخين . نتمنى لكم رحلة طيبة ووقتًا سعيدا على طـائرات الخطوط الجوية السعودية .. شكرا .

ورأيت المضيفات يتحركن بسرعة ، وراحت واحدة منهن تدور علينا بعلبة البونبونى مرة أخرى ، وكـان قائـد الطائرة يعيد ما قاله منذ قليل ولكن باللغة الإنجليزية .

القاهرة

١٩٨٦ – ١٩٨٨